توفيق معمّر المحامي

ظاهر العمر

كتاب

يتناول تاريخ الجليل خاصّة والبلاد السّوريّة عامّة

مِن سنة ١٦٩٨ حتى سنة ١٧٧٧

طبعة ثالثة ١٩٩٦

اصدار: المعهد العالي للفنون وبيت الكاتب - الناصرة
بيت المرحوم توفيق مُعمّر

الشيخ ظاهر العمر الزيداني
١٦٨٩-١٧٧٥م ١١٠١-١١٨٦هـ

مطبعة فينوس - الناصرة - ت: ٠٦/٥٦١٢٢٢



بريشة زياد ابو السعود الظاهر

Tewfik Muammar Adv. & Notary
Nazareth - Israel

DAHER EL-OMAR

History of Galilee in Particular & Syria in General
From 1698 to 1777

Third Edition - 1996

مقدمة الطبعة الثالثة

عزيزي القارئ ،

أضع بين يديك الطبعة الثالثة من كتاب ظاهر العمر ، الذي كتبه المحامي المرحوم توفيق معمر سنة ١٩٧٩ .

يتناول الكتاب تاريخ الشام وبر الشام عامة ، والجليل خاصة ، من سنة ١٦٩٨ وحتى سنة ١٧٧٧ م .

لقد توّج المرحوم توفيق معمر المحامي عطاءه المعنوي في مؤلفاته بعطاء مادي ، وقدم بنايته الخاصة للطائفة الارثوذكسية كهبة لاستغلالها كمؤسسة ثقافية وتربوية .

ان هذا العطاء ان دل على شيء ، فهو يدل على التقدير الكبير لدور الكلمة ولدور هذه المؤسسة التي ألت على نفسها ، ومنذ عشرات السنين بخدمة سكان الناصرة بشكل خاص ، والوسط العربي بشكل عام ، وذلك بفتح أبواب مؤسساتها اجتماعياً وقومياً بشكل يسمح لجميع من يطرق أبوابها ، الاستفادة مما تقدمه تلك المؤسسات من نشاطات وخدمات عديدة وكثيرة .

توفيق معمر الكاتب ، كان رمزاً من الرموز الوطنية لشعبنا العربي الفلسطيني في هذه الديار ، بالاضافة الى كونه رجلاً وطنياً ، أحب شعبه وواكب المحن والمآسي التي ألمت بهذا الشعب ، أخذ يكتب ويؤلف وينشر ما في داخله من أحاسيس وشعور لكي تظهر في "المتسلل" و "حيفا في المعركة" و "بتهون" ..... الخ .

كان واضح الفكر مبلوره ، وكان دائماً يرى نقطة الضوء في آخر النفق المظلم .

أما توفيق معمر موسيقياً ، فقلما نجد من يعرف ذلك . لقد كان حقاً أحد أشهر عازفي البيانو في الجليل ، يشهد على هذا عدد من أصدقائه الذين ما زالوا يؤمون بيته الذي أصبح اليوم المعهد العالي للفنون وبيت الكاتب .

لقد ارتأت ادارة المعهد العالي للفنون وبيت الكاتب أن عليها واجباً أدبياً



مطبعة فينوس
الناصرة – مركز الجليل التجاري
المكتب 562222 - 06/559559 المطبعة 561222 - 06/552440
فاكس 06/552288

وأخلاقياً ووطنياً ، أن تضع بين أيدي القراء ، خصوصاً جيل الشباب ، هذا الكتاب .

لقد مرت ستة أعوام على صدور الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، والتي سرعان ما نفذت نتيجة للاقبال الشديد عليه ، والاهتمام الفائق لاقتنائها وقتئذ ، وتلبية للطلب الملح والمتنامي من بعض المؤسسات الثقافية والجمهور بشكل عام على هذا الكتاب ، نرى ان هناك ضرورة ماسة لاصدار هذه الطبعة ، علنا نؤدي خدمة مضاعفة ، أولاً وقبل كل شيء تجاه الرجل تقديراً وعرفاناً ، وثانياً لخدمة أجيالنا الشابة .

لقد أفنى توفيق معمر عمره في الدراسة والتمحيص والتدقيق بظاهرة "ظاهر العمر" الذي عمل على توحيد "القبائل العربية" ... ولم يكسب معمر من الكتابة والبحث مليماً واحداً ... كان "مجنون الفكرة" وكان شأنه شأن جميع حملة القلم المخلصين وما أحوجنا الى أمثاله ، في هذا المجتمع وفي هذا العالم الذي نعيش فيه .

والله والوطن والشعب من وراء القصد .

تموز ١٩٩٦

كـريـم شـداد

مدير المعهد العالي للفنون

وبيت الكاتب – الناصرة

المقدمـــة

يتناول هذا الكتاب حياة زعيم عربي فذ انجبته سوريا في القرن الثامن عشر ، ولمع في سمائها زاهرا نيرا تاركا سمته على بلاد نلتقي بآثارها في الكثير من المدن والقرى التي نطوف فيها ، ويشتمل هذا الكتاب على ناحية من تاريخ البلاد السورية عامة وبلاد صفد والجليل خاصة من سنة ١٦٩٨الى سنة ١٧٧٧ وهي ما يعرف بعهد الزيادنة نسبة الى بني زيدان ، او عهد الضواهرة نسبة الى ظاهر العمر ، في الجليل، وهي الحقبة من الزمن التي تولى فيها الشيخ ظاهر العمر الزيداني ، وابوه عمر من قبله ، شؤون البلاد الصفدية وبسط نفوذه عليها . يبدأ هذا العهد بالشيخ عمر بن صالح والد ظاهر وينتهي بعلي بن ظاهر العمر ، ودام ثمانين سنة .

ويتناول الكتاب ايضا في البحث عرضا لاعمال احمد الجزار في مستهل عهده بالحكم في عكا وصيدا ، كما يتناول ايضا ناحية من تاريخ البلاد المصرية من سنة ١٧٦٨ الى سنة ١٧٧٥ وهي الحقبة التي تميزت باشتداد شوكة علي بك الكبير حاكم مصر وما كان من تحالفه مع ظاهر العمر لتحرير البلاد العربية من ايدي العثمانيين الحاكمين ، ثم موت علي بك سنة ١٧٧٣ وقيام محمد بك ابي الذهب مكانه الى ان توفي هذا الاخير على ابواب عكا في حزيران سنة ١٧٧٥ .

ويتخلل هذه المواضيع بحث في الاتجاهات السياسية في القرن الثامن عشر والحركات التحررية العربية التي رافقتها مع شرح موجز لنظام الاقطاع في البلاد السورية واساليب الدولة العثمانية في الحكم خصوصا ما يتعلق باقرار الامن وجباية الضرائب واثر ذلك في حياة العرب . وفي الكتاب مادة تاريخية جديدة جمعتها بنفسي وشعر ينشر لاول مرة ، يعكس روح ذلك الزمن ، وله قيمة تاريخية وادبية كبيرة .

ان هذه الحقبة التي يتناولها الكتاب في البحث هي لعمري من اكثر الحقب غموضا في تاريخ العرب الحديث واشدها تعقيدا لمن يريد التعمق في دراستها وتمحيص اخبارها واستخراج صورة صحيحة وجلية عنها . غير ان هذه الحقبةعلى

غموضها حافلة بأروع حوادث البطولة والاعمال الوطنية الجليلة مما يعيــد الى الاذهان بطولات اجدادنا العرب القدماء .

كثيرون هم الذين وجهوا اليّ هذا السؤال : من هو ظاهر العمر ولماذا تكتب عنه الآن وفي هذا الوقت المشحون بالتوتر والاضطراب ، فالى هؤلاء اقول : عندما كنت طالبا في الجامعة الاميركية ببيروت طُلب مني لكوني من ابناء الجليل والناصرة بالذات ان اضع باشراف استاذيّ في علم التاريخ السيدين اسد رستم وقسطنطين زريق رسالة عن ظاهر العمر ضمن منهاج دراستي في تاريخ العرب الحديث يخولنـي الحصول على شهادة استاذ في العلوم ، بعد خروجي من الجامعة وانصـرافي الى دراسة الحقوق في القدس ظللت افكر في وضع هذه الرسالة وما فتئت هذه الفكرة تلازمني وتلح علي حتى بعد انصرافي الى العمل في حقل المحاماه ، وما كان ذلـك لغرض الحصول على شهادة جامعية في علم التاريخ بل لاحياء حقبة ميتة من تاريخ سوريا . وهكذا اقدمت على هذا العمل الشاق ، وان لم اكن مؤرخا محترفـا او كاتبا متمرسا ، ومما شجعني على ذلك في الآونة الاخيرة ملائمة هذا الوقت لكتابـة هذا الكتاب لما يستدعيه ذلك من استغراق وتأمل في اغوار الماضي وتحويل الذهن ولو وقتيا عن الحاضر المؤلم الذي نعيش فيـه .

كان المؤرخون العرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يعتبرون ظـاهر العمر متمردا وعاصيا وكانوا ينعتونه نفاقا وتزلفا للعثمانيين الحاكمين بالخارج عن « طاعة الدولة العلية صانها رب البرية » ، ولما كانت اقلام المؤرخين العرب فــي القرنين الماضيين مقيدة برغائب حكامهم لم يكن احد من العرب يجسر ان يكتـب لظاهر العمر تاريخا كاملا وان فعل أصبح في نظر الدولة العثمانية محرضـا علـى محاربتها ومجاهرا بالعداء لحكمها ، كانت ذكرى ظاهر العمر طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تثير في العثمانيين الخوف والفزع من ان يقوم في العرب رجـل كظاهر العمر . ان رجلا هذه صفاته لجدير بأن يكتب عنه لا كتاب واحـد بـل عشرات الكتـب .

ان اصدقائي في البلاد العربية يعرفون فيّ هذه الرغبة القديمة في تأليف هذا الكتاب ، فقد وردني سنة ١٩٤٠ كتابان من المرحوم فخري البارودي الـدمشقي ،

وهو على ما ذكر لي ، من احفاد ظاهر العمر ، اوردت نصيهما في الحاشية الاخـيرة من الفصل التاسع عشر وفيهما يحثني على تأليف هذا الكتاب .

وها أنذا اخرج الكتاب لا لغرض الا خدمة للحقيقة متوخيـا تحري طريـق الصدق والصواب فيما وصل الينا من اخبار هذا العهد وتثقيف الناشئـة وغـير الناشئة وتخليد ذكرى رجل ثائر حارب الاستبداد من اجل الحرية وكافح التبعية من اجل الكرامة القومية ، ربما كان اعظم وافضل حاكم عربي عرفه العهد العثماني(١)

هنالك امور اريد ان الفت انتباه القارىء اليها وهي ان ظاهر العمر كان اول من سعى في العهد العثماني الذي بدأ سنة ١٥١٦ الى تحقيق فكرة الوحدة العربية وبعبارة اصح انه اول من دعا الى التضامن العربي والعمل العسكري المشترك بين الاقطار العربية بتحالفه مع علي بك الكبير حاكم مصر وقيام الزعيمين سنـة ١٧٧٠ وما بعدها بتجريد حملات عسكرية مشتركة لتحرير البلاد العربية من نير العثمانيين الغاصبين ، وفي سبيل هذا الهدف ضحى ظاهر العمر بولده البكـر صُليبي الـذي قتل في الصالحية بمصر في ايار سنة ١٧٧٣ في حملة سورية مصرية مشتركـة لتحرير مصر من حكم محمد بك ابي الذهب الموالي للعثمانيين ، وقد صحبت هذه الاحداث الهامة في تاريخ سوريا ظاهرة جديدة وهي تدخل روسيا في عهد الملكة كاترينـا الثانية في النزاع التركي العربي ووقوفها الى جانب ظاهر العمر وحليفـه علي بك واشتراكها فعلا في القتال الى جانبهمـا . انها ظاهرة جديدة في حياة البلاد السورية وهي الاولى من نوعها في تـاريخ العرب الحديث .

ان الدور الذي لعبه ظاهر العمر في حياة البلاد السورية خلال نصف قرن او يزيد هو اعمار الجليل بالسكان وتطهير طرقاته من اللصوص والنهابـين ، واقرار الامن والطمأنينة في ربوعه ، وحماية الاهلين وخاصة الاقليات منهم ، من التعـدي ومحاربة الاستغلال والفساد في جميع صورهما ، والمحافظة على الممتلكات الخاصة والعامة ، ورفع مستوى حياة الفرد عن طريق الانفتاح التجاري على العالم ، كمـا فعل الكثير من اجل التساوي بين السكان على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم ، وعدم التمييز في المعاملة والحقوق بنيهم في زمن تنكر لهذه المبادىء السامية ، ثم كفاحه

١) باركس ص ١٦١ .

حتى اليوم الاخير من حياته في سبيل هدف قومي وهو سلخ البلاد السورية عن السلطنة العثمانية والسير بها نحو الحرية والاستقلال (٢) .

ان ظاهر العمر بالامكانيات القليلة التي كانت لديه وقف مع رهط من رجاله الابرار على هضاب الجليل ومرتفعات صفد واعلن الثورة المسلحة على اكبر دولة في العالم آنذاك كانت حدودها مع ممتلكاتها تمتد من اواسط اوروبا غربا حتى ايران شرقا بما في ذلك الجزيرة العربية وشمالي افريقيا بكاملها متحديا اعظم حاكم في ذلك العصر وهو السلطان «سليل آل عثمان ووارث الخلفاء ... سلطان السلاطين وخاقان الخواقين مانح التيجان المسيطر على البحرين الابيض والاسود ومالك بر آسيا والبلاد العربية وافريقيا واوروبا اخو الشمس وابو النجوم وابن عم القمر وظل الله الظليل على الارض» (٣) .

ومما يدعو الى الاسى والحزن ويحز في النفس ان تستطيع تركيا ذات الرقعة الضيقة والموارد المحدودة التحكم في شعوب العالم العربي ونهب خيرات بلادهم مئات من السنين وهو امر يثير التساؤل ويستحق الدرس والعناية ، ومما يدعو الى الاسى والحزن ايضا ان تاريخ البلاد السورية في العصور الحديثة لم يكتب حتى الان بصورة جامعة ووافية ، والعرب مقصرون في تدوين تاريخ بلدانهم بالمقارنة مع غيرهم من شعوب العالم .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذه المقدمة ان البلاد العربية في العهد العثماني كانت تشكل وحدة سياسية خاضعة لسلطة واحدة هي الباب العالي في الاستانة ولم تكن مقسمة الى دول مستقلة كما هي عليه في العصر الحاضر ، فما كان يقع في القاهرة كان له اثره القوي في القدس وعكا ودمشق وصيدا ، وما كان يصيب دمشق كان يهز بيروت وعكا والقاهرة وبغداد ، وكذلك كان الحال بين باقي بلدان الشرق العربي آنذاك ... والحق يقال ان هذا هو حالها اليوم رغم التقسيمات الاقليمية المصطنعة التي فرضت على العرب .

هناك سنتان لهما اهمية خاصة في تاريخ العرب الحديث الفت انتباه القارىء اليهما وهما سنة ١٦٩٨ وسنة ١٧٧٥ . ان السنة ١٦٩٨ كانت نقطة تحول في تاريخ

٢) كتاب قنصل فرنسا ، فصل ١٠ باب ٣ .
٣) ابو عز الدين ص ٦٥ .

البلاد السورية ففيها كان ظهور الشهابيين في لبنان بعد انصرام دولة المعنيين بوفاة الامير احمد المعني آخر امرائهم في السنة السابقة دون عقب ، وفيها ايضا كان ظهور الزيادنة اسرة ظاهر العمر في بلاد صفد والجليل الذين بسطوا يدهم عليها ساحلا وجبلا . ومما يسترعي الاهتمام ايضا ان ظهور الزيادنة في الجليل كان مرتبطا بقيام الشهابيين في جبل لبنان ، فالامير بشير بن حسين الشهابي اول الامراء الشهابيين في لبنان هو الذي اقام عمر بن صالح الزيداني والد ظاهر حاكما على بلاد صفد سنة ١٦٩٨ وفوض اليه التزام اراضيها وذلك لانه (اي عمر بن صالح) كان قيسيا نظيره وقد فعل ذلك نكاية بالحاكم السابق من بني البيتم الذي كان يمنيا ، وكان الشهابيون قيسيين متعصبين لقيسيتهم . بهذا نستدل على ان النعرة القبلية او الصراع بين القيسية واليمنية هو الذي كان يوجه سياسة البلاد السورية آنذاك والذي ادى الى ظهور الزيادنة في بلاد صفد والجليل ، ففي السنة ١٦٩٨ يبدأ عهد جديد في سوريا دام فيما يتعلق بآل شهاب حتى سنة ١٨٤٢ وفيما يتعلق بالزيادنة حتى سنة ١٧٧٧ ، على ان الاصطراع القيسي اليمني لم يستمر طويلا ، فمن مآثر ظاهر العمر الجليلة انه قضى على هذا الصراع القبلي الضيق الذي مزق البلاد السورية اي تمزيق بضراوته ووحشيته وحوله الى صراع عربي قومي ضد الاتراك .

كذلك كانت السنة ١٧٧٥ نقطة تحول في تاريخ البلاد السورية : فالصراع من اجل التحرر الذي استمر عشرات السنين بين العرب والاتراك في القرن الثامن عشر انتهى بمصرع ظاهر العمر في ٢٩ آب من هذه السنة ، ان مقتل ظاهر العمر في بر عكا غدرا وهو في السادسة والثمانين من عمره عدا كونه مأساة انسانية مثيرة ، كان نكسة كبرى للحركة التحررية العربية التي حمل لواءها زهاء نصف قرن ، فعلى اثره شدد العثمانيون قبضتهم على سوريه ونكلوا بعربها اشد تنكيل على ايديهم مباشرة وبواسطة عميلهم وربيبهم احمد الجزار . ان مظالم الجزار التي اشتهر امرها في كل مكان لم تكن في اعتقادي سوى رد فعل وعملية تطهير تلت النكسة الكبرى التي اصابت حركة التحرر العربي بمقتل ظاهر العمر . لذلك كانت السنة ١٧٧٥ حدا فاصلا بين عهدين وبداءة لعهد جديد مظلم في سوريا استمر حتى وفاة الجزار سنة ١٨٠٤ ، تعرض فيه الاهلون لضروب شتى من الارهاق والاذلال والبطش والتنكيل .

والجدير بالذكر انه كان في زمن ظاهر العمر حزبان او فريقان سياسيان يتنازعان السلطة والنفوذ في البلاد العربية احدهما عربي ويقف في رأسه ظاهر العمر في سوريا وحليفه علي بك الكبير في مصر تسنده روسيا القيصرية بقواتها البحرية في البحر الابيض المتوسط ، وثانيهما تركي ويقف في رأسه حكام الولايات الشامية وهم وزراء الدولة العثمانية في دمشق وحلب وطرابلس وصيدا والقدس يشد ازرهم بعض الاسر الاقطاعية الكبيرة الموالية للاتراك كآل العظم في الشام وآل طوقان وآل النمر في جبل نابلس ، وتسندهم الدولة العثمانية بقواتها البرية والبحرية .

اما الامراء الشهابيون في لبنان المنقسمون على انفسهم فقد غلب عليهم الخوف من الاتراك والتردد في اظهار ميولهم او انتهاج سياسة واضحة وصريحة ازاء هذا الاصطراع الناشب بين هذين الفريقين المتنازعين ، ومع ذلك فان من الشهابيين من والى ظاهر العمر وحليفه علي بك كالامير منصور الشهابي ومنهم من شايع الاتراك وحارب الى جانبهم كالامير يوسف الشهابي ، اما مشايخ الجبل فقد كانوا في الغالب يميلون الى ظاهر العمر وان لم يكونوا يجسرون على اظهار ميولهم وهذا يوضح لنا السبب في انتصارات ظاهر العمر المتواصلة على امراء الجبل في الحروب التي وقعت بينه وبينهم عقب سنة ١٧٧٠ .

ومما يجدر ذكره ايضا ان انتصارات ظاهر العمر في العهد الاخير من حياته على الاتراك كانت اولا وقبل كل شيء بفضل عرب الجليل وبني متوال في جبل عامل الذين وقف في رأسهم هذا الشيخ ، كما يجب ان لاننسى فضل علي بك الذي امد ظاهر العمر بالرجال والعتاد في الاوقات الحرجة ، ومن الحق ان تنصف الروس الذين بدافع عداوتهم القديمة مع الاتراك ساندوا ظاهر العمر وعلي بك في ثورتهما على الدولة العثمانية وجعلوا اسطولهم في البحر الابيض الذي كان يقوده وقتئذ الكونت الكي اورلوب تحت تصرفهما ، فبمساعدة هذا الاسطول استطاع ظاهر العمر ان يصد هجمات العثمانيين عن صيدا ، في حزيران سنة ١٧٧٢ ، التي كانت في يده ويحرز مكاسب معنوية عظيمة ، كما استطاع بالتعاون مع الروس والشهابيين ان يستولي على بيروت في ايلول سنة ١٧٧٣ ويحررها من احمد الجزار العاصي فيها .

واثار تحالف ظاهر العمر مع الروس نقمة الاتراك عليه فرموه بالكفر والمروق من الدين ووجهت اليه التهمة بأنه « جلب المسكوب للشرق العربي » (٤) ، وهي نفس التهمة التي توجه الى قادة التحرر العربي في عصرنا الحاضر .

هنالك كلمة لا بد من قولها في هذه المقدمة وهي ان مدرس التاريخ العربي الحديث كثيرا ما يمر بهذه الحقبة التي نحن بصددها عرضا وان تلطف واعارها شيئا من اهتمامه فانه يشير اليها كحقبة مظلمة عابرة ليس فيها ما يهم طلابه ، واذا اراد المدرس التعمق فيها ببعض الشيء ، يقول ويكتفي بالقول : «كان في عكا حاكم يسمى ظاهر العمر اتصل بالشهابيين فأحبوه .. الخ» ويدعم كلامه بوقائع وتواريخ اكثرها ان لم يكن كلها مغلوط فيه وانه اي (المدرس) اذ يقف عند هذا الحد لا يشرح للطلاب الاتجاهات السياسية والاجتماعية التي سبقت ظهور الزيادنه في اواخر القرن السابع عشر وما صاحبها من حزبيات وعصبيات في ظل «الاقطاع» ولا الخصومات الداخلية في الجليل كالاحتراب القيسي اليمني التي رفعت ظاهر العمر ، واباه عمر من قبله ، الى سدة الحكم ، ولا الاثر الذي احدثه في بلاد الشام تجرؤه على مقاتلة الدولة العثمانية وهي في اوج قوتها . كذلك يكتفي المدرس بالقول ان احمد الجزار كان ظالما بل مسرفا في الظلم ولكنه لا يشير الى العوامل السياسية التي وقفت خلف هذا الحكم الجائر . ان ما استنتجته من دراسة هذا العهد هو ان ثورة ظاهر العمر على الحكم التركي ، كان الدافع الاول والمباشر لها الظلم الذي لحق الفلاحين من جراء أساليب الاتراك والاقطاعيين العرب الفظة في جباية المال الميري التي كانت تصل في اكثر الاحيان الى حد النهب كما كانت مظالم الجزار كما سبق وقلت بمثابة عملية تطهير اوعز للجزار باجرائها لاجتثاث جذور الحركة التحررية من ارض العرب وابادة قادتها وانصارهم .
لذلك ان تاريخ البلاد السورية في العصور الحديثة يجب ان يكتب اليوم بصورة علمية صحيحة ويدرس بروح جديدة تتمشى مع حاجات الشعب العربي واوضاعه في مختلف اقطاره ، كما ينبغي على المدرس ان يقابل بين ظاهر العمر وبين احمد الجزار من حيث وظيفة كل منهما : ففي حين كان الاول شيخا اقطاعيا ثائرا من اهل البلاد كان الثاني موظفا تركيا مرتزقا وهذه حقيقة تاريخية ثابتة .

٤) حيدر ص ٨٧ ، رسالة الدباس فصل ١٧ .

ان اصعب مهمة جابهتني في تأليف الكتاب هي جمع الروايات من تاريخية وشعبية وتنسيقها وتمحيصها ومقابلتها بعضها ببعض ثم اعتماد ما صلح منها ، في نظري ، لمقاصد هذا الكتاب ، وكذلك التحقيق في صحة بعض التواريخ الهامة والحوادث البارزة المتصلة بتاريخ هذا العهد وتقسيم الكتاب الى فصول وابواب وجعله في اطار سليم • وقد فعلت في هذا المجال كل ما استطعت ان افعله ، قاصرا جهدي على التحقيق في ما اتصل بتاريخ ظاهر العمر واسرته فقط مستعينا بالامكانيات المحدودة المتاحة لي في بلد منعزل كئيب كالناصرة ومستندا على ما هو في رأيي اكثر صحة من غيره • على ان الكتاب يستند على مراجع عديدة ووافية لكتاب معاصرين وغير معاصرين اذكر منهم مخائيل الصباغ وعبود الصباغ ، والامير حيدر الشهابي ، والرحالة الفرنسي فولني وغيرهم ، ويجد القارىء في قائمة المراجع كلمة قصيرة عنهم •

اني اعترف ان هذا العمل الشاق المضني الذي انجزته لا يعدو ان يكون محاولة وتمهيدا تاركا لغيري مواصلة هذا الجهد المتواضع خدمة للعلم وحرصا على سلامة الاتجاه القومي للطلبة وغير الطلبة من عشاق علم التاريخ • ان في دراسة هذا العهد ما يساعد كثيرا على تفهم المشاكل والازمات السياسية والاجتماعية الحاضرة في الشرق العربي •

يجد القارىء في بعض فصول الكتاب بعض الروايات الشعبية التي جمعتها بنفسي ، حافظا اياها من الضياع والنسيان ، من مختلف القرى الفلسطينية زمن الانتداب البريطاني على فلسطين ، وهذه الروايات هي عبارة عن حكايات واقاصيص وأشعار لها قيمتها التاريخية لانها رافقت الاحداث التي تتكلم عنها • اخذت هذه الروايات عن بعض الرواة وشيوخ القرى ذكرت اسماءهم في قائمة المراجع اخص بالذكر منهم الشيخ محمد قاسم الخطيب من قرية دير حنا في الجليل (توفي سنة ١٩٣٧) ومن مواليد عهد ابراهيم باشا المصري في سوريا • كان محمد الخطيب قد بلغ ـ على ما ذكر لي ، السادسة بعد المئة حين قابلته قبل موته باشهر قليلة ، وقد روى لي الكثير عن حوادث ظاهر العمره وعصره • اخذ هذا الشيخ شعره واقاصيصه عن والده وعن قريبه محمد الخليل اللذين ، على ما ذكر لي ، كانا جنديين في جيش ابراهيم باشا • لقد ضمنت الكتاب القليل مما صح في نظري

من هذه المادة الشعبية التاريخية واما القسم الاكبر منه فارجىء نشره الى فرصة اخرى اذا سنحت لي مثل هذه الفرصة •

ومن الاوراق التي كانت في حوزتي مخطوطة شعرية قديمة بقلم الشيخ شناعة امريح شاعر الزيادنة في ذلك الزمن يرجع تاريخها الى القرن الثامن عشر وتحتوي على قصائد طويلة باللغة العامية عن ظاهر العمر واولاده • كانت هذه المخطوطة النفيسة مع نسخة حديثة منقولة عنها ملك حنا ورور من اهل الناصرة اهداهما الي ولده عبد الله ورور • ان المخطوطة الاصل قد انتهبت من بيتي في حيفا وفقدت خلال نهب حيفا المشهور عام ١٩٤٨ ، واما النسخة الحديثة المنقولة عن الاصل المفقود وهي بخط حبيب ورور اخي حنا ورور فقد شاء القدر ان تسلم من النهب وهي الان في حوزتي وعنها اخذت قصيدة «البحيرة» الوارد ذكرها في الفصل ١٢ من الكتاب •

واما وثيقة بناء كنيسة الروم الارثوذكس في الناصرة الوارد نصها في الفصل ٢٣ فهي في حوزة جورج وشوقي ولدي صالح الخوري عيسى من الناصرة وهما من نسل كاهن الطائفة الارثوذكسية في الناصرة عام ١٧٤١ الذي تسلم هذه الوثيقة الهامة واحتفظ بها هو وورثاؤه من بعده •

ومن المخطوطات التي اعتمدتها مخطوطة قليلة الصفحات بعنوان «اخبار البشوات في عكا» كتبها يعقوب فرح في الناصرة سنة ١٨٥٧ • يفتتح المؤلف المخطوطة بقائمة بالحكام الذين تولوا مدينة عكا ابتداء من ظاهر العمر وحتى ابراهيم باشا المصري ، وتتضمن معلومات موجزة عن اصل سكان الناصرة ومشايخها والنزاعات بين الطوائف المختلفة حول اماكن العبادة فيها وما شاكل ذلك • كانت هذه المخطوطة لاخر مرة في حوزة المرحوم فهيم صالح فرح من اهل الناصرة ، وهو من احفاد المؤلف •

وقبل ان اختتم كلامي في هذه المقدمة لا بد لي من ان اشير الى ان حياة ظاهر العمر في مراحلها الاولى ، وهي الفترة المتقدمة التي امضاها ظاهر العمر في مدينة طبريا وقرية عرابة البطوف في الجليل يكتنفها الغموض ولا يوجد في كتب التاريخ ما يميط اللثام عن هذه الناحية المظلمة سوى ما ذكره في هذا الصدد المؤرخ ميخائيل

الصباغ العكاوي في كتابه القيم «تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني» اقول هذا رغم ما يحتويه هذا المؤلف من اغلاط وهفوات كثيرة. الف ميخائيل الصباغ كتابه في مطلع القرن التاسع عشر (توفي سنة ١٨١٦) وضمنه من الاخبار عن ايام ظاهر الاولى في عرابة وطبريا ما لا نجده في مؤلف آخر وقد رأيت ان آخذ عنه ما انفرد بذكره من مادة تاريخية وان كان مشكوكا في صحته او يفتقر الى تأييد ، فاذا كان لا يوجد ما يسند رواياته في المراجع الاخرى فانه لا يوجد ما يدحضها ، على انني استطعت في بعض الحالات ان ادحض روايات الصباغ المغلوطة وأبين ضعفها ببيت من الشعر الشعبي ، كما فعلت مثلا فيما يتعلق بمقتل سعد العمر اخي ظاهر (الفصل ٩) ، كما انني استطعت في حالات اخرى ان اؤيد رواياته بشعر ما زال يتناقله اهل الجليل حتى هذا اليوم ، كالشعر الذي قيل في معركة المنسي (الفصل ٤) والذي يؤيد ، الى حد ما ، تفاصيل هذه المعركة كما رواها ميخائيل الصباغ .

واخيرا اود ان اشير الى ما ورد في الكتاب من اخبار تتعلق بعدد الجيوش المتحاربة ومعداتها . ان كلام المؤرخين في هذا الخصوص وان كان لا يخلو من المبالغة فقد اخذت عنهم ما ذكروه مكتفيا بايراد ارقام اخرى لمؤرخين آخرين .

ولعله من الضروري ايضا ان الفت الانتباه الى ان في الكتاب الكثير من الروايات والمقتبسات جاءت لغتها اما عامية واما ركيكة ومفككة ، وقد اثبتها في مواضعها على طبيعتها حرصا على الامانة التاريخية وكما اوردها اصحابها بلغة ذلك الزمن الركيكة ، ومع ذلك فقد بذلت ما بوسعي ليكون الكتاب متناسقا ومتلاحما قدر المستطاع — لا مجموعة روايات واقتباسات — وان يكون سهل الاسلوب ومشوقا للقراءة حتى يكون في مقدور القارىء تتبع فصوله دون ملل او كلل ، فتعم فائدته ويستمتع به كل طالب علم وباحث وغيرهم ممن تستهويهم لذة القراءة وسعة المطالعة ، وعسى ان اكون قد وفقت في هذا المجهود الذي بذلته في سبيل بعث هذه الحقبة المهملة من تاريخ الوطن السوري في القرن الثامن عشر .

وفي ختام هذه المقدمة لا يسعني الا ان انوه بفضل رجلين اثنين على هذا الكتاب ، اولهما : اخي الاكبر المرحوم امين معمر الذي بحكم عمله وارتباطاته بقرى الجليل في العهد البريطاني ، سهل لي ، وانا في دور التلمذة ، سبل الاتصال بمشايخ

هذه القرى الذين زودوني بمعلومات قيمة عن حوادث القرن الثامن عشر كادت ان تضيع وتنسى . وثانيهما : الاستاذ المرحوم اوريئيل هيد رئيس معهد الدراسات الشرقية في الجامعة العبرية في القدس سابقا الذي اثنى على مجهودي هذا واحضر لي من جامعة باريس في فرنسا « ميكروفلم » عن مخطوط عبود الصباغ لدراسته واستخدامه في كتابة هذا الكتاب .

وختاما اتوجه بالشكر الى كل من قدم لي حكاية او رواية او مادة تاريخية واحتمل تطفلي عليه وثقلتي بصبر ورحابة صدر .

الناصرة

توفيق معمر

توطئة

البلاد السورية في القرن الثامن عشر

١) التقسيمات الادارية :

حكم العثمانيون بلاد الشام زهاء اربعمائة سنة (١٥١٦ ـ١٩١٨) حكما استبداديا رهيبا . وكان الاقطاع هو النظام السائد في ذلك الزمن ، وكانت تتولاه بطريق الالتزام (أي الضمان) وبمبلغ معلوم من الدولة العثمانية ، عائلات قديمة ذات نفوذ وصولة ، فتتحكم في مساحات شاسعة من الارض يشتغل فيها الفلاحون لقاء جزء من المحصول . وأما الجزء الآخر من المحصول وهو الخراج او المال الميري ، فكان يتسلمه الشيخ الاقطاعي مقابل الالتزام ، وهو عبارة عن ربع الغلة يقدمه المزارع للشيخ الاقطاعي ، وهذا بدوره يقدم المقطوع عليه للوالي ويأخذ الزيادة . وكان يحدث احيانا ان يلتزم وزير الايالة البلاد رأسا من حكومة الاستانة بمال معلوم مع هدايا سنوية تسمى عوائد .

كان الحكم العثماني يقوم في الاساس على نهب خيرات الفلاحين عن طريق المال الميري ، وكان يستند في ذلك على مشايخ الاقطاع الاقوياء شركائه في هذا النهب ، لذلك لم يكن للعثمانيين من هدف في الحكم سوى ان تكون علاقاتهم طيبة بمشايخ الاقطاع وجمع المال الميري الخاص بهم عن طريق ولاتهم في دمشق وحلب وطرابلس وصيدا ثم حمله الى الاستانة وليكن بعد ذلك ما يكون .

قسّم العثمانيون البلاد السورية في بادىء الامر الى ثلاث ولايات (ويقال لها ايضا ايالات واحيانا باشويات) وهي حلب ودمشق وطرابلس ثم أضافوا اليها سنة ١٦١٤ ولاية رابعة وهي صيدا التي كانت قبل ذلك تابعة لدمشق(١) وبذلك

---

١) هيد (وثائق تركية) ص ٤٧ .

أصبحت الولايات السورية اربع ، وهي :

١ ــ حلب ــ تضم شمال سوريا .

٢ ــ دمشق ــ تمتد من مرّة على طريق حلب شمالا حتى مدينة الخليل جنوبا وكانت تشمل البقاع الاعلى وحوران والبلقاء وجبال القدس ونابلس وكذلك الساحل الفلسطيني من حيفا شمالا حتى خان يونس جنوبا .

٣ ــ طرابلس ــ تمتد من اللاذقية شمالا حتى ضواحي جونيه جنوبا .

٤ ــ صيدا ــ تمتد من جسر نهر المعاملتين ، ما بعد جونيا ، شمالا حتى مدينة عكا وخليج حيفا جنوبا ، وكانت تشمل لبنان الجنوبي بما فيه وادي التيم (اقليم حاصبيا) الواقع على سفوح جبل الشيخ الغربية وحتى نهر الليطاني شرقي صور ، وجبل عامل (بلاد المتاولة) واقليم الحولة ، ثم بلاد صفد والجليل .

وينبغي ان أشير هنا الى منطقة اخرى كانت احيانا تعتبر ولاية مستقلة وكانت احيانا متسلمية (اي متصرفية) تابعة لدمشق وهي ما كان يسمى ببلاد فلسطين . كانت فلسطين في القرن الثامن عشر تحمل معنى يختلف عما هو عليه اليوم ، كانت آنذاك تمتد حدودها من نقطة بين يافا وقيسارية شمالا حتى خان يونس جنوبا وكانت تشمل السهل الساحلي وعاصمتها كانت القدس واحيانا غزة .

هذه هي التقسيمات الادارية لبلاد الشام في القرن الثامن عشر ، غير ان هذه التقسيمات لم تكن ثابتة فحدود هذه الولايات كانت تتغير من وقت الى آخر تبعا للظروف والاحوال .

كانت الولاية تقسم الى سناجق او متسلميات يحكم في كل منها متسلم او سنجق(٢) (اي متصرف) يرجع في شؤونه الى الوالي المسؤول ، فمن هذه المتسلميات على سبيل المثل اللجون ونابلس ودرعا والكرك التابعة لدمشق وبيروت وصفد التابعتان لصيدا .

٢) ايالة دمشق :

كان يدير المقاطعات السورية ولاة يعينهم الباب العالي في الاستانة ، وكانت كل ولاية مستقلة عن الاخرى في الشؤون الادارية ، ولكن ذلك لم يكن ليمنع

٢) تعني كلمة سنجق علم او بيرق ثم صارت تطلق على المقاطعة او صاحب المقاطعة .

تعاون الولاة على اخماد فتنة او اخضاع جهة ، فاذا وقع ما يعكر صفو الامن في ناحية فيتعاون ولاة البلاد على دفع الخطر ويزحفون بجنودهم المرتزقة لاخضاع الجهات الثائرة ومن خلفهم مشايخ الاقطاع الموالون لهم بمشاتهم وفرسانهم .

كان صاحب الأيالة يُدعى وزيرا ، وكان يحكم البلاد حكما استبداديا وبيده السلطة العسكرية والملكية والادارية والمالية والعدلية لا شريك له الا من احب ان يجعله مساعدا له من الاتباع والانصار .

كان لايالة دمشق المقام الاول بين الولايات الشامية ولواليها الاعتبار الاهم وقد مُنح بالاضافة الى صلاحياته الواسعة في ايالته بمهمة ملاحظة تطبيق القوانين والاشراف على كافة البلاد السورية ومراقبة سير العمل فيها .

كان والي دمشق يسمى ايضا وكيل السلطان في الولاية ، ومن سلطاته ايضا قيادة الجيش وجمع الاموال الاميرية وامارة الحج وقيادة المحمل الى مكة .

كان اعظم رجال الوزير في الولاية الكتخدا ويلفظونها كيخية او كيخيا وهو وكيل الوالي في الولاية ، ثم الدفتردار (اي الصراف) وكان يُختار عادة من كبار اغنياء الارمن او اليهود البارعين في الحسابات ، ويحدث احيانا ان يدفع الدفتردار مال التزام الايالة رأسا الى الدولة ثم يقوم بقبضه من الملتزمين .

ومن رجال الايالة البارزين كاتب الديوان او رئيس الديوان وهو من الاتراك عادة ، وكذلك اليازجي وهو كاتب عربي يختار ممن يحسنون الخط والانشاء ، وكان هناك الرزنامجي الذي انيط به معالجة شؤون المكلفين بدفع الاموال السلطانية .

كانت هذه التشكيلات الادارية تجري وفق قوانين عملت الدولة على سنها خلال سنين طويلة ، ويقول المطلعون كانت هذه القوانين بالفعل على احسن ما يكون من الناحية النظرية ، اما من الناحية التطبيقية فقد كانت تطبق بطرق استبدادية مغايرة لما اريد منها وتحمل بين طياتها الكثير من المظالم والفساد والالام .

كان والي دمشق يدفع لحكومة الاستانة (٤٥) كيسا في السنة ثمن توليه الولاية(٣) مع ان ثمن توليها الحقيقي يبلغ الوف الاكياس ، وذلك لان والي دمشق بصفته امير الحج ، كان يدفع نفقات جردة الحج البالغة (٦٠٠٠) كيس

٣) الكيس يساوي ٥٠٠ قرش تركي او ٥٠ ليرة انكليزية ذهبا .

(٣١٢,٥٠٠ ليرة انكليزية بسعر ذلك الوقت) من جيبه الخاص وهـذه النفقات هي عبارة عن زاد للحجاج وعلف لحيواناتهم وعوائد اي «خاوه» للعربان الذين تمر قافلة الحجيج في أراضيهم وهو مبلغ (١٨٠٠) كيس كأجرة طريـق او مرور ، وهي عادة قديمة درج عليها حكام سوريا منذ ان احتل العثمانيون بـلاد الشام .

كان الوالي فضلا عن ذلك يقوم باعمال تجارية وزراعية يجني منها الارباح الطائلة ، كان يقرض الاموال للمزارعين والتجار ، ويزرع الاراضي عـلى حسابه الخاص او يعطيها على «القسم» كما كان يقوم بصفقات تجارية رابحة ، اما بنفسه او بالاشتراك مع التجار . يقول فولني في هذا الصدد ، لم تكن اربـاح والي دمشق من هذه الاعمال الخاصة تقل عن (٤٠٠,٠٠٠) ليرة انكليزية هذا عـدا ما يجنيه من ضرائب الظلم والاغتصاب والارث والجمارك وما يقبضه بطريق البلص من التأمينات التي لم يكن يعيد شيئا منهـا لاصحابهـا .

اما ايالة صيدا فكان ثمن توليها (١٥٠٠) كيس في السنة (اي ٧٨,١٢٥ ليرة انكليزية) وهو مبلغ مقطوع يدفع الوالي منه للدولة مبلغ ٧٥٠ كيسا والباقي يخصم مقابل حصة والي صيدا في نفقات جردة الحج(٤) .

ويذكر المؤرخون ان الولاة كانوا يبتاعون مناصبهم بالمزاد من دار السلطنة في استنبول والمزايد الاكبر هو الذي كانت توسد اليه ، وكذلك بعض المناصب الاخرى كالدفتردار ، لذلك كان الولاة يرهقون رعاياهم بالضرائب ، فيغتصبون ويسخرون ويختلسون ليعوضوا ما دفعوه ثمنا للولاية .

٣) التنظيمات العسكرية :

كان لدى والي دمشق ما بين ٦٠٠ ــ ٧٠٠ من جند الانكشارية وعدد مساو من المغاربة الفقراء ونحو من ٨٠٠ ــ ٩٠٠ من الفرسان . كانت هذه القوات تستخدم في الدرجة الاولى لجمع الضرائب . كان الوالي يخرج للدورة السنوية بجزء من هذه القوات لجباية المال الميري قبل ان يحين موعد جردة الحج بثلاثة اشهر ليستطيع من هذا المال سد نفقات الجردة .

---

٤) فولني الجزء الثاني ص ٢٠٩ ــ ٢١٣ .

كان الوزير في كثير من الاحيان يصطدم بسبب فظاظة الجباية وطمع الجباة بمقاومة عنيفة في هذه الجولات من قبل دافعي الضرائب تستخدم فيها السيوف والطبنجات ويشترك في اتونها آلاف المقاتلين . واشتهر بهذه الثورات جبل نابلس ونواحي بيت لحم والخليل .

كانت الحرب في ذلك الزمن عبارة عن التحام دموي بالسلاح الابيض بين جماعتين فيهم الخيالة وفيهم المشاة ، وكانت اسلحتهم تتألف من السيوف والزراقات (اي الحراب القصيرة) والبواريد والطبنجات ، وكان هناك بعض المدافع الا انها كانت قليلة الفائدة ، فالقوي او الاكثر جرأة يبحث عن خصمه عند الالتحام ويفتك به بدون رحمة ، واذا صمد الفريقان بعض الوقت في المعركة فيشتبكان كما تشتبك الغوغاء ويسفر القتال بعد ساعة او اكثر عن منتصر ومنهزم، فالمنتصر يتعقب المنهزم وينزل به ضرباته ، وكثيرا ما كانت المعركة تنتهي بدون التحام جدي فيهرب الفريق الضعيف عند اول اشتباك او يسلم للغالب .

كان جيش الدولة يتألف من قسمين : الدالاتية اي الجيش التركي النظامي وافراده في الغالب من الجنود المرتزقة الاغراب يأتي بهم الوالي كحرس خصوصي له ثم فرق الوجاقات كالانكشارية والقبيقول والتيمار والسكبان ، وهم من اهل البلاد واصحاب الزعامة ويستقرون في المدن الرئيسية . كان كل وجاق يسيطر على حي يعين له في المدينة ويكون مسؤولا عنه وما اكثر ما كان يقع من الشغب والفتن بين جنود هذه الوجاقات فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين الاهلين من جهة اخرى. وكان اكثر هذه الوجاقات نفوذا الانكشارية(٥) .

٤) القتل او المصادرة والعزل كان مصير الولاة في بلاد الشام :

ومما ينبغي ذكره ان منصب الولاية لم يكن يحسد عليه لان العدد الاكبر من الولاة كان امرهم ينتهي بالعزل او بالقتل ، فتقتلهم الدولة لترثهم وتنعم بما جنوه من ثراء ايام حكمهم . من ذلك ان الدولة صادرت ممتلكات سليمان باشا

---

٥) كلمة انكشارية محرفة عن التركية ومعناها العسكر الحديث وقام تنظيمه على اساس وجاقات ، والوجاق هو الجهاز الذي يقدم طعاما لوحدة عسكرية واصبح مدلوله مع الزمن مركزا او حامية ، وقائده يسمى اغا .

العظم والي دمشق عند وفاته قرب طبريا سنة ١٧٤٣ ، وفعلت مثل ذلك باسعد باشا العظم وغيره من الحكام والولاة . قال المؤرخ : ان اسعد باشا بنى أبنية عظيمة في دمشق وجمع مالا لا يحصى وسار بالحج مرات ، فأنعمت عليه الدولة العلية برتبة علامة الرضا ، وامرت بان لا يشهر عليه سلاح ولا يقتل ثم ارسلت وقتلته في الحمام خنقا ، طمعا في كثرة امواله(٦) ، كما سيجيء .

بهذا نستدل على الطريقة التي كانت الدولة العثمانية تحكم بها البلاد العربية فلم يكن احد يسلم من شرها كبيرا كان او صغيرا .

والحق يقال ان مركز الوالي كان محفوفا بالاخطار فيطول او يقصر بقدر ما يظهر الوالي من ولاء للسلطان ونشاط في جمع المال الميري ، ومفاهيم الدولة لهذا الولاء ان يقوم الوالي خلال جولاته لجمع الضرائب ، بحرق القرى العربية واقتلاع الاشجار المثمرة وانتهاك حرمة البيوت والتنكيل بأصحابها ثم قتلهم بالجملة وان لم يفعل ذلك فيعتبر خارجا على الدولة العثمانية ومعرضا لانتقامها على ابشع وجه ، اما بالعزل والمصادرة واما بالقتل .

كان لدمشق ارتباط وثيق بظاهر العمر ويجد القارىء في باب الملاحق قائمة بأسماء ولاة دمشق وزمن ولاية كل منهم .

٥) ايالة صيدا ومشايخ الاقطاع :

كانت مدينة صيدا ميناء للبنان ، وفيها جالية فرنسية وقنصل وخمسة او ستة بيوت تجارية ، كان اهم مورد لسكانها البالغ عددهم خمسة آلاف نسمة ، صناعة النسيج واهم صادراتها الحرير والقطن .

ظلت صيدا مركز ولاية حتى استولى ظاهر العمر عليها في تشرين الاول سنة ١٧٧١ ولما تولى احمد الجزار ايالة صيدا بعد مقتل ظاهر العمر سنة ١٧٧٥ ، استعاض سنة ١٧٧٧ او سنة ١٧٧٨ عن صيدا بعكا ، ونقل حكومته اليها للتحصينات المنيعة التي كان ظاهر قد انشأها فيها .

بدأت صيدا في التأخر تجاريا وسياسيا منذ ازدهار عكا عقب سنة ١٧٥٠ على يد ظاهر ، ثم لم تلبث ان خسرت صيدا مركزها المفضل في حياة البلاد السورية

٦) كرد علي ص ٢٩١ .

واصبح لعكا المقام الاول على الساحل السوري الى ان اخذت بيروت تحل محلها تدريجيا منذ سنة ١٨٤٢ .

كان طول صيدا على البحر ستمائة خطوة وعرضها مائة وخمسين خطوة وكان يحيط بها من ناحية البر سور اقيم عليه برج انشأه احمد اغا الدنكزلي نائب ظاهر في المدينة(٧) ، وهو لا يزال قائماً ، ويُعرف ببرج ضاهر .

كان الامير الملتزم اذا دفع للوالي المال المقرر مع العوائد عن دائرة التزامه يصبح حر التصرف في اقليمه فيستبد بالفلاحين كما يشاء ويسوقهم الى حرب من يشاء ويوجههم الى ما يريد . وكان على وزير الايالة ان يساعد الامير الملتزم في دائرته ويقدم له العون العسكري ضد كل من تسول له نفسه الخروج عليه اذا طلب الامير الملتزم منه ذلك . وفي ما عدا ذلك لم يكن الوزير يتدخل في شؤون مشايخ الاقطاع الا اذا عصوا عليه او امتنعوا عن دفع المال الميري .

كان الامير الاقطاعي يتولى امارته بالوراثة او الانتخاب ثم يقر في امارته ، او بالاحرى يعترف له فيها من قبل الباب العالي بواسطة واليه في الايالة التي تقع الامارة ضمن حدودها . وهكذا يستمر الامير في عمله الى ان تنتهي امارته اما بالعزل او بالموت فعندها ينتخب مكانه امير من نفس الاسرة او من اسرة اخرى منافسة لها وذلك بحسب الاوضاع السائدة في الامارة وارادة اولي الامر في صيدا ودمشق والاستانة ، وكان اذا حجب الوزير ثقته عن الامير وكان هذا الامير ضعيفا تضعضع نفوذه وانهار .

عرف مشايخ الاقطاع باستبدادهم الذي كان في اكثر الاحيان يفوق استبداد حكام الاتراك فبينما كان الاهلون يستطيعون تقديم شكواهم ضد ولاة الدولة الى الاستانة لم يكن في وسعهم تقديم مثل هذه الشكاوى ضد مشايخ الاقطاع الذين كانوا في اقليمهم احرارا في كل ما يفعلون ولا تجوز الشكوى عليهم بالرغم من انهم كانوا خاضعين للولاة في ما يتعلق بدفع الضرائب والخدمات العامة وغير ذلك .

كان مشايخ الاقطاع طبقات : فهناك الاقطاعي الكبير او الامير الذي يلتزم البلاد الواسعة مباشرة من وزير الايالة بموافقة الباب العالي ويقيم له دولة ضمن

٧) فولني الجزء الثاني ص ١٧٥ .

نطاق دولة كظاهر العمر مثلا ، وهناك اقطاعيون صغار يضمنون الاراضي من الامير او الشيخ الاقطاعي الاول في البلاد ، وكان سواد الشعب من القرويين اصحاب الاراضي او ممن لا ارض لهم ، ومن البدو الرحل في مرج ابن عامر وغور الاردن وقيسارية ، وكان هؤلاء ادنى طبقات المجتمع العربي وقتئذ وافقره •

كان جبل لبنان في ذلك الزمن يسمى جبل الدروز ويتألف سكانه من الدروز والموارنة المسيحيين بأكثرية ساحقة(٨) وكانوا يرجعون في شؤونهم الى الاقطاعي الكبير من الشهابيين في دير القمر من جبل الشوف وهو الحاكم العام وذووه اسياد البلاد • اشتهر من الشهابيين في هذه الحقبة من القرن الثامن عشر التي نتحدث عنها ، الامير حيدر بن موسى وولداه ملحم ومنصور ، وكذلك حفيده يوسف بن ملحم الشهابي •

كان يتحكم في شؤون الجبل بالاضافة الى الامير الاول من آل شهاب بعض الاسر الاقطاعية البارزة التي كان لها نفوذ كبير في سياسة الجبل كآل جنبلاط في قضاء جزين وآل العماد في العرقوب وآل نكد في المناصف وآل عبد الملك في الجرد وآل ارسلان في قسم من الغرب وآل تلحوق في الغرب ايضا ، وكل هؤلاء من الدروز وآل حماده المتاولة في المنيطره والهرمل في شمال لبنان وغيرهم •

كان الشهابيون مسلمين سنيين (والمراجع الدرزية تعتبرهم دروزا) وقد اخذ بعضهم يتنصر في اواسط القرن الثامن عشر وكان اول من تنصر منهم الامير علي بن حيدر سنة ١٧٥٤ ثم تبعه الامراء قاسم وسيد احمد وحيدر (اخوة الامير يوسف الشهابي) من ابناء الامير ملحم حيدر الوالي • وفي سنة ١٧٦٤ تنصر الامير قاسم عمر والد الامير بشير الثاني المشهور •

ومن مشايخ الاقطاع في جبل عامل بنو منكر في اقليمي الشومر والتفاح الواقعين الى الجنوب والشرق من مدينة صيداء ، وبنو صعب في مقاطعة الشقيف الملاصقة لاقليم حاصبيا من الشمال ، وكان بنو علي الصغير في بلاد بشارة شرقي مدينة صور المتاخمة لبلاد صفد من الشمال ، اشتهر من مشايخ بني متوال ناصيف النصار من

---

٨) كان عدد سكان لبنان في عهد الجزار على ما رواه مشاقه : ٢٤٠ الفا قسمهم كما يلي : ١٢٠ الفا من النصارى ، ٦٠ الفا من الدروز ، ٣٠ الفا من المتاولة ، و٣٠ الفا من المسلمين السنيين .

بيت علي الصغير وقبلان الحسن وعلي الدرويش وكانوا فرسانا اشداء وحلفاء اوفياء لظاهر العمر ، ولما كان المتاولة من اهل الشيعة كان الاتراك ، وهم من اهل السنة ، يكرهونهم ، كذلك كان الشهابيون «القيسية» اخصاما الداء للمتاولة «اليمنية»

كانت ايالة صيدا تقسم الى متسلميات وكان من اهم هذه المتسلميات صفد او بلاد صفد وكان من اكبر القرى في هذه المتسلمية الدامون في خليج حيفا التي تولى التزامها علي بن صالح عم ظاهر العمر ، وعرابة البطوف القرية الجبلية التي نشأ فيها ظاهر وهي تقع في مكان وسط بين عكا والناصرة وطبريا •

ولا بد لي من الاشارة هنا الى قبائل البدو والعشائر التي كانت تعيش على الغزو وقطع الطرق ، يهمنا منهم عرب الصقر والصبيح في مرج بن عامر وغور الاردن ، واللهيب والفضل في اقليمي الحولة والجولان وبني صخر وعنزة والسردية في نواحي معان والبلقاء في الاردن •

كان عرب الصقر اشهر هذه القبائل في بلاد صفد ، واكثرهم قوة وقد اشتد عيثهم في ذلك الزمن حتى امتدت ايديهم الى مدن الساحل وقراه •

كان عسكر ايالة صيدا المخصص لها ٥٠٠ من الخيالة و٥٠٠ من المشاة او الرجالة ، وكان الوزير اذا شاء يستطيع ان يزيد عددهم عند الضرورة الا انه كان يكتفي عادة بنصف هذا العدد تخفيفا لنفقتهم وثقلتهم •

لم تكن ايالة صيدا نظير ايالة دمشق تضم وجاقات من اهل البلاد كجنود الانكشارية والقبيقول وذلك لضآلة شأن هذه الايالة •

كان عسكر الايالة خليطا من الاكراد والارناؤوط والتركمان ومن اهل العراق وكان المشاة غالبا من المغرب والجزائر وتونس وطرابلس وغيرها ، فيهم العبيد السود والمماليك البيض ويؤلفون في مجموعهم طوائف مختلفة على تباين لغاتهم واصولهم •

ولما كان هؤلاء الجنود غرباء عن سوريا ويعملون بالاجرة فلم يكن يهمهم من امر البلاد شيء كما انهم لم يكونوا على شيء من التربية وحسن النظام بل كانوا من الرعاع واهل الشقاوة لا هم لهم الا التحرش بالاهلين والتعدي عليهم ، وكانت تعدياتهم اكثر ما تصيب اهل القرى والمزارعين الذين لم يكن في وسعهم دفع اذاهم كان هؤلاء الجنود المرتزقة ينتقلون بين القرى لمقاصد البلص فيسومون اصحابها

من اصناف المغارم والسخرة والضرب والاهانة مالايتسع المجال لشرحه ، ولهذه كان عسكر الدالاتية مكروها ومحتقرا حتى غدوا بتصرفاتهم مضرب المثل الى يومنا هذا ، ومن ذلك القول : «فلان مثل عسكر الدولة ملحه على ذيله» اي لا ذمة له ولا عهد .

٦) الخراج والضرائب :

كانت ضرائب الدولة علة العلل واصل معظم الفتن ومصدر كل المظالم التي ضج منها العرب في هذا العهد كيف لا وقد كان الحكم العثماني يقوم اولا وقبل كل شيء على نهب ثروات البلاد العربية الخاصة والعامة عن طريق الخراج والضرائب المختلفة لينفق على سلاطين الدولة ونسائهم ومحظياتهم .

قال مونتسكيو الكاتب الفرنسي في تعريف الحكومة الاستبدادية منددا بالحكومة الفرنسية قبل ثورة ١٧٨٩ ما يلي :

عندما يريد متوحشو لويزيانا قطف الثمار يقطعون الشجرة من اصلها ويتناولون منها ما يريدون ، تلك هي الحكومة الاستبدادية لا تنتج ولا تعيش على الانتاج بل تأخذ ما تريده لساعتها ولو كان ذلك بطريقة فيها اتلاف المنتج وقطع مصدر الانتاج... انها سياسة شعارها كلما احتجتم افرضوا على الشعب الضرائب واذا اضطررتم فسموها قرضاً شعبيا*

هذا القول ينطبق على سلوك العثمانيين في جباية الضرائب ، كان الوزير يسوق العساكر الى القرى العربية وكأنه يسوقها الى جبهة حرب فيستولي على مقادير من الغلال تزيد كثيرا على ما هو مقرر له ، هذا اذا لم يلجأ الى النهب المكشوف ، او ذبح ابقار القرية لاطعامها لمرافقيه من الخدم والعساكر .

كانت الضرائب المفروضة على ابناء الشعب والملتزمين كما يلي :

١) مال التزام جبل لبنان وجبل عامل وبلاد صفد وكان يؤخذ من الامراء ومشايخ الاقطاع .

٢) مال التزام الجمرك في المدن البحرية مثل صيدا وصور وعكا ويدفعه صاحب الالتزام . كانت هذه الضريبة تفرض على الصادر والوارد ، وكان اهم الصادرات وقتئذ الحبوب والقطن والسمسم ، وكانت فرنسا اهم الدول المستوردة لهذه المحاصيل .

* رئيف خوري ص ٦٦ .

٣) مال الخراج على الاراضي الاميرية وهو ربع المحصول وكان يستوفى من المزارعين .

٤) مال الجزية ويسميه الاتراك مال الاعناق وكان يؤخذ من اهل الذمة من اليهود والنصارى .

٥) مال الباج وهو رسم خفارة الطريق وكان يستوفى من الغرباء والتجار والزوار .

٦) مال المغارم العمومية التي يتقاضاها الوزير من جميع سكان الايالة ، وكذلك مال المغارم الخصوصية التي يفرضها على بعض الافراد على سبيل الجزاء او لطلب العون والمساعدة .

٧) دخل بيت مال المسلمين واهم ما فيه مخلفات من لا وريث له من اهل البلاد او الحجاج والجنود والاغراب وابناء السبيل .

٨) مال العوائد والهدايا التي يتقاضاها الوالي من الامراء والمشايخ وقناصل الافرنج وتجارهم، وكان يتقاضى هذه الاموال كحق له يجب على المكلفين اداؤه*.

لم تكن شكوى الجماهير نابعة من فداحة الضرائب او كثرة اصنافها بقدر ما كانت عليه من وسائل جبايتها . يظن القارىء لاول وهلة ان نظام الضرائب العثماني هو نظام حكومي انساني لاغبار عليه ولكنه عندما يتعمق في دراسته من الناحية التطبيقية ونوعية الموظفين المناط بهم جباية هذه الضرائب ، يعلم مدى الظلم الذي لحق بالمواطنين من جراء تطبيق هذا النظام غير الانساني ، فضلا عن الرشوة والفساد والفوضى التي صحبت جباية الضرائب .

لا جدال في انه كان يقف على رأس نظام الجباية حكام عرب واتراك لا هم لهم الا جمع المال والثراء على حساب المزارعين الصغار ، وكان يساعدهم في ذلك بعض شيوخ الاقطاع الذين خانوا رعاياهم وساروا في ركاب الدولة العثمانية الى آخر حد ، وما كان الاقطاعيون العرب سوى شركاء للدولة في هذه المكاسب فكانت تسندهم وتمدهم بما يحتاجون اليه من سلاح وعتاد لان ذلك قوام حياتها وسبيل بقائها واستمرار سيطرتها . واذا حدث ان حاد احد شيوخ الاقطاع عن خطتها وولى وجهه عنها ، كظاهر العمر مثلا ، فما اسرع ما تهاجمه مع حلفائها الاقطاعيين العرب في عقر داره وتنزل به وباتباعه وباموالهم ما تستطيع من حرق

* ميخائيل — انظر مقدمة الناشر والتوطئة لقسطنطين الباشا .

وقتل وتدمير ، وما كان اسهل من ازهاق الارواح في ذلك العصر، وما اسرع ماكانت تطير الرؤوس عن الجثث .

ذكر المؤرخون عدة اسباب لشقاء البلاد السورية في الدور العثماني اولها الظلم وآخرها الظلم ... ظلم الولاة الذين كانوا يرتشون ليرشوا الوزراء وظلم الجنود الانكشارية والدالاتية في حلهم وترحالهم الذين يصادرون وينهبون وينتهكون حرمات البيوت والاعراض ، وظلم صغار الامراء من اصحاب الاقطاع في البلاد ، ثم الجهل الذي كان مخيما على طبقات الامة كلها . فلولا الجهل لما كان الشقاق والتعصب والضعف والخنوع ولولا الضعف والخنوع لما استطاعت الدولة العثمانية ان تحكم رعاياها العرب ما يزيد على اربعمائة سنة* .

وهناك سبب آخر استخلصته من دراسة هذا العهد وهو النفاق المعيب الذي جبل عليه غالبية مشايخ الاقطاع في ذلك الزمن وطرق المصانعة والمداجاة التي سلكوها نحو العثمانيين الحاكمين . فاذا ثار حاكم عربي ، كظاهر العمر مثلا ، على الظلم ورفع السلاح في وجه الدولة وقف حلفاؤه او جيرانه او اصدقاؤه موقف المتفرج وانتظروا ... فان كانت بوادر الغلبة لهذا الثائر العربي اسرعوا اليه برجالهم وانجدوه بعد ان تكون الحاجة اليهم قد انتهت ، والا انقلبوا عليه فنصروا عدوه عليه وزادوه انكسارا على انكسار .

هذه الظاهرة نشاهدها في الحروب التي وقعت بين ظاهر العمر والدولة العثمانية ، وهي ظاهرة مردها الى الخوف من الحاكمين ، وانعدام الثقة بين مشايخ الاقطاع وبين طبقات الشعب ، والاضطهاد المستمر الذي عانوا منه كثيرا . فالخوف كثيرا ما يدفع بالانسان الى المراوغة ومصانعة الحاكمين ، وطول الاضطهاد ينتهي به الى اعتياده والاستكانة اليه والاكتفاء بالسخرية منه سرا ومنافقة الظالمين جهرة، فكثيرا ما سكت حيث يجب ان يصرخ وسخر حيث يجب ان يضرب ونافق حيث يجب ان يسكت على الاقل .

هذا كان حال الامة العربية في العهد العثماني وهذا هو حالها اليوم في عهد الاستعمار الغربي واجرائه المرتزقة ، ولن تستقيم للعرب حياة شريفة الا بخلق جيل جديد ينتفض على هذا الماضي ومخلفاته ويتخلص من رذائله وآفاته.

* امين الريحاني ص ١٢٩ .

٧) التحايل في جباية الضرائب :

يقول المؤرخون ان علة العلل وأصل كل الفتن في سوريا كانت ضرائب الدولة والاساليب القاسية في جبايتها . ولكن الضرائب بحد ذاتها ، كما سبق وقلت ، لم تكن مصدر شكوى بقدر ما كانت عليه طرق جبايتها . يقول محمد كرد علي :

«لم يكن ابن الشام يتبرم بنظام الدولة في الجباية بل لان الجباية كانت على غير قاعدة مطردة قد تجبى جباية سنتين او ثلاث في غير اوقاتها على شكل قروض وسلفيات في آن واحد ولا تراعى في الجبايات اعوام القحط والجدوب والمصائب واذا ضاقت الحال بأحد العقلاء او بعض الجماعات فرفع صوته بالشكوى عدوه خارجا وقاتلوه ... والا فلا يعقل ان يسكت جميع الناس عما ينال الامة من هذه الطريقة المعوجة في الادارة فالخير في الناس ما انقطع ولن ينقطع ومهما بلغ الشعب من الانحطاط لا يخلو من نبهاء يجاهرون بالحق ولو كان في المجاهرة حتفهم احيانا»(٩) .

ولما شعرت الدولة العثمانية ان اساليبها في الجباية تلقى معارضة قوية من الاهلين رجعت الى قاموس الضرائب لتستفتيه في انواع اخرى منها يقبل بها الشعب البائس ، ولما لم يسعفها ذلك كثيرا عمدت الى الابتكار وخلق انواع جديدة من الضريبة تحت اسماء جديدة لتخدع بها الناس وتحملهم على قبول الضريبة الجديدة ودفعها كالضريبة اللمسماة بالشانية التي فرضت في عهد الجزار على كل من يضع على رأسه غطاءاً من القماش كالكوفية والعمامة والطربوش .

كان لهذه المعاملة القاسية اثرها السيء في نفوس العرب . يقول فولني :
كان العرب يحملون للاتراك كراهية عمياء ويعتبرونهم مغتصبين خونة وانهم عنصر دخيل مغتصب يجب استئصاله(١٠) . انها في الحق لبادرة طيبة وخطوة صائبة تقدمية ان يكون لدى العرب مثل هذا الشعور في ذلك الزمن ، ويدل على ادراك كاف من جانبهم لحقيقة الوضع القائم بينهم وبين العثمانيين . وفي هذا عبرة لمن يريد ان يعتبر ...

٨) اساليب الدولة العثمانية في الايقاع بين مشايخ الاقطاع :

درجت الدولة على سياسة «فرق تسد» في سبيل ابقاء سيطرتها على البلاد

٩) كرد علي الجزء الثاني ص ٢٨٢ .
١٠) فولني الجزء الاول ص ٢٤٤ ترجمة ادوار بستاني .

السورية وذلك باثارة الفتن والدسائس بين مشايخ الاقطاع وضربهم بعضا ببعض ، فنراها تستعين بالجار على جاره والاخ على اخيه والابن على ابيه او تضرب الشيخ الثائر بعدو من اهل القطر • كان ولاة الاتراك خداعاً ونفاقاً يلعبون دور الصديق الصدوق والمصلح البار في هذه المنازعات فيشدون مع هذا الاقطاعي ويرخون لذلك شأنهم مع كل صاحب سلطة وقوة ، ويجب ان لا ننسى العصبيات وتهالك الدولة على اثارتها ، وكذلك المنازعات الدموية بين شيوخ الاقطاع حول حدود مقاطعاتهم التي كانت في اغلب الاحيان تؤدي الى خراب القرى بالجملة واضعاف كل من الاقطاعيين المتنازعين • كل ذلك جعل شيوخ الاقطاع في خوف دائم وقلق عظيم •

لذلك كان كل شيخ يبذل الوسع للتقرب من الشيخ الآخر ليتقوى به ويستعين به على جار طامع او دفع خطر غارة مفاجئة من الدولة او درء عادية البدو المسلحين • كان التحالف بين شيوخ الاقطاع يأتي عن طريق التراضي والتوافق بين شيخين متجاورين او عن طريق التزاوج، وان لم تأت هذه الوسائل السلمية بالغاية المنشودة فعندها تستخدم القوة ويساق الشيخ العاصي سوقاً الى هذا التحالف كما فعل ظاهر العمر ذلك مرارا بجيرانه الاقوياء فاحتل قلاعهم وتولى بلادهم •

بقي علي ان اقول كلمة بشأن الامن في البلاد السورية • كان الامن في الطرقات معدوما وكان المسافرون يسيرون ضمن قوافل مسلحة ويدفعون ضريبة لكل امير اوحاكم يمرون ببلاده • وكان للبدو ايضا عوائد مرتبة على القرى والمدن فاذا امتنع الاهلون عن دفعها قطع البدو عليهم الطريق او حملوا عليهم في قراهم ونهبوهم ونكلوا بهم •

كانت الطرق المائية في البحر الابيض المتوسط ايضا هدفا لتعديات القرصان المالطيين والاوروبيين الذين لم يكونوا على علاقة طيبة بالدولة العثمانية ، كان القرصان يتصدون للسفن العربية والتركية المبحرة في عرض البحر ويسلبون ما فيها وبلغ من قوتهم في ذلك الزمن انهم كانوا يسطون على المدن السورية الساحلية كبيروت وحيفا ويافا وينهبونها • واشتهر خليج حيفا بانه مأوى صالح لسفن القرصان ، ولا يخفى ما كان لهذه التعديات من الاثر السيء في حياة البلاد الزراعية والتجارية ، ولم يتحسن وضع الامن في البر والبحر الا بعد ان تولى ظاهر العمر زمام البلاد فقطع دابر اللصوص والبدو وصادق حكام مالطة مصدر القرصنة في

البحر الابيض ورفع تعدياتهم عن الساحل السوري •

٩) اوصاف ظاهر العمر :

قال ميخائيل الصباغ : اخبرني ميخائيل البحري تلميذ عبد الحليم الشويكي، قال(١١) :

«كان ظاهر سمع بابنة شيخ من مشايخ الصقر وصفوها له بالجمال فأرسل خطبها من أبيها وبنى بها ، وكان لها ابن عم يحبها ويرجي نفسه بالزواج بها فلما خطبها ظاهر استهاب الامر وسكت على هواه الى ليلة زفافها بالناصرة • ودخل ظاهر عليها واقام معها هناك مدة شهرين • وكان ظاهر ينظر من شبابيك قصره في اكثر الايام شابا من عرب الصقر عليه لوائح المرض ينظر الى شبابيك القصر فترك الامر ولم يبال به الى ذات ليلة اذ دخل الى بيته عند الغروب على غير ميعاد منه وقبل أن يدخل المقصورة التي كانت فيها سمع ظاهر صوت رجل فوقف قليلا وأخذ ينظر من خلال الباب فوجد معها الشاب الذي كان يراه يوميا تحت شبابيك القصر فرجع وجلس في مقصورة مقابل المقصورة المذكورة • واتفق حينئذ ان الجارية ارادت ان تدخل مقصورة سيدتها بأمر فمنعها ظاهر من الدخول وقال لها ادعي الامر الى ان تدعوك واقام في محله الى ان خرجت امرأته لامر فدعاها وقال لها : لقد اضطررت للحاجة الفلانية فظننتك نائمة وما كان لي امر مهم يوجب ان اوقظك من اجله والان انا خارج في طريقي وربما ارجع بعد قليل •

ثم خرج ظاهر وجعل ينتظر خروج الشاب من قصره فلما خرج اتى به اليه وقبض على يده وقال له : أتعرفني ؟ قال له : نعم ! انت الشيخ ظاهر ، قال له : من اين خرجت ؟ قال له : من بيتك • قال له ظاهر من انت ؟ قال له من عرب الصقر ابن الشيخ فلان • فقال له ظاهر : اذن عروسي ابنة عمك • قال : نعم ، فقال له ظاهر : رأيتك مرارا تحت شبابيك القصر وفي هذه الليلة وجدتك معها في غرفتها • فقال له : والله يا شيخ انت اكرم من سمح ، واما الحب لها فشديد من زمان مديد ، منعني

---

(١١) ميخائيل ص ١٥٠ – كان ميخائيل البحري من خواص ابراهيم الصباغ وزير ظاهر وتخرج على يديه ، وكان عبد الحليم الشويكي مدرسا ومربيا لابناء ظاهر عمل ميخائيل البحري كاتبا للامير يوسف الشهابي ثم عمل للجزار وتولى ديوانه ولكن الجزار تغير عليه فصلم اذنيه وجدع انفه • وتوفي البحري في بيروت سنة ١٨٠٣ •

ولا ابقى لي عقلا والحب ما اولاد عمي قومها فمنعوني لها اختيارك بها زواجي عن جسما فجعلت آتي الى تحت شبابيك قصرك ابرد فؤادي بذلك ، واما وجودي في غرفتها فوالله ما تعديت النظر اليها •

ثم قال له ظاهر : اانت اهل للجميل ؟ اجاب اظن انك تزرعه في ارض المرج • فقال له ظاهر : اذهب بالسلامة والسلام ولا تظهر لاحد شيئاً من هذا ، ثم دخل ظاهر الى زوجته وخلا بها وكان شديد الغرام بها لجدتها وجمالها ، فجلست بجانبه وارادت ان تداعبه فقال لها مكانك • فقالت له ما الخبر ، قال لها اخبريني القول هل تحبين احدا من بني قومك قبلا كنت بعلك والان انا اخوك اصدقيني القول هل تحبين احدا من بني قومك قالت له احب ابن عمي ولم تتجاوز محبتنا الى غير النظر والكلام • فقال لها اترغبينه بعلا لك ، فسكتت وتغير لونها ووقعت على رجليه تقبلهما وتقول : والله لم تتجاوز ما ذكرت •

فقال لها ظاهر لا بأس عليك قومي ادعي اليك والدك ومتى حضر اشكي اليه من شراسة اخلاقي وانا اشكيك له فاطلقك وادعو ابن عمك وازوجه بك •

فكان ذلك وعند الصباح طلقها بمحضر ابيها مع انه كان يتعيب الطلاق ثم دعا ابن عمها فجعله من بعض ملازميه ورتب له معاشا واقطعه ارضا وزوجه بها بعد ان استوفت عدتها • ولظاهر من امثال هذه الحكاية في الحلم شيء كثير» •

يصف عبود الصباغ صورة ظاهر فيقول : «كان ظاهر طويل القامة واسع الوجه شعره عسلي اللون»(١٢) • ويصفه ميخائيل الصباغ بقوله : «كان ظاهر ابيض اللون ممتلىء الوجه واسع العينين ذا فم صغير رقيق الشفاه الا ان الشفة السفلى اغلظ قليلا من العليا وحواجبه طويلة مقرونة ذا انف مدور معتدل الشكل ، طويل الذراعين والاصابع نحيف الجسم مربوع القامة متوسط الطول خفيف الذقن والشوارب واسود الشعر بالاصل ذا لحية مدورة، واكثر ابنائه شبها بصورته ولده علي ثم العباس وكان حليما جدا لكنه كان شديد الانتقام كما قال فيه عبد الحليم الشويكي في قصيدته العينية :

ان حلمت لست تبقي لحليم او بطشت لست تبقي للسباع»(١٣)

---

١٢) عبود ص ٣٨ •

١٣) ميخائيل ص ١٤٩ •

الفصل الاول

الزيادنة

١) بحث في اصل الزيادنة (١) :

أستهل هذا الفصل بعرض للروايات المتناقضة التي حفل بها تاريخ هذه الاسرة قبل اشتهارها • يقول ميخائيل الصباغ :

«الزيادنة عيلة كانت نازلة في بني اسد العرب النازلين في البراري التي حول معرّة النعمان بين الشام وحلب يرحلون مع بني اسد اينما رحلوا وينزلون حيث نزلوا ، وكانت تدعي هذه العيلة انهم اشراف من بني زيد بن الحسن بن علي ابن ابي طالب من فاطمة ، وهم بين اعمام واخوة واولاد اعمام واولاد اخوة مقدار خمسين نفرا» •

ولسبب ما هجرت هذه الاسرة ديارها بين الشام وحلب ورحلت الى غور الاردن وبريّة طبريا فأعجبها المكان لخصبه وكثرة مياهه واستقرت فيه فتعرفت الى أهله واشترت الغنم وفلحت الارض ، ومن برية طبريا رحل نفر من هذه الاسرة الى قرية عرابة البطوف الجبلية التابعة لبلاد صفد ونزلوا في ارضها وهي قرية من قرى الشاغور الجنوبي في الجليل (٢) •

---

١) ويقال لهم ايضا «الضواهره» نسبة الى ظاهر العمر اشهر شخصيات هذه الاسرة، وهي اكثر ما تقال عند الاشارة الى ذلك العهد فيقال مثلا «عهد الضواهرة» والملاحظ هنا ان الضواهره جاءت بالضاد لا الظاء . وكذلك في الشعر يكتب الاسم «ضاهر» لا «ظاهر» •

٢) ميخائيل ص ١٥ ـ يقع هذا المؤرخ في اخطاء كثيرة عند بحثه في اصل الزيادنة ، منها قوله : ان كبير هذه الاسرة هو علي والد عمر وجد ظاهر ، وقوله ايضا ان ظاهرا هو الذي رحل الى عرابة البطوف سنة ١٧٠٨ على اثر جريمة قتل ارتكبها في طبريا . وقد وقع في نفس الخطأ كل من اخذ عن هذا المؤرخ بعض التواريخ غير الصحيحة بدون تدقيق كاف . في اعتقادي كان رحيل الزيادنة الى عرابة البطوف قد وقع حول سنة ١٦٨٠ . ومن المؤكد الان ان جد ظاهر كان يسمى صالحا وليس عليا •

والى جانب هذه الرواية هنالك قولان آخران في اصل الزيادنة : الاول انهم منسوبون الى زيدان (وزيدان هذا بحسب هذه الرواية هو جد ظاهر) وهو من قبائل عرب الطائف في الحجاز امحلت بلاده سنة ١٦٩٠ وجاء الى عرابة البطوف بأخويه صالح وطلحة وخيموا فيها لوفرة مراعيها وهي من مقاطعات الشاغور التي كانت مستولية عليها اسرة درزية تسكن في قرية سلامة المجاورة ، فانتفض زيدان على مشايخ سلامة الدروز فقهرهم وانتزع السلطة من ايديهم وتولى البلاد مكانهم سنة ١٦٩٨(٣) ، ومن زيدان هذا بحسب هذه الرواية لا زيد ابن الحسن المذكور في الرواية السابقة اشتقت عبارة الزيادنة التي هي صيغة الجمع لزيدان . والقول الثاني ان الزيادنة منسوبون الى «بني زيدان» وهو الارجح ، وهي عشيرة كبيرة كانت من سوائل الاردن وبحيرة طبريا ، فقوي امرها واشتدت شوكتها حتى استولت على تلك الانحاء(٤) .

وفي روايات اخرى ان الزيادنة القدماء كانوا فلاحين متأصلين في حياة الجليل ويضمنون الاراضي منذ عهد بعيد(٥) .

هذه الروايات هي خلاصة ما قيل في اصل هذه الاسرة اوردها هنا على ما فيها من تناقض وخلاف .

واميل الى الاعتقاد ، استنادا الى ما رواه لي رواة معاصرون من مشايخ الجليل ، ان رحيل الزيادنة الى بلاد صفد واستقرارهم في قرية عرابة البطوف وقع حوالي سنة ١٦٨٠ ، وكان نزولهم في خربة صغيرة يقال لها « مسلخيت »

---

٣) المعلوف ص ١٣٠ ــ وجه الخطأ في ما رواه المعلوف قوله ان «زيدان» كان جدا لظاهر ، وقوله ايضا ان «زيدان» هذا هو الذي تولى شؤون البلاد سنة ١٦٩٨. واقول على وجه التأكيد استنادا الى رواية المعلوف نفسه ان «زيدان» هذا ليس الا عمر ابا ظاهر لا جده ، وانه هو ، اي عمر ، الذي انتفض على مشايخ قرية سلامه الدرزية وانتزع السلطة من ايديهم ، ثم تشيَّخ على بلاد صفد سنة ١٦٩٨ ، وليس بالامر المستبعد ان يكون الاسم «زيدان» لقبا له نسبة الى عشيرة بني زيدان التي ينتمي اليها ، كما سيجيء شرحه . ويقع هذا المؤرخ في اخطاء اخرى كثيرة عند بحثه في اصل الزيادنة لا مجال لذكرها هنا .

٤) فولني ج ١ ، المرادي ص ١٨٤ : ويقول : وكان والده (اي والد ظاهر) وجده واعمامه حكاما بصفد ، ويعرفون ببني زيدان وهم حمولة كبيرة . وفي رواية للمؤرخ جودت ، ترجمة عربية ص ٣٧٣ : ان جد هذه الاسرة قدم من المدينة المنورة واستقر في بلاد صفد .

٥) عبود ص ٢ ، حيدر ص ٧٨ .

تقع على مرتفع في سهل البطوف وعلى بعد ميلين جنوب عرابة . كانت هذه الاسرة عند نزولها في مسلخيت تتألف من ثلاثة اخوة كبيرهم يسمى «زيدان» وكانوا يستخدمون ثلاثة «بيوت شعر» لمأواهم ، ويُقال لهم عرب «جلوه» دلالة على انهم اجلوا عن ديارهم السابقة قسرا وكرها ، فاستقروا في عرابة البطوف ، واندمجوا في حياتها ، وما هي الا سنوات قليلة حتى ذاع صيتهم واشتهر امرهم في الجليل(٦) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى يبدو ان هناك خلافا بين المؤرخين حول مكان نشأة الزيادنة الاول واسباب ظهورهم ونوع الحياة التي كانوا يحيونها : ان بعض المؤرخين ، ميخائيل الصباغ مثلا ، يصفهم بالبدو الرحل الذين استقروا في عرابة البطوف بعد تجوال طويل في سوريا . واما عبود الصباغ وهو من اوثق المراجع في تاريخ هذه الاسرة ، فيصف الزيادنة القدماء بأنهم فلاحون يقيمون في طبريا التابعة لمعاملة صفد من ايالة صيدا ، ويصف كبيرهم وهو جد ظاهر الذي يجهل اسمه بأنه كان فلاحا متقدما على بقية الفلاحين اشتغل بضمان الاراضي واخذ طبريا التزاماً من وزير صيدا بكفالة امير جبل الدروز (اي جبل لبنان) ، ويضيف المؤرخ قوله : ثم مات هذا الجد ، وقام مكانه ابنه الشيخ عمر والد ظاهر الذي ظل يلتزم طبريا من وزير صيدا على يد امير جبل الدروز .

والحق يقال انه لا يوجد خلاف جوهري بين المؤرخين ميخائيل وعبود حول مكان نشأة الزيادنة في الجليل ، لان عرابة قريبة من طبريا وتابعة لها في امورها الداخلية ولا تعدو ان تكون ناحية منها ، لذلك ان اشارة المؤرخ الى طبريا انما هي في الواقع اشارة الى عرابة البطوف ، وهو امر يؤيده واقع الحال .

واما المؤرخون السوريون فيشيرون الى بلاد صفد على انها موطن الزيادنة الاول في الجليل بقولهم ان آباء ظاهر العمر كانوا يضمنون الاراضي من ولاة الامور في صيدا ودير القمر بلبنان ، وان عمر ابا ظاهر كان شيخا على بلاد صفد اقامه عليها الامير بشير اول الامراء الشهابيين في لبنان سنة ١١١٠ هـ (١٦٩٨ــ٩٩) وفوض اليه التزام اراضيها ، والملاحظ هنا انه بدلا من عرابة وطبريا يشير المؤرخون السوريون الى بلاد صفد على انها وطن الزيادنة ، وليس في هذه

---

٦) صالح الاحمد ، عمر المصطفى ، جريس عزام .

الرواية ما يتعارض مع الروايتين السابقتين من حيث مكان نشأة الزيادنة لان طبريا وكذلك عرابة كانتا تؤلفان قسما من بلاد صفد •

ويختلف المؤرخون بشأن اسباب ظهور الزيادنة واشتهارهم في الجليل • اذ ان ميخائيل الصباغ يعزو ذلك الى ظاهر في حين ان مؤرخين آخرين كالمعلوف والمرادي وحيدر يرجعون هذا النفوذ الى ما قبل ظاهر العمر اي الى ابيه (وفي بعض الروايات الى جده المكنّى بأبي زيدان) الذي مهد لظاهر سبيل الشهرة والنفوذ بتغلبه على مشايخ البلاد القدامى وانتزاعه السلطة من ايديهم •

وسأحاول في الصفحات القادمة اثبات صحة الرواية الثانية المعززة بالرواة المعاصرين في زماننا التي تقول باشتهار الزيادنة قبل عهد ظاهر العمر •

من الثابت الآن ان اقدم جد لهذه الاسرة وصل الينا اسمه هو صالح وليس «زيدان» كما ذكر اكثر المؤرخين(٧) ، ويسميه اهل قرية الدامون الحاج صالح• كان لصالح هذا ، على ما ذكر عبود الصباغ في مخطوطه ، ثلاثة اولاد وهم عمر ابو ظاهر وعلي شحطه (ولعل الأخير هو حمزه الذي كان ذا نفوذ في منطقة الناصرة *) فلما مات ابوهم صالح قام عمر ابنه عوضا عنه لانه كان اكبر اخوته • واصاب عمر نجاحا فاشتغل بالزراعة وضمان الاراضي وتولى سنة ١٦٩٨ مشيخة البلاد الصفدية ، واما الابن الثاني لصالح وهو علي فقد انتقل في زمن نجهله ولعل ذلك في اواخر القرن السابع عشر الى الساحل واستوطن قرية الدامون وعمل هو ايضا بالزراعة وضمان الاراضي ، وأما حمزه الابن الثالث لصالح فقد لزم اخاه عمر في عرابة(٨) • وعلي بن صالح هذا هو الذي بنى جامع الدامون سنة ١١٣٥هـ (١٧٢٢ – ٢٣) • ولعل صالحا او اولاده الثلاثة هم الذين قدموا الى عرابة ونزلوا في خربة مسلخيت واستوطنوا هذه الناحية ، كانوا في اول عهدهم في البلاد « بدو رحل » من عشيرة بني زيدان، ثم استقروا في عرابة واصبحوا مع الزمن فلاحين وملتزمي اراضي بارزين •

وقد توصلت الى ان صالحا هو الجد الاول المعروف لهذه الاسرة من الشعر

---

٧) يختلف المؤرخون حول اسم جد ظاهر : ميخائيل الصباغ يسميه عليا ، والمؤرخون السوريون يسمونه « زيدان » ، وآخرون في تاريخ الناصرة يسمونه عز الدين .

٨) عبود ص ٢ – هذا المؤرخ لا يذكر اسم صالح بالذات بل يدعوه بالجد الذي خلف اولادا ثلاثة هم عمر وعلي وشحطه .

أمنون صفحة (٩)

المنقوش فوق مدخل جامع الدامون الذي بناه علي بن صالح ، وهذا نصه :

عمر المساجد للتقى وبناها   من حل من رتب السعود ذراها
ربي ارضى عن علي ابن صالح   ذوالندى والمجد والحسب القديم ذراها
زد خمسة صاحي وقل تاريخه   شكر الاله قصودكم ورعاها(٩)

والتاريخ في عبارة «شكر الاله قصودكم ورعاها» هو ١١٣٠ هـ• يضاف اليه خمسة الواردة في البيت الاخير فيكون التاريخ الكامل لبناء الجامع هو سنة ١١٣٥ هـ (١٧٢٢ – ٢٣ م) •

فاذا كان باني هذا الجامع هو علي بن صالح فيكون اخوه عمر هو الاخر ابن صالح ايضا وهو دليل يكفي لتصحيح الخطأ الذي وقع فيه مؤرخونا القدامى والمعاصرون الذين اطلقوا على جد ظاهر خطأ اسم زيدان •

عاش علي بن صالح في قرية الدامون الواقعة في اطراف خليج حيفا وقبره فيها وقد لعب ولده محمد المكنّى بـ «ابو ضاني» دورا هاما في حياة ظاهر العمر ، وكان محمد بارعا في فنون الحرب •

٢) حادث سلامه :

يعزو الرواة الثقاة ظهور الزيادنة على المسرح السياسي في الجليل الى معركة حاسمة مكنتهم بمؤازرة جيرانهم اهل القرى من احتلال قرية سلامه الدرزية (ويكتبها البعض صلّامي) القريبة من عرابة البطوف وكسر شوكة مشايخها حكام الشاغور القبلي في الجليل •

يقول الرواة : كان الدروز قبل عهد الضواهرة (اي في القرن السابع عشر) اصحاب سلطة في بلاد صفد والجليل وكانت لهم عوائد معلومة مرتبة على القرى ويشمل نفوذهم المنطقة الواقعة ما بين عكا وطبريا وصفد حتى حدود جبل عامل ، وكانوا يوجدون بكثرة في هذه الاقاليم ويملكون عشرات القرى العامرة ويستمدون

---

٩) نقلت الشعر بنفسي زمن الانتداب البريطاني على فلسطين . جامع الدامون هدم في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ او بعدها بقليل ، على اننا نجد ذكرا لصالح في الاسم المشوش الذي اطلقه المرادي على ظاهر اذ سماه «عمر بن صالح الملقب بالظاهر الصفدي الزيداني » ، وكذلك نجد ذكرا لصالح في رواية المعلوف التي تقدم ذكرها بين الذين قدموا الى عرابة واستوطنوها وهم زيدان وصالح وطلحة .

نفوذهم من اخوانهم الاقوياء في لبنان ، كما كانوا يلتزمون اراضي الجليل من المعنيين حكام لبنان آنذاك ويرجعون اليهم في شؤونهم • وفي اكثر المراجع ان المعنيين كانوا دروزا(١٠) •

هذا ما كان عليه الوضع السياسي في بلاد صفد والجليل في اواخر القرن السابع عشر ، اي قبل ظهور الزيادنة وهو امر في غاية الاهمية اغفل المؤرخون الاشارة اليه او ابراز صورته • لذلك ان عدم الرضى من حكم المعنيين المحتضر الموالي لاخوانهم دروز الجليل هو الذي دفع سكان بلاد صفد الى الانتفاض على هذا الحكم ومحاربته وذلك على اثر معركة سببها خلاف على امرأة بين شيخ قرية سلامة الدرزي حاكم الشاغور وبين مشايخ قرية عرابة البطوف اكبر القرى الاسلامية في الشاغور القبلي • لقد بدأ الصراع بخلاف على امرأة ثم تحول الى صراع سياسي من اجل زعامة البلاد ، وانتهى هذا الصراع بانتصار مشايخ عرابة على خصومهم دروز الشاغور في معركة سلامة وانتقال حقوق التزام الاراضي اليهم ، وهو امر كان له تتائج بعيدة المدى في حياة الجليل اذ قلب الاوضاع السياسية فيه رأسا على عقب ، وعكس ميزان القوى لصالح اهل القرى السنيين وعلى رأسهم الزيادنة في عرابة • ومن هنا يبدأ عهد جديد في الجليل وبلاد صفد .

كان يقود معركة سلامة رجل من الزيادنة القدماء يسمى زيدان — يقول الرواة : كان في قرية سلامة المعروفة اليوم بخربة سلامة الواقعة على بعد خمسة اميال الى الشمال الشرقي من عرابة شيخ درزي شديد البطش مرهوب الجانب برجاله الدروز الاشداء باسط اجنحة نفوذه على ما جاوره من قرى الشاغور •

مر يوما شيخ سلامة بعرابة فوقع بصره على فتاة فأعجبه حسنها وطمع فيها لنفسه فتريث وقتا في القرية ثم ارسل فطلبها من ابيها • كان شيخ سلامة ، على ما ذكر الرواة ، محبا للنساء ومن عادته انه كلما اعجب بفتاة ارسل طلبها من ابيها ودفع مهرها واتخذها له زوجة دون ارادة اهلها ، وبعد اخذ ورد بينه وبين اهل الفتاة اجابه والدها الى ما طلب مكرها والتمس منه مهلة ليجهز فتاته •

وشق ذلك على اهل عرابة ولا سيما ان العريس كان درزيا وهم سنة • تقول

١٠) هيد (وثائق تركية) ص ٤٥ — يقول هيد : ان فخر الدين المعني الثاني اعظم الامراء المعنيين في لبنان كان درزيا ،وان سناجق صفد وصيدا وبيروت في القرن السابع عشر كان يقطنها الدروز بكثرة كبيرة .

الروايات جاء زيدان او الزيداني يوما الى عرابة فرأى مظاهر الغضب تسود القرية ولما عرف السبب قال لمشايخ القرية اجيبوا الدرزي الى ما طلب وعينوا له وقتا يوافيكم لاخذ العروس وانا قمين بأن اكفيكم شره ، واتفقوا على هذا •

كان زيدان صديقا لعرب الصقر الاقوياء النازلين وقتئذ في ضواحي طبريا وشاورهم بأمر هذا الزواج القهري ، فاستقر رأيهم على مد اهل عرابة بجماعة من رجالهم والعمل على احباط هذا الزواج بأي ثمن ، ورحل بعض الصقر بخيامهم ونزلوا في ضواحي القرية استعدادا للمعركة القادمة •

كان زيدان وقتئذ ينزل في ارض مسلخيت هو وذووه • في اليوم المعين لاخذ العروس انتقل زيدان هو واهل بيته ونزلوا جميعهم حول سنديانات القرية في الخلة المعروفة اليوم بوادي العين جنوب القرية (لا تزال سنديانة واحدة منها قائمة حتى هذا اليوم) ، ولما اقبل شيخ سلامة ورجاله الدروز الى عرابة قال زيدان لمشايخ القرية رحبوا بالضيوف فاذا استقر بهم المقام خذوا اسلحتهم واتركوهم يهزجون ويرقصون الى حين الرقاد ، وليأخذ كل منكم رجلا منهم ليأويه والاشارة بيني وبينكم طلق ناري ، فاذا سمع دويه لينقض كل منكم على نزيله ويجهز عليه •

يقول الرواة : وكان نزول العريس في المكان المعروف اليوم بالزاوية ، فلما لجأ الجميع الى الرقاد دخل زيدان على العريس وقتله ولما سمع دوي البارود في القرية هب رجالها والصقر المحيطون بها وافنوا جماعة الدروز ما عدا واحدا استطاع الهرب من مهاجميه فلحق به بعضهم وقتلوه قرب المكان المعروف اليوم بقبر البدوي •

اغار زيدان بعد ذلك وفي نفس الليلة مع اهل عرابة وعرب الصقر على قرية سلامة واخذوها على غرة ، فبطشوا بمن بقي فيها وهدموها وقيل في ذلك المثل : «كل من راسه حامي بركض على سلامه» • ولما تسامع بالخبر سكان القرى المجاورة هبوا لمساعدة عرابة فأغاروا على سلامه والقرى الدرزية المجاورة لها مثل النجيمية ودلاثة وكمانه والمرجم والربضية وسبانا وام العمد (جنوب سهل البطوف) وحازور فنهبوها وهدموها وهي اليوم خرائب • وتسمت القرية الاخيرة بعدئذ «حاصور» لانها آثرت الحصار فحوصرت ثم استسلمت ، وما اسرع ما تحولت هذه الانتفاضة من نزاع على امرأة الى صراع سياسي على

زعامة البلاد، وقد اتسع نطاقها وتناولت قرى درزية اخرى في الجليل فسقط بعضها وثبت البعض الآخر ، وبلغ عدد القرى الدرزية التي هوجمت وخربت ، على حد قول بعض الرواة ، اربع عشرة قريــة .

استولى اهل عرابة على كروم زيتون سلامه وضموهـا الى قريتهم ولا تزال في ايديهم الى هذا اليوم كما استولى اهل دير حنا على اراضي سلامه المتاخمة لقريتهم والحقوها بأراضيهم ، ومنذ ذلك الحين زالت سلامة كقرية وتعرف اليوم بخربة سلامة(١١) .

وتمضي هذه الرواية فتقول : واغضب هذا العمل وزير صيدا فذهب زيدان مع نفر من اهل عرابة الى صيدا واسترضوا وزيرها بالمال ، فـارتضى الـوزير واناط بمشايخ عرابة حقوق التزام اراضي الشاغور بدلا من مشايخ سلامه الدروز .

واستمر زيدان واهله يقيمون ضيوفا على اهل عرابة وكانوا يحصلـون على حصة من الالتزام ، كما انهم نفضوا عن انفسهم حياة البداوة واستقروا في القرية

---

١١) كرد علي ص ٣٠٠ ، عن مقال للخوري مرقس الخوري نشـر في مجلـة الزهرة الحيفاوية سنة ١٩٢٤ . هيد ص ١٦ ـ انه لا يؤيـد ولا ينفي وقـوع معركـة سلامة ، ولكنه محتار في امرها . المعلوف ص ١٣٠ . نعمان قساطلي في مقـال نشر في مجلة الجنان البيروتية سنة ١٨٧٧ ـ يؤرخ المعلوف وكذلك قساطلي هذه المعركة سنة ١٦٩٨ والصواب ان هذه السنة تعتبر بداية حكم الزيادنة في الجليل وفيها تم تعيين عمر ابي ظاهر شيخا على بلاد صفد. ويتحدث عن معركة سلامة من الرواة محمد الخطيب ، صالح الاحمد ، الخوري حنا مرقس ، موسى عبدالهادي ، وكثيرون غيرهم . يشير الرواة الى هذه المعركة كخلاف عابر على امراة بين حاكم سلامة الدرزي وبين اهل عرابة البطوف دون ان يفطنوا الى دوافعهـا الخفيـة والنتائج الخطيرة التي تمخضت عنها ، وهي رواية شعبية ومشهورة ولا تزال حتى هذا اليوم ، حديث الناس في قرى الجليل من اسلامية ودرزيـة ، والخبر اذا تواتر تكون له قوة التاريخ ، ولكن الغريب في الامر انهم (اي الرواة) كلهـم ينسبونها الى المدعو زيدان او الزيداني . ويروي الرواة تفاصيل كثيرة عن هذه المعركة ، منها ما رواه للمؤلف محمد عبد الله فقرا ودرويش العبد حموده وكلاهما من قرية البعينه (قضاء الناصرة) وهو ان رجلا من دروز قرية كمّانه الواقعة الى الشمال من سلامه يسمى «نصر حمود» كان خلال معركة سلامه قد التجـأ الى البعينه خوفا من الزيادنة وانصارهم واعتنق الاسـلام ، وتعتبر اسرته اليـوم المسماة «حمولة حمودة» من اكبر الاسر الاسـلامية في القرية وهم يتقربـون الى اولاد عم لهم من دروز قرية المغار حاليا . وفي قرى الجليل الان ، على حـد قول بعض الرواة ، كثير من احفاد سكـان قرية سـلامة القدمـاء ، وهم معروفـون ويتحدثون عن ماضيهم في سلامة .

فتحوا بيوتهم للضيوف حتى ذاع صيتهـم واكتسبـوا محبـة الـقريب والبعيـد بجودهم واريحيتهم ، ولم يطل الزمن حتى اثروا واقاموا الابنيـة ولا تزال اثـار دارهم القديمة قائمة حتى هذا اليـوم وهي مبنية من الحجـر الاسـود والحجر المشترك وهي الوحيدة من هذا الحجر في القرية . ويشير الرواة الى وجـود سجن ومشنقة في القريـة من عهـدهم .

وهناك من يقول اعتمادا على بعض الثقاة ان ظاهر العمر ولد في اعقاب حادث سلامة عندما كان الزيادنة في اوج قوتهم ونفوذهم ، وقد سمي بظـاهر نسبة الى ظهور الزيادنة واشتهارهم عقب معركة سلامة ، كما انهم سـموا «ضواهرة» لا نسبة الى ظاهر العمر اشهر شخصيات هذه الاسرة ، بل لتغلبهم على دروز بـلاد صفـد الاقويـاء (١٢) .

ويتحدث الرواة عن انتصار آخر احرزه الزيادنة القدماء عقب معركة سلامـه وخلاصته ان نزاعا نشب بين اهل قريتي عرابة ونمرين حول حدود اراضي القريتين المتجاورتين ، واحيل النزاع الى التحكيم ، فاختارت نمرين شيخ المقادحة الـذي كان يحكم الناحية واختارت عرابة الشيخ زيدان ليكونا حكمين في هـذا النزاع الذي كاد يؤدي الى سفك الدماء . واجري التحكيم على الحد المتنازع عليه ولكنه انتهى بصدام بين الفريقين اسفر عن مقتل شيخ المقادحة ، وكان قاتله بحسب هـذه الرواية اخ لزيدان عرف بشراسته وكثرة شروره . وعاد اهل نمرين الى قريتهـم مخذولين . يقول الرواة : وامر زيدان اخاه بقتـل مـن تبقى مـن شيوخ هـذه العائلة لانهم كانوا ظالمين ، فتتبع الزيادنة شيوخ المقادحة وقضوا عليهم الواحد بعد الآخر : قتلوا الاول في طبريا والثاني في صفوريـه والاخـير في شفاعمرو ، ثم استولوا على نمرين وفازوا بالتزامها ، وبذلك استراحت البلاد من هذه العائلة التي طالما طغت وبغت واستبدت بالرعية زمنـا ليس بقصير (١٣) .

حدثني صالح الاحمد احد شيوخ قرية عرابة المعاصرين نقلا عن آبائه واجداده قال : انه على اثر معركة سلامة وانكسار الدروز حكام الشاغور انتقل حق التزام

---

١٢) حنـا الشيتي .

١٣) كان المقادحة اصحاب النفوذ في الناصرة وصفوريه ، وكان الشناشـرة اصحـاب النفوذ في لوبية وطبريـا .

اراضي الشاغور القبلي الى مشايخ قرية عرابة ، واستمر الالتزام يخرج من صيدا باسمهم حتى تولاه بعد نحو خمس عشرة سنة عميد الزيادنة في القرية بكفالة الشهابيين حكام لبنان . واستنادا الى هذه الرواية التي تستحق كل عناية وتقدير لانسجامها مع سير التاريخ يكون وقوع معركة سلامة في سنة ١٦٨٣ او حول هذا التاريخ ، اذا اخذنا بعين الاعتبار ما رواه الامير حيدر المؤرخ الثقة لهذه الحقبة من الزمن من تعيين «عمر ابن ابي زيدان العمر المشهور» شيخاً على بلاد صفد سنة ١١١٠ هـ (١٦٩٨ — ٩٩) ، كما سيجيء شرحه مفصلا .

ودام حكم الزيادنة في بلاد صفد والجليل ، على ما رواه الرواة : ثمانين سنة منها اربعون سنة «عصاوة» على حد تعبيرهم ، ثاروا فيها على الدولة العثمانية وحاربوها(١٤) .

اما من هو زيدان هذا ومن هو اخوه اللذان تشير اليهما هذه الروايات وتنسب اليهما فعال البطولة في عرابة وسلامة ونمرين فهذا ما لا يزال رجما بالغيب ولكن هناك حقيقة واحدة اتى على ذكرها بعض المؤرخين كالامير حيدر وعبود الصباغ وهي ان عميد الزيادنة الذي تولى حكم البلاد الصفدية في اواخر القرن السابع عشر بمساندة الشهابيين في لبنان هو عمر ابو ظاهر ، واميل الى الاعتقاد ان عمر هذا هو نفسه كان المدبر والمخطط لمعركة سلامة ، وقد لقب بـ « زيدان » نسبة الى عشيرة بني زيدان التي ينتمي اليها(١٥) .

يتضح لنا مما تقدم ان ما رواه الرواة عن نشأة الزيادنة واشتهارهم في الجليل قبل عهد ظاهر العمر يتفق مع ما ذكره بعض المؤرخين في هذا الصدد ، كما انه يكشف لنا ولو شيئا يسيرا عن نواحي هذه الحقبة المظلمة وينير طريق الباحث

---

١٤) قول الرواة دام حكم الزيادنة ثمانين سنة صحيح ، فالمدة بين تولي عمر بن صالح حكم البلاد الصفدية سنة ١٦٩٨ ، وبين مقتل حفيده علي بن ظاهر العمر، آخر مشايخ الزيادنة في الجليل ، سنة ١٧٧٧ هي ثمانون سنة .

١٥) بما ان عمر هو اول من اشتهر من الزيادنة في الجليل ، فليس بالامر المستبعد ان يكون «زيدان» لقبا له اشتق من «بني زيدان» ، وغلب على اسمه الاصلي خصوصا اذا علمنا ان والده صالحا كان يكنّى بـ «ابو زيدان» ، ويؤيد ذلك ما رواه المعلوف في رواية سابقة له اذ يقول ان الذي انتفض على حكام سلامة الدروز وتولى البلاد مكانهم سنة ١٦٩٨ كان يسمى زيدان . وعلى ذلك يكون ابناء صالح الذين لجأوا الى عرابة عقب سنة ١٦٨٠ هم الاخوة عمر الملقب بزيدان وعلي حاكم الدامون وشحطه او طلحه كما يسميه المعلوف اوحمزه كما يسميه اسونا وهو الاصح

المستقصي .

لا شك في ان معركة سلامة وما عقبها من انتصار اهل القرى السنيين على دروز الجليل كان العامل الاول ، بالاضافة الى عوامل اخرى في تولي الشيخ عمر زعامة البلاد وايراث هذه الزعامة لولده ظاهر ، هذا رأي اتقدم به واري دعمه بمقتطفات من كتب التاريخ .

٣) الشهابيون يولون عمر الزيداني شيخا على بلاد صفد عام ١٦٩٨ :

من سياق التاريخ ومجرى الحوادث نستخلص الحقائق التالية : ان ظهور الزيادنة في الجليل واتساع رقعة حكمهم مرتبط بالحزبيات والمشاحنات العائلية والعصبية وما رافقها من تنافر حزبي بين القيسية واليمنية ، وتنافس على السلطة وتحول في ميزان القوى بانهيار دولة بني معن وقيام الشهابيين مكانهم في اواخر القرن السابع عشر ، يقول المؤرخون :

لما توفي الامير احمد بن ملحم المعني في ١٥ ايلول سنة ١٦٩٧(١٦) وانقطعت بموته السلالة المعنية اجتمع مشايخ جبل لبنان لينتخبوا واليا عليهم فاتفقوا جميعا على الامير بشير بن حسين الشهابي من سكان وادي التيْم (اقليم حاصبيا) لانه كان ابن اخت الامير احمد المعني المتوفي آخر السلالة المعنية ، فتوجهوا اليه الى وادي التيم ودعوه الى الولاية . فاستجاب الامير بشير للدعوة ووضع مكانه ابن اخيه الامير منصور الشهابي واليا على وادي التيم المتاخم لبلاد صفد واتى معهم الى دير القمر في عز عظيم .

استقبل الناس الامير بشير اجمل استقبال وبايعوه الولاية على جبل لبنان والتمسوا من وزير صيدا ان يحول ما كان في يد الامراء المعنيين من المقاطعات الى الامير بشير الشهابي كما كانت في يد اسلافه المعنيين ، فيدفع المال المترتب عليها كالعادة مع البقايا ، فارتضى الوزير بذلك وولاه حسب الطلب .

على ان الدولة العثمانية لم ترض بتعيين الامير بشير الشهابي واليا على لبنان وكذلك الاحزاب اليمنية المتنفذة القوية لم ترض به ايضا لاسباب يطول شرحها . وبعد مفاوضات بين اللبنانيين وبين اولي الامر في صيدا والاستانة تقرر ان يكون

---

١٦) الشدياق ص ٣٤٥ .

الامير حيدر بن موسى الشهابي البالغ وقتئذ الثانية عشرة من العمر، لاالامير بشير، خلفا للامراء المعنيين وان يضع يده على متروكاتهم لانه (اي الامير حيدر) كان احق بالارث لكونه ابن بنت الامير احمد المعني آخر السلالة المعنية في بلاد الشام ، والجدير بالذكر ان التزاوج كان جاريا بين المعنيين والشهابيين منذ زمن بعيد .

ولم يطل الزمن حتى ورد فرمان سلطاني باسناد ولاية الجبل الى الامير حيدر القاصر على ان يقوم الامير بشير بتصريف مهام الولاية بالنيابة عنه الى ان يبلغ الامير حيدر سن الرشد فيتولاها . وما ان تم للامير بشير الجلوس على كرسي الامارة سنة ١١٠٩ هـ (بدؤها ٣٠ تموز سنة ١٦٩٧) حتى فر الامراء اليمنية الى دمشق لان الامير بشير كان عدوا عليهم ويضمر لهم كل شر .

يقول المؤرخون انه في سنة ١١١٠ هـ (١٦٩٨ – ٩٩) خرج مشرف بن علي الصغير الشيعي المتوالي صاحب بلاد بشاره عن طاعة ارسلان باشا المطرجي والي صيدا ونبذ امره ، فاستنهض الوزير الامير بشير الشهابي لقتال مشرف اليمني المتوالي ، واطلق له مقابل ذلك ولاية بلاد صفد مع مقاطعات جبل عامل الثلاث، وهي مقاطعة بلاد بشاره المتاخمة لبلاد صفد ومقاطعة اقليمي الشومر والتفاح ومقاطعة الشقيف ، فجمع الامير بشير من رجال القيسية ثمانية آلاف مقاتل وزحف بهم الى قتال مشرف المذكور ، والتقى به في قرية المزيرعة من قرى بلاد بشارة ، واصطف الفريقان للقتال ولم تضطرم نار الحرب الا قليلا حتى انكسرت اليمنية، واخذ مشرف اسيرا وهلك من بني متوال خلق كثير .

وعلى اثر هذه المعركة الحاسمة اطلق وزير صيدا للامير بشير الشهابي التصرف في تلك الديار جميعها وسلمه امورها من صفد جنوبا حتى جسر المعاملتين ، ما بعد جونيه ، شمالا . فاستولى الامير بشير على هذه الاقاليم ، ولما استقل له الامر فيها وضع ابن اخيه الامير منصور الشهابي واليا على بلاد صفد وجعل تحت يده «ابا ظاهر عمر ابن ابي زيدان العمر المشهور شيخا على تلك الديار لانه قيسي»(١٧).

كثيرون هم المؤرخون الذين يشيرون الى اشتهار الزيادنة قبل عهد ظاهر

١٧) حيدر ص ٦ ، الشدياق ص ٣٦٠ – يلاحظ القارىء ان «العمر» مكررة في الاسم الذي اطلقه الامير حيدر على عمر ، كما نلاحظ ايضا ان العمر مكررة في التوقيع الذي وقعه ظاهر على الحجة الوارد صورة عنها في الفصل (٢٣) ، وهو « ضاهر عمر العمر » ، لذلك اقول جازما ان « ابو زيدان العمر » هذا ليس الا صالحا جد ظاهر وان الاسم الكامل لهذا الجد هو صالح العمر المكنى بـ « ابو زيدان » .

العمر والتزامهم الاراضي في اواخر القرن السابع عشر ، من ولاة الدولة في صيدا . يقول المؤرخون :

« كانت جبال بيروت واعمالها بيد حكامها الامراء الشهابيين يدفعون عنها الاموال لوالي صيدا المعين من قبل الدولة ، وكانت صور واعمالها بيد المتاولة يضمنون اموالها من والي صيدا ايضا ، واما جبال عكا وما اليها فكانت بيد مشايخها ومن جملتهم بيت ابي زيدان وكانوا يضمنونها من والي صيدا ايضا ، فما زال الامر كذلك حتى ظهر الشيخ ظاهر العمر » (١٨) .

ويؤيد نوفل نوفل استقرار الزيادنة في بلاد صفد منذ عهد الدولة المعنية واندماجهم في حياتها فيقول :

«ثم قام ابو زيدان (اي صالح) هو وولده عمر المذكور في بلاد صفد المذكورة مدة الى ان انقرضت العائلة المعنية التي مر ذكرها وتولى حكومة الجبل آل شهاب ودخلت كذلك بلاد صفد في حوزتهم فولى الامير بشير الذي كان نائبا عن الامير حيدر حاكم الجبل ابن اخيه الامير منصور على بلاد صفد وجعل تحت يده عمر ابن ابي زيدان المذكور شيخا على تلك الديار لانه كان قيسيا ، وكان ذلك سنة ١١٠٩ هـ ، ثم في سنة ١١١٤ هـ (١٧٠٢) توفي الامير منصور فابقى الامير (اي بشير) خلفا له الشيخ عمر ، وكانت عكة من ملحقات بلاد صفد تحت ولاية ابنه ظاهر»(١٩) .

ويقول الامير حيدر الشهابي في هذا الصدد :

«هذا الرجل (اي ظاهر) اصله من اهالي بر المدينة المذكورة (اي عكا) وهو من ذوي البيوت المشهورة فانتدبته الاعصار وساعدته الاقدار وضاء كوكب سعده واشرق شمس مجده الى ان صار حاكما على مدينة عكا واقطاعها ونائبا من تحت يد والي صيدا . وقد ذكرنا في هذا التاريخ ان في ايام بيت معن قد كانت تلك البلدان تحت يدهم الى ان انقضت مدتهم وامر الله في انصرام دولتهم وتخلف بعدهم الامير بشير الشهابي فولى الشيخ عمر على تلك البلدان الى ان آن الاوان

١٨) كرد علي ص ٣٠١ .

١٩) نوفل ص ٤٧ – المقصود من «عكا» الواردة في رواية نوفل هو عرابة الدامون القريبتان من عكا ، لان عكا نفسها لم تدخل ضمن ولاية ظاهر الا سنة ١٧٤٤ .

ومات الامير بشير فبقي الشيخ عمر (الصحيح ظاهر) حاكما» (٢٠) .

٢) الصراع بين القيسية واليمنية وأثره في توجيه سياسة البلاد :

كان سكان البلاد السورية في القرن الثامن عشر ينتمون الى حزبين كبيرين هما القيسي واليمني ، ويعود هذا الانقسام الى العصر الجاهلي عندما انقسم العرب في انسابهم الى جدين رئيسيين عدنان جد القيسية وقحطان جد اليمنية ، فالقيسيون هم من احفاد العرب الذين قدموا الى سوريا من اواسط جزيرة العرب وشمالها ، واليمنيون هم من احفاد العرب الذين قدموا من اليمن وجنوب الجزيرة العربية ، وكان لكل من الحزبين علمه الخاص ، فعلم القيسية كان احمر اللون وعلم اليمنية كان ابيض اللون . وكانت المنافسة بين هذين الحزبين قوية الى درجة انها ادت الى وقوع حروب بينهما لا اول لها ولا آخر .

اشتهر من القيسية في هذا العهد بنو معن وبنو شهاب والزيادنة ، واشتهر من اليمنية المتاولة في جبل عامل وبعض الاسر اللبنانية الدرزية المتنفذة كآل علم الدين وآل ارسلان وغيرهم . اما دروز الجبل وان كانوا في الغالب من القيسية كآل العماد والجنبلاط والنكد والعبدالملك ، الا ان البعض منهم كان يميل الى اليمنية وقد حارب فعلا الى جانبها كآل ابي هرموش الدروز القيسين ، كما سيجيء .

ولعب الصراع بين القيسية واليمنية دورا هاما في حياة البلاد السورية وقتئذ فيروى عن الامير بشير الاول انه كان يرغب في هلاك اليمنية فيعدم كل من كان يمنيا ويأخذ بناصر كل من كان قيسيا . ولما كان شيخ بلاد صفد في اواخر القرن السابع عشر يمنيا من بني البيتم ازاحه الامير بشير عن الولاية وشيّخ مكانه عمر الزيداني لانه كان قيسيا نظيره . وللدلالة على تعصب الامير بشير للقيسية انه حين قدم اليه بعض الشيعة اليمنية من بني متوال اصحاب مقاطعة الشومر والتفاح وبنو منكر اصحاب مقاطعة الشقيف ، واظهروا ولاءهم للقيسية ، عفا الامير بشير عنهم واقرهم على ديارهم ولاة من قبله ورجع الى دير القمر مؤيدا منصورا (٢١) .

ولما توفي الامير منصور ابن اخ الامير بشير في مطلع القرن الثامن عشر ، ابقى الامير بشير بعده عمر الزيداني شيخا على بلاد صفد لكونه قيسيا مواليا له ولكن

٢٠) حيدر ص ٧٨ ـ توفي عمر سنة ١٧٠٣ ، اي قبل وفاة الامير بشير بسنتين او ثلاث ، وقد خلفه ظاهر الذي كان له من العمر وقتئذ اربع عشرة سنة .

٢١) حيدر ص ٦ ـ ٨ .

القدر لم يسهل الشيخ عمر طويلا فحينما توفي سنة ١٧٠٣ قام ولده ظاهر عوضا عنه وبقي في الولاية الى ما بعد وفاة الامير بشير سنة ١١١٧ هـ (١٧٠٥ ـ ٦) .

وبعد وفاة الامير بشير اجتمع وجوه ديار جبل الشوف (اقليم دير القمر) وتوجهوا الى حاصبيا حيث كان الامير حيدر الشهابي يقيم فطرحوا مقاليدهم بين يديه واسندوا اليه الامارة على لبنان وهو اذ ذاك ابن احدى وعشرين سنة . يقول المؤرخون : واحيا الامير حيدر القيسية ونصرها الى حد لم ينصرها حاكم قبله كما انه كان على صلات طيبة بظاهر العمر .

وفي السنة التي توفي فيها الامير بشير وتولى فيها الامير حيدر على لبنان انعزل ارسلان باشا عن صيدا وقدم اليها بشير باشا واليا فسلخ الوالي الجديد مقاطعات جبل عامل الثلاث عن الامير حيدر وسلمها لاهلها المتاولة، وكذلك اقتطع الوالي الجديد من اراضي الامير حيدر صفد وبلادها وعكا وبلادها وابقى عليها متوليا من قبله «ظاهر ابن عمر ابن ابي زيدان» ، وبذلك لم يبق بيد الامير حيدر سوى جبل الشوف وتوابعه ، واغتاظ الامير حيدر من ذلك لانه رأى في اجراءات والي صيدا محاولة منه لاضعافه وتقوية خصومه المتاولة اليمنية .

لما استعاد مشايخ المتاولة مقاطعات جبل عامل الثلاث اظهروا ما عندهم من البغضة للامير حيدر فجعلوا يعيثون في البلاد فسادا زعما منهم بأنهم يثأرون لما فعل بهم سلفه الامير بشير في موقعة المزيرعة سنة ١٦٩٨ وما بعدها . اما ظاهر العمر فقد بقي منفردا عنهم قابعا على حدودهم الجنوبية وادا للامير حيدر لكونه سنيا قيسيا مواليا .

احتج الامير حيدر لدى بشير باشا والي صيدا على تجريده من بلاده الواسعة في جبل عامل وبلاد صفد وقيامه بنصرة اعدائه المتاولة وكتب اليه يلتمس منه ولاية بلاد بشاره المتاخمة لبلاد صفد كما كانت في عهد سلفه الامير بشير واغدق عليه الهدايا حتى استماله اليه ، فأجابه الوالي الى ما طلب وفوض اليه ولاية تلك الديار رغم انف المتاولة . ولما تولاها نهض من دير القمر بجيشه وسار اليها لقتال اهليها المتاولة واستردادها .

في سنة ١١١٨ هـ (١٧٠٦ ـ ٧) اغار الامير حيدر واحزابه القيسية على المتاولة في جبلهم وكسرهم في ضواحي النبطية شر كسرة واجلاهم عن ديارهم وولى محمود باشا ابا هوموش من مشايخ الدروز ، القيسي عنصرا واليمني نزعة ،

على بلادهم .

وهكذا استمرت الحروب ، وكانت اشبه بالمجازر الرهيبة منها بالحروب العادية بين القيسية واليمنية زمنا ليس بقصير ، الى ان تم النصر فيها سنة ١١٢٢ هـ (١٧١٠ – ١١) للقيسية وعميدها الامير حيدر الشهابي في موقعة عين داره الفاصلة ، فكسر شوكتهم وقضى على نفوذهم في لبنان ، ومنذ ذلك الحين رحل اكثر الدروز اليمنية الى حوران (٢٢) .

وارتفع اسم الامير حيدر زعيم القيسية واستتب له الامر في لبنان والجليل . واحتفظ الامير بظاهر العمر في بلاد صفد ليكون له عونا على المتاولة اليمنية اعداء الشهابيين والزيادنة معا .

هذا عرض للعوامل التي وجهت السياسة اللبنانية آنذاك وفيه ما يكفي للتدليل على اهمية الصراع القيسي اليمني في ذلك الزمن واثره القوي في توطيد حكم الزيادنة في الجليل .

والجدير بالذكر ان النزاع القيسي اليمني الذي لعب دورا هاما في تسيير دفة السياسة السورية في مطلع القرن الثامن عشر لم يلبث ان تحول مع الزمن وبفضل جهود ظاهر العمر من نزاع قبلي ضيق الى كفاح عربي قومي ضد الاتراك .

يتضح لنا مما تقدم ان ظاهر العمر كان حتى هذا الوقت شيخا اقطاعيا تابعا للشهابين ويلتزم البلاد عن طريقهم ، الا ان العلاقة الودية بينه وبينهم لم تستمر

---

٢٢) حيدر ص ٨ – ومما يسترعي الانتباه ان النعرة الطائفية غلبت على النعرة القبلية في الحروب التي نشبت في عين داره (قرب عاليه) ، من ذلك ان بعض الدروز القيسيين كانوا يميلون الى الدروز اليمنيين ويقاتلون الى جانبهم من هؤلاء اسرة ابي هرموش الدرزية المشهورة ،وعميدها محمود ابو هرموش الذي اقامه الامير حيدر متسلما على جبل عامل . ففي الحروب التي دار رحاها بين الامير حيدر زعيم القيسية وآل علم الدين الدروز اليمنية (وهي في راي البعض حروب بين الشهابيين المسلمين السنيين وبين انصار المعنيين السالفين) نجد ان محمود باشا خان سيده الامير حيدر وانضم مع قسم من انصاره الدروز القيسيين الى بني علم الدين في حروبهم ضد القيسية ، وكانت الدولة العثمانية تقف الى جانب اليمنية في حروبها هذه ، ولما تغلب الامير حيدر على بني علم الدين في موقعة عين داره المشهورة في آذار سنة ١٧١١ قبض على ابي هرموش وعاقبه عقابا شديدا ، ولكنه لم يقتله احتراما للدولة التي كان يحمل لقبها وحفظا لعادة اهل البلاد بأن لا يقتل مشايخ جبل الشوف عند اسرهم ، لهذه الاسباب كان الشهابيون في مستهل عهدهم في الحكم يشكون في اخلاص الدروز القيسيين لهم .

طويلا ولا سيما بعد ان تقرب من المتاولة وافلح في استمالتهم اليه . ولم يتم لظاهر التخلص نهائيا من نفوذ الشهابيين الا في اوائل العشرينات من هذا القرن، كما سيجيء .

٥) السنة ١٦٩٨ كانت نقطة تحول في تاريخ البلاد السورية :

ورغبة مني في توضيح بعض ما ورد في هذا الفصل من الاحداث الهامة وتسهيل فهمه على القارىء فاني اوجز ما تقدم بما يلي :

في ايلول سنة ١٦٩٧ توفي الامير احمد المعني فانقرضت بموته السلالة المعنية التي حكمت البلاد السورية زهاء مائة وخمسين سنة والتي كان عماد قوتها على الدروز لانه لم يكن لهذا الامير المعني ولد ذكر . فاجتمع مشايخ جبل لبنان واختاروا الامير بشير بن حسين الشهابي بالنيابة عن الامير حيدر القاصر حاكما على لبنان وعلى بلاد صفد ، ويضيف المؤرخون قولهم كانت البلاد وقتئذ حزبين، احدهما قيسي والآخر يمني وكانت القيسية اكثر واقوى من اليمنية وكانت راضية بولاية الامير بشير ، اما اليمنية فلم ترتض به ولكن لم تستطع التظاهر بمعاداته لضعفها وقلتها .

ونظرا لانقسام سكان الجليل وبلاد صفد الى قيسيين ويمنيين فقد اقام الامير بشير «عمر ابن ابي زيدان العمر المشهور» شيخا على بلاد صفد سنة ١٦٩٨ لانه كان قيسيا نظيره بدلا من الشيخ السابق الذي كان يمنيا . واما لماذا اختير الشيخ عمر بالذات لهذا المنصب وفي هذا الوقت وهو بدوي غريب عن الناحية قدم الى عرابة البطوف لاجئا قبل سنوات ، فلا تفسير لذلك ، في اعتقادي ، سوى انهيار سلطان بني معن وتضعضع قوى انصارهم دروز بلاد صفد وازدياد شوكة اهل القرى السنيين القيسيين ، وعلى رأسهم عمر بن صالح عقب معركة سلامة المشهورة ، لذلك يمكنني ان اقول ان حكم الزيادنة في الجليل قام على انقاض الحكم المعني الذي استمر زمنا يصعب حصره وتحديده .

لهذا كله كانت السنة ١٦٩٨ نقطة تحول في تاريخ سوريا وبداءة لعهد جديد دام طويلا ، ففي هذه السنة ظهر آل شهاب على المسرح السياسي في سوريا وبسطوا يدهم على لبنان حتى سنة ١٨٤٢ ، وفيها ايضا ظهر آل زيدان او الزيادنة وبسطوا

نفوذهم على بلاد صفد والجليل حتى سنة ١٧٧٧ ، ولا يخفى ما كان لرجال هاتين الاسرتين من يد في تسيير دفة السياسة العربية في القرن الثامن عشر وخاصة في ما يتعلق بتغلب العصبية القيسية على العصبية اليمنية ، وهو امر كان له نتائج بعيدة المدى في حياة البلاد السورية واثر بالغ في تكوين هذا المجتمع الحاضر الذي نعيش فيه والذي لا نزال نلمس فيه حتى هذا اليوم شيئا من اثار ذلك النزاع القديم يظهر ، بين حين وآخر ، باسماء جديدة وبصور عنيفة لا تخفى على اللبيب المطلع على دخائل الامور .

الفصل الثاني

ظاهر العمر

١ ــ مولده ونشاته :

مر بنا انه عندما استقل الامير بشير بالولاية على جبل لبنان اقام ابن اخيه الامير منصور واليا على بلاد صفد لكونها امتدادا للجبل وداخلة ضمن ولايته ، وجعل تحت يده الشيخ عمر بن صالح الزيداني شيخا على تلك الديار . ولما توفي الامير منصور سنة ١٧٠٢ ابقى الامير بشير الشيخ عمر في المشيخة . على ان الاراضي التي كان الشيخ عمر يلتزمها فعلا من الشهابيين لم تكن ، حسب المراجع التي في ايدينا ، تتعدى اراضي قريتي الدامون وعرابة البطوف اللتين كانتا مركزين لقرى خليج حيفا والشاغور القبلي . ولكن تعيين الشهابيين لعمر شيخا على بلاد صفد قد اكسبه نفوذا بين الناس يزيد كثيرا عما كان لغيره من مشايخ الاقطاع في الجليل ، كما كان هذا التعيين اكثر اهمية من الارباح التي كان يجنيها من ضمان هاتين القريتين .

لهذه الاسباب كان مشايخ الزيادنة عقب سنة ١٦٩٨ من اشهر اصحاب الاقطاع في الجليل واكثرهم غنى ونفوذا .

هذا ما كان من امر عمر اما اخوه علي فقد رحل، بعد وفاة ابيه صالح العمر المكنى بـ «ابو زيدان» بمدة ، الى قرية الدامون الساحلية واستوطنها وضمنها التزاما من الشهابيين ولكن عن طريق اخيه عمر لانه لم يكن يريد ان يكون له اسم عند الدولة خوفا من كسور المال الميري المتبقية عليها ، وولد له ولد سماه محمدا، وعلي هذا هو باني جامع الدامون سنة ١٧٢٣ كما قدمنا (١) .

وهكذا صار «الالتزام» على قريتي عرابة والدامون يخرج باسم الشيخ عمر

---

١) ليس بالامر المستبعد ان يكون هذا الاقطاع في الاساس ملك الجد صالح الذي اشتغل هو ايضا بضمان الاراضي كما جاء في بعض الروايات ثم اورثه لولديه ، فكانت عرابة من نصيب عمر ، والدامون من نصيب علي .

على يد الامير بشير الشهابي ، بصفته الامير الاول الملتزم لجبل لبنان وبلاد صفد .

بعد موت الشيخ عمر قام اولاده الاربعة عوضا عنه وهم صالح وسعد ويوسف وظاهر ، وكان ظاهر اصغرهم سنا وله من العمر اربع عشرة سنة عند موت والده بمرض الاستسقاء سنة ١٧٠٣ .

اختلف المؤرخون حول مكان وزمان ولادة ظاهر الا ان اصح تاريخ لولادته هو سنة ١٦٨٩ (٢) وفي عرابة البطوف على الارجح ، وقد ولد من ام بدوية من عرب السردية . وكان له اخت لام تسمى شما تزوجها ابن عمه محمد العلي .

ابى اخوة ظاهر الكبار بعد وفاة ابيهم ان يسجلوا صك «التزام الاراضي» باسمائهم بل نقلوه الى اسم اخيهم الاصغر ظاهر وذلك حتى لا يكون لهم اسم عند الدولة لخوفهم من كسور المال الميري ، اي الضرائب المتأخرة ، وقساوة الجباة في تحصيلها . ولذلك صار «الالتزام» على قريتي عرابة والدامون يخرج بصورة رسمية باسم ظاهر ويدار بواسطة الاخوة الاربعة بالاشتراك مع عمهم علي صاحب الدامون . ودر «الالتزام» عليهم ارباحا طائلة بالاضافة الى ما كانوا يجنونه من ناتج زراعة القطن والحبوب المزدهرة وتصريفها في الاسواق الدخلية والخارجية ، واستمر الحال على ذلك مدة من الزمن .

على ان صالحا الابن البكر لعمر اسر يوما في معركة مع عرب الصقر فاستيق الى دمشق وقتل هناك ، وهكذا بقي الالتزام يخرج باسم ظاهر ويدار بالاشتراك مع اخويه سعد ويوسف . واصبح الاخوة الثلاثة في اوائل القرن الثامن عشر من ابرز مشايخ الجليل الاوسط ، وكان ظاهر ابرزهم ، رغم صغر سنه ، واكثرهم مالا وشهرة بين الناس لكونه المسؤول الاول عن شؤون الالتزام وقضايا المنطقة . ولكون الالتزام مسجلا باسمه .

وفي ما بين سني ١٧٢٠ و١٧٣٠ تغير وجه الصورة وتفرق شمل الاخوة . اما سعد فقد بقي في عرابة مدة ثم نقل مشيخته الى قرية دير حنا القريبة منها بينما رحل ظاهر واخوه يوسف الى طبريا واستوطناها ، وبقي عمهما علي وولده محمد صاحبي السلطة في الدامون والساحل .

---

٢) ميخائيل ص ١٥٧ – ولد ظاهر حسب عبود سنة ١٦٩٠ وحسب المرادي سنة ١١٠٦ هـ. (١٦٩٤ – ٩٥) ، وسنة ١٦٨٥ حسب فولني

يتضح لنا مما تقدم ان الزيادنة كانوا في مستهل عهدهم في الحكم يسيطرون على رقعة ضيقة من الارض تمتد من عرابة شرقا حتى الدامون غربا . هذا ما كان عليه وضع الزيادنة السياسي والجغرافي في الربع الاول من سني القرن الثامن عشر .

اشتهر ظاهر في فجر حياته بالكرم والشجاعة والفروسية ويصفه عبود الصباغ بقوله : «انه كان شجاعا للغاية ولا يخاف من الموت ابدا» . وكان دأبه منذ ان شق طريقه في الحياة توسيع رقعة التزامه وضم اراضي جديدة الى اقطاعاته حتى غدا بعد سنوات صاحب المقام الاول بين مشايخ الاقطاع في الجليل (٣) .

تلقى ظاهر علومه على يد احد العلماء ويسمى عبد القادر الحفناوي فدرس عليه اصول القراءة والكتابة وبعض الادب والدين .

اتفق يوما ان احد علماء دمشق المدعو عبد الغفار الشويكي نزل ضيفا على سعد اخي ظاهر فلما جاء ظاهر من درسه ، قال الشيخ الشويكي لسعد ملذا يكون منك هذا الغلام ؟ فأجاب هو اخي وشقيقي يتعلم القراءة والكتابة والادب فالتفت الشيخ الشويكي الى ظاهر وقال له : هل حفظت يا بني كتاب الله ؟ قال له ظاهر : نعم يا شيخي . فقال الشيخ : وماذا اعجبك منه ؟ قال : اعجبني كله ، غير ان الذي رسخ في قلبي اكثر قوله تعالى : «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء» الى قوله تعالى «انك على كل شيء قدير» .

ثم سأله الشيخ وماذا حفظت من الاشعار ؟ قال حفظت من كل باب شيئا .

فقال له الشيخ : واي شيء استحسنته منها ، اجاب ظاهر قول الشاعر :

ان العواذل قد اتعبنني نصبا   وخلتهن ضعيفات القوى كذبا
فاعص العواذل وارم الليل عن عرض   بذي سبيب يقاسي ليله خببا
حتى تنال المعالي او يقال فتى   لاقى الذي يشعب الفتيان فانشعبا

وسأله الشيخ : وهل قرأت شيئا من كتب التاريخ ؟

اجاب ظاهر : نعم !

قال الشيخ : وما الذي استحسنت منها ؟

---

٣) عبود ص ٢ ، ميخائيل ص ١٥ – ١٨ ، فولني ص ٧٨ .

اجاب الظاهر : اجملها تأريخ ابي مسلم الخرسائي في الشرق وتأريخ عبد الله الشيعي وابن كيومتره في الغرب (٤) .

اشتغل ظاهر ايضا بالتجارة وكان خلال تردده الى دمشق مع القوافل ينزل ضيفاً على الشيخ عبد الغفار الشويكي ، وفي احدى المناسبات تعرف ظاهر بواسطته الى رجل كان يزور هو ايضا الشيخ الشويكي ، يسمى محمد ويصفه المؤرخ بأنه «شريف حسيني غني» ، وكان لهذا الرجل الثري ابنة ، هي ولده الوحيد ، تسمى نفيسة ، فأعجب ظاهر بها واتخذها له زوجة وكان له وقتئذ من العمر خمس وعشرون سنة .

وتوفي محمد والد نفيسة قبيل العام من زواج ابنته فورث ظاهر امواله ثم اتى بزوجته واسكنها الناصرة بينما ظل هو يقيم في عرابة يضمن الاراضي ويدير شؤون التزامه بالاشتراك مع اخوته .

وكان مما وقع لظاهر في مطلع حياته ان وزير صيدا المسمى محمد باشا ارسل يوما الى عرابة متسلما ليجبي المال الميري والعوائد الخاصة فلما قبض المتسلم ماله اخذ يطالب بمصاريف الطريق الى عرابة ذهابا وايابا ، وكان مبلغا ضخما يزيد على طاقة الاهلين ، الا انهم اضطروا الى دفعه مكرهين . ولم يكتف المتسلم بذلك بل سرعان ما اغار هو وعساكره على بيادر القرية ونهبوها ، فنفذ صبر الاهلين وثاروا على المتسلم واعتقلوه وكادوا يفتكون به لولا ظاهر واخوه اللذان انقذا المتسلم من القتل واصلحا بينه وبين اهل القرية ، فاعادا الى المتسلم اجرة طريقه واعادا الى الفلاحين نهبهم .

وفي اليوم التالي ركب ظاهر وسعد ، وبصحبتهما المتسلم ، الى صيدا وشرحا لوزيرها ماوقع للمتسلم، واراد الوزير انينزل القصاص بأهل عرابة فأسترضأه ظاهر شارحا له استبداد المتسلم بالرعية وطمعه بأموال القرية واخذه ما ليس له . فارتضى الوزير واناط بظاهر واخيه سعد جمع المال الميري وارساله الى صيدا دون ايفاد متسلم خاص لقبضها (٥) .

---

٤) ميخائيل ص١٨ .
٥)ميخائيل ص ٢٧ .

٢ ـ ظاهر العمر ينجد قرية البعنه عام ١٧٢١

تقع البعنه على هضبة في ارض جبلية وعرة وعلى مسافة سبعة اميال الى الشمال الغربي من عرابة وكان يحيط بها سور منيع .

اجمل فيما يلي ما رواه عبود الصباغ عن حرب البعنه :

قدم يوما الى صيدا وزير «قرط» على الملتزمين بعض المال الميري ،من هؤلاء الملتزمين شيخ قرية البعنه الذي كان مكسورا عليه مال من بواقي السنين السابقة فطالب الوزير شيخ البعنه بهذه لاموال المكسورة ، فأبى دفعها للسبب المتقدم ذكره. ولذلك خرج وزير صيدا على بلاد صفد بجيش غفير ليعاقب شيخ البعنه ويؤدب به بقية الملتزمين ، استجار شيخ البعنه بلاصدقائه ومن جملتهم ظاهر العمر الذي خف اليه على وجه السرعة (٦) .

اشتدت الحرب على اسوار البعنه وطال الحصار عليها يوما بعد يوم وابدى ظاهر من الشجاعة في قتال الوزير ما ادهش جميع الناس داخل القرية وخارجها ، فكان ظاهر يجول على الاسوار كالاسد الكاسر يستنهض همم المقاتلين ويحثهم على القتال والصبر ، وكان ظاهر يشتم الوزير بأعلى صوته حتى ان الوزير سمع الشتيمة بأذنيه واعلن عن جائزة ثمينة لمن يأتيه برأس ظاهر ، واستمر الحصار اربعين يوماً ، وفي نهاية هذه المدة اراد اهل البعنه ان يستسلموا للوزير بسبب قلة الذخيرة وشدة الحرب فعارضهم ظاهر وناشدهم الصمود في الحرب لان الوزير ، حسب رأيه ، كان مرغما على وقف الحرب والتخلي عن الحصار بعد ايام قليلة وذلك من اجل الخروج لاستقبال جردة الحج التي حان موعد رجوعها من الحجاز ، كما جرت العادة في ذلك الزمان . وابى اهل البعنه الانصياع لظاهر وعزموا على التسليم فعند ذلك صار ظاهر كالسكران في وجل عظيم لمعرفته ان الوزير لن يغفر له اذا ما قبض عليه ، وصار يبحث عن وسيلة تمكنه من الفرار .

واخيرا جاءت الى ظاهر امرأة ودلته على ثغرة في سور القرية ملاصقة لبيتها ، ومن هذا المنفذ استطاع ظاهر بعد مشقة كبيرة ومسيرة الليل بطوله ان ينجو بنفسه ويصل الى بلده .

---

٦) عبود ص ٣ ـ هذا المؤرخ ينسب هذه الحرب الى وزير صيدا ،والامير حيدر ينسبها الى وزير دمشق « عثمان ابو طوق » .

وفي صباح اليوم التالي خرج اهل البعنه من قريتهم واستسلموا للوزير . لم يعف الوزير عن اهل البعنه بل قتل شيخهم مع قسم كبير من الاهالي. وارسل يسأل عن ظاهر فأخبر بهربه ، فهم باللحاق به لقتله ولكنه عدل عن ذلك في اللحظة الاخيرة لانه كان مرغما على ترك البعنه لاستقبال جردة الحج التي اقترب موعد رجوعها من الحجاز(خريف سنة ١٧٢١)، وهكذا غادر الوزير البعنه على عجل معلنا عن عزمه على قتل ظاهر بعد وصول جردة الحج • ولكن الوزير لم يستطع تحقيق رغبته في قتل ظاهر لانه اقيل من منصبه بعد ايام من وصول الجردة . وتولى صيدا مكانه وزير من بر الترك لم تكن له معرفة بظاهر ولم يكن له اي اعداء . واحسن ظاهر حاله مع الوزير الجديد وصادق في دفع المال الميري •

ويتابع المؤرخ كلامه فيقول : «وصار ظاهر يتقوى سنة بعد سنة فيحارب الفلاحين من حوله ويأخذ اراضيهم ثم يلتزمها رأسا من وزير الدولة في صيدا دون حاجة الى كفالة الشهابين بلبنان لان قوته ازدادت مالا ورجالا» (٧)• انتهت رواية عبود، وبعبارة اخرى لم يعد ظاهر عقب حرب البعنه تابعا للشهابيين او يلتزم البلاد عن طريقهم ، كما كان الحال عليه سابقا، بل اصبح اقطاعيا مستقلا تابعا لوزير الدولة في صيدا .ولعله من المفيد ان نقول ان هذا التحول في شؤون الالتزام من جانب ظاهر نحو صيدا بدلا من دير القمر كان بداءة لعهد جديد في حياته السياسية وحدثا هاما في تاريخ الجليل •

هذا مجمل ما رواه عبود الصباغ في مطلع مخطوطه عن حرب البعنه وهو المصدر الوحيد عن هذه الحرب ، ولكن المؤرخ لم يخبرنا عن اسم الوزير الذي هاجم البعنه ولا السنة التي جرت فيها حوادث هذه الحرب ، على اننا نستطيع ان نجد توضيحا لذلك في ما رواه الامير حيدر في حوادث سنة ١١٣٣ هـ• (١٧٢١) وفي ما يرويه اليوم اهل البعنه المعاصرون الذين يكونون الحلقة المفقودة في سلسلة ما غمض من هذه الحرب •

يقول اهل البعنه اليوم نقلا عن آبائهم واجدادهم ان قريتهم عصت على الدولة العثمانية في عهد الضواهره ، فقدم لمحاربتها وزير يسمى «ابو طوق» • اقام الوزير معسكره على الجبل الشمالي وجعل يمطر القرية بوابل من القلل والمقذوفات •على

٧) عبود ص ٣ – ٦ .

ان الوزير لم يصب نجاحا من هذا الموقع نظرا لعلو الجبل الذي كانت تقوم عليه مدافعه ، فكانت القلل تمر من فوق القرية وتتساقط في السهل • عندئذ نقل «ابو طوق» مدافعه الى الموقع المعروف اليوم «بالوطاق» وهو عبارة عن هضبة تقع الى الشمال الشرقي من القرية وعلى مستوى مسطحها، وشرع من هذه الهضبة يصب حممه ثانية على القرية حتى هدم جانبا منها واستولى عليها ، ومنذ ذلك الحين اصبحت هذه الهضبة الشمالية الشرقية تعرف «بالوطاق» (٨) او موقع الوطاق نسبة الى وطاق الوزير «ابو طوق» اي الى معسكره الذي اقامه في ذلك المكان واصاب نجاحا منه، ولا تزال آثار القذائف ظاهرة في احد معاقل القرية وهو لا يزال قائما الى هذا اليوم وبطش «ابو طوق» بسكان القرية واجلاهم عنها وبقيت القرية مهجورة سنين عديدة (٩) •

فمن هو «ابو طوق» هذا يا ترى الذي يتحدث عنه اهل البعنه ؟

اذا رجعنا الى كتب التاريخ نجد ان «ابو الطوق» هذا لم يكن سوى «عثمان باشا ابو طوق» الذي تولى ايالة دمشق مرتين ، أو ولده «احمد باشا ابو طوق» وزير صيدا ، في نفس الوقت تقريباً ، الذي ذكر عنه الامير حيدر في حوادث سنة ١١٣٣ هـ• انه خرج بالعسكر على بلاد صفد. وقتل منهم اكثر من ثلاثماية قتيل • لذلك يمكنني ان اقول استنادا الى هذا المرجع الهام ان حرب البعنه هذه كان وقوعها في سنة ١١٣٣ هـ• (١٧٢١) او في خلال ولاية «عثمان ابو طوق» على دمشق التي استمرت حتى اوائل سنة ١٧٢٥ •وفيما يلي رواية الامير حيدر اثبتها كما اوردها المؤرخ ، على ما فيها من ركاكة وغموض •

«في هذه السنة (١١٣٣ هـ• بدؤها ١٧٢٠/١١/٣) تولى على الشام عثمان باشا كتخدا (اي عثمان باشا ابو طوق) • وفي هذه السنة كانت الفتنة بين المشايخ بني متوال الشيخ ضاهر العمر وحكام بلاد صفد وجرى بينهم قتال شديد • فانهزموا الصفديون وقتل مقتلة عظيمة» • ويتابع المؤرخ كلامه فيقول «ثم خرج عثمان باشا بالعساكر على بلاد صفد وقتل منهم انوف من ثلاثماية قتيل• وقتل البشناق واولاده المشايخ ببلاد صفد» •

٨) اصل كلمة وطاق هو «اوتاق» وهي تركية بمعنى موقد النار ،وتطلق غالبا على الدار او المخيم •

٩) عيسى بولس •

تتألف رواية الامير حيدر من عبارات مفككة لا رابط بينها ومن الصعب تفهمها تفهما صحيحا ومع ذلك فاني اقول جازما استنادا الى رواية اهل البعنه الانفة الذكر ان عبارة «بلاد صفد» الواردة في الفقرة الاخيرة من رواية الامير حيدر . ان هي الا اشارة الى قرية البعنه لان القرية تقع في قلب بلاد صفد .

وفي رأي بعض المؤرخين ان البشناق الوارد اسمه في هذه الرواية ليس الا صالح العمر اخا ظاهر الاكبر الذي وقع اسيرا في ايدي عرب الصقر والذي ارسل حبيسا الى «عثمان باشا ابو طوق» ثم اعدم شنقا في دمشق (١٠) .

اما مقتل صالح العمر فيحيط به الغموض . يقول عبود الصباغ : ان ظاهر العمر حارب الصقر وفي هذه الحرب اخذ الصقر صالح العمر اسيرا وابوا الافراج عنه لا بمال ولا بغيره بل سلموه الى سليمان باشا العظم وزير دمشق فقتله هذا الوزير شنقا . ويتابع المؤرخ كلامه فيقول : وبسبب ذلك اشتعلت نار العداوة بين ظاهر العمر وبين سليمان العظم ، وكذلك بينه وبين الصقر (١١) .

هذا من جهة ومن جهة اخرى يقول فولني بوضوح : ان قاتل صالح العمر لم يكن سليمان العظم (كما ذكر عبود في الرواية السابقة) بل هو وزير آخر ولم يعط المؤرخ اسمه (١٢) ولعل قاتله هو «عثمان باشا ابو طوق» او في عهده كما ألمح الى ذلك الامير حيدر في الرواية المقتبسة اعلاه ودعاه البشناق .



---

١٠) قسطنطين الباشا ـ ميخائيل ص ١٨ الحاشية .
١١) عبود ص ٧ .
١٢) فولني ج ٢ ص ٧٨ .

الفصل الثالث

ظاهر العمر يتولى على بلاد صفد والجليل

١ ـ بلاد صفد في القرن الثامن عشر :

بعد انتهاء الحروب الصليبية وخراب عكا عام ١٢٩١ نقل العرب نظام الادارة الى مدينة صفد وجعلوها عاصمة الجليل بدلا من عكا (١) .

احتفظت صفد بمكانتها التجارية والسياسية حتى اواسط القرن الثامن عشر عندما استولى ظاهر العمر على مدينة عكا عام ١٧٤٤ وجعلها مقرا لحكومته . ومنذ ذلك الحين بدأت صفد بالتأخر تجاريا وسياسيا .

اشتهرت بلاد صفد بزراعة القمح والذرة والسمسم وكذلك القطن الذي تميز بجودته وشدة بياضه ، خصوصا ما كان يزرع منه في قرى عكا الساحلية مثل الدامون وعبلين وطمره وشفاعمرو ، وكانت فرنسا اكثر الدول الاوروبية استهلاكا لهذا القطن .

كانت صفد في النصف الاول من القرن الثامن عشر مدينة عامرة ومركز متسلمية ترجع في شؤونها الى امراء لبنان ووزير الدولة في صيدا لكونها امتدادا لرقعة الجبل وكانت البلاد التابعة لها تمتد من غور الاردن ومرج ابن عامر جنوبا حتى قريتي البصة ويارون المتاخمتين لجبل عامل شمالا ، وكثيرا ما شجر خلاف حول هاتين القريتين بين ظاهر والمتاولة اصحاب جبل عامل مما ادى الى نشوب الحرب بينهما اكثر من مرة .

اشتهر من مشايخ الاقطاع في الجليل محمد نافع صاحب قلعة صفد المشهورة وكان اقطاعه يضم بالاضافة الى صفد ، قريتي البعنه وسحماتا الجبليتين ، وقد اقام عليهما نائبا عنه ابن عمه عبد الخالق صالح شيخ قرية دير القاسي في الجليل الاعلى . وكان احمد الحسين شيخاً على قلعة جدين وقد شمل ظلمه قرى الوبر وابي سنان وترشيحا ، وكان ابن ماضي شيخ الكرمل صاحب النفوذ في قرى مرج ابن عامر

---

١) مخولي ص ٤٢ .

الغربية التابعة لولاية صيدا بالاضافة الى حيفا وقريتي الطيرة والطنطورة الساحليتين التابعة لولاية دمشق (٢) •

كان الفلاحون يقاسون الامرين على يد مشايخ الاقطاع الذين كانوا يستغلونهم ابشع استغلال ويغتصبون اموالهم بشتى السبل ، وكذلك على يد عرب الصقر الذين كانوا يغيرون على القرى ويعتدون على السابلة في الطرقات • أضف الى هؤلاء والي صيدا الذي بزّ مشايخ الاقطاع ظلما وتعديا • كان هذا الوزير اذا سمع برجل مستور الحال اتى به اليه ثم حبسه وكلفه دفع مبلغ من المال يزيد على طاقته كما انه لم يكن يكتفي بالمال الميري المخصص له وهو الربع بل بلغ به الطمع الى حد الاغارة على بيادر الفلاحين ونهبها او ذبح ابقار القرية واطعامها لعساكره •

هذا ما كان عليه حال الامن في بلاد صفد في النصف الاول من القرن الثامن عشر •

٢ ــ عرب الصقر يستنجدون بظاهر العمر :

وفي ما بين سنة ١٧٢٠ ــ ١٧٣٠ كان لعرب الصقر سيطرة على اراضي مرج ابن عامر ، وكانوا لا ينفكون يغيرون على القرى الآمنة وينهبونها • ولما تفاقم امرهم في المرج بعث اهل القرى الى والي صيدا يلتمسون منه حمايتهم من البدو وتوطيد الامن في قراهم • رحب الوزير بالطلب لان اعمال السلب ضمن اراضي ولايته كانت تعود عليه هو ايضا بالضرر من جراء خراب القرى ونهب محاصيل الفلاحين ، لذلك اوعز الوزير الى ابن ماضي في مهاجمة الصقر واجلائهم عن اراضيهم المرجية ، وكان هذا قصارى ما يتمناه ، فباغت ابن ماضي عرب الصقر يوما وبطش بهم ثم باغتهم المرة تلو المرة حتى ضج الصقر ، ولما بحثوا عن السبب قيل لهم ان والي صيدا هو المحرض عليهم • فقر رأيهم على مقاومة الشر بالشر والاستعانة بنفر من مشايخ القرى في سبيل ذلك •

واخيرا وقع خيار الصقر على مشايخ الزيادنة في عرابة فمضوا اليهم وطلبوا معونتهم في قتال ابن ماضي ووالي صيدا عدوهم الاول والمحرض عليهم • استجاب ظاهر لطلبهم وتم الاتفاق بينه وبينهم على ان يتزعم ظاهر الشاب حركة جديدة

٢) ميخائيل ص ٢٥ •

الغرض منها اثارة المتاعب لوالي صيدا ومقاتلة ابن ماضي في المرج • واتفقا ايضا على ان يرحل ظاهر واتباعه الزيادنة الى طبريا ويثيروا الفتن ضد متسلمها التركي على ان يكون شيخ الصقر المسمى ارشيد الجبر وعربه حول طبريا حتى اذا ما وقعت بين ظاهر ومتسلم المدينة اقل مخاصمة يأتيه بعربه على الفور (٣) •

وكان معلوما لدى الطرفين انه بعد ان يستتب لظاهر الامر في طبريا ومرتفعاتها المطلة على مرج ابن عامر يسهل عليه مهاجمة ابن ماضي ومشايخ آل جرار اصحاب قلعة سانور الذين كانوا وقتئذ يسيطرون على اراضي المرج • على ان مهاجمة هذين الخصمين مجتمعين في هذه المرحلة لم يكن بالامر السهل على ظاهر نظرا للعلاقات غير الودية التي كانت تربطه باقطاعيي الجليل الاعلى الاقوياء ، وكان ظاهر يخشاهم كما ان عرب الصقر لم يكن يُركن اليهم •

٣ ــ طبريا في القرن الثامن عشر :

كان للولاة الاتراك سيطرة ضعيفة على طبريا لبعدها عن قواعد الولايات وانعزالها ، ولم يعرف عن اقطاعي قوي فرض سلطانه عليها كما كان الحال عليه في صفد الجبلية •

كان النفوذ في طبريا في ذلك الزمن لعشائر البدو المحيطين بها ، وبعبارة اخرى كانت طبريا اشبه ما يكون بفراغ وكان لا بد من اقطاعي قوي يملأ هذا الفراغ ولذلك وجه ظاهر اهتمامه اليها مستعينا بعرب الصقر اقوى بدو تلك المنطقة •

كان يقطن طبريا زهاء مائة عائلة تعيش على الزراعة وصيد الاسماك وكان يحيط بها سور قديم متهدم من بقايا تحصينات صليبية عفا عليها الزمن •

ان زمن انتقال ظاهر الى طبريا بالضبط غير معلوم ، واغلب الظن ان انتقاله اليها واستيطانه لها كان بدافع خبرته القاسية في حرب البعنة سنة ١٧٢١ ، وبسبب ما كان لها من المزايا الدفاعية التي تفتقر لها المدن الداخلية الاخرى : فمن الشرق كانت البحيرة تصد عن المدينة كل اعتداء ، كما كان سورها القديم اذا احسن ترميمه كفيلا بأن يرد عنها كل مهاجم طامع ويمكنها من حصار طويل الامد •

٣) ميخائيل ص ٢٨ •

في طبريا تبدأ صفحة جديدة من تاريخ ظاهر العمر • ان زمن توليه اياها رسميا مجهول وان جاز لي ان احدد لذلك تاريخا ففي حوالي سنة ١٧٣٠ ، اي بعد ان استطاع ظاهر ان يمكن نفسه ويوطد مركزه في عرابة البطوف وناحيتها، ونجد ذكرا لظاهر لاول مرة في طبريا في ما رواه يعقوب بيرب المعاصر في هذا الصدد فيقول :

وهاجم سليمان باشا العظم ظاهرا في طبريا وحاصره فيها خمسة ايام ، وكان ذلك قبل سنة ١٧٣٣ ، كما سيجيء •

ورغبة مني في تسهيل عرض نواحي حياة ظاهر العمر الطويلة على القارىء وشرح اعماله فاني اقسّم حياته الى اربعة ادوار :

الدور الاول : من سنة ١٦٨٩ ــ ١٧٣٠ ويشمل نشأته وباكورة عمله في عرابة البطوف •

الدور الثاني : من سنة ١٧٣٠ ــ ١٧٤٣ ويشمل اقامته في طبريا واستيلاءه على بلاد صفد والجليل •

الدور الثالث : من سنة ١٧٤٤ ــ ١٧٧٠ ، ويشمل اقامته في عكا واتخاذها عاصمة لبلاده •

الدور الرابع : من سنة ١٧٧٠ ــ ١٧٧٥ ، وهي الصفحة المشرقة في تاريخ حياته اذ تحول كفاحه ضد الاتراك من عصيان وتمرد الى حروب رهيبة بتحالفه مع روسيا وعلي بك الكبير حاكم مصر •

٤ ــ ضرائب الظلم والاغتصاب تثير اهل طبريا :

وضع ظاهر نصب عينيه منذان قدم الى طبريا هدفا واحدا هو اقصاء وكلاء الاتراك عن المدينة وتوليها هو بالتعاون مع مشايخ الصقر الذين اجري الاتفاق معهم مؤخرا • وما اسرع ما سنحت الفرصة لذلك في اعقاب الحادث التالي الذي يشف عن الظلم الذي لحق بالفلاحين من جراء طمع الحكام باموال الرعية •

كان متسلم طبريا وقتئذ شاويشا من اتباع محمد باشا وزير صيدا وكان لديه من الجند عشرون او ثلاثون رجلا • اتفق يوما ان رجلا من طبريا يسمى محمد نصار ضمن من المتسلم ضيعة وبعد ان دفع له مالها المقرر طلب المتسلم منه ان يعطيه كيسين

اخرين زيادة لانه وصل الى علم المتسلم ان الرجل غني • ولما تمنع محمد نصار عن الدفع وضعه المتسلم في الحديد واجرى عليه العذاب •

عندما بلغ والد محمد نصار ما جرى لولده هرب من وجه المتسلم لئلا يؤخذ بجريرة ولده ومضى الى عرابة مستجيرا بظاهر العمر •

واستجاب ظاهر لطلبه ، فطلب مقابلة الشاويش،وقابله وكلمه كلاماً لينا بشأن اخلاء سبيل محمد نصار فأبى، عند ذلك هاجم ظاهر السجن فحطم ابوابه واعتق كل من كان فيه من السجناء ، وقبض على الشاويش •

دعا ظاهر اليه قاضي طبريا والامام والوجهاء فكتبوا محضرا ذكروا فيه ان الشاويش ظلم وتعدى حقوقه وبغى على الرعية ، وان الرعية قامت عليه يدا واحدة لتقتله لولا ظاهر الذي حماه منهم وابقى على حياته • وارسل ظاهر المحضر صحبة رسول خاص الى وزير صيدا • وفي الوقت نفسه كتب ظاهر منفردا الى الوزير يخبره فيه بما وقع للشاويش ، وعرفه ان البلاد لا يستقيم امرها الا بالعدل والوقوف عند الحدود وذكر له ان الخَدَمة لطمعهم يطلبون زيادة لانفسهم فوق المقرر ولولاهم فيجلبون المذمة لسيدهم بسبب هذا الظلم الذي يكون سيدهم بريئا منه ، ورجا ظاهر الوزير بأن ينعم عليه بولاية طبريا ، وكان هذا الوزير المسمى محمد باشا مولعا بتربية الخيول ، وكان قد سمع عن فرس اصيلة لدى عرب الصقر تسمى الزرقاء وكان طالب مرارا شراءها منهم فضنوا بها عليه ، فاشترى ظاهر الفرس وارسلها هدية نفيسة الى محمد باشا •

واخيرا استجاب الوزير لطلب ظاهر وولاه مدينة طبريا وناحيتها ، فأشاع ظاهر فيها العدل والطمأنينة ومهد دروبها بالامان (٤) • وكان ذلك في حوالي سنة ١٧٣٠ •

٥ ــ ظاهر العمر يتولى طبريا :

من طبريا بدأ ظاهر كفاحه الفعلي ضد الاتراك سالكا في ذلك طريقين • اولهما استمالة اهل القرى اليه بحمايتهم من وكلاء الدولة العثمانية في المنطقة وتوسيع رقعة التزامه على حسابهم • وثانيهما الابقاء على علاقاته الطيبة بوزير صيدا ودفعه

---

٤) ميخائيل ص ٣١ •

الاموال الاميرية في مواعيدها ، ومع ذلك فانه لم يتوان في ترميم اسوار المدينة واقامة التحصينات الجديدة فيها ، وهو امر كان لـه اسوأ الاثر في تعكير صفو العلاقات بينه وبين ولاة دمشق اذ رأوا في ذلك بوادر استعداد للتمرد من جانب ظاهر عليهم ، كما سيجيء .

دعم اهل طبريا حكم ظاهر لمدينتهم وسندوه برجالهم واموالهم ، فأنشأ ظاهر كتيبة من اهل البلد وبعض البدو وتقوى بها ، كما استولى على ما حوله من القرى في الجليل وضمها الى التزامه فذاع صيته في غور الاردن ولجأ اليه الكثيرون من ظلم ولاتهم .

واتى ظاهر بعياله واتباعه الى طبريا ومن بينهم اخوه يوسف العمر الذي بنى جامعا فيها ، وكان ظاهر وهو في عرابة قد تزوج امرأة من دمشق واسكنها الناصرة وكان في اثناء تردده اليها قد تزوج امرأة اخرى من الناصرة انجبت له ولده البكر صليبي . ثم تزوج امرأة ثالثة وهي شامية تسمى دهقانه وانجبت له بعض الاولاد. كان اولاده الكبار الذين يكثر ذكرهم في الكتاب اربعة وهم صليبي وعثمان وعلي وسعيد (بتسكين السين) ثم ولد له اولاد آخروون من نساء اخريات .

اما سعد العمر اخو ظاهر الاكبر فبعد ان استقام له الامر في عرابة واكتملت له اسباب القوة انتقل الى قرية دير حنا المشيدة على هضبة وعلى بعد ثلاثة اميال شرقي عرابة ، وهي ذات موقع استراتيجي هام اختاره سعد لحصانته اذ كان يحيط بالقرية سور ونحو من عشرين برجا من بقايا تحصينات صليبية قديمة استطاع سعد ان يرممها ويجدد بناءها حتى اصبحت دير حنا من اكثر القرى حصانة في الجليل . وكان لسعد جيشه الخاص به وظل يقيم في القرية طوال ايام حياته وهو الذي بنى جامعها سنة ١٧٣٢ ، والجدير بالذكر ان احمد الجزار كان بعد توليه مدينة عكا قد اعجب بهذا الجامع وبنى جامعه المشهور في عكا سنة ١١٩٦ هـ (١٧٨١ — ٨٢) على غراره . ويصف المؤرخ سعد العمر بانه كان ملساناً داهية يمزج الكلام بالمزاح.

واما محمد العلي فقد خلف اباه عليا في قرية الدامون الساحلية ، ثم لم يلبث ان وسّع رقعة التزامه وضم قرية شفاعمرو الى بلاده وجعلها مركزا لحكومته كما اقام له جيشا وكان على وفاق مع ابن عمه ظاهر في هذه الفترة المتقدمة ، وكان يكنى بـ «ابو ضاني» .

اشتهر محمد العلي بالشجاعة والفروسية وفنون الحرب وتمتع بشيء من الاستقلال في قرى الساحل وخليج حيفا الامر الذي اثار نزاعا حادا بينـه وبين ظاهر عقب سنة ١٧٣٥ مما ادى الى وقوع الحرب بينهما اكثر من مرة . لذلك كان من الطبيعي ان ينحاز محمد العلي الى جانب الدولة العثمانية في نزاعها مع ظاهر العمر ، كما سيجيء (٥) .

٦ ــ قلعة جدين :

بعد ان استتب لظاهر الامر في طبريا وجه اهتمامه الى الشمال : الى جدين وصفد وجبل عامل وهي بلاد مستعصية صعبة المسالك يقوم على امرها شيوخ متنفذون اقوياء يقيمون في قلاع من بقايا العهد الصليبي رمموها ومارسوا احكامهم منها . وطفق ظاهر منذ ان ثبت اقدامه في طبريا يرنو ببصره الى هذه الاقاليم الجبلية وينتهز الفرص لبسط حمايته عليها او ضمها الى اقطاعاته ولم يتم لـه ذلك الا في سنة ١٧٣٠ — ١٧٤٠ ، استولى على بعضها بالحرب وعلى بعضها بالتراضي والمحبة (٦) .

اما فيما يتعلق بالناصرة فالامر يختلف ، كانت الناصرة جزءا من بلاد صفد وتابعة لها في شؤونها الداخلية ، وكانت من حيث قضايا الامن وجباية الاموال الاميرية تتبع الشيخ الاقوى والاقرب لها في المنطقة ، فالمعقول اذن ان يكون ظاهر قد بسط حمايته على الناصرة بصورة تدريجية منذ ان اسكن زوجته ألاولى نفيسة الناصرة وذلك في حوالي سنة ١٧١٥ .

كان في جوار ظاهر الى الشمال الغربي من طبريا قلعة تسمى جدين وكان يتولاها رجل يسمى احمد الحسين وهو ينحدر من بيت قديم تولى ابناؤه هذه القلعة اجيالا طوالا . الا ان حكمه تميز بالضعف ، ونتيجة لذلك لجأ الى ظاهر

---

٥) عبود ص ٧ ، فولني ج٢ ص ٧٩ ، ميخائيل ص ٣٥ ، محمد الخطيب .

٦) يؤرخ ميخائيل استيلاء ظاهر على طبريا سنة ١٧٣٣ وعلى جدين واستخدامه للدنكزلي سنة ١٧٣٨ وعلى صفد سنة ١٧٣٩ وعلى جبل عامل بعد التاريخ الاخير هذه التواريخ لا تستقيم كثيرا مع الواقع : فاذا كان هذا المؤرخ يؤرخ معركة جدين واستخدام ظاهر للدنكزلي سنة ١٧٣٨ فكيف نراه (اي الدنكزلي) يلعب دورا هاما في معركة المنسي (الباب ٢ فصل ٤) التي يؤرخها نفس المؤرخ بسنة ١٧٣٥ .

كثير من ابناء تلك الناحية واعلموه بحالهم وما عانوه من الظلم وانعدام الامن في قراهم والتمسوا منه انقاذهم مما هم فيه . واستجاب ظاهر لطلبهم .

اتفق يوما ان بعض خدم ظاهر اجترم ذنبا فهرب ملتجئا الى جدين ، طلب ظاهر من احمد الحسين ان يعيد اليه خدمه فجعل احمد الحسين يناور ويداور ، وفي آخر جواب لظاهر اغلظ له الكلام وتهدده بالحرب .

كتب ظاهر الى والي صيدا يشكو له احمد الحسين ويستأذنه بقتاله وكذلك فعل حاكم جدين ، ولما كان غرض الوزير ان يضرب القوم بعضهم ببعض حسب السياسة العثمانية المرسومة ، فقد اباح لكل منهما ان يغزو صاحبه .

جرد ظاهر عسكره ونهض بخيله فاجتمع له من اهل البلاد وعرب الصقر ما يزيد على الف وخمسماية فارس ، والتقاه احمد الحسين بمثل هذا العدد ونشب بين الفريقين قتال كان النصر فيه لظاهر ، فدخل قلعة جدين وتولاها .

لم يأخذ ظاهر شيئا من اموال احمد الحسين وارزاقه بل اخرج عياله من القلعة ورتب لهم معاشاً وعاملهم باحترام (٧) .

٧ ــ احمد اغا الدنكزلي :

كان ظاهر عند دخوله قلعة جدين رأى بين عسكر احمد الحسين فتى مغربيا ماهرا في الحرب يسمى احمد الدنكزلي . دعاه ظاهر اليه نظرا لبسالته في القتال واستخدمه ، كما فوضه باختيار من يراه مناسبا من المغاربة للعمل معه . ولم يطل الزمن حتى بلغ عدد الذين استخدموا على هذه الصورة الف رجل . واصبحوا فيما بعد يشكلون فرقة مستقلة ذات نظام خاص بها عرفت بجيش ظاهر الدائم يقوده احمد الدنكزلي . وبقي الدنكزلي في خدمة ظاهر زهاء اربعين سنة لعب خلالها دورا هاما في حياته (٨) .

٨ ــ صفد :

كان صاحب قلعة صفد ، كما مر بنا ، يسمى محمد نافع وكان يتولاها

٧) ميخائيل ص ٣٦ ــ بحسب عبود ص ٣٨ ــ نجد ذكرا لاحمد الحسين سنة ١٧٧٥ لا في هذه الفترة المتقدمة .

٨) ميخائيل ص ٣٧ .

بالاضافة الى قريتي البعنة وسحماتا اللتين كانتا تابعتين له وقد اقام محمد نافع على هاتين القريتين واليا عبد الخالق صالح صاحب قرية دير القاسي الواقعة في اعالي الجليل .

ارسل ظاهر الى محمد نافع يأمره بأن يتنازل له عن صفد فأبى ، فجعل ظاهر يراسله من حين الى آخر فكان يلاطفه احيانا ويتوعده بالحرب احيانا اخرى حتى تنازل محمد له عن صفد ، فتولاها واشاع فيها الامان .

كتب ظاهر ايضا الى عبد الخالق صالح وطالبه بالتنازل له عن البعنه وسحماتا فأبى ، وكان عبد الخالق من الدهاة المحنكين ، فعزم ظاهر على مهاجمته ، فنهاه اخوه سعد قائلا له : لا تحاربه بل تقرب منه وتزوج ابنته ففعل . عندئذ تنازل عبد الخالق لظاهر عن القريتين وحالفه (٩) .

وباستيلاء ظاهر على هذه الاقاليم الجبلية اصبح وجها لوجه امام المتاولة اليمنية اخصامه واخصام الشهابيين في لبنان .

ومما يُذكر في هذه المناسبة انه في هذه الاثناء اي في سنة ١٧٢٩ ــ ٣٠ ، تخلى الامير حيدر الشهابي عن الحكم في لبنان لصالح ولده الامير ملحم الذي انتهج سياسة معادية لظاهر العمر، وقابل انتصاراته في بلاد صفد بعين التحفظ والقلق.

٩ ــ الناصرة :

في خلال هذا الوقت (١٧٢٥ ــ ١٧٣٥) كان لظاهر سيطرة على الناصرة ، ومن الطبيعي ان يكون قد بسط نفوذه عليها في مستهل عمله نظرا لقرب الناصرة من عرابة وطبريا . المهم في ذلك انه عندما بسط ظاهر حمايته على الناصرة ومرج ابن عامر الذي يفصل اقليم نابلس عن بلاد صفد اصبح وجها لوجه امام اعداء اقوياء هم مشايخ جبل نابلس وعرب الصقر الذين اتخذوا من اراضي المرج اوكارا لغزواتهم ، فاصطدمت المصالح وتنافرت القلوب حتى ادى ذلك الى قيام كل منهما على الآخر ومحاربته .

يقول المؤرخون : كانت الناصرة في هذا العهد بندرا للنابلسية لكونها موردا

٩) ميخائيل ص ٣٨ .

لبضائع الشام ، كما كان لمشايخ جبل نابلس عوائد خاصة فيها وهي عوائد الظلم التي تكلمنا عنها • وبلغ من جور النابلسية انه اذا اشترى احدهم من تاجر في الناصرة حاجة ودفع له ثمنها كان يعد ذلك تنازلا عظيما له منه ، واذا لم يدفع له ثمنها لم يكن يقدر على مطالبته لشره اذ لم يكن هناك من يردعه • وخلاصة القول كان البلص هو السوق الرائجة في تلك الايام • ولما كانت زوج ظاهر في الناصرة وكان ظاهر يتردد اليها رأى من اهل الناصرة كل اعتبار واكرام فاحبهم لانه رأى فيهم النجدة والمروءة ، فلما تولى بلاد صفد والناصرة تابعة لها حماها من النابلسية ورفع عن اراضي المرج تعدياتهم ، ولهذا السبب حقد عليه مشايخ جبل نابلس واضمروا له الشر (١٠) •

ولم يتم لظاهر الاستيلاء على الناصرة وادارة شؤونها بصورة فعلية الا في سنة ١٧٣٥ ، وذلك بعد ان كسر شوكة مشايخ قلعة سانور في معركة المنسي •

١٠ـ المتاولة في جبل عامل :

كانت قريتا البصة ويارون موضع خلاف بين ظاهر والمتاولة وتنيجة لذلك وقعت بسببهما بين الجارين حروب كثيرة فيما بين سنة ١٧٣٠ وسنة ١٧٤٠ انتهت بتغلب ظاهر على المتاولة وضم القريتين الى بلاده •

كان زعيم المتاولة في هذا الوقت نصار بن علي الصغير وبلده تبنين من بلاد بشارة المتاخمة لبلاد صفد •

في احدى المنازعات بين الزيادنة والمتاولة كتب ظاهر الى الشيخ نصار يطالبه بقريتي البصة ويارون فأبى واغلظ له الجواب ومما جاء في رده لظاهر قوله « لا تظن انا نظير سوانا ، فوالله عندنا مقابل سيوفك سيوف احدّ منها ، وبازاء كيدك مكائد اكثر منها ، فالاولى بك ان تدعنا غافلين عنك وان تكف عن الاعتداء على جيراننا ، والا فانك ستندم لاننا نحن طالما بُغي علينا فانتصفنا من الباغي وعاهدنا فقمنا بعهدنا» •

انزعج ظاهر من هذا الجواب فمضى الى صيدا وطالب وزيرها بضم قريتي البصة

١٠) ميخائيل ص ٤٤ •

ويارون الى اقطاعاته وبعد اخذ ورد اجابه الوزير الى ما طلب ، فتوجه ظاهر الى القريتين فطرد عمال المتاولة منهما واستولى عليهما •

ثار ثائر المتاولة فجردوا فرسانهم وزحفوا لاسترداد القريتين فالتقوا بظاهر في اراضي طربيخا واشتبكوا معه في قتال كانت الغلبة فيه لظاهر (١١) •

حدثني بعض الرواة ان ظاهر العمر حارب علي بك الصغير في موقع «مرج البصل» في نواحي طربيخا ودامت الحرب بينهما اثني عشر يوما كانت سجالا يوما لهذا ويوما لذاك الى ان دخل ظاهر قرية تبنين على حين غفلة من حاميتها واسر عائلة علي بك الصغير وارسلها الى صفد ، وظلت هذه العائلة بالاسر حتى عقد الصلح بين الفريقين وتنازل المتاولة لظاهر عن البصة ويارون • وعندما باشر العمال وضع علامات الحدود بين الجارين اخذوا شقيف الحجر ونشروه بالجازور (منشار كبير) وجعلوه حدا فاصلا بين البلدين فمن شماله بلاد المتاولة ومن جنوبه بلاد الزيادنة حتى مرج ابن عامر (١٢) •

يقول الرواة المعاصرون وقعت حروب كثيرة بين الزيادنة والمتاولة بسبب البصة روي لي انه كان لظاهر فرس اسمها البريصة غنمها المتاولة في احدى هذه المواقع فعز كثيرا على الزيادنة فقدان هذا الفرس الاصيل فبعثوا يطالبون المتاولة بالفرس ويقولون لشيخهم رد البريصة (اي الفرس) وخذ البصيصة (مصغر البصة) والمتاولة ممتنعون حتى وقعت اخيرا الحرب بينهم فانتصر الزيادنة على المتاولة وغنموا البريصة والبصيصة معا (١٣) •

على انه لم يطل الزمن حتى صادق ظاهر مشايخ المتاولة واظهر لهم كل تودد مستغلا محنهم ومتاعبهم مع الشهابيين والعداوة القديمة (القيسي واليمني) ، وصدق المتاولة ايضا مع ظاهر وحالفوه عقب سنة ١٧٥٠ في عهد ناصيف بن نصار ونصروه في حروبه حتى نهاية حكم الزيادنة •



١١) ميخائيل ص ٣٩ ، عبود ص ٧ •
١٢) كمال السعيد ، محمد الخطيب •
١٣) محمد الخطيب •

الفصل الرابع

ولاية سليمان باشا العظم على دمشق

الاولى من سنة ١٧٣٤ – ١٧٣٨
والثانية من سنة ١٧٤١ – ١٧٤٣

١ – جبل نابلس :

هو الاقليم الواقع بين مرج ابن عامر شمالا وجبال القدس جنوبا • من الاسر الاقطاعية البارزة في هذه المنطقة كما مر بنا ، آل ماضي ، وكان نفوذهم يشمل جبل الكرمل والساحل المتاخم له ، وكان آل جرار وعميدهم يوسف الجرار مشايخ المنطقة الجبلية الواقعة حول مدينة جنين ، وكانت قاعدتهم قلعة سانور الشهيرة ، وهي قلعة حصينة مشيدة على تل صخري مستدير وفي بقعة وعرية عاصية بين مدينتي نابلس وجنين •

ومن مشايخ الاقطاع في جبل نابلس الذين يرد اسمهم في هذا الكتاب آل النمر (ويعرفون ايضا بآل الجوربجي) وآل طوقان ، وكان نفوذهم يمتد الى القدس جنوبا والساحل الفلسطيني حتى قطاع غزة غربا ، والجدير بالذكر ان مشايخ هاتين الاسرتين المتنفذتين كانوا كآل العظم في الشام عمالا للدولة العثمانية ساروا في ركابها وحاربوا في سبيلها •

احتضن الاتراك مشايخ آل طوقان واستخدموهم في قتال ظاهر العمر ولكنهم غلبوا على امرهم عقب سنة ١٧٧٠ في يافا وغزة وجبل نابلس ، فتشتت شملهم ولجأ كبارهم الى دير القمر ومصر المواليتين وقتئذ للعثمانيين • اشتهر من آل طوقان مصطفى بك واخوه احمد بك ومن آل النمر ابراهيم اغا والي القدس الذي شارك في الحملة الاخيرة على عكا ، في آب سنة ١٧٧٥ ، التي قررت نهاية ظاهر العمر وعهده •

كان جبل نابلس يعتبر ملكا خاصا بسلاطين آل عثمان ، وكان المال المقرر عليه وهو خمسمائة كيس في السنة ، يرسل الى وزير دمشق وهو بدوره يرسله الى

الاستانة (١) •

كان عرب نابلس من اغنى عرب سوريا واحسنهم حالا وكانوا يستمتعون بشيء من الراحة والاستقلال لبعد جبلهم عن دمشق ولذلك كانوا اقل الناس تعرضا لظلم الولاة (٢) •

كان مرج ابن عامر حدودا بين جبل نابلس وبلاد صفد، وكان لسكان الجبل سطوة على اراضيه التي كانوا يعتبرونها قسما من بلادهم ، ولذلك كان استيلاء ظاهر على الناصرة وبسط يده تدريجيا على اراضي المرج الخصيبة ، السبب المباشر في النزاع الذي نشب بينه وبين آل جرار ، اذ ما كاد يتم لظاهر التسلط على مرج ابن عامر حتى اقصى النابلسية عن الناصرة وقراها ومنعهم من عوائدهم المتوارثة فيها • لذلك ان تصادم المصالح كان السبب الحقيقي للحرب بين ظاهر ومشايخ جبل نابلس وبالتالي بينه وبين الدولة العثمانية •

٢ – معركة المنسي :

ان الخلاف حول مرج ابن عامر بين ظاهر العمر ومشايخ قلعة سانور اخذ يشتد شيئا فشيئا منذ سنة ١٧٣٠ فصاعدا حتى تحول سنة ١٧٣٥ الى نزاع مسلح دارت رحاه في اراضي قرية المنسي الواقعة جنوب شرق حيفا ، كان النصر فيه لظاهر •

يتحدث محمد قاسم الخطيب عن هذه المعركة فيقول : اختلف الزيادنة وآل جرار حول مرج ابن عامر وكان كل منها يدعي ان المرج تابع له ، واخيرا وقعت الحرب بينهما بسببه في المنسي ، فاستدرج ظاهر اعداءه الى كمين اعده لهم هناك وكسرهم • وينشد شاعر الزيادنة في هذا المعنى فيقول :

على المنسي ياما قد جرى لْهم
وجريْ الدم على الشارب جرى لهم
حسّبوها كسرة وهي جرّة لهم
ثنيناهم مثل نار بخصاب

ويتابع الراوي كلامه فيقول: وخضع آل جرار لظاهر عقب هذه المعركة وصاروا

---

١) ميخائيل ص ٥١ ، المعلوف ص ٢٣٦ •
٢) فولني ج٢ ص ٢٥٢ •

يدفعون له خمسمائة كيس ضريبة سنوية عن جبلهم (٣) .

وفي رواية اخرى ان النابلسية تحصنوا جنوب نهر المقطع قرب تل المنسي بينما تحصن ظاهر وعسكره شمال النهر ، فعبر ظاهر النهر وهاجم النابلسية قرب المنسي وقتل شيخهم ابراهيم الجرار في المعركة وقيل في ذلك المثل « ضل بارودهم في المنسي» (٤) .

جاء في كتب التاريخ ان ظاهر العمر حشد ثلاثة آلاف مقاتل وبعث في الوقت نفسه الى عرب الصقر ليوافوه الى مكان ما في مرج ابن عامر ويكونوا له عونا في المعركة القادمة . ولكن الصقر وان كانوا قد وعدوا بمساندة ظاهر في هذه الحرب فانهم لم يفوا بما وعدوا . وذلك ، على ما ذكر المؤرخ ، لان عرب الصقر كانوا قد حقدوا على ظاهر واضمروا له الشر لانهم كانوا اول من نصره ورفع شأنه فلما تولى البلاد واستتب له الامر فيها منعهم من السلب والنهب في الطرقات ومن عوائدهم التي كانوا يأخذونها من القرى التي دخلت في حكمه . ولذلك خان الصقر حليفهم القديم وانضوا الى النابلسية ، وعرف ظاهر بخيانة الصقر له في اللحظة الاخيرة واستحوذ عليه القلق .

ورغم ذلك سار ظاهر بعسكره الى المرج وكان وهو في طريقه اليه مر من امام كنيسة العذراء في الناصرة فنزل عن جواده وسجد امام باب الكنيسة ورفع يديه وفيهما التراب وعفر بهما وجهه وقال : «هي يا ابنة عمران جعلت اتكالي عليك بعد الله فان انت نصرتني على اعدائي فلا انسى لك هذه المكرمة الى آخر ايام حياتي ، ويكون زيت قنديلك من عبدك» .

ولما وصل ظاهر الى المرج اعد للنابلسية كمينا اقامه على جانبي الطريق جاعلا في كل جانب خمسمائة مقاتل احدهما بقيادة احمد الدنكزلي والآخر بقيادة محمد العلي صاحب الدامون ، وبقي هو على رأس الفين من الخيالة والمشاة .

والتقى ظاهر بالنابلسية وعرب الصقر في مكان ما يقابل الروحه (ناحية جنوب المنسي) وناوشهم القتال قليلا ثم ارتد الى الوراء متظاهرا بالانكسار والنابلسية يطاردونه الى ان وقعوا بين الكمينين فارتد ظاهر عليهم ،

٣) محمد الخطيب .
٤) محمد الموعد .

وكسرهم ، ففر الصقر على خيولهم وقتل ابراهيم الجرار في المعركة .

وزحف ظاهر الى قلعة سانور المنيعة ولكنه تراجع عنها لحصانتها واكتفى بأن وضع يده على اراضيها الساحلية . وحقد ظاهر على عرب الصقر حقدا عظيما وجعل يهدد بالانتقام منهم .

ووفى ظاهر بوعده لكنيسة العذراء في الناصرة فكان يرسل كل عام الى كهنتها قناطير من زيت الزيتون الى آخر ايام حياته ، وقاتل امامه اهل الناصرة في المعركة حتى رأى العجائب من بسالتهم ومن ذلك الوقت صار يحب النصارى لاجلهم وكان هذا في سنة ١٧٣٥ (٥) .

روي لي انه عندما بلغ ظاهرا وهو في الناصرة خبر انضمام الصقر الى مشايخ سانور وادرك الخطر الذي يتهدده من مواجهة هذين الخصمين مجتمعين امر باغلاق سوق الناصرة وجند رجاله من التجار واصحاب الحرف وحملهم السلاح وساقهم الى مقاتلة النابلسية في المرج . ولما رأى من مسيحيي الناصرة كل شجاعة في القتال شكرهم ودعاهم «خواله» اعترافا بفضلهم في المعركة وصار يناديهم «جاد الله خوالي» (٦) .

وروي لي ايضا ان ظاهرا وهو في طريقه الى المرج لقتال النابلسية مر عند الفجر من امام كنيسة البشارة للروم الارثوذكس في الناصرة فسمع امرأة وكانت على رأسها جرة ماء فارغة تنادي رفيقة لها تسمى «نصرة» وتدعوها لمرافقتها الى عين الناصرة القريبة من المكان، فلما سمع ظاهر كلمة «نصرة» استبشر خيرا وعدها نصرا من الله ، فتقدم الى ساحة الكنيسة وركع وصلى ثم قال ان نصرتني يا سيدة مريم على اعدائي فسأكفي حاجتك من الزيت سنة بعد سنة ما دمت على قيد الحياة .

ووفى ظاهر بعهده للكنيسة فاقطعها كرمي زيتون احدهما في قرية كفركنا والآخر في قرية المجيدل ولا يزال هذان الكرمان وقفا على الكنيسة حتى هذا اليوم يدران عليها كثيرا من الزيت كل سنة (٧) .

كانت معركة المنسي نقطة تحول في العلاقات بين ظاهر العمر والدولة العثمانية.

٥) ميخائيل ص ٤٦ .
٦) جريس عزام .
٧) ابو سعود العباس .

كان ظاهر حتى هذا التاريخ في نظر الدولة شيخا اقطاعيا صغيرا كغيره من مشايخ الاقطاع في الجليل ، واما الآن وبعد تغلبه على مشايخ سانور الموالين للاتراك فقد اصبح في نظر الدولة رجلا آخر يحسب له الحساب فأوعزت الى سليمان باشا وزيرها في دمشق بمهاجمته وقتله .

وهناك اسباب اخرى لا بد من ذكرها حملت سليمان باشا على مهاجمة ظاهر ، منها تمتعه باستقلال ذاتي في مقاطعاته عقب سنة ١٧٣٠ يفوق كثيرا ما كان يتمتع به سائر الملتزمين الى درجة انه صار ، على ما قيل ، يوجه التهديدات تلو التهديدات الى سليمان العظم بمنعه من المرور في اراضي طبريا عند خروجه للدورة السنوية لجمع المال الميري من جبل نابلس وبلاد فلسطين التابعة لولاية دمشق . لذلك كانت الترميمات والتحصينات التي اجراها ظاهر في طبريا الواقعة على الطريق بين دمشق ونابلس مصدر قلق للدولة العثمانية وولاتها في دمشق وصيدا (٨) . ومن هنا نستطيع ان نفهم الاسباب التي حملت حكام الاستانة على السماح لسليمان باشا بمهاجمة ظاهر وقتله او الحد من سلطته . ومن هنا ايضا تبدأ مرحلة جديدة في الكفاح بين ظاهر العمر والدولة العثمانية .

٣ ــ سليمان باشا العظم :

انه من اسرة قديمة تغلبت على بعض اصقاع الشمال وسيطرت عليها ، واختلف الباحثون في اصلهم . فمن زاعم انهم اتراك من قونيه . ومن قائل انهم عرب من معرة النعمان .

شغل آل العظم اسمى المراتب في البلاد السورية واسندت اليهم مناصب الوزارة في دمشق وطرابلس وصيدا سنة بعد سنة وتنعموا بخيراتها . كان اول من شغل منصب الوزارة منهم اسماعيل بن ابراهيم العظم وهو اخو سليمان العظم ، تولى ايالة دمشق سنة ١١٣٧ هـ (١٧٢٤ــ٢٥) عقب ولاية عثمان باشا ابي طوق لها ، وكان من قبل واليا على طرابلس .

رأس آل العظم جيوش الدولة وحاربوا بسيفها وفي سبيلها واستخدموا في ضرب الحركات التحررية في سوريا وقمع الفتن والثورات الناشبة فيها ، ولذا فقد

٨) عبد الكريم رافق ص ٣٢٣ و٣٤٦ ، هيد ص ٢٠ .

كانت الدولة تودهم وترعاهم وتغمرهم بانعامها والطافها الى ان تقضي منهم لبانتها فما اسرع ما تتخلى عنهم وتنبذهم نبذ النواة شأنها في ذلك شأن كل دولة استعمارية لها مآربها ومطامعها .

ودرت الولاية على آل العظم الاموال فبنوا الابنية العظيمة وشيدوا القصور الفخمة وغدوا مضرب المثل في الجاه والثراء فعظم امرهم واتسع سلطانهم ، ولذلك كان من الطبيعي ان تصطدم مصالحهم بظاهر العمر الذي قلّص رقعة نفوذهم وسلبهم بلادا استمتعوا بخيراتها زمنا طويلا .

تولى سليمان باشا ايالة دمشق مرتين الاولى منتقلا اليها من صيدا سنة ١٧٣٤ ــ ١٧٣٨ ، والثانية عائدا اليها من مصر في تموز سنة ١٧٤١ حتى وفاته بالقرب من طبريا في آب سنة ١٧٤٣ . ويصفه المؤرخون بأنه كان عادلا .

ولنعد الآن الى مشاكل جبل نابلس . شكا مشايخ سانور ظاهرا الى سليمان العظم والتمسوا منه وقفه عند حده بعد معركة المنسي سنة ١٧٣٥ ، فأتاهم الجواب يقول: اعقدوا الصلح مع ظاهر ريثما يأتي قرار الدولة بشأنه .

وعقد الصلح بين الفريقين وكان من شروطه ان يكف مشايخ سانور اذاهم عن الناصرة وقراها ويتنازلوا لظاهر عن مرج ابن عامر ويدفعوا له ما انفقه من مال في حربه لهم وهو مبلغ خمسمائة كيس ، فدفعوه له وانصرف عن بلادهم .

وفي سنة ١٧٣٥ دخلت الناصرة وناحيتها تحت حكم ظاهر بصورة رسمية كما ذكرنا (٩) .

ومن الذين حقدوا على ظاهر ايضا والي صيدا ، فلما رأى هذا الوزير ان ظاهرا قد استولى على اكثر البلاد التابعة له وتولاها ومنع عنه العوائد التي كانت ترد اليه من هذه الاقاليم ولم يصل اليه الا المال الميري ، ارسل هو الآخر الى سليمان العظم يحثه على قتال ظاهر ، فأتاه جواب مماثل للجواب الذي تلقاه مشايخ سانور ودعاه الى التريث ريثما يأتي القرار النهائي بشأنه (١٠) .

٩) يعقوب فرح ص ١ .
١٠) ميخائيل ص ٥١ .

ولم يخف على ظاهر ما كان يحاك له في الخفاء فأخذ يستعد للحرب ، ويخبر(نا) الرحالة الانكليزي بوكوك الذي زار طبريا سنة ١٧٣٧ انه رأى ظاهرا يقي(م) التحصينات في طبريا ويبني برجا في ضواحي المدينة (١١) .

٤ ـ حملات سليمان العظم على طبريا :

هناك في الواقع خمس حملات ساقها سليمان باشا الى طبريا في عهد ظاهر العمر لا حملة واحدة كما ذكر المؤرخ ميخائيل الصباغ . كانت الاولى من هذه الحملات قبل سنة ١٧٣٣ عندما كان سليمان باشا وزيرا لصيدا . يقول يعقوب بيرب احد سكان طبريا الذين عاصروا هذه الاحداث ان سليمان باشا العظم جرد حملة على طبريا خلال ولايته على صيدا واقام عليها محاصرا خمسة ايام ثم اصطلح مع ظاهر وعاد الى دمشق .

والحملة الثانية كان وقوعها في سنة ١٧٣٨ ويحدثنا عنها الكاتب نفسه فيقول : هاجم سليمان باشا طبريا مرة ثانية وحاصرها خمسة عشر يوما ولم يرتفع عنها الا بعد ان صدر فرمان بعزله عن ولاية دمشق سنة ١٧٣٨ ، فتراجع الوزير عن طبريا غاضبا ومهددا بالعودة اليها مرة اخرى(١٢) . واما الحملات الثلاث الاخر فكان وقوعها في سني ١٧٤١ و١٧٤٢ و١٧٤٣ على التوالي .

بعد ان اعفي سليمان باشا من منصبه في تموز سنة ١٧٣٨ وتوجه الى مصر تولى ايالة دمشق مكانه في آب سنة ١٧٣٨ حسين باشا البستنجي ، وبقي في الولاية مدة سنة الى ان اقيل من منصبه في ايلول سنة ١٧٣٩ وتولى دمشق مكانه عثمان باشا المحصل الذي استمر في الولاية حتى تشرين الاول سنة ١٧٤٠ . ثم خلفه علي باشا لمدة قصيرة . لم يحمل هؤلاء الولاة اية ضغينة لظاهر ولم يناصبوه العداء . وشملت البلاد خلال حكمهم فترة هدوء اتاحت لظاهر بعض الراحة استمرت حتى عودة سليمان باشا من مصر في تموز سنة ١٧٤١ (١٣) .

---

١١) فولني نقلا عن بوكوك ، ج٢ ص ٧٨ .

١٢) بيرب ص ٣٦ ، بريك ص ٩ ـ يؤيد بريك حملة سليمان باشا العظم على ظاهر العمر في طبريا عام ١٧٣٨ فيقول «ان الباشا (اي سليمان باشا) كان قد ركب على جبل الدروز على الامير ملحم الشهابي وما انتفع بشيء ، ثم ركب على ظاهر العمر في قلعة طبريا ، وكذلك ما انتفع بشيء» .

١٣) عبد الكريم رافق ص ٢٢٤ ـ ٢٣١ .

على ان التهم والشكاوى ظلت تنهال في السنوات الاخيرة على الاستانة ضد ظاهر منها تهمة كان قد وجهها اليه سليمان باشا وهي سلبه لثلاثة آلاف كيس بمعدل خمسمائة كيس سنويا ، كان ظاهر ، على حد قوله ، قد سلبها من جبل نابلس خلال سني ١٧٣٥ ـ ١٧٤٠ . انكر ظاهر هذه التهمة بقوة وحصل على شهادة من مشايخ قلعة سانور تنص على ان ما اخذه ظاهر منهم كان مؤونة عسكره الى ان تم الصلح بينه وبينهم ، ولكن ذلك لم يفد ظاهر شيئا » .

في خلال هذا الوقت واجه ظاهر متاعب شديدة من جانب ابن عمه محمد العلي حاكم الدامون الذي كان على خلاف معه منذ بضع سنوات . يقول عبود الصباغ في ختام كلامه عن معركة المنسي : «وصار اسمه (اي ظاهر) كبير عند كامل الخلق فانحسد منه ابن عمه محمد العلي واراد ان يقتله او يصغر اسمه فكاتب سليمان باشا وزير الشام المذكور بأن يكون مسعفا له» (١٤) .

ولما كان قدوم سليمان باشا الى دمشق وتوليه شؤونها ثانية بأمر الدولة ومن اجل محاربة ظاهر ووضع حد لتوسعاته في الجليل ، فقد كتب حال دخوله دمشق الى ابن اخيه ابراهيم باشا بن اسماعيل العظم والي صيدا ، بأن يجهز عسكره ويرسله الى طبريا لقتال ظاهر . استجاب ابراهيم باشا للطلب وزحف بعسكره الى طبريا عن طريق الساحل ، فتصدى له ظاهر في نواحي عكا وحاربه وكسره ورده على اعقابه . كان لهذه الكسرة عام ١٧٤١ ، وهي الحملة الثالثة التي يسوقها سليمان باشا لقتال ظاهر في طبريا ، وقع سيء في نفس سليمان باشا فجعل يتأهب تأهبا عظيما لمهاجمة ظاهر في السنة المقبلة (١٥) .

في الوقت الذي اتخذ فيه ظاهر من طبريا قاعدة لبلاده اختار اخوه سعد العمر كما مر بنا قرية دير حنا المحاطة بسور، قاعدة للبلاد التابعة له في اواسط الجليل . كان سعد يستمتع بنفوذ قوي في الجليل الاوسط وكان له جيشه الخاص واتباعه كما كانت العلاقات بينه وبين اخيه ظاهر حسنة ، على ان الدولة العثمانية لم تكترث لاحد الا لظاهر . والجدير بالذكر ان العلاقة الطيبة بين الاخوين سعد وظاهر لم تظل كما هي ، بل تحولت مع الزمن الى جفاء وعداء ، كما سيجيء .

---

١٤) عبود ص ٧ .

١٥) عبود ص ٨ .

هذا ما كان عليه الوضع السياسي في الجليل فيما يتعلق بظاهر العمر وسليمان العظم ومحمد العلي • ورغم ذلك كان ظاهر سنة ١٧٤٠ سيد الجليل وتتلخص انجازاته حتى هذا الوقت في انه استأصل شأفة البدو وطهّر البلاد من شرورهم ومهد دروبها بالامان •

في ايار سنة ١٧٤٢ قدم من ازمير مهاجرا الى طبريا باذن من ظاهر العمر الحاخام حاييم ابو العافية وعائلته • وسهل ظاهر للقادمين سبل العيش في بلاده ، فأقام لهم الحوانيت والمساكن والملاعب ، كما انشأ لهم كنيسا فخما وحماما جميلا ومعصرة زيت سمسم وغير ذلك • وكان من بين افراد هذه الاسرة الكاتب يعقوب بيرب زوج بنت الحاخام • ويصف بيرب في كتابه «انشودة الارض» حالة البلاد بقوله : كانت الطريق في السابق مرتعا خصبا للسلب والنهب ، وما كان السفر مستطاعا وقتئذ الا بقوافل مسلحة من خمسين حارساً او يزيد ولكن الشيخ ظاهرا قطع دابر اللصوص والبدو وطوع مشايخ البلاد واصبح لقبه «شيخ المشايخ» وفي استطاعة المرء اليوم ان يسافر الى اي مكان يريد في امان تام وذلك بفضل الشيخ ظاهر الذي يستحق كل ثناء ، هذا فضلا عن كرمه المتناهي ، فبيته مفتوح لكل عابر سبيل والطعام يقدم الى كل محتاج دون تمييز في اللغة او العنصر (١٦) •

وفي تشرين الثاني سنة ١٧٤١ نجد ظاهر العمر في الناصرة ينظر في النزاع المستحكم الذي كان قائما وقتئذ بين الفرنسيسكان وبين الروم الارثوذكس حول اماكن العبادة في المدينة ، وقد اصدر حكمه في هذا النزاع وضمنه الحجة الهامة الوارد نصها في فصل « المعاهد الدينية » •

وجاء في كتاب لاحد رهبان الفرنسسكان في الناصرة سنة ١٧٤١ ان اصدق لقب يستحقه ظاهر في هذا الوقت هو ملك الجليل (١٧) •

اما الدولة العثمانية فلم يكن يهمها ان يستتب الامن في الجليل ولا ان يتمتع العرب بالراحة • لقد جاءت بسليمان العظم الى دمشق تمهيدا لتوجيه ضربات جديدة الى ظاهر • وبعد ان استمال سليمان باشا اليه محمد العلي وضمن وقوفه الى جانبه في نزاعه مع ظاهر ، هاجم طبريا في ايلول سنة ١٧٤٢ وحاصرها ٨٣ يوما ، وهي حملته

---

١٦) بيرب ص ٣١ ، هيد ص ٧٦ – ٧٨ •

١٧) هيد ص ٢٢ •

الرابعة على ظاهر العمر في طبريا •

٥ – حملة عام ١٧٤٢ ، سليمان باشا يحاصر طبريا ٨٣ يوما :

وفيما يلي مجمل لما رواه يعقوب بيرب المعاصر عن هذه الحملة (١٨) :

في آب سنة ١٧٤٢ وصل حاييم ابي العافية كتاب من حاييم فارحي ويوسف لوشاطي مديري بيت مال سليمان العظم ومن المقربين اليه في دمشق ، هذا نصه :

«نحيطكم علما ان سليمان باشا العظم والي دمشق تلقى مؤخرا «فرمان سلطاني» يبيح له مهاجمة طبريا ودك اسوارها حتى الارض وجلب رأس الشيخ ظاهر العمر حاكم البلاد ، وحالما استلم الوالي هذا الفرمان ارسل يحشد العساكر ويجمع الاعتدة وادوات الحرب من راجمات حجارة وقلل ومقذوفات حديثة تستطيع القلة الواحدة منها ان تقتل حشدا من عشرين شخصا على مسافة ستة اميال وان تهدم بنايات واسوار ، لذلك اننا نعلمكم ان من سيبقى منكم في طبريا يكون دمه على كفه ، ونطلب منكم الخروج من المدينة مع جميع افراد الطائفة • اما اموالكم فارسلوها الى عكا ، واما انتم فتوجهوا الى صفد لان الوالي وعد بارسال قوة كافية من عسكره لحماية اليهود هناك •

وحالما استلم ابو العافية هذا الكتاب اطلع ظاهرا عليه • وابى ظاهر تصديق الخبر وحجته في ذلك انه لو صدر حقا فرمان كهذا لعرف به يهود الاستانة وارسلوا

---

١٨) بيرب ص ٣١ فصاعدا – لا يوجد في المراجع العربية ما يكشف النقاب عن هذه الحملة سوى ما ذكره الكاتب اليهودي في هذا الصدد في كتابه «انشودة الارض» وهو معاصر وشاهد عيان لهذه الحملة • واما المراجع العربية التي تحدثت عن هاتين الحملتين فهي قليلة ومشوشة • من ذلك أن ما كتبه ميخائيل الصباغ في هذا الخصوص في صفحة ٥٩ – ٦٤ هو مغلوط فيه ولا يصح الاعتماد عليه ، واما ما كتبه عبود الصباغ فهو صحيح ولكنه مقتضب • يقول عبود في صفحة ٨ من مخطوطه ما يلي :

«فثاني سنة (اي سنة ١٧٤٢) التزم سليمان باشا ان يخرج بنفسه بعسكر كبير على ضاهر وصحبته ابرهيم باشا (العظم) المذكور فاذ سمع ضاهر بذلك التزم ان يدخل الى طبريا ويحاصر لانه نظر ان العسكر التي مع سليمان باشا كثيرة فحاصره سليمان باشا في طبريا تسعين يوما (٨٣ يوما بحسب بيرب) ولم قدر ان ياخذ طبريا بل قام عنها ورجع للشام لسبب ان الحاج داركه فاتجه للحاج تلك السنة اما محمد العلي ابن عم ضاهر لما توجه الوزير للشام فهو اتجه الى شفاعمرو بلده واما ضاهر خرج من طبريا وصار يجهز نفسه لملاقات الوزير ثاني سنة لان الوزير سليمان باشا المذكور كان يقول لا بد في السنة القادمة لا بد ان ابيد ذكر ضاهر» •

بمضمونه الى طبريا في الحال قبل ان يصل خبره الى دمشق • واستبعد ظاهر ان يقوم والي دمشق بمهاجمته لانه لا شأن للمذكور بشؤون طبريا التابعة اداريا لصيدا ولا سيما انه (اي ظاهر) قام بجميع التزاماته كاملة نحو الدولة ووزيرها في دمشق •

اقتنع ابو العافية بكلام ظاهر وكتب الى صديقيه الجليلين حاييم فارحي ويوسف لوشاطي بهذا المعنى فجاء الجواب بعد خمسة ايام فقط من دمشق يؤكد له صحة الخبر ويحذره ثانية من مغبة البقاء في طبريا •

في غضون ذلك كتب ظاهر الى والي صيدا يستوضح منه عما اشيع عن عزم سليمان باشا على مهاجمته ، فأفاده الوزير بأنه علم بالامر ، واضاف انه كتب الى سليمان باشا يستنكر ما بلغه عن هذه الحملة ، ويهدده في الوقت نفسه بشن حرب عليه فيما لو اجترأ على مهاجمة ظاهر في طبريا ، ويضيف وزير صيدا انه كتب الى السلطان في هذا الموضوع (١٩) •

كان لكتاب وزير صيدا وقعه الحسن على ظاهر غير ان خبر الحملة قد شاع وانتشر فهرع القرويون الى طبريا طالبين من ظاهر ان يأذن لهم باللجوء الى المدينة بأموالهم ومواشيهم ليخلصوا انفسهم من القتل واموالهم من السلب ويكونوا له عونا في محنته ، فرفض الشيخ التماس القرويين وطلب منهم البقاء في قراهم لان الخبر كان ، في رأيه ، كاذبا •

ولكن الخبر كان صحيحا ، ففي اوائل ايلول سنة ١٧٤٢ ورد نبأ مفزع يقول ان سليمان باشا قد خرج من دمشق على رأس جيش كبير متوجها الى طبريا • كان ظاهر وقتئذ يعمل في تحصين برج يقع على مسافة ميل الى الشمال من المدينة • فهاله الخبر وعاد الى طبريا •

ولما اقترب سليمان باشا من طبريا تخربطت الدروب وهلعت القلوب ، فأغلق ظاهر ابواب المدينة وارسل الى رجاله المرابطين فوق الاسوار ليكونوا على اهبة الاستعداد •

وفي يوم السبت ٨ ايلول سنة ١٧٤٢ وقعت الابصار على عساكر الوالي

١٩) بحسب عبود كان ابراهيم العظم هو والي صيدا عام ١٧٤١ ، وانه صحب عمه سليمان باشا الى طبريا عام ١٧٤٢ — انظر الحاشية السابقة •

وخيامه التي لا تحصى تغطي الروابي الشمالية المقابلة وكانوا على مسيرة يوم من طبريا • وندم الشيخ ظاهر لوثوقه بكلام والي صيدا وعدم سماحه للقرويين بالقدوم الى المدينة والمساهمة معه في القتال •

وفي صباح اليوم التالي اشرقت الشمس على عساكر الوالي وهي تنحدر ببطء الى طبريا من الشمال في اتجاه البرج القائم على رأس تلة هناك •

كانت حامية المدينة مؤلفة من ستمائة مقاتل مجرب واربعمائة جندي من اهل طبريا وقد توزعوا على اربع جهات : الاولى في البرج المذكور آنفا ، والثانية داخل المدينة وحول الاسوار ، والثالثة والرابعة على طرفي البحيرة الشمالي والجنوبي وذلك لاحباط كل مسعى قد يقوم به الوالي لاقتحام المدينة من هاتين الناحيتين وان كان ذلك صعبا عليه لضحالة مياه البحيرة في مثل هذا الوقت من السنة •

وفي خلال ذلك قدم الى طبريا رسول موفد من قبل وزير صيدا فقال لظاهر: ان سيده الوزير (اي وزير صيدا) كتب الى سليمان باشا محتجا ومعترضا على غزوه لاراضي طبريا التابعة له (اي الوزير صيدا) ودعا الرسول ظاهرا الى الثبات في وجه الوالي والخروج اليه وقتاله ، واضاف ان لا خوف من قتل سليمان باشا لان سيده الوزير (اي وزير صيدا) سيكتب الى السلطان يبرر له عمل ظاهر وسيقول له ان ظاهرا قتل الباشا بحق لانه المعتدي •

ارسل ظاهر عن طريق البحيرة يستنجد بأخيه سعد صاحب قلعة دير حنا ، ولبى سعد طلب اخيه فحشد عسكرا كثيرا ادخل الطمأنينة الى قلب ظاهر • واتخذ الشيخ من مؤازرة اخيه له سلاحا يهدىء به روع سكان طبريا كلما بدر منهم ضيق وكان يقول لهم بهذا المعنى : لا تخافوا ولا تهابوا لدى اخي سعد في دير حنا جيش غفير سيباغت به الوالي من الخلف ويفك الطوق عن طبريا • ولكن جيش سعد هذا لم يصل الى طبريا ولم يشترك قط في القتال •

وتابع سليمان باشا انحداره الى طبريا ، وما كادت طلائع عسكره تقترب من البرج حتى فوجئت بقنبلة اطلقت عليهم من البرج واخترقت صفوفهم وقتلت اربعة عشر من العسكر ، فتوقف الجيش عن المسير ثم ارتد الى مسافة اربعة اميال الى الوراء حيث ضرب الوالي خيامه واقام معسكره على مرتفع يشرف على المدينة ، وكان لهذه القنبلة اطيب الاثر في نفوس اهل طبريا اذ قوت فيهم الامل بالنصر

وشددت من عزائمهم •

وفي مساء اليوم نفسه اي الاحد ٩ ايلول سنة ١٧٤٢ وعند غروب الشمس شرع سليمان باشا يضرب المدينة بالقلل والقذائف الحارقة والحجارة الثقيلة من الراجمات والمجانيق التي اقامها الوالي على التلال المقابلة (٢٠) • واشتد اطلاق القذائف في اليوم التالي بصورة لم تعهد له المدينة مثيلا في تاريخها حتى هزت انباء المعركة البلاد السورية من ادناها الى اقصاها • وكان الرأي السائد لدى عامة الناس ان المدينة لن تقوى على الصمود طويلا وانها ستسقط خلال ايام معدودة . وبات جميع الناس يتحدثون عن نهاية ظاهر القريبة •

صب الوالي غضبه على ظاهر واطلق كل ما كان لديه من القذائف ولكن القدرة الالهية شاءت ان تكلأ طبريا بعنايتها فلم يهدم طيلة الاربعة عشر يوما بيت واحد ولم يقتل رجل واحد ولا دجاجة واحدة اذ كانت القذائف بأكثرها تمر من فوق المدينة ثم تهوي في البحيرة ، وكانت معجزة على حد قول المؤرخ تحدث عنها القريب والبعيد • واما القنابل القليلة التي سقطت داخل المدينة فكان بعضها يقع في الازقة الترابية دون ان تنفجر ناشرة الغبار الكثيف ، وكان البعض الآخر ينفجر في الهواء فتتناثر شظايا القنابل هنا وهناك دون ان تحدث اي ضرر فيلتقطها اولاد الحارات ويسلمونها للشيخ فتنبسط اساريره سرورا ويكافئهم ببعض الدراهم.

ادرك سليمان باشا في نهاية الاربعة عشر يوما ان خصمه عنيد صعب المراس فارسل الى دمشق يطلب المزيد من القذائف استعدادا لمعركة اشد ضراوة من سابقتها.

غير انه في الوقت الذي كان فيه الوالي يستعد لاذكاء ضرام الحرب من جديد، كان ظاهر رغم الفشل الذي مني به الوالي حتى الان ، يسعى لعقد الصلح معه • فأرسل ظاهر زوجة ابيه العجوز لتفاوض اولي الامر في المعسكر من اجل الصلح • وكان من عادة اهل ذلك الزمان انه اذا ارسل المفاوض امه او امرأة اخرى قريبة له يعتبر ذلك تواضعا لطيفا من جانبه وخضوعا للطرف الاخر ، وهذا ما قصد به الشيخ ظاهر من اختيار زوجة ابيه للمفاوضة لعل الوالي يتلطف فيستقبل ذلك منه بالرضا ويتفق معه على امر حقنا للدماء •

---

٢٠) يقول فولني (ج٢ ص ٧٨) ان ضرب طبريا بالمجانيق اثار دهشة الجماهير السورية لندرة استعمالها .

صعدت العجوز الى المعسكر ومعها هدية ثمينة من اجل تقديمها لسليمان باشا وهي عبارة عن حصان من اصائل الخيل يساوي ثمنه الف قرش ويسوقه فتيان من خاصة الشيخ •

كانت العادة في ذلك الزمان انه اذا قبل الوالي الهدية فهنالك احتمال كبير للصلح والا فتستمر الحرب بويلاتها •

على ان الوالي قبل الهدية واعاد العجوز الى المدينة لتقول ان الوالي، بحسب اوامر السلطان ان يتراجع عن طبريا الا برأس ظاهر العمر ودك اسوارها حتى الاساس •

استحوذ الخوف على سكان المدينة فقال ظاهر يطمئنهم بهذه الكلمات ، لا تخافوا ولا تهابوا • يوجد لدى اخي سعد في دير حنا عسكر غفير سيباغت به سليمان باشا وينقذنا مما نحن فيه عندما يحين الوقت • واضاف يقول : اذا كان خصمنا اعوج فلنكن عوجا مثله واذا كان عنيدا فلنكن عنيدين مثله ، ان من جاء ليقتلكم اقتلوه قبل ان يقتلكم ، اذللت نفسي ونكست راسي وارسلت الى الوالي زوجة ابي حتى لا يقال ان الشيخ ظاهرا شمخ واستكبر او رفع السلاح في وجه امير الحج ووكيل السلطان • لو كان عند الوالي ذرة من عقل لقال كم هو متواضع هذا الشيخ اذ يرسل زوجة ابيه العجوز طلبا للصلح وهو الذي لم يخسر خلال اربعة عشر يوما رجلا واحدا ولم يهدم له حائط واحد • لو كان عند الوالي ذرة من عقل لاخذ مني ما تيسر له اخذه وانصرف عني ، اما ان يذلني او يقتلني فهذا ما لا يقدر عليه•

وارسل ظاهر يستنجد بأخيه سعد ثانية ورجاه ان يستوضح من وزير صيدا بواسطة تجار عكا الفرنسيين عما اذا كان الوزير فعلا صادقا فيما بعث به اليه بشأن معارضته لحملة سليمان باشا على طبريا :فأذا كان الامر كذلك فليزحف (اي وزير صيدا) بعسكره الى صفد او عكا ليعلم كل الناس انه غير راض عن حملة سليمان باشا على طبريا • واضاف ظاهر يقول لاخيه فاذا جاء وزير صيدا فعلا الى صفد تعال انت في نفس الوقت الى طبريا وباغت سليمان باشا في معسكره واقتله،ففي هذه الحالة يقول الناس ان وزير صيدا هو الذي باغت وزير دمشق وقتله لان الاخير اعتدى على بلاده ، وبذلك نتجنب تهمة قتل وكيل السلطان وامير الحج ، واذا رفض وزير صيدا القدوم الى صفد يكون كاذبا في كل ما بعث به الي ومن يعلم فقد يكون

متواطئا مع سليمان باشا على قتالي وقتلي .

ولكن وزير صيدا لم يزحف بقواته الى صفد كما طلب منه كما انه لم يصل الى ظاهر اي مدد من اخيه سعد .

في هذه الاثناء حصل سليمان باشا على اسلحة جديدة من حيفا ودمشق مثل راجمات حجارة وقذائف ذات الوزن الثقيل وشرع يضرب المدينة من جديد ولما اشبعها ضربا واستنفذ كل ما عنده من اسلحة وقذائف رأى ظاهر ان يحاول الصلح مع الوالي مرة اخرى لعله ينجح في ما فشل فيه في السابق ، فقال ظاهر لبطانته : في المرة الاولى رفض سليمان باشا الصلح معي لانه لم يشف غليله مني فلاجرب ثانية عسى ان يكون قد شفى غليله مني الان . وارسل ظاهر ثانية زوجة ابيه الى الجبل ومعها حصان يقدر ثمنه بخمسمائة قرش هدية للوالي اي بسعر يساوي نصف سعر الحصان الاول . ولم يطل الزمن حتى عادت العجوز الى طبريا صفر اليدين وبدون الحصان .

طال الحصار على طبريا واخذ الضيق يتسلل الى نفوس الاهلين فقالوا للشيخ وماذا بعد ، اين عسكر اخيك ولماذا لا تأتي به لينقذنا من هذا العذاب .. فماذا تنتظر اذن ، اخرج انت الى الوالي واقتله قبل ان يصل اليك ويقتلك ، فأجاب الشيخ يقول ، ان افكاري ليست كأفكاركم واني انظر الى ابعد مما تنظرون واستطرد يقول :

لن اطلب من اخي ان يوافيني بعسكره الا في حالتين : الاولى عند قدوم وزير صيدا بعسكره الى صفد او طبريا ، ففي هذه الحالة ، اي عند وصول وزير صيدا بعسكره الى صفد او طبريا ، اذا جاء اخي سعد الى طبريا وباغت سليمان باشا في معسكره وقتله يقول الناس ان وزير صيدا هو الذي هاجم وزير دمشق وقتله لان هذا الاخير اعتدى على طبريا التابعة لولاية صيدا ، وهذا هو ما ارجوه وابتغيه لاني لا اريد ان يقال : ان الشيخ ظاهر قام على وكيل السلطان وامير الحج وقتله فتتعطل جردة الحج واكون سببا في تفويت اداء هذه الفريضة المقدسة على المسلمين وسيقول الناس عني اني قاتل ولا اريد هذا لنفسي . والحالة الثانية عندما يصل سليمان باشا الى اسوار المدينة ، فاذا افلح الوالي في الوصول الى الاسوار وشرع في نقبها ولم يعد بالامكان صده بطريقة اخرى فعندها وعندها فقط ادعو اخي

الى نجدتي . تعلمون اننا حتى الان لم نخسر رجلا واحدا ولم ينقصنا شيء ، ان قوتي اليوم هي كما كانت عليه بالامس فرجالي اقوياء واسواري منيعة فلماذا اذن اخرج الى الوالي واقتله فاتحمل مسؤولية قتله واحمل نفسي نقمة السلطان . كل ما ارجوه ان احافظ على بلدي واحمي شعبي وان يرحل الوالي عني ويكفيني اذاه كونوا على حذر حاربوا حرب دفاع ، اقتلوا كل من يقترب من الاسوار واما القتل لغير ذلك فتجنبوه . اني لا اريد مهاجمة الوالي في معسكره ولا اريد ان يكون قتله على يدي ، والله كفيل بمجازاة المعتدين .

فتعجب الشعب من حكمة الشيخ ظاهر الذي يرى المخلوق قبل ان يخلق .

اتخذ الوالي اجراءات شديدة لاحكام الحصار حول طبريا واغلق كافة الطرق المؤدية اليها عندما بلغه ان سكان عكا الذين يودون الشيخ ظاهرا مودة عظيمة ، يمدونه بالاطعمة والذخائر ، فارسل الوالي الى عكا يتهددهم ويحذرهم من مغبة الاسترسال في تزويد الشيخ ظاهر بالمؤن والذخيرة كما اقام جهازا للمراقبة على مفترق الطرق لمنع وصول الامدادات الى طبريا ، ولكن اهل عكا على الرغم من هذه الاجراءات الشديدة التي اتخذها الوالي ضدهم ظلوا يزودون الشيخ ظاهرا بالمواد الغذائية والاعتدة عن طريق البحيرة وتحت ستار الليل .

وعمد سليمان باشا الى تشديد الحصار على المدينة من ناحية البحيرة فأرسل الى صيدا واتى بمركبين انزلهما الى البحيرة لمراقبة شواطئها ، ولم يأت المركبان بالفائدة المرجوة لان مراكب الشيخ وان كانت اصغر حجما من مركبي الوالي الا انها كانت مزودة بمائة مقاتل مقابل ثلاثين جنديا كانوا على ظهر مركبي الوالي ، ولم يطل الوقت حتى سيطرت مراكب الشيخ على البحيرة ولم تكترث للقلل التي كانت تتساقط حولها .

ولما فشل سليمان باشا في خططه الرامية الى احتلال المدينة ، وسئم خواصه في المعسكر من هذه الحال بعثوا الى الشيخ ظاهر يعرضون وساطتهم في موضوع الصلح قائلين له : ان الوالي ندم على ما صنع بك ولكن كبرياءه تأبى عليه طلب الصلح منك لذلك نرجو ان تحاول معه مرة ثالثة ، وندعوك الى ارسال زوجة ابيك مرة اخرى الى المعسكر ونحن سنؤيدها في مفاوضاتها مع الوالي ويقيننا انها لن ترجع فارغة اليد هذه المرة .

واستجاب ظاهر لطلبهم فأرسل زوجة ابيه العجوز للمرة الثالثة الى معسكر الوالي مع حصان هدية للوالي يساوي مائة قرش ، اي خمس ثمن الحصان الثاني. وسرعان ما عادت المرأة والاسى ملء وجهها لتعلن ان الوالي لا يزال متشددا في موضوع الصلح وانه لن يقبل به الا اذا تحقق له شرطان اولهما : ان يهدم البرج حتى الاساس وثانيهما ان يدخل بعسكره المدينة ويخرج منها برفقة ظاهر ، لانه هكذا اقسم قبل قدومه الى طبريا ، وانه لا يريد ان يحنث بيمينه .

رفض ظاهر هذين الشرطين قائلا : اني لست غبيا فاسلم نفسي الى من يريد قتلي ، كما اني لن اقبل بهدم البرج الحبيب على نفسي والذي هو لي كالشراع للسفينة . اما اذا كان الوالي لا يريد ان يحنث بيمينه ويمينه عزيز علي فاني مستعد لهدم بعض حجارة البرج كما انى اسمح له بدخول المدينة بطيبة خاطر بشرط أن لا يزيد عدد مرافقيه على عشرة اشخاص . ولكن الشيخ ظاهرا عاد ورفض ما وافق عليه وابى الاعتراف للوالي بأي مكسب .وهكذا اخفق كل مسعى للصلح بين الفريقين.

واخيرا لجأ سليمان باشا الى حيلة خبيثة تسهل عليه الاستيلاء على البرج الذي هو مفتاح المدينة وعماد قوة ظاهر فيها وذلك بواسطة سلالم من خشب الارز ينصبها على جدران البرج ، فارسل الى دمشق واتى بخمسين سلما منها .

رأى اهل طبريا هذه السلالم من بعيد بايدي عساكر الوالي وهم يلوحون بها لالقاء الرعب في قلوبهم ، ولجأ الوالي الى حيلة تهون عليه نصب هذه السلالم على جدران البرج وذلك انه حشد عسكره وارسلهم الى جنوب المدينة قاصدا بذلك تحويل الانظار عن اهدافه في البرج واستدراج ظاهر الى تلك الناحية الجنوبية النائية موهما اياه انه يعتزم اقتحام المدينة من الجنوب،فاذا خرج اليه ظاهرواشتبك معه في القتال ، يسهل على عساكره نصب السلالم واحتلال البرج .

الا ان حراس البرج كشفوا حيلة الوالي واستنجدوا بظاهر فامدهم بفرقةمن حامية المدينة ، ولما اقبل عساكرالوالي الى البرج وهموا بنصب السلالم عليهفوجئوا من قبل الحامية بسيل من البارود والقذائف كبدتهم ستين قتيلا ، وفر الباقونولحق عسكر ظاهر بالمنهزمين واوقعوا بهم ما يزيد على اربعين قتيلا وغنموا القسم الاكبر من السلالم ادخلوها المدينة وسلموها للشيخ ظاهر .

ثم جلب الوالي مدفعا ضخما من احدث طراز (تيروس) لاستخدامه في هدم

جدران البرج ولكن الشيخ ظاهرا احبط مشروعه الجديد ببناء جدار سميك حول البرج بلغ عرضه اربعة اذرع ، فلم تنتزع الاربعمائة قنبلة التي اطلقت عليه سوى بضع حجارة ، ونتيجة لهذا الفشل صوب الوالي راجماته الى المدينة من جديد وصب جام غضبه عليها ولكن دون طائل .

واخيرا وبعد محاولات عديدة باءت كلها بالفشل لجأ الوالي الى احتلال المدينة بواسطة نفق يؤدي اليها من تحت الاسوار ، فأمر بحفر خندق او نفق من نقطة تبعد ميلين عن المدينة ويسير في خط مستقيم في اتجاه الاسوار وذلك لنسف المدينة بالمتفجرات من تحت الارض .

وسرعان ما كشف الشيخ ظاهر هذه الخطة الخبيثة من عيونه الكثيرين في معسكر الوالي واحبطها باجراء اكثر خبثا منها ، وذلك بانه امر بحفر نفق من داخل سور المدينة الى مسافة اربعة اذرع خارج السور بحيث يتصل هذا النفق بنفق آخر مواز للناحية التي بدأ منها الوالي حفر الخندق المتجه نحو طبريا، فاذا نجح الوالي في الوصول الى الاسوار عن طريق النفق اصطدم عساكره برجال الشيخ ظاهر داخل النفق من خارج السور واستسلموا لهم الواحد بعد الآخر .

ولكن الامطار الغزيرة التي هطلت في الايام الاخيرة للحفر فوتت على سليمان باشا غرضه وافسدت عليه خطته .

وفي غضون ذلك اتصل مساعدو الوالي بالشيخ ظاهر وطلبوا منه ان يقوم بسعي جديد من اجل الصلح وقالوا له : ارسل اخاك يوسف العمر الرجل الوقور المجرب للمفاوضة وسنسنده ونقف الى جانبه ويقيننا ان الوالي سيقبل اليوم بما لم يكن يقبل به في السابق لان عساكره قد سئموا القتال ، كما ان جردة الحج قد حان موعدها ، وسيمضي الوالي قريبا الى الحجاز على رأسها .

رفض الشيخ ظاهر العرض الجديد قائلا لن اذل نفسي اكثر من ذلك ولن ارسل الى الوالي اخي حتى ولا عبدا ولا جارية ، فلربما قتل الوالي اخي او اخذه اسيرا الى دمشق فاضطر عندئذ الى الموافقة على كل ما يطلب مني . ولكن عاد الشيخ ظاهر فوافق على انتداب اخيه يوسف للمفاوضة شريطة ان يرسل الوالي وزيرا من بطانته ضمانا لعودة اخيه يوسف سالما .

صعد يوسف العمرالى معسكر الوالي وبرفقته غلمان يسوقون عشرة جمال من اجل

تقديمها هدية للوالي ، واجريت المفاوضات • كانت مطاليب سليمان باشا ان يهدم جانب من جدران البرج وان يتوفي جميع الضرائب المكسورة • ورفض الشيخ ظاهر هذين المطلبين بسبب الاضرار الفادحة التي اصابت بلاده من جراء حرب لم يكن مسببا لها • وعاد يوسف العمر سالما الى طبريا •

في تلك الاثناء وصل الى معسكر الوالي وزير قادم من الاستانة • امر الوزير سليمان باشا بايقاف الحرب والتوجه مع جردة الحج الى الحجاز ، فالتمس الوالي من الوزير مهلة خمسة عشر يوما ليصفي حسابه مع الشيخ ظاهر عن طريق النفق الذي توقف العمل به بسبب الامطار الغزيرة التي سقطت مؤخرا ، واعطى الوالي هذه المهلة •

على ان عمال النفق لم يحرزوا اي نجاح في نهاية المهلة المعطاة للوالي وهو اليوم الواحد والثمانون للحصار اما لان الله اعمى ابصارهم فساروا في طريق معوجة لا توصلهم الى الاسوار واما لانهم تعمدوا عرقلة الحفريات وافشالها كرها منهم للوالي وانتصارا للشيخ ظاهر •

وعلى الرغم من كل ما جرى ففي اليوم التالي وهو اليوم الاول لعيد الفطر ارسل الشيخ ظاهر الى الوالي اربعة جمال هدية بمناسبة العيد مع كتاب يقول له فيه : ان الهدية وان كانت لا تليق بشخصكم الكريم الا ان هذا هو اقتداري •

اثارت هذه الهدية دهشة الوزير مساعد الوالي فقال لسيده في جملة ما قاله : كم هو متواضع وحليم هذا الشيخ، فمع علمه بفشلك وانخذالك فانه ما فتيء يتحفك بالهدية تلو الهدية ، لقد حاربك وقتل الكثير من رجالك في حين انه لم يخسر رجلا واحدا ولا بيتا واحدا ،اظن انه لم يقدم لك هذه الهدية الا ليخفف من مصابك ويهون عليك انكسارك ، لم ار في حياتي اذكى وادهى من هذا الشيخ ، اتظن انه كان يجهل حفر النفق ؟ لا ! لقد علم به منذ شرعت في حفره وقد عرف كيف يحبط خططك ، لقد كان هذا الشيخ يعلم كل كبيرة وصغيرة في معسكرنا وكانت الاخبار ترد اليه كل يوم ذلك لانه محبوب الى درجة ان عساكرك يودونه ويدعون له بالنصر ورجل هذه صفاته لن يغلب ، والنصر حليفه دائماً •

ونظرا لاقتراب موعد سفر قافلة الحج فقد اكره سليمان باشا في اليوم الاخير من تشرين الثاني سنة ١٧٤٢ على وقف القتال ، وانتدب جماعة من بطانته لبحث

شروط الصلح مع ظاهر • وبعد اخذ ورد اتفق الفريقان على ان يرحل الوالي وعسكره عن طبريا شريطة ان يهدم صفان من حجارة البرج عندما يصبح الوالي على مسيرة ثلاثة ايام من طبريا ، وان يرسل ظاهر ثلاثين جملا هدية الى الوالي في مقابل الاموال الاميرية المكسورة • ورفض ظاهر دفع الاموال المكسورة وذلك بسبب الخراب الذي اصاب بلاده من جراء حرب لم يكن مسؤولا عنها وبسبب حملات النهب التي شنها الوالي وعسكره على اهل القرى •

وتأكيدا لما تم الاتفاق عليه فقد رهن ظاهر ولده الصغير عند الوالي كما ارسل الوالي وزيرا من بطانته رهينة لدى ظاهر ضمانا لعودة ولده الصغير •

وبعد ان تبودلت الرهائن رحل سليمان باشا العظم بكامل عسكره ومعداته الى دمشق وذلك في يوم السبت الاول من كانون الاول سنة ١٧٤٢ وهو اليوم الخامس والثمانون لقدومه • غادر سليمان باشا طبريا غاضبا ومهددا بالعودة اليها في السنة القادمة •

٦ ـ عودة سليمان العظم الى دمشق :

لقد شاع خبر تراجع سليمان باشا عن طبريا في جميع الانحاء فخرج ابناء القرى لملاقاته وهو في طريقه الى دمشق لا لشيء الا ليشاهدوا «ابن الاسد» وهو اللقب الذي اطلقوه على ابن ظاهر الصغير السائر برفقة الوالي • وكان الاهلون يقولون فيما بينهم لنخرج ونعاين ابن الاسد الذي هاجم اباه وزير عظيم وحاصره ثلاثة اشهر وارتد عنه خاسرا

صعب على سليمان باشا ان يمنى بهذا الفشل الذريع الذي حط من كبريائه واساء الى سمعته فكان يقول وهو في الطريق الى دمشق : سأعود الى طبريا ولن اتراجع عنها الا برأس ظاهر العمر وبعد ان ادك اسوارها حتى الارض ولو انفقت في ذلك كل اموالي وضحيت بكل عساكري • واستقر عزمه على هذا •

اما ظاهر فبعد ان خلا له الجو في طبريا جمع حاشيته وقال لهم : الى متى هذا الظلم الا ترون انه ينبغي اعلام السلطان بما صنع بي وزيره ليقف على الصدق وليعلم اني لست ثائرا عليه ، الا ترون انه ينبغي اعلام السلطان بان كل الذي جرى كان سببه وشاية من اعدائي وفي مقدمتهم سليمان باشا الذي يكرهني ويناصبني العداء

بـلا سبب ؟

اتصل الشيخ ظاهر بقنصل فرنسا في عكا وطلب منه ان يكتب هـو وزميله قنصل صيدا الى سفير دولتهما في الاستانه لينقل الى السلطان شكواه ضد سليمان باشـا ، ويعطي بشأنه شهادة حـق •

كتب قنصلا عكا وصيدا الى السفير الفرنسي في الاستانة يشهـدان لظاهر بالاستقامة وحسن السيرة شارحين له عظم التسهيلات التي يقدمها ظـاهر للتجار الفرنسيين في البلاد من اجل استيراد ما يحتاجونه من محاصيل البلاد مثـل القمح والزيت والقطن وغير ذلك ، وكتبا اليه ايضا يرجوانه ان يتصل مباشـرة بالسلطان ويحصل منه على شهادة موقعة باسمه ومسهورة بختمه تشهد بحسن سلوك ظاهر حتى اذا ما حاول احد الولاة مهاجمته تكون هذه الشهادة مانعا ورادعـا •

وفي الوقت نفسه طلب الشيخ ظاهر من حاييم ابي العافية ان يكتب هو الاخر الى يهود الاستانة ليسعوا هم بدورهم لدى السفير الفرنسي في العاصمـة في نفس الموضوع ، ففعل ما طلب منه واستراح قلب الشيخ •

٧ ـ حملة سليمان العظم على طبريا عام ١٧٤٣ وموته في ضواحيها :

وهي حملته الخامسة على ظاهر العمر في طبريا •

ويتابع يعقوب بيرب كلامه عن حملة عام ١٧٤٣ فيقول ما مجمله :

لسوء حظ ظاهر باءت مساعي اصدقائه في الاستانة بالفشل ، ففي تموز سنة ١٧٤٣ وصل الى يهود طبريا كتاب من يهود الاستانة يتحدثون فيـه عـن غضب السلطان على ظاهر والاخطـار المقبلة المحدقة بطبريا ويدعون حاييم ابا العافية وابناء طائفته الى الخروج من المدينة الى ان ينقضي غضب السمـاء •

وما اسرع ما شاع الخبر في كل مكان فغادر المدينة اغلب سكانها ، اما الذين اثروا البقاء فيها فجعلوا يستعدون لحصار طويل الامد ويهيئون طعاما لستة اشهر.

في آب سنة ١٧٤٣ خرج سليمان باشا من دمشق بجيش عرمرم • كان عليه ان يمضي اولا الى عكا ليجيء بآلات الحرب الجديدة المرسلة اليه من الاستانة خصيصا لاستخدامها ضد ظاهر ، وكان على الوالي ايضا زيادة في الحرص والحيطـة ان يستلم هذه الاسلحة هو بنفسه ويأتي بها الى طبريا لئلا تقع في ايدي فدائيي ظاهر الكثيرين • وجلب الوالي معه ايضا من دمشق اخشابا من شجر الارز ليصنع منها

قوارب يحاصر بها طبريا من ناحية البحيرة حتى يسد كل ثغرة قد يستفيد منها ظاهر

نهض سليمان باشا من عكا بعسكره متوجها الى طبريا وفي مساء الجمعة ٢٣ آب وصل الى قرية لوبيه التي تبعد عن طبريا مسافة ساعتين على الاقدام •

وفي ٢٥ آب قدم الى طبريا مخبر يقول ان سليمان باشا موض في امعائه مرضا خطيرا افقده الوعي في نفس اليوم الذي وصل فيه الى القرية • لم يصدق ظـاهر هذا الخبر ظانا انه خدعة من الوالي • ولكن الخبر كان صحيحا فقد ظـل سليمان باشا يعاني سكرات الموت الى ان ادركته الوفاة يوم الثلاثاء ٢٧ آب سنة ١٧٤٣ في قرية لوبيه (٢١) بعد مرض دام اربعة ايام ، وفي اليوم التالي لموته حمـل العسكر الشامي جثة فقيدهم ورحلوا الى دمشق ، وحدث فرح عظيم في طبريا • انتهت رواية بـيرب •

عند ذلك خرج ظاهر من طبريا وتوجه الى لوبيه واستولى على جميع ما خلفه الجيش الراحل بما في ذلك المدافع والبنبه ، واما العساكر الـذين تخلفـوا عـن الرحيل فقـد اخـلى ظـاهر سبيلهم (٢٢) •

٨ ـ محمـد العلي ومقتلـه :

اشرت في ما سبق الى النزاع الذي كان ناشبا بين ظاهر وبين ابن عمه محمد العلي وكيف ان الاخير انحاز الى سليمان باشا العظم في حملته على طبريا سنة ١٧٤٢ طمعا في ان يصبح حاكما على البلاد عوضا عن ظاهر • فلما رحل سليمان باشا الى

---

٢١) هيد ص ٢٥ – يؤرخ بريك المعاصر والامير حيدر وفاة سليمان العظم خطـأ سنة ١٧٤٤ ، ويؤرخه ميخائيل الصباغ خطأ ايضا بسنة ١٧٥٤ – كتب الخوري بريك ص ١١ عن حملتي عام ١٧٤٢ و١٧٤٣ ما يلي «ركب سليمان العظم على ظـاهر العمر بطبريا وما انتفع بشيء ... ثم ركب ثانيا على طبريا على ظاهر العمر وهناك مات وقيل مات مسموما فجابوه الى الشام مائتا محملا ودفنـوه في دمشق يـا حيف عليه يموت» .

٢٢) عبود ص ٨ – كتب عبود الصباغ عن حملة عام ١٧٤٣ ما يلي : «ولما حضر سليمان بـاشـا مـن الحج جهـز عسكر بزيـادة وجبخانه عظيمـة ومـدافع وبنبـه وحضر الى محاربة ضاهر فلما وصل الى لوبيه (قرية على مرتفعات طبريا الغربية) حصل له تشويش ومات فاذ سمع ضاهر بأن سليمان باشا مـات حـالا حضـر بعسكره واخذ كامل عرضي (اي معسكر) سليمان باشا مع كامل المدافع والبنبه . واما عسكر سليمان باشا حين نظروا الوزير مات هربوا والذين بقوا منهم لم عمل ضاهر معهم شيء بل سيبهم من غير مضرة كليا» .

دمشق في الاول من كانون الاول سنة ١٧٤٢ عاد محمد العلي الى شفاعمرو وبلد

كان ظاهر خلال مدة اقامته في طبريا يتردد الى عكا لقضاء حاجاته وكان له في المدينة اصدقاء من اهلها ومن التجار الاجانب النازلين في خان الافرنج ، كان التجار الاجانب يودون ظاهرا ويستجيبون لكل طلباته اخص بالذكر منهم التاجر الفرنسي يوسف بلال .

وفي الوقت نفسه كان محمد العلي يأتي عكا من حين الى آخر رغم العداوة التي كانت قائمة بينه وبين ظاهر لان عكا في هذه الفترة لم تكن تابعة لظاهر بل كانت تابعة لصيدا وكان يلتزمها من الوزير بالاضافة الى بيروت وصور رجل من صيدا يسمى علي آغا حمود .

اتفق يوما ان التقى ظاهر بابن عمه في خان الافرنج في عكا ولم يكن يرافق محمد العلي سوى عدد قليل من العسكر ، فقبض ظاهر عليه وادخله سجن طبريا مدة ثم امر بقتله فقتل ، واستولى بعد ذلك على شفاعمرو والدامون الساحلية وبقية البلاد التابعة لابن عمه حتى قرية الشيخ بريك شرقي حيفا وضمها الى ممتلكاته (٢٣) .

وبمقتل محمد العلي تمهد لظاهر العمر الاستيلاء على مدينة عكا وناحيتها .



٢٣) عبود ص ٨ ، هيد ص ٢٦ .

الفصل الخامس

ولاية اسعد باشا العظم على دمشق

من سنة ١٧٤٣ حتى سنة ١٧٥٧

١ - اسعد باشا العظم :

تولى ايالة دمشق بعد وفاة سليمان باشا العظم ابن اخيه اسعد باشا بن اسماعيل العظم في تشرين الاول سنة ١٧٤٣، واستقام له الامر في الولاية زهاء اربع عشرة سنة ، وهو امر لم يسبقه اليه احد من وزراء الاتراك من حيث طول مدة ولايته

اشتهر اسعد باشا بالغنى والثراء وبتربية الخيول الاصيلة ، وكان بارعا في جمع المال وجباية الضرائب ، وكان يقول عن نفسه في هذا الصدد انه يعرف كيف يجتز صوف الخرفان دون ان يسلخ جلودها .

استخدم اسعد باشا امواله في الربا وانشاء الابنية العظيمة في سوريا وهي ابنية لم يقم لها نظير في الشرق منها قصر العظم المشهور في دمشق ، (بني سنة ١٧٥١) ومنها : خان اسعد باشا الذي ليس له مثيل في الشام في سعته وجمال هندسته واتقان بنائه ، (بني سنة ١٧٥٣) يقول فولني : لقد عمل اسعد باشا اعمالا طيبة ففرض الطاعة والنظام على عسكره ووضع حدا لتعدياتهم على الرعية كما كان متساهلا في اعطاء القروض فلا يتقاضى اكثر من ستة في المائة فائدة عليها .. قيل انه ترك من المال عند وفاته مبلغ (٣٣٠,٠٠٠) ليرة انجليزية (١) .

ومن الحق ان نقول ان الولاة من هذا البيت كانوا في الغالب يتحاشون الاصطدام بظاهر العمر (بعد وفاة سليمان باشا في طبريا) وقد اثار ذلك عليهم سخط الدولة وغضبها ، فمن اسباب عزل اسعد باشا عن ولاية دمشق ، في مطلع سنة ١٧٥٧ كان ، بالاضافة الى اسباب اخرى ، تغاضيه عن اعمال ظاهر

١) فولني ج٢ ص ٢١٣ ، ٣٢١ . عبد الكريم رافق ص ٣٣٩ .

التوسعية ، كما ان التراخي من جانب محمد باشا العظم في قتال ظاهر سنة ١٧٧٥ وقتال علي بن ظاهر سنة ١٧٧٦ قد اثار عليه سخط الدولة وجرّ عليه تهمة الخيانة .

٢ ـ ظاهر العمر يوجه اهتمامه الى عكا :

في ربيع سنة ١٢٩١ انكسر الصليبيون وسقطت عكا في ايدي العرب فهدمت المدينة ودمرت تحصيناتها الضخمة وبقيت على هذه الصورة ركاما من الخرائب والانقاض زهاء اربعة قرون ونصف الى أن دخلها ظاهر العمر سنة ١٧٤٤ . ويكاد يجمع الرحالة الاجانب على ان كل ما كانت تحتويه عكا في هذا الوقت من عمران هو الميناء التركي وخان الافرنج ، جامع او جامعان ، وكنيسة ، وعدد من الاكواخ وما تبقى لم يكن سوى خراب شامل ودمار واسع النطاق (٢) .

وما حفّز ظاهرا على احتلال مدينة عكا واختيارها مركزا لحكومته هو التحصينات الصليبية المتهدمة التي اقام على انقاضها حصونه واسواره .

وفي سنة ١٧٤٤ تبدأ مرحلة جديدة في حياة ظاهر العمر .

كانت الفترة ما بين سنة ١٧٤٤ وسنة ١٧٥٧ يسودها الهدوء ، وامتد هذا الهدوء حتى سنة ١٧٦٠ عندما تولى دمشق عثمان باشا الكرجي الملقب بالصادق عدو ظاهر اللدود . ان السبب في هذا الاستقرار الذي شمل سوريا في هذا الوقت على ما ذكر المؤرخون ، هو انصراف اسعد باشا العظم الى اقامة الاعمال الانشائية وتشييد الابنية والقصور واعتقاده ان الاشتباك في حرب مع ظاهر العمر سيحول دون اتمام مشاريعه هذه وسيجر البلاد الى ويلات لا يعلم احد مداها . لذلك ترك اسعد باشا ظاهرا وشأنه ولم يتعرض له في خير او شر رغم تطاول ظاهر على اراضي ولايته وتوسعه في البلاد على حسابها ، ولم يُروَ عن وقوع اية حروب بين اسعد باشا وبين ظاهر العمر وان ذكر عن وقوع حروب بين اسعد باشا وبين الامير ملحم الشهابي وغيره من مشايخ الاقطاع .

والحق يقال ان فترة السكون هذه اتاحت لظاهر بعض الراحة عقب حروب متتابعة انهكت قواه وانضبت موارده في بلاد صفد ومرج ابن عامر وطبريا، وجعلته ينصرف الى الحفاظ على ما في يده من اقاليم وتحصينها ، على انه كان في حاجة ماسة

٢) مخولي ص ٣٨ ـ ٤٢ .

الى توسيع رقعة بلاده وتهيئة حدود آمنة لها على ان يكون ذلك بصورة تدريجية ووئيدة حتى لا يستفز ذلك حكومة الاستانة او يستثير غضبها فتسرع الى محاربته من جديد . كان ظاهر في تفكيره ورسم مخططاته ينتهج سياسة عربية قومية ،وينظر الى ما حوله من البلاد من ناحية خلوها من العثمانيين او عدم خلوها منهم ، ومن حيث بعدها او قربها عن قواعد الولايات حتى اذا ما وجد بلدا يرزح تحت نير تركي جائر هاجمه وطرد وكلاء الاتراك عنه واستولى عليه . كذلك كان عقله الواعي المجرب يزن كل احتمال من ناحية السلم او الحرب قد ينشأ عند كل خطوة يخطوها في هذا السبيل .

اتجهت انظار ظاهر اخيرا الى عكا المدينة الخربة المهجورة وطفق يترقب الفرص لمهاجمتها معتمدا على قوته ومحبة اهليها له . ان انتصاره على سليمان باشا العظم في طبريا وعلى محمد العلي حاكم شفاعمرو اكسبه جراة وقوة .

٣ ـ ظاهر العمر يستولي على عكا عام ١٧٤٤ :

تقع عكا على لسان في البحر على الطرف الشمالي من خليج حيفا . كان ثغرها حسنا ومحميا من الرياح الشمالية الغربية ولكنه صغير وضيق ، وكان يؤمها الفرنسيون بسفنهم للتجارة . وفيها نزل يعرف بخان الافرنج او خان الفرنساوية ويرجع تاريخه الى العهد الصليبي .

كان سكان عكا في هذا الوقت المتقدم لا يتجاوز عددهم بضع مئات من الفقراء وصيادي السمك فأصبحوا في العهد الاخير لظاهر اربعين الفا من السكان (٣) .

كان يتولى عكا متسلم اقامه عليها متولي التزامها المدعو علي اغا حمود من صيدا وكان لدى متسلمها من العساكر ما لا يزيد على مائة جندي وظيفتهم اقرار الامن في تلك النواحي وجباية الاموال الاميرية .

على ان الامن كان معدوما في هذه الناحية الساحلية كما ان الجنود المرابطين في المدينة ما كان في وسعهم مبارحتها والعمل في خارجها خوفا على حياتهم من البدو وخصوصا عرب الصقر الذين كان لهم على الساحل وقتئذ سيطرة تامة . ولهذا السبب اصبح السهل المعروف بخصبه الممتد من حيفا حتى رأس الناقورة مجدبا

٣ ـ مخولي ص ٥١ .

تغطيه المستنقعات وتنبعث منه السموم والامراض •

يقول فولني : لم تكن مدينة عكا بحد ذاتها ذات قيمة استراتيجية عالية وان حظيت بشيء من هذا فلتلك الطريق الساحلية التي تربطها بحيفا ، وتصل شمال البلاد بجنوبها والتي كانت دائما وعلى مر العصور طريق الجيوش الغازية في الذهاب والاياب ، ولكن الشيخ ظاهرا كان في حاجة الى مدينة مفتوحة بدلا من طبريا المدينة المغلقة التي لم تعد تصلح له ، وذلك لثلاثة اسباب :

١ ــ وقوعها على طريق دمشق ــ القاهرة وسهولة الوصول اليها كلما اراد وزير دمشق ذلك •

٢ ــ لكونها محاطة بالجبال السامقة وهدفا طيبا لمدافع العدو ، وقد خبر ظاهر مساوءها ابان حملات سليمان باشا العظم الاخيرة عليها •

٣ ــ لكونها مدينة داخلية مغلقة لا تصلح لان تكون ثغرا يدر عليه الارباح كعكا ذات الميناء المفتوح •

وينبغي ان لا ننسى الناحية العربية القومية التي كانت تحتم على ظاهر انشاء ثغر وطني ينافس ثغري طرابلس وصيدا العثمانيين •

ان التجارة التي اشتغل بها ظاهر في مطلع حياته جعلته يدرك اهمية المواصلات في البحار • ان ثغرا يقع في يديه سيفتح امامه آفاقا جديدة لمطامعه من شأنه ان يتحول مع الزمن الى سوق عامة يؤمها التجار من كافة الجهات ، فيزداد دخله وتتضاعف موارده مما يتقاضاه من الضرائب والرسوم على الداخل والخار والترنزيت • لقد زار ظاهر عكا مرارا وعقد صفقات تجارية رابحة مع تجارها الفرنسيين ، لكن كان هناك خطر واحد يحسب له ظاهر حسابه اذا ما هاجم عكا واخذها بقوة السيف وهو ان تلتهب نار العداوة من جديد بينه وبين الدولة العثمانية ، ولذلك كان عليه ان يصطنع عذرا ويختلق سببا يبرر له مهاجمة عكا واحتلالها ، وما اسرع ما وجد ضالته بسلوك متسلمها الذي اتسم بالعداء له •

في سنة ١٧٤٤ وصلت الى ميناء عكا تجهيزات عسكرية واسلحة كان يراد استخدامها ضد ظاهر عقب فشل سليمان باشا في طبريا في السنة السابقة • ولما اخذ ظاهر علما بذلك استشاط غضبا فحشد عسكره وارسل الى المتسلم يتهدده ويأمره

بلزوم مغادرة المدينة فورا ، وبعث ايضا الى اهل عكا يطلب منهم نفس الطلب ويحملهم كافة المسؤوليات اذا لم يستجيبوا لطلبه • فأخلى السكان مدينتهم وتفرقوا في البلاد ما عدا قسما ضئيلا منهم التجأ الى خان الفرنساوية •

في خريف سنة ١٧٤٤ كتب ظاهر الى والي صيدا يخبره بان عكا اصبحت خرابا وان اهليها غادروها دون سبب ، ورجاه ان يفوض اليه التزامها من اجل اعمارها واقرار الامن في ربوعها • وفي نفس الوقت ، وقبل ان يتلقى اي جواب على كتابه من الوزير ،زحف ظاهر الى عكا على رأس ثلاثة آلاف مقاتل بين فارس وراجل واستولى عليها •

وكتب ظاهر في جملة ما كتب الى والي صيدا بان سبب استيلائه على عكا هو خلاف شخصي بينه وبين متسلمها الذي كان يضمر له كل شر،واضاف انه ليس اقل اخلاصا للسلطان من هذا الاغا الذي ضجت من ظلمه العباد ، وتعهد ظاهر لوزير صيدا بحماية المدينة من القرصان والعربان وتجديد بنائها على وجه يرضي السلطان وارفق كتابه كما هي عادته دائما بمبلغ من المال كان له اثر حسن في دوائر الاستانة•

وبالاضافة الى ذلك جمع ظاهر مشايخ البلاد وفي مقدمتهم قاضي عكا والعلماء وجعلهم يوقعون على محضر للسلطان يحبذون فيه احتلال ظاهر العمر لمدينتهم ويقولون له فيه ان البلاد كانت في ظلم شديد من والي صيدا وفي شدة وتعب من اللصوص وقطاع الطرق ، واضافوا ان ظاهرا باستيلائه على بلدهم قد انقذهم من الظلم ومهد الطرقات بالامان ، والتمسوا من السلطان ان يتلطف ويقر ظاهرا واليا على عكا وناحيتها (٤) •

واخيرا وبعد مداولات ومراسلات دامت وقتا طويلا أقر ظاهر رسميا على اقليم عكا ومنح التزامه ، وورد ذكره كحاكم للمدينة لاول مرة في كتاب لتجار صيدا الفرنسيين تاريخه ١٠ تشرين الثاني سنة ١٧٤٧ فيه يشتكون من قيام ظاهر بطرد احد رفاقهم من عكا (٥) •

٤) عبود ص ٩ ، فولني ج٢ ص ٨٠ ، ميخائيل ص ٤٢ ، بريك ص ١١ . ويقول بريك بصدد استيلاء ظاهر على عكا : « ثم في هذه السنة ١١٥٧ هـ . (١٧٤٤ م) اخذ ظاهر العمر مدينة عكا وسكن فيها وصار له صيت ذائع بكرمه وشجاعته وسلوك الدروب وصار امان في زمانه ،وكان محبا للنصارى » .

٥) هيد ص ٢٨ •

٤ ـ ظاهر العمر يستقر في عكا ويجعلها قاعدة لبلاده :

لم يطل ظاهر مقامه في طبريا فقام عنها بعد ان فوض مقاليد امورها الى ولده البكر صليبي ، وارتحل الى عكا وسكن فيها .

كان اول شيء فعله ظاهر بعد ان استقام له الامر في عكا ان ضرب على ايدي البدو وقطاع الطرق ، فقطع دابر اللصوص ورفع تعدياتهم عن الساحل . فعل ذلك بالحرب احيانا او عن طريق استمالة مشايخ العشائر اليه ، وذلك بغمرهم بالهدايا واستخدم ابنائهم في جيشه ، فأصبح في استطاعة ابن عكا الخروج الى ارضه وزراعتها دون خوف على مزروعاته من السرقة ، كما اصبح في استطاعة المسافر الاجنبي والوطني التنقل من مكان الى آخر دون خوف على نفسه من القتل او على ماله من السلب .

كذلك ان الارضي السهلية أصلحت ومياه المستنقعات جففت والحرية الدينية اطلقت وساد المدينة جو من الطمأنينة لم يسبق ان ألفته البلاد في تاريخها .

وتقاطر الى عكا والجليل كثير من المهاجرين الهاربين من جور الحكام من شتى الجهات فاستوطنوها وعمروها .

وقدمت من قبرص الى عكا جاليات يونانية كثيرة وتملكت قطع اراض كافية لمعيشتها فجعلتها مع الزمن كروما مثمرة وجنائن غناء ، ولا يزال بعضها يعرف حتى هذا اليوم ببساتين القبارصة .

ان استقرار ظاهر في عكا وسيطرته على خليج حيفا الذي كان وقتئذ ملجأ لسفن القرصان المالطيين وغيرهم ، اتاحا له فرصة الاتصال بالعالم الخارجي واقامة الروابط التجارية والسياسية مع الدول ذات المصلحة مثل روسيا وفرنسا وايطاليا والبندقية ومالطة . كانت فرنسا اكثر هذه الدول ارتباطا بالبلاد العربية واهتماما بعقد صفقات تجارية معها،وكان لها في طرابلس وصيدا ويافا جاليات كبيرة وقناصل يرجعون في شؤنهم الى سفراء دولهم في الاستانة .

ونتيجة للتسهيلات التي اجراها ظاهر للاجانب استطاع الاوروبيون ان يؤموا السواحل السورية بكثرة ويستوردوا منها ما كانت تفتقر اليه اوروبا وقتئذ من سلع ، ومحاصيل ، كما وجدوا في عكا منفذا لتجارتهم فحملوا اليها مختلف انواع المنسوجات القطنية والصوفية والسكر والاسلحة والورق والاواني الزجاجية .

وحملوا من عكا القطن والكتان والصوف والصابون والقمح والزيت والسمسم وغير ذلك .

ولما ارتفعت مكانة عكا التجارية ارسل قناصل الدول المقيمون في صيدا ، عاصمة الولاية ، الى عكا وكلاء عنهم لتنظيم تجارة مواطنيهم فيها وحمايتها ، وسهل ظاهر للقناصل سبل الاقامة في بلده ومنحهم امتيازات عديدة وجعل اقامتهم في خان الافرنج الذي لا يزال قائما حتى هذا اليوم .

ومن الجدير بالذكر ان خلافات تجارية ومالية كثيرة كانت تنشأ بين المزارعين العرب في الجليل وبين التجار الفرنسيين بخصوص المحاصيل الزراعية والصفقات التجارية التي تجري بشأنها: من ناحية اثمانها، ومواعيد تسليمها وغير ذلك، او فيما يتعلق بالسلفيات التي كانت تدفع على حساب مشترياتها . ان كل هذه الخلافات التي كان وقوعها امرا طبيعيا تقتضيه العلاقات التجارية المتشابكة بين بلد وآخر . كان ظاهر وموظفو حكومته يقومون بحلها والبت فيها بوجه يرضي اصحاب المصلحة وبمعرفة ممثل التجار الفرنسيين في المدينة . ولم يطل الزمن حتى غدت مدينة عكا اعظم الموانىء السورية في البحر الابيض المتوسط ففاقت في اهميتها صيدا وبيروت وطرابلس ويافا .

ومما يدل على انتعاش الحركة الاقتصادية في الجليل ولا سيما في اواخر عهد الضواهرة . ان آلاف الجمال كانت تدخل مدينة عكا كل يوم في مواسم الغلال وتخرج منها محملة بمختلف السلع والبضائع .

كذلك حالف ظاهر مشايخ البدو ، مثل الصقر وعنزة والسردية وفتح لهم باب التطوع في جيشه ، فأصبح القادم الى عكا يرى في شوارع المدينة جماعات من البدو النحاف العجاف الرقاق الوجوه ذوي البشرة السمراء يطوفون الشوارع بالثياب النظيفة والاسلحة الحديثة كالبواريد والطبنجات عوضا عن قوس النشاب والاسلحة البدائية ، وكانت هذه الطفرة ظاهرة جديدة الاولى من نوعها في البلاد سر منها الاهلون وقابلوها بالدهشة والاعجاب (٦) .

كانت عكا تفتقر الى وسائل دفاع فاعتزم ظاهر تحصينها . كان عليه قبل ان يخطو هذه الخطوة الجريئة ان يجد فرصة ملائمة تمكّنه من تحقيق غرضه دون ان

٦) فولني ج٢ ص ٧٩ .

يثير غضب الدولة عليه ، وما اسرع ما سنحت الفرصة لذلك عقب سفر وزير صيدا الى الحجاز مع جردة الحج في خريف سنة ١٧٥٠ .

ولم يكد وزير صيدا يبتعد عن صيدا قليلا حتى شرع ظاهر في بناء الاسوار حول عكا على انقاض التحصينات الصليبية القديمة واتم عمله هذا بعجلة قبل ان يعود الوزير من الحجاز . ولما بعث حكام الاستانة الى ظاهر يستوضحون منه عن هذه التحصينات اجابهم يقول انه يقيم بيتا لسكناه .

وفي رواية اخرى للمؤرخ التركي عزي افندي جاء فيها انه في نهاية سنة ١٧٥٠ مات فير مصطفى والي صيدا ولم يتسلم والي صيدا الجديد احمد آغا مهامه الا بعد بضعة اشهر ، ففي خلال هذه الفترة اي في خلال خلو صيدا من وزير مسؤول اجرى ظاهر الترميمات في اسوار عكا القديمة وبنى سلسلة اخرى من الاسوار وبوابتين ضخمتين ، كما انشأ ايضا قلعة وبداخلها قصر للسكنى . وكان للسرعة العظيمة التي بنى ظاهر فيها هذه الانشاآت موضع اعجاب الرحالة سلكويست الذي زار البلاد عقب هذه الحوادث بوقت قصير وقال لو اراد السلطان ان يقيم مثل هذه الابنية لاحتاج الى سنين كثيرة (٧) .

ويعزو الامير حيدر السبب الذي من اجله بنى ظاهر اسوار عكا الى خوفه من الامير ملحم الشهابي فيقول في حوادث سنة ١١٦٥ هـ (١٧٥١ — ٥٢) :
« وفي هذه السنة بعد رجوع الامير ملحم وانتصاره على المتاولة خاف الشيخ ظاهر العمر وجدد سور عكا » .

قيل في بناء السور شعران، احدهما لشاعر مجهول حفر على السور فوق البوابة وتاريخه سنة ١١٦٣ هـ (١٧٥٠ م) ، والاخر للشاعر نقولا الصائغ وتاريخه سنة ١١٦٤ هـ (١٧٥١ م) ، وسيرد نصاهما في فصل الابنية وقد امحى الشعر كما اندثر السور الذي بناه ظاهر الا من الناحية الشمالية حيث لا يزال قسم منه قائما، وهو ما يعرف اليوم بالسور الداخلي . ويسير هذا السور الداخلي ، كما نراه في الزمن الحاضر ،نحو الغرب حتى بناية السجن المركزي القديم ، وانشأ ظاهر في

٧) هيد ص ٢٨ — يشير عبود الصباغ ايضا الى السرعة التي تم بها بناء سور عكا فيقول (ص ٩) « ولما اتجه وزير صيدا الى جردة الحج فحالا ضاهر ابتدا في عمارة السور بكل عجلة وكمله قبل ان يحضر الوزير من الحج وكان ضاهر يعطي الوزير مال الميري كاملا من غير ان ينكسر عليه شيء » .

منتصف القطاع الشمالي من السور قلعة عكا وعمّر في وسطها برج الخزنة وهو اعلى ابراج المدينة وابرزها واقام قصره قرب الزاوية الشمالية الشرقية من السور وعلى حدود القلعة الآنفة الذكر . واحاط ظاهر قصره بجنائن غناء كانت موضع اعجاب كل من رآها من الزوار الاجانب كما جعل للسور بوابتين واحدة في جنوبه الشرقي وعلى بعد مائة متر داخل البوابة الحالية والاخرى في شماله والى الشرق من قصره ومكان عمله ، وكانت تعرف هذه الاخيرة ببوابة السراي او بوابة السباع وذلك لانها قريبة من قصره (٨) .

واستنادا الى ما تقدم يكون ظاهر قد بدأ بناء السور في اواخر سنة ١٧٥٠ وفرغ من بنائه في اوائل سنة ١٧٥١ .

كانت هذه التحصينات بسيطة الصنع ومن طراز قديم فسمك السور لم يكن يزيد على ثلاثة اقدام والخنادق كانت على وجه العموم ضيقة الا انها كانت تفي بحاجات البلاد الامنية وقتئذ ، وبهذه التحصينات غدت عكا مضرب المثل بالمنعة والقوة من ذلك قولهم : « يا خوف عكا من هدير البحر » .

ولما استتب لظاهر الامر في عكا ولى وجهه شطر جبل الكرمل التابع لمشايخ آل ماضي ومدينته المشهورة ذات الموقع الاستراتيجي الهام الواقعة على مرمى البصر وركز اهتمامه عليها .

٥ — ظاهر العمر يستولي على حيفا ويجدد عمرانها :

كانت حيفا التابعة لولاية دمشق ضرورية لسلامة ظاهر وبلاده وذلك لثلاثة اسباب :

١ — لاقرار الامن في الخليج الذي كان وقتئذ مأوى للقرصان الاوروبيين .

٢ — لاحكام السيطرة على جبل الكرمل ومنافذه التاريخية من بلاد فلسطين ، التي لم تكن موالية لظاهر ، الى مرج ابن عامر كوادي الملح ووادي عاره، وكذلك على القريتين الساحليتين الواقعتين جنوب حيفا وهما الطيرة والطنطورة .

٣ — للسيطرة على الطريق الساحلية العسكرية التي تربط حيفا بعكا، وتأمين سلامة الطرق بين شمال البلاد وجنوبها .

٨) مخولي ص ٥٠ ، ٦٦ ابراهيم العوره ص ٢٩٩ .

عرف ظاهر ان حيفا تابعة لولاية دمشق وان احتلالها بقوة السلاح سيؤدي الى الحرب ، لذلك عمد الى التأني والتروي مؤملا ان تتاح له فرصة اكثر ملائمة من هذا الوقت لسلخ حيفا عن دمشق وضمها الى بلاده .

بدأ ظاهر تدخله الفعلي في شؤون حيفا ، على ما يعتقد ، في السنوات الاخيرة من عهد اسعد باشا العظم بادعائه ان طريق حيفا ــ عكا الساحلية اصبحت غير آمنة وان المدينة تفتقر الى وسائل دفاع قوية لحمايتها من القرصان ، وبعث ظاهر الى السلطان يطالب بتحصين حيفا . استجاب السلطان لطلبه وزوده ببعض المدافع .

ولم يطل الزمن حتى ادعى ظاهر ان هذه المدافع المرسلة اليه من الاستانة قديمة الصنع وعديمة الفائدة فانتزعها من مكانها ونقلها الى عكا ثم استولى على حيفا وامتنع عن دفع المال الميري .

ان استيلاء ظاهر على حيفا بهذه الصورة اوغر صدر اسعد باشا عليه ، ولكنه (اي اسعد باشا) اضطر الى التغاضي عن ظاهر لكراهيته الحرب وميله الى الراحة وجمع المال . اما حسين باشا ابن مكي الذي خلف اسعد باشا على ولاية دمشق في شباط سنة ١٧٥٧ فانه لم يسلم بالامر الواقع بل تهدد ظاهرا بالقتل ان لم يرفع يده عن حيفا وبلادها ، ولم يستطع حسين باشا تنفيذ تهديداته هذه لظاهر بسبب عزله عن منصبه في نفس السنةلمسؤوليتهعن كارثة نهب قافلة الحاج كماسيجيء(٩).

هذه هي خيوط السياسة الجديدة التي اوعز الى الولاة باتباعها حيال ظاهر ، وكان بقاء الوزير في الولايةمرهونا باسترجاع حيفا وبلادها منظاهر سلما او حربا.

والجدير بالذكر ان ظاهر العمر هو مؤسس مدينة حيفا كما نعرفها اليوم القائمة على سفح المكان المعروف بالبرج ، وهو بانيها . كانت حيفا قبل عهد ظاهر هي الناحية المعروفة اليوم بحارة القشلة ، وهي ما يسمى احيانا بحيفاالقديمة . لم يستحسن ظاهر موقع حيفا القديمة لانخفاضه وقيام سلسلة من جبال الكرمل خلفه تكشفه وتجعله هدفا لقنابل العدو ، وكذلك كانت حيفا القديمة سهلة المنال لوقوعها على منعطف الطريق الساحلي المؤدي الى الجنوب كما كان ميناؤها غير صالح لرسو السفن لبعده عن الخليج المغلق .

لهذه الاسباب هدم ظاهر حيفا القديمة وبنى على بعد ميل الى الجنوب

---

٩) عبود ص ١٠ ، فولني ج٢ ص ٨٨ .

الشرقي منها مدينة جديدة اسماها « العمارةالجديدة » وهي ، ما يعرفاليوم«بحيفا الجديدة » ، تمتد من ساحة الخمرة (عمارة الكرمليت حاليا) ، غربا حتى البوابة الشرقية شرقا الواقعة قرب عامود فيصل حاليا (وهي البوابة الشرقية من السور الذي بناه ظاهر حول حيفا) واحاط ظاهر المدينة بسور وبأبراج ثلاثة من ناحية البر يحميها برج ضخم البناء مزود بالمدافع يسمى برج « السلام » او برج « ابو سلام » . انشأ ظاهر هذا البرج على رابية مشرفة على الخليج في المكان المعروف حاليا بالبرج ، وكان مربع الشكل ومؤلفا من طابقين ، ويسمى هذا الموقع اليوم بالبرج نسبة الى برج « ابو سلام » هذا ، ويقال ان اطلاله لا تزال باقية الى هذا اليوم .

يرى بعض الباحثين ان ظاهرا انشأ « حيفا الجديدة » سنة ١٧٦١ في مطلع عهد عثمان باشا الكرجي وزيردمشق على اثرغارة بحرية شنها هذا الوزير على حيفا لاستخلاصها من يد ظاهر العمر (١٠) كما سيجيء .

ولم يكتف ظاهر بالاستيلاء على مدينة حيفا فقط بل استولى ايضا على القرى التابعة لها ، واهمها قريتا الطيرة والطنطورة الساحليتان ، كاجراء دفاعي ووقائي للمحافظة على حيفا وبالتالي على عكا . وباستيلاء ظاهر على هاتين القريتين بسط يده على جبل الكرمل بكامله ، وعلى مداخله التي تربط الساحل الفلسطيني من ناحية قيسارية بمرج ابن عامر وبلاد صفد ، وهي الطريق التاريخية التي سلكها الغزاة الفاتحون الزاحفون شمالا وجنوبا منذ اقدم العصور حتى يومنا هذا (١١).

وهكذا احاط ظاهر مدينة عكا وبلادها بسلسلة من وسائل الدفاع : فمن الشمال كان حلفاؤه المتاولة يصدون عنه كل غاز طامع ، ومن الجنوب كان هناك جدار من سلسلة جبال الكرمل الشاهقة يمتد من حيفا حتى الطنطورة .

استولى ظاهر في هذه الفترة ايضا على بلاد حارثه (نواحي بيسان وغور

---

١٠) المعلوف ص ٣٠٠ ، جميل بحري ص ٧ ، ميخائيل ص ٤٥ ، هيد ص ٤٠ ، عبود ص ٩ . انظر فصل ٩ باب (٢) وفصل ٢٢ باب (٦) .

١١) يكثر عبود الصباغ من ذكر قريتي الحمرة والحمرتين التابعتين لحيفا واللتين قام بسببهما بالاضافة الى حيفا ، نزاع شديد بين ظاهر ووزير دمشق . ان الحمرة والحمرتين ليستا في اعتقادي سوى الطيرة والطنطورة اللتين كانتا موضع نزاع بين ظاهر وولاة دمشق كما ذكر ذلك اكثر من مؤرخ ، واعتاد عبود ان يخطىء في تسمية بعض المواقع من ذلك انه يسمي بحيرة الحولة ب بحيرة لوط .

الاردن) التابعة لايالة دمشق .

والحق يقال ان استيلاء ظاهر على حيفا وقراها كان كافيا لاشعال نار الحرب بينه وبين وزير دمشق ولكن الدولة كانت مُكرهة على التغاضي عن هذه الاستفزازات فلو انها كانت تحارب كل ثائر عليها لاستنزف ذلك كل اموالها وافقدها هيبتها واهلك كل جندي لديها ، وكثيرا ما كانت ، تخلصا من الشر ، تسلم بالامر الواقع مرغمة ولهذا السبب ، وهو بالاضافة الى ما ذكر من اسباب ، لم يحرك اسعد باشا العظم ساكنا ازاء تطاول ظاهر على بلاده .

يرى بعض المؤرخين انه مما ساعد ظاهرا على احراز هذه المكاسب في حيفا وبلاد حارثة ، وابعد عنه شبح الحرب ، اصدقاؤه المقربون من السلطان في الاستانة منهم المتسول الارمني يعقوب اغا الذي قدم يوما لزيارة البلاد المقدسة فاستقبله ظاهر اجمل استقبال واجزل له العطاء . يقول المؤرخون كان يعقوب اغا هذا صديقا للقزلار اغا بشير الثاني رئيس خدم السلطان كما كان ايضا صديقا لسليمان اغا السلحدار كاتم سر بشير ..

كان هؤلاء الرجال وهم من عهد السلطان محمود الاول الذي توفي سنة ١١٩٨ هـ (١٧٥٤ – ٥٥) يسيرون شؤون السلطة ويبيعون المناصب للراغبين في الشراء . قيل ان يعقوب الارمني عمل كثيرا لصالح ظاهر في الاستانة ونتيجة للجهود التي بذلها في هذا الشأن اخفق وزير دمشق في الحصول على اذن بمحاربة ظاهر في اواسط الخمسينات (١٢) .

على ان الخلاف على حيفا وبلادها بين ظاهر وحكام دمشق لم تخف حدته واستمر قائما حتى سنة ١٧٦٦ عندما احيل هذا الخلاف الى القضاء امام محكمة خاصة عقدت في عكا كما سيرد بيانه في الفصل التاسع .

٦ – ظاهر العمر وحكام مالطة :

ان اهتمام ظاهر بالتجارة وجعله ميناء عكا صالحا لرسو السفن الشراعية الكبيرة سهل له اقامة الروابط التجارية والسياسية مع كثير من الاوروبيين وفي مقدمتهم فرسان مالطة او قرصان البحر كما كانوا يعرفون وقتئذ .

١٢) عبود ص ١١ ، هيد ص ٢٩ .

كان لقرصان مالطة في ذلك الزمن قوة وسيطرة على مياه البحر الابيض وكانت وظيفتهم حماية التجارة الاوروبية في البحر . كان فرسان مالطة يزعمون ان لهم الحق في محاربة الدولة العثمانية واستخلاص الاراضي المقدسة من قبضة المسلمين . ولذلك كان المالطيون يتربصون بالسفن التركية والعربية ويهاجمونها ويسلبون ما فيها من سلع واموال ، وبلغ من قوتهم في ذلك الزمن انهم كانوا يسطون على المدن السورية الساحلية مثل حيفا وصور ويافا ويسلبون كل ما تقع ايديهم عليه من اموال ثم يعودون الى سفنهم .

كان ابناء هذه المدن يثأرون لانفسهم من تعديات القرصان على شواطئهم بالاغارة على الرهبان الاوروبيين وابناء الجاليات الاجنبية النازلين في هذه المدن . يذكر المؤرخون انه في سنة ١٧٥٦ نهب قرصان مالطه خمس سفن تركية بالقرب من الساحل الفلسطيني . ولما بلغ الخبر اهل يافا اغار ابناؤها على دير الفرنسيسكان فيها فنهبوا وجرحوا رهبانه وهددوا بقتل كل الرهبان والفرنسيين اذا لم يُعد القرصان الاموال المسلوبة . وبمشقة كبيرة استطاع وكيل قنصل فرنسا في الرملة ان ينقذ رعايا بلاده من موت محتم .

ووقعت حوادث اخرى مماثلة خلال هذه السنوات في صور وبيروت ألحقت بالجاليات الاجنبية خسائر لا يستهان بها في الاموال والممتلكات . وضج فرنسيو هذه المدن وطالبوا حكومتهم بالتدخل لرفع تعديات المالطيين عن الموانيء السورية حرصا على مصالحهم في البلاد المقدسة ، وكذلك طلب السلطان من ملك فرنسا سنة ١٧٥٩ ان يستخدم نفوذه لدى حكام مالطه لوقف بحارتهم عند حدودهم في البحر الابيض ، ومع ان حكام مالطة تعهدوا للحكومة الفرنسية بعدم الاقتراب بسفنهم من الشواطيء السورية فانهم لم يفوا بما تعهدوا به (١٣) .

كان من الطبيعي ان يصل المالطيون الى عكا ولكنهم بدلا من ان يدخلوا شواطئها بقصد القرصنة ، تقربوا من ظاهر وعقدوا معه اواصر الود وقد جمع بينه وبينهم عداء مشترك للدولة العثمانية . ولما كان محظورا على المالطيين الوصول الى ثغري صيدا وطرابلس العثمانيين لم يكن لهم من منفذ لتجارتهم اذن سوى عكا البعيدة عن كل نفوذ عثماني . كان التعامل التجاري بين البلدين ينحصر على

١٣) هيد ص ٣٥ .

العسوم في بيع الاسلاب والاموال المهربة من كلا الجانبين فيشتري المالطيون من البدو غنائمهم ليبيعوها لسكان الساحل الاوروبي باسعار عالية ، ويشتري البدو منهم ما كانوا قد غنموه من سفن الاتراك والاعداء .

كان المالطيون يحرون عادة الى عكا تحت ستار علم دولة محايدة حتى لا يقال ان ظاهرا يتعامل مع المالطيين الد اعداء المسلمين . كان ظاهر والحق يقال يستقبلهم في عكا احسن استقبال فيجردهم من مسدساتهم وطبنجاتهم ويأذن لهم بالنزول الى المدينة والتجول في اسواقها بحرية .

لما بلغ ولاة الامور في الاستانة خبر هذه العلاقة الودية بين ظاهر وفرسان مالطه امتلأت قلوبهم حقدا على ظاهر واتهموه بالخيانة لانه جعل من عكا مأوى للقرصان الكفار يكرمهم ويعضدهم ويشتري منهم ما سلبوه من اموال المسلمين .

ولكي يبرىء ظاهر نفسه من هذه التهمة الشنيعة امر سفينتين مسلحتين من سفنه بمراقبة الشواطىء وطرد سفن القراصنة من مياهها . لم يقتنع سكان الاستانة بجدية هذا الاجراء ، واتضح لهم ان ما قام به ظاهر لم يكن الا لذر الرماد في العيون ، وان جل ما فعلتاه سفينتا الشيخ هو انهما نقلتا التعامل التجاري من عكا الى عرض البحر ، حيث ظل اعوان الشيخ يشترون من المالطيين سلعهم واسلابهم ، ويشتري المالطيون منهم ما يحتاجونه بعيدين عن المراقبة (١٤) .

وارسل ظاهر الهدايا الى حكام مالطه تأكيدا لصداقته لهم ، ففي سنة ١٧٥٢ ارسل الشيخ ظاهر الى امير مالطه كتابين لطيفين صحبة رسول يسمى ادمينا سابا مع هديتين نفيستين الاولى عبارة عن سيف ثمين والثانية حصان من اصائل الخيل (١٥) .

٧ ـ مطامع الدول الاوروبية في البلاد العربية :

بدأت المطامع السياسية لدول اوروبا عامة وفرنسا خاصة في البلاد العربية تظهر بوضوح منذ اواخر القرن السابع عشر . كانت التجارة في ذلك العهد احد الابواب التي تسلل منه الاوروبيون الى البلاد العربية وتغلغلوا في حياة ابنائها كذلك كان التذرع بحماية الاماكن المقدسة والرعايا المسيحيين وسيلة تمكن

١٤) فولني ج٢ ص ٨٧ .
١٥) نسختان مصورتان عن الكتابين محفوظتان في مكتبة الجامعة الامريكية ببيروت .

المستعمرون الاوربيون بواسطتها من التدخل في شؤون البلاد الداخلية وتسيير الامور فيها وفق ما يرغبون ويشتهون .

ومن الامثلة على التدخل الاجنبي في ذلك الزمن ما وقع في الناصرة ابان النزاع الذي كان ناشبا بين طائفة الروم الارثوذكس وبين رهبان الفرنسيسكان حول اماكن العبادة في المدينة . نرى ان قنصل الانكليز في القدس المسمى جان بادينو وقف الى جانب الارثوذكس في هذا النزاع ، وكان لاتصالاته الشخصية بظاهر في الناصرة في خريف سنة ١٧٤١ ما رجح كفة الارثوذكس على الفرنسيسكان واعاد اليهم حقوقهم في كنيسة البشارة المتنازع عليها . اما النفوذ الفرنسي الذي كان يؤازر الفرنسيسكان في مشاكلهم المحلية فلم يبلغ ذروته الا بعد استقرار ظاهر في عكا عقب سنة ١٧٥٠ .

من طلائع الحركات الاستعمارية في الديار المقدسة في القرن الثامن عشر القناصل الاجانب والرحالة الاوروبيون الذين وفدوا اليها من مختلف الجهات لاستطلاع احوالها ونقل ما يشاهدونه فيها الى الشعوب الاوربية ، منهم الرحالة الفرنسي المعروف دي فولني الذي زار مصر وسوريا وهو في مطلع شبابه ومكث فيهما من سنة ١٧٨٣ حتى سنة ١٧٨٥ ووضع مشاهداته في كتاب يتألف من مجلدين ضمنهما دراسة وافية لمختلف مجالات الحياة في البلاد التي زارها ومظاهرها الطبيعية واحوال اهليها وعاداتهم . وينم الكتاب عن روح استعمارية اصيلة في نفس الكاتب فقد حوى حقائق دقيقة وهامة عن جغرافية البلاد السورية والمصرية وتاريخها وحكامها وقلاعها وحصونها واسوارها وثغورها وطرقها وكل ما يهم الاجنبي معرفته فيما لو اراد القدوم الى البلاد العربية غازيا فاتحا ، اقول هذا وان كان فولني نفسه من المعارضين لحملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ .

لقد اثار كتاب فولني الذي نشر في اواخر القرن الثامن عشر تحت عنوان « رحلات الى سوريا ومصر ، ١٧٨٣ ـ ١٧٨٥ » ، ضجة كبيرة في اوروبا يوم نشره وترجم الى عديد من اللغات ، كما انه كان احد العوامل التي حفزت نابليون على غزو الشرق العربي ، على انه والحق يقال كان لهذا الكتاب ومؤلفه فضل على تاريخ هذه الحقبة التي تتكلم عنها لان الكتاب زودنا بمعلومات تاريخية هامة ازالت الغشاء

عن كثير من احداثها ، كما كان هذا الكتاب المرجع الوافي الوحيد الذي استمد منه المؤرخون في القرن التاسع عشر مادتهم التاريخية عن حياة ظاهر العمر لانه لم يكن احد من العرب يجسر ان يكتب لظاهر العمر تاريخا كاملا فيعتبر خارجا على الدولة العثمانية ومحرضا على تهديد سلامتها ، فيستوجب نقمتها وقصاصها (١٦) .

اخذ الاصطراع الدولي من اجل السيطرة على الشرق العربي يزداد شدة مع الزمن حتى بلغ في نهاية القرن الثامن عشر حد التدخل المباشر والغزو والاحتلال(١٧) ولولا ما كان من تضعضع الدولة العثمانية واختلاف الدول الاوروبية على اقتسام ممتلكاتها المترامية الاطراف ، لتم للاوروبيين الاستيلاء على سوريا قبل سقوطها في ايدي الحلفاء عام ١٩١٨ بزمن طويل .

ان انباء الشرق العربي وما رافقها من حروب بين الاتراك وبين ظاهر العمر خصوصا في العهد الاخير من حياته لفتت اهتمام الحكومات الاجنبية والصحافة الاوروبية التي اسهبت في ذكرها ووصف وقائعها . وواضح ان الاوروبيين على العموم كانوا يقفون الى جانب ظاهر العمر ويسندونه في حربه ضد الدولة العثمانية مع شيء من التحفظ (كانت فرنسا مثلا تعطف على ظاهر وكانت في الوقت نفسه تحرص على ان تكون علاقتها بالاستانة حسنة للمحافظة على تجارتها في الشرق العربي) ، لم يفعل الاوروبيون ذلك حبا بظاهر بل كرها للعثمانيين مغتصبي الديار المقدسة ، واملا في ان يكون لدول اوروبا عن طريق حكام العرب الجدد مثل ظاهر العمر وعلي بك حاكم مصر ، مجال اوسع للتحكم باقتصاد البلاد العربية وتأمين طرق جديدة لهم الى الهند والشرق الاقصى بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح البعيدة (١٨) .

ومن الدول ذات المصلحة ايضا في الشرق العربي روسيا القيصرية التي كانت تنتحل كافة المعاذير للتدخل في شؤون الديار المقدسة خاصة والبلاد العربية عامة بسبب ما كانت تدعيه من حقوق في حماية الاماكن المقدسة والرعايا الارثوذكس المضطهدين في الممتلكات العثمانية . كانت السفن الروسية كثيرا ما تعترض السفن التركية في عرض البحر وتعتدي عليها وتنهب ما فيها ، لذلك كانت روسيا ترحب

١٦) ان ما كتبه ميخائيل وعبود الصباغ عن ظاهر كان مخطوطا في القرن (١٩) .
١٧) حملة نابليون مثلا ، ومحاولة بريطانية لغزو مصر سنة ١٨٠٧ .
١٨) فولني ج١ ص ١٢٨ ، ج٢ ص ٧٦ .

بكل حركة ثورية يقوم بها العرب ضد الاتراك كما كانت تسندهم بالسلاح والرجال ، فعلت ذلك مرارا في عهد الملكة كاترينا الثانية ابان الحرب الروسية التركية سنة ١٧٦٨ — ١٧٧٤ .

٨ — ظاهر العمر يضع الاسس لنظام اجتماعي عادل :

قام ظاهر بتنظيم العلاقات بين مختلف سكان البلاد ووضع الاسس لنظام اجتماعي عادل يكفل الثقة والطمأنينة والكفاية لكافة الطبقات . كان جل همه قمع اعمال الشقاوة والسلب في الطرقات وحماية الاهلين من التعدي ، ومنع البلص والرشوة والفساد وغير ذلك مما كان سائدا في ذلك الزمن .

من اعماله في هذا المجال انه :

١) نبّه على التجار واصحاب المهن انه اذا باع احد منهم بنسيئة (اي بتأجيل دفع الثمن) ولم يدفع له الشاري الثمن في الوقت المحدد له فينبغي على البائع ان يحضر ويعرفه عن خصمه المدين وهو — اي ظاهر — يدفع للبائع ثمن بضاعته ويتولى هو مطالبة الخصم . وكان ظاهر يقصد بهذا الاجراء منع ما كان يفعله النابلسيون في الناصرة وغيرها من مدن الجليل من اعمال البلص والابتزاز .

٢) امر ولاة البلاد انهم اذا وجدوا فلاحا لا يقدر على زرع ارضه لضيق ذات يده فيجب عليهم ان يقرضوه المال الكافي لزرع ارضه الى ان يتسع حاله ، واقرض ظاهر بنفسه تجار عكا والناصرة مالا بدون فائدة ليخفف من كربتهم .

٣) منع ولاة البلاد من ان يأخذوا من الرعية شيئا زيادة على المال الميري المقرر لهم ، واقسم بأن من سمع عنه من الولاة انه اخذ من الفلاح رشوة اوما شاكل ذلك ولو نصف القرش فلا يسأل الا رأسه ولا تقبل منه اية معذرة .

٤) خفر كل بلدة بواليها ، وعرّف ولاة البلاد والاقاليم انه اذا نهب عابر سبيل ولم يعرف الفاعل فالوالي صاحب البلد او الاقليم الذي وقع فيه النهب يكون غارما وضامنا لما سلب (١٩) .

ان هذه الاجراءات وان كانت لا تنسجم مع مبادىء العدالة في عصرنا الحاضر فانها لم تكن مخالفة لروح ذلك العصر ، وقد جاءت بفوائد جمة للمواطنين

١٩) ميخائيل ص ٥٥ .

وتتلخص انجازات ظاهر العمر في الحقلين الاجتماعي والاقتصادي بما يلي :

١) وطد الامن في الجليل ومنع البلص والنهب والرشوة والاغتصاب .

٢) شجع الهجرة الى بلاده واطلق الحريات الدينية لجميع الطوائف، وعامل المسلمين والمسيحيين واليهود على قدم المساواة ، كما ان كثيرا من الاسر المعروفة اليوم في عكا والناصرة وحيفا هاجرت الى هذه المدن في عهده .

٣) اجرى تحسينات على الموانىء ونشط التجارة وشجع التبادل التجاري مع الاوروبيين بحرا فازدهرت تجارة الجليل .

٤) شجع زراعة القطن ، وظلت تجارة القطن في ازدهار الى ان اجرى محمد علي باشا تحسينات كبيرة على زراعتها في مصر (٢٠) .

---

٢٠) باركس ص ١٦١ .

الفصل السادس

تقسيم البلاد : ادارتها واحوالها الداخلية

١) ظاهر العمر وابناؤه :

مر بنا انه ولد لظاهر اربعة اولاد وهم صليبي البكر وعثمان وسعيد وعلى ويعتقد ان ولادتهم كانت في العشرينات او الثلاثينات من هذا القرن . وولد لظاهر أيضا اربعة اولاد آخرين من نساء تزوجهن بعد ذلك وينتمين الى بعض الاسر المتنفذة في البلاد وهم أحمد وصالح وسعد الدين وعباس والاخير كان اصغرهم وبذلك يكون اولاد ظاهر الذكور ثمانية . وكان لظاهر ابنة تزوجها ابن عمها كريم الايوب الزيداني .

تعلم اولاد ظاهر على يد الشيخ عبد الحليم الشويكي من علماء دمشق وهو ابن عبد الغفار الشويكي الذي ورد ذكره في فصل سابق . كان عبد الحليم من رجال العلم والادب في زمانه حافظاً للعلوم الشرقية والدينية وشاعرا بارعاً في النظم ، أتى ظاهر به الى عكا ورتب له معاشاً وجعله مربياً لاولاده وفوض اليه أمر الفتوى في عكا . كثيرون هم الذين درسوا على يد عبد الحليم الشويكي منهم المؤرخ ميخائيل الصباغ وميخائيل البحري الشاعر المعروف (١) .

وجه ظاهر اهتمامه الى العلم فمن مآثره في هذا المضمار أنه أقيمت تحت اشرافه في صفد كلية كان مدرسوها من علماء المتاولة لتلقين النشء الجديد اصول الدين والفقه وتفسير القرآن (٢) .

زوج ظاهر ابناءه صليبي وعثمان وسعيد وعلي من بنات الولاة الذين استولى على اقطاعاتهم وقد فعل ذلك بغية التقرب من هؤلاء الولاة ليستعين بهم على خصومه عند الحاجة ويصرفهم عن التفكير في استرداد ما خسروه من اقطاعات .

قسّم ظاهر البلاد بين اولاده مفوضا الى كل منهم ناحية يلتزمها مقابل مبلغ من

---

١) ميخائيل ص ٥٠ .
٢) فولني ج٢ ص ١٩٤ .

المال • فجعل صليبي في طبريا سنة ١٧٤٤ ، وعثمان في قرية كفركنا قرب الناصرة ثم نقل الى شفاعمرو ، ولكن والده اخذ شفاعمرو منـه لانه (اي ظاهر) كان يكره عثمان لانه كان ضد ابيه دائماً ويسعى لتصغير اسمه بين الناس حتى يكون هو الشيخ الكبير مكانه • واقام ظاهر ولده عليا في صفد وسعيـد في صفورية واما احمد فقد جعـل اقامته عنـد اخيه الاكبر صليبي في طبريـا ، ولما كبر احمد تولى قلعة دير حنا بعد مقتل عمه سعد العمر في اوائـل الستينات ثم انتقل احمد الى تبنه في جبل عجلون، وتولى ديرحنا مكانه اخوه علي بالاضافة الى صفد التي كانت في يده من قبـل (٣) •

كان لكل من ابناء ظاهر شيء من الاستقلال في دائرته فيقيم لـه جيشاً من المرتزقة ويهيء وسائل دفاعها ويجبي الضرائب وفق ارادته وهـواه • ان هـذا الشعور بالاستقلال من جانب الابناء جعلهم يسرفون في البذخ ويخرجـون عن الحدود المرسومة لهم فيظلمون ظانين أنهم ابناء أمير كبير يحق لهم الانفـاق عن سعـة والاستمتـاع بمباهـج الحيـاة فقصـرت عـن ذلـك امـوالهـم ، فسعوا الى المزيد منها عن طريق زيادة الضرائب وهو السبب الذي من اجلـه كره العرب العثمانيين ، فكرهتهم رعاياهم • وكانت الشكاوى تصل تباعاً الى والدهم في عكا فكـان والدهم يوبخهم ويزجرهم ويرشدهم الى الخير فلا يسمعون •

يشير المؤرخون الى أن تقسيم البلاد بين الابناء على هذه الصورة كان من أهم الاسباب التي قوضت أركان حكم الزيادنة في الجليل • ان طمع الابناء في أن ينال كل منهم منطقة اكبر مـن منطقة الآخر او اقليما اوفر خصبا قـد ادى الى نشوب حروب لا اول لها ولا آخر بين الاولاد من جهة او بينهم وبـين ابيهم من جهة اخرى • وكان مما ساعد على ذلـك وجود نفر من الناس لا هـم لهـم الا الاصطياد في الماء العكر رغبة منهم في اثارة الشحناء وزيادة الشر بين ألابناء وابيهم•

كان ظاهر حـين يستفحل أمر هذه الفتن بينه وبـين ابنائـه يعمـل على ارضائهم : هذا بمبلغ من المال وذاك بقرية مـن القرى ، وكـان يعاقبهم في بعض الاحيان هذا بالفصل عن الولاية وذاك بالسجن والنفي من البلاد • وخلاصة القول كان أبناء ظاهر يتصرفون كالاولاد الصغار فيعلنون الحرب على والدهم اذا ما منح

٣) عبود ص ١٠ ، ميخائيل ص ٥١ •

بعضهم قرية ولم يمنح الآخرين نظيرها • لا جدال في انه كان لهذه المنازعات العائلية اثر سيء في نفوس الاهلين علاوة على الضرر الذي احدثته في تجارة البلادوزراعتها•

وكان كلما تقدم ظاهر بالسن ازدادت هذه الفتن اشتعـالا والسبب في ذلك يرجع الى تنافس الاولاد على تولي البلاد بعد موت أبيهم ، فمـن الاسباب التي حملت عثمـان مثلا عـلى مطالبـة أبيه بشفاعمرو لتكـون عـاصمة لمقاطعاتـه هو قربها من عكـا حتى اذا ما مـات ابـوه فجأة كـان السابق اليها فيتولاها •

كان ابناء ظـاهر الكبـار عثمان وسعيد وعلي اكثر الابنـاء هياجـا وثوره وكان اكثر ما يقع من هذه الفتن هو بينهم من جهة او بينهم وبين ابيهم من جهـة اخرى • كان عثمان في الغالب حزباً واخواه علي وسعيد حزباً آخر والجهـة التي كان يميل اليها ظاهر ترجح على الاخرى ، وبعبـارة اخرى كان ظاهر هـو القوة المرجحة في هذه المنازعات العائلية • واما صليبي بن ظاهر البكر فكان هادئا رزينـا وكثيرا ما كان يقوم بدور المصلح الموفق بين الاخوة وابيهم •

تولى صليبي مدينة طبريا وبقي يدير شؤونها حتى مقتله في الصالحية بمصر سنة ١٧٧٣ وهو الذي بنى في طبريا السراي المعروفة اليوم « بالصقرية » وسيرد الكلام عنها في فصـل لاحـق •

كان سعد العمر لا يزال يقيم في دير حنا وكان في هـذه الفترة على خـلاف مع اخيه ظاهر ولكنه خلاف مستتر غير ظاهر لعامة الناس ، وما اسرع مـا تحـول هذا الخلاف بين الاخوين الى نزاع شديد انتهى بمقتل سـعد في عكـا • ويعزو المؤرخون سبب الخلاف بين الاخوين الى الحسد الذي داخل قلب سعد من نجاح أخيه ظاهر والى دسائس الدولة في اثارة البغضاء بينهما •

اما يوسف العمر فقـد لزم اخـاه ظـاهراً في أول الامر : كان فـي طبريا خلال حملات سليمان العظم عليها ثم ارتحل الى عكا ومنهـا الى قريـة عبلـين الساحلية واستقر فيها • كان يوسف هذا متديناً عاقلا حكيماً منصرفاً الى اقامـة الابنية والجوامع ، وهو الذي بنى جامع طبريا سنة ١٧٤٣ كما بنى جامع عبلـين سنة ١٧٦٧ ودفـن فيـه •

هذا ما كان عليه حال البلاد فيما بين سنة ١٧٥٠ و١٧٦٠ ، والحق يقال انـه من الصعب معرفة المقاطعات التي حكمها اولاد ظاهر وتحديد زمن حكمها من كـل

منهم لان الواحد منهم كثيرا ما كان يفوض اليه زمام قرية فيتولاها ثم ينتقل الى غيرها اما بأمر من ابيه او بطلب من هذا الابن ألذي كان يطمع في بلاد أكثر عمراناً مما في يده . وكانت هذه التنقلات كثيرة الى حد يصعب على المؤرخ تتبعها.

اشتهر اولاد ظاهر بالذكاء ونبغ كل منهم في ناحية : فعلي اشتهر بالفروسية وعثمان بالادب والشعر والعقوق ، واحمد بالعفة . نبغ علي بفنون الحرب حتى غدا مضرب المثل بذلك وكان لقبه الصنديد والهزَبْر (بضم الهاء والباء وتسكين الزاي لحتى تنسجم مع الشعر) اي الاسد وكنيتاه « ابو الشوارب » لطول شاربيه و « ابو النسرين » نسبة الى والديه الحسن وفاضل حسين .

هذا من جهة ومن جهة اخرى غلب على ابناء ظاهر الكبرياء والاستعلاء وشدة الهياج وهي خصال يجب ان يتجرد منها الحاكم العادل بخلاف ابيهم الذي عرف بالتواضع واللين والهدوء ورحابة الصدر .

نظم ابناء ظاهر الشعر وبرعوا فيه وقد جمع ميخائيل البحري قصائدهم وقصائد مؤدبهم عبد الحليم الشويكي في ديوان ، فكان لكل منهم قصائد طنانة ظل الادباء يتغنون بها حتى اوائل القرن التأسع عشر لجمالها ورقة معانيها وقد حنظت هذه القصائد في مجموعة شعرية بخط ميخائيل البحري نفسه ، وكانت موجودة لآخر مرة في دير مار يوسف في الغرب بلبنان (٤) .

ومن الفتن بين الاولاد وبين ابيهم ما وقع بين ظاهر وعثمان . في سنة ١٧٥٣ نشب خلاف بين الاب وولده ، فرّ عثمان الى لبنان مستجيرا بالامير ملحم الشهابي كان الامير ملحم وقتئذ مريضا طريح الفراش في آخر ايامه بالولاية يعاني الآلام من شوكة صبر وخزته في يده . كان يرافق عثمان الظاهر في رحلته الى لبنان بعض حاشيته ، وعندما وجدوا الامير ملحم مريضاً وضعيفاً على هذه الصورة بسبب شوكة صبر تافهة دخلت يده وهو الرجل الذي جاؤوا يستجيرون به على ظاهر العمر انشد عبد من عبيد عثمان هذا البيت من العتابا مشيدا بسيده ومنددا بالامير المريض :

عفا عثمان على الشدة صبرها
واسقى الضد كاسات الصبرها

٤) ميخائيل ص ١٥٧ .

شيخا جض من شوكة صبرها
طقع ما عاد منه رجا (٥)

وصالح ظاهر ولده عثمان وذلك بأن ارسل اليه « سفرجلة » او « سفرجل » رمزا وترغيبا له بالسفر والعودة الى بلاده ، فبعث عثمان الى ابيه على سبيل الجواب صرة « ملح » دلالة على الرضا والقبول ثم عاد الى عكا وتولى مدينة الناصرة ، وسكنت الفتن ولكن الى وقت قصير (٦) .

٢) نظام الادارة في عهد ظاهر العمر :

ان كتب التاريخ تذكر اسماء بعض الرجال الذين كان لهم شأن عندظاهر العمر والذين كان يستشيرهم ايام الخطوب والملمات ، وهذا ليس بالامر المستغرب اذا عرفنا ان ظاهرا كان رجلا محنكا يساير الامور ويراعي طلبات كافة الطبقات وفقا لما تقتضيه مصلحة البلاد التي يتولاها .

كان مفتي عكا عبد الحليم الشويكي وقد مر الكلام عنه في فصل سابق وكان قاضيها في العهد الاخير يسمى محمد افندي ، وكانت مشاكل الناس تحل بموجب اصول الشريعة والدين .

كان لدى ظاهر في عكا ديوان ضم عددا من الكتبة والموظفين وكان عملهم ينحصر في ضبط الاموال الاميرية وجباية الضرائب والمكوس واستيفاء رسوم السياحة الى الاماكن المقدسة وهو ما كان يسمونه رسم خفارة الطريق وغيرذلك.

كان يقف على رأس الجهاز الاداري وزير يسمى احيانا « كيخيا » (اي كتخدا) او « خزندار » يراقب اعمال الادارة ويدير شؤونها يضاف الى هؤلاء الكتبة لفيف من الاصدقاء والمستشارين من شيوخ البلاد كانوا يتوددون الى ظاهر ويزودونه بالنصح حين كان له في نصحهم حاجة .

كان الجيش يتألف من قسمين الاول : هو الجيش العامل وقوامه فرقة المغاربة المشاة برئاسة احمد اغا الدنكزلي وهم خليط من سكان شمال افريقيا يعملون عند ظاهر بالاجرة وعددهم نحو الالف جندي ، والثاني : يتألف من فرق

٥) عبد الاسعد ــ الضد اي العدو ، كاسات الصبرها اي الكؤوس المرة .
٦) هذه هي المرة الاولى التي يلتجيء فيها عثمان بن ظاهر الى لبنان ، وكانت المرة الثانية سنة ١٧٦٦ .

الفداوية وقوات احتياطية من ابناء البلاد ومن حلفائه كالمتاولة مثلا كان ظاهر يجندهم ويستعين بهم في الاوقات الحرجة كما كان يعينه في حروبه اولاده وعساكرهم • وفي رواية للوتسكي ان عدد عسكر ظاهر وقت الحرب كان يصل الى ما بين ٦٠ و٧٠ الف مقاتل ، وهذا ، في رأي المؤلف ، رقم مبالغ فيه •

كان اول وزير استخدمه ظاهر يسمى يوسف السلال وهو مسيحي كاثوليكي من اهل عكا• قيل كان ظاهر يقرب المسيحيين منه فأغرق بهم دواوينه ومجالسه ليس هذا صحيحاً الى هذا الحد الذي يتكلمون عنه وانما الذي نعرفه عنه أن وزيره كان عربيا مسيحيا وهو ليس غريبا في تلك الايام خصوصا اذا علمنا ان مثل هذه الوظيفة في الاقاليم الشامية الاخرى ، كان في الغالب يشغلها رجال من المسيحيين او اليهود من ابناء البلاد •

هناك رأي يقول ان السبب في تقرب ظاهر من المسيحيين وجعله وزيره منهم هو اعتقاده انذلكمنشأنه انيرضي دول اوروبا المسيحيةلتكونلهعوناعلىاعدائه العثمانيين • وهنالك من يقول ان كثيرين من ابناء الطائفة المسيحية ، وهم من خريجي المعاهد الدينية في لبنان ، كانوا على جانب من المعرفة والثقافة يخولهم القيام بأعباء مناصب ذات مسؤولية كهذه وكانوا بالفعل اهلا لهذه المناصب الهامة اكثر من غيرهم • وهناك سبب آخر لتقرب ظاهر من المسيحيين أهم من هذا كله وهو التسامح الديني الذي اشتهر به ظاهر العمر بخلاف غيره من حكام ذلك الزمان الموالين للاتراك كأحمد بك الجزار وعثمان باشا الصادق ومحمد بك أبي الذهب الذين اتصف حكمهم بالظلم والقسوة والعنصرية البغيضة •

عمل يوسف السلال وزير ظاهر في اول الامر تاجرا في عكا، وكان ظاهروهو في طبريا يتردداليه ويشتري منه حاجاته ، فلما استولى على عكا اتى به اليه فاستخصه واستوزره وسلمه دواوين حكومته •

كان طبيب ظاهر الخاص رجلا من عكا يسمى سليمان صوان وهو مسيحي اورثوذكسي ، ولكنه سرعان ما عزل من وظيفته لاسباب خاصة وخلفه في تطبيب ظاهر ابراهيم الصباغ الذي كان يزاول مهنة الطب في عكا منذ سنوات ، وكان ذلك على الوجه التالي :

في سنة ١٧٥٧ مرض ظاهر مرضاً شديدا واشرف على الموت • ولما يئس

طبيبه سليمان من شفائه خاف اذا ما مات ظاهر ان يحسب ذووه ان موته كان بقصد او تقصير منه ، لذلك ارسل فدعا اليه ابراهيم الصباغ ورجاه ان يقوم بمعالجة سيده • وهنالك من يرى غير ذلك ويقول ان السبب الذي من أجله تم تعيين ابراهيم الصباغ طبيباً لظاهر يرجع الى الخلاف في المعتقد الديني بين يوسف السلال وزير ظاهر الكاثوليكي وبين سليمان صوان الطبيب الارثوذكسي المذهب ؛ وعلى الاخص خوف السلال من ان يزداد نفوذ سليمان صوان فيسعى به لدى ظاهر لانه (اي السلال) على غير مذهبه • ويقال انه لما فشل سليمان صوان في شفاء ظاهر مع الجهود العظيمة التي بذلها دعا السلال اليه ابراهيم الصباغ لكونه كاثوليكيا مثله وكلفه بمعالجة ظاهر ، ووعده انه اذا تم الشفاء على يده فسيسعى لجعله طبيبا لظاهر عوضا عن سليمان صوان •

وهذا ما وقع بالفعل ، عندما شفي ظاهر من مرضه انعم على الصباغ وذلك بأن جعله طبيباً خاصاً له ولحاشيته ، وبقي السلال في منصب الوزارة اربع سنوات اخرى عندما عزل من منصبه وتولى مكانه ابراهيم الصباغ الذي خلف سليمان صوان ويوسف السلال في الطبابة والخدمة معا (٧) ، والجدير بالذكر ان الاحتراب الطائفي داخل المجتمع المسيحي في القرن الثامن عشر كان غاية في الشدة والضراوة •

٣) ابراهيم حبيب الصباغ :

هو من اسر الشوير في المتن بلبنان ، درس الطبابة والعلوم المختلفة ومارس عمله كطبيب في عكا (٨) • وولد لابراهيم اربعة اولاد وهم حبيب ويوسف ونقولا وعبود • عمل حبيب تاجراً في عكا وعمل يوسف في خدمة ظاهر فتولى سنة ١٧٧٣ ادارة حسابات يافا وبلاد فلسطين التي كانتوقتئذ تابعة لظاهر ، ودرس نقولا الطب ، وتولى عبود ادارة مصبنة عكا سنة ١٧٦٨ •

اشتهر من هذه الاسرة ميخائيل بن نقولا الصباغ العكاوي، ولد سنة١٧٧٥ وهاجر الى فرنسا ، عمل ترجماناً لبونابرت في مصر وتوفي سنة ١٨١٦ ، ألف «تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني» وكتبا اخرى • عمل ميخائيل مصححا

٧) ميخائيل ص ٧٣ .
٨) المعلوف ص ٢٠٣ .

للمطبعة الفرنسية العمومية في باريس وناسخا للكتب كما كان صديقا لبعض المستشرقين • ومن هذه الاسرة ايضاً عبود الصباغ العكاوي مؤلف مخطوط « الروض الزاهر في تاريخ ضاهر » ، ولد في دمشق وعاش حتى اواسط القرن التاسع عشر (٩) •

تعرضت أسرة الصباغ بعد مقتل ظاهر لحملات وحشية من القتل والتعذيب على يد الاتراك واحمد الجزار ، فاختبأ أبناؤها في الاديرة بلبنان سنين عديدة الى ان أكره عدد منهم على مغادرة سوريا ملتجئين الى مصر وفرنسا •

استمر يوسف السلال يقوم بأعباء الوزارة حتى سنة ١٧٦١ عندما ما وقع ما اوغر صدر ظاهر عليه ، وافقده هذا المنصب السامي ، والسبب في ذلك ، على ما ذكر المؤرخون ، هو ان السلال بات يرى - سنة ١٧٦١ (مطلع عهد عثمان الكرجي) ان مستقبل ظاهر محفوف بالاخطار وان كيان دولته مهدد بالانهيار ولا سيما بعد ان شب ابناؤه وناصبوا والدهم العداء • لذلك عزم السلال على الهرب من عكا خفية قبل ان ينال سيده مكروه فجمع امتعته وارزاقه وشحنها في مركبين الى مالطه وجعل يهيء نفسه للحاق بهما الى ان اتصل ذلك بظاهر فقبض على وزيره وزج به في السجن • وافرج عن السلال بعد مدة وتوفي سنة ١٧٧٤ •

تولى وزارة ظاهر بعد السلال ، كما ذكرنا ، ابراهيم الصباغ الذي اصبح وزير ظاهر وطبيبه الخاص • وبقي ابراهيم في خدمة ظاهر اربع عشرة سنة حتى سنة ١٧٧٥ لعب خلالها دورا هاما في حياة الجليل •

لم يكن ابراهيم الصباغ طبيباً ماهراً فحسب بل كان تاجرا قديراً درت عليه الاعمال ارباحا طائلة ، وكان ثراؤه سببا في اثارة حسد بطانة ظاهر عليه واتفاق كلمتهم على مناهضته ومقاومة نفوذه لدى ظاهر • ووجهت الى الصباغ تهم مختلفة منها احتكار تجارة البلاد واساءة الثقة التي اوليت اليه • ولم يؤثر ذلك قيد انملة في ثقة ظاهر به فظل متمسكا به حتى اللحظة الاخيرة من حياته •

يجمل عبود الصباغ اسباب تعلق ظاهر بوزيره ابراهيم بما يلي •

٩) المنجد ص ٣٠٣ ، ٣٣٤ ، بروكلمن تحت فقرة ميخائيل الصباغ •

١ — كان ابراهيم يمنع ظاهرا عن الظلم ويدربه على العدل ولذلك كانت البلاد تعمر بالسكان وتزدهر تجارتها •

٢ — كان ابراهيم يكفي حاجة ظاهر بالمال ليدفع ما هو مترتب عليه للدولة ثم يسترد ابراهيم امواله منه شيئا فشيئا • وكان ابراهيم يمهل الفلاحين في دفع الضرائب لسنة ثانية ولا يضايقهم •

٣ — كان ابراهيم شجاعاً لا يخاف الموت وكريماً على الفقراء •

٤ — كان ابراهيم طبيباً ماهراً ليس له نظير في الشرق (١٠) •

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى عرف ابراهيم بالبخل • يقول فولني: انه (اي ابراهيم الصباغ) على الرغم من غناه الفاحش كان قتوراً يعيش على الجبنة والزيتون والمجدرة ويرتدي أقذر الملابس واكثرها رثاثة فيبدو أشبه بمتسول منه بوزير دولة كبيرة وكان عند الظهر يسير متسكعاً في اسواق عكا باحثاً عن تاجر فقير وصل اليه غداؤه اليسير فيشاركه اياه في دكانه وهو الرجل الذي جمع على حد قول المؤرخ اكثر من مليون و٢٥ الف ليرة فرنسية اي ما يعادل ٨٢٥ الف ليرة انكليزية بسعر ذلك القت (١١) •

على ان هناك نواحي حسنة في حياة ابراهيم الصباغ منها انه حرص على استثمار أمواله في صفقات نافعة للبلاد واسلف المزارعين مبالغ كبيرة وبشروط حسنة وبنى كنيسة لابناء طائفته في عكا كما بنى مصبنة هي الاولى من نوعها في المدينة •

من خواص ظاهر المقربين حسين افندي الواني الذي لعب دورا هاما في المفاوضة في آب سنة ١٧٧٥ بين ظاهر وبين حسن باشا الجزائرلي من اجل الصلح قبيل سقوط عكا في ايدي الاتراك بأيام قليلة ، ومن خواصه المعروفين ايضا يعقوب الصيقلي الذي كان من قادة عسكره وهو الذي تسلم مدينة بيروت من احمد الجزار العاصي فيها عام ١٧٧٣ وجاء به أسيراً الى صيدا ، ومنهم أيضاً ميخائيل السكروج وشقيقه بطرس ، وابراهيم ابو قالوش الصفدي الذي كان قائدا لاربعمائة من العسكر ، وكذلك ميخائيل البحري الذي عمل في ديوانه باشراف

١٠) ميخائيل ص ٧٣ ، عبود ص ١٤ •
١١) فولني ج٢ ص ١١٣ •

ابراهيم الصباغ والشاعر شناعه امريح الذي مدح ظاهراً وأولاده بقصائدشعبية جزلية منها قصيدتا البحيرة والنبطية ، وغير هؤلاء كثيرون من مشايـخ القرى ورجال الدين من مسلمين ومسيحيين أخص بالذكر منهم آل الصفدي من ابناء قرية عرابة البطوف في عهد ظاهر ومن اسر الناصرة المعروفة الذين كـانوا عصبة للزيـادنـة (١٢) .



١٢) المعلوف ص ٦٧٥ ، منصور ص ٢٠٢ .

الفصل السابع

ظاهر العمر وعرب الصقر

١) الحروب بين ظاهر العمر وعرب الصقر :

ان قيام ظاهر العمر بتأسيس حكم مدني عصري ـ بمفـاهيم ذلك الزمن ـ في الجليل جعله يصطدم بعرب الصقر اقوى عشائر البـدو في غور الاردن ومـرج ابن عامر الذين كان مجتمعهم يقوم على البداوة .

وقعت بين ظاهر العمر وعرب الصقر حروب كثيرة يصعب على المؤرخ تتبعها وتدوينها : فمـن هذه الحروب ما كـان في منتهى الشدة والشراسـة ، ومنهـا ما لم يتعد حدود الغارات او المناوشات . كان يرافق هذه الحروب مساجـلات شعرية جميلة تكشف النقاب عن الدور الذي لعبه هذا النزاع في حياة الجليل .

قـال شـاعر الزيـادنـة :

حلف ضاهر بحكمه قط مـا خـان
حمى زرع الشفا والغور والـخان
مـن اللجـون لبيسـان للخان
حلف مـا ينـزلوا بيت الـعرب

فأجاب شاعر من الصقر متحديـا :

يا ضاهر لا تحدد بـلادك علينـا
ولا هي بالشبر ضـاقت علينـا
حنـا صقـور لقمنا واعتلينا
نحـرق قلب ضـاهر بالتراب(١)

وفي هذا الشعر يكمن السبب في النزاع بين ظاهر العمر وعرب الصقر أكبـر القبائل البدوية في الجليل ، انه النزاع الازلي بين طورين هما الحضارة والبداوة .

١) سـعيد الطـه ، حبيب ابـو النصـر ، يوسـف سـماره ـ الخـان : هو خان المنيا قرب الطابغة على شواطىء بحيرة طبريا الشمالية . والشـفا هـو مرتفعات الغور الغربية ، واللجون قريـة على طريق حيفا ـ جنين .

والى جانب هذه المنازعات كانت تقوم بين الفريقين فترات سلام ومحبة تمتد الى بضع سنوات فيستخدم ظاهر عرب الصقر خلالها في تأديب اولاده الخارجين عليه او يستعين بهم على اعدائه تبعا للظروف والاحوال السائدة في بلاده.

ينحدر ظاهر كما ذكرنا من عائلة بدوية كانت تنزل على ضفاف الاردن وسواحل بحيرة طبريا . وكان الاتراك ووزراؤهم العرب يطعنون في اصله ويقولون بغية الانتقاص من نسبه انه كان يسوق الجمال في صغره* .

واما اسباب النزاع بين ظاهر والصقر فمردها الى التناقض الكبير بين عالم البدواة الذي يقوم على الغزو وقطع الطرق وعالم الحضارة الذي يقوم على دعائم القانون والنظام . ان ظاهر العمر في كفاحه المستمر من اجل اقامة كيان مستقل له في الجليل قاوم حياة البداوة داخل بلاده بمثل الشدة التي حارب بها اعداءه الاتراك وحلفاءهم العرب . لقد وقف ظاهر حياته على تأسيس مجتمع متحضر قوامه الامن والنظام اذ بدونهما لا يمكن للزراعة أن تنمو وللتجارة أن تزدهر وللسياحة في البلاد المقدسة أن تنشط ، لذلك كان لزاماً على ظاهر ان يوطد الامن في الطرقات ويعاقب منتهكيه بأقصى العقوبات . ومن هنا اصطدم بعرب الصقر النازلين في بلاده حتى ادى ذلك الى وقوع حروب بينه وبينهم لم يشهد الجليل أقسى وأشد وحشية منها .

البداوة والامية آفتان خطرتان عانى منهما العرب كثيرا قديماً وحديثاً وما لم يتغلب العرب على هاتين الافتين بتوطين البدو وفرض التعليم الالزامي عليهم فسيبقى الفساد ينخر في عظام الامة العربية . لقد ادرك ظاهر هذه الحقيقة منذ قرنين ونصف من الزمن .

مر بنا أنه في حوالي سنة ١٧٢١ حارب ظاهر عرب الصقر وفي هذه الحرب أسر الصقر صالحاً أخا ظاهر الاكبر وسلموه لوالي دمشق حيث أعدم شنقاً ، وبسبب ذلك اشتدت العداوة بين ظاهر والصقر . ويقول المؤرخون انه بعد مقتل صالح العمر بمدة جرد ظاهر خيله وهاجم الصقر وقتل منهم خمسة وثمانين اميرا وابن امير ، وظل ظاهر يحارب كل سنة اما العرب المذكورين واما الفلاحين حوله (٢) .

* فولني ج٢ ص ٧٧ .
٢) عبود ص ٧ .

وفي سنة ١٧٣٥ خان عرب الصقر ظاهرا في معركة المنسي كما مر بنا في فصل سابق وانضموا بجموعهم الى مشايخ قلعة سانور ، لذلك عزم ظاهر على تأديبهم خاف الصقر وخرجوا من مرج ابن عامر ودخلوا أراضي قيسارية على الساحل وطال مقامهم هناك حتى ضاقت الدنيا بهم . ولما بلغ ظاهرا سوء حالهم أبدى استعداده لمسامحتهم اذا هم طلبوا منه هذه المسامحة وجددوا له اليمين بأن لا يعودوا الى مثل هذه الخيانة . واخيرا صفح ظاهر عن الصقر فعادوا الى منازلهم في مرج ابن عامر وحافظوا على ما تعهدوا به لظاهر سنين عديدة .

حارب الزيادنة عرب الصقر في سهل عكا في مكان يقع بين تل الفخار وتل كردانة فكسروهم واجلوهم عن الساحل وتكبد الصقر ما يقرب من خمسة وسبعين قتيلا من اسرة الملاك وحدها وهي الاسرة المتنفذة في الصقر . وكان هذا آخر عهد للعرب في سهل عكا (٣) .

ورد في بعض المراجع ان عرب الصقر ومشايخ جبل نابلس كانوا من الد اعداء الزيادنة حاربهم ظاهر وتغلب عليهم ولا سيما في موقعة مرج ابن عامر بقيادة ولده علي فقتل منهم على ما قيل ، ثمانية آلاف نسمة في بقعة تعرف اليوم بأم العظام ، نسبة الى هذه المجزرة ، وموقعة عين جنين فقتل منهم الوفا عديدة حتى كاد يفني عرب الصقر (٤) .

ومن الامثلة على الحروب التي وقعت بين الزيادنة وعرب الصقر المعركة التي قتل فيها امير الصقر المدعو ارشيد الجبر . في اوائل الستينات ازداد غضب ظاهر على عرب الصقر وذلك لوقوفهم دائما الى جانب اعدائه . ولما كان الصقر قد ارتكبوا في سنة سابقة ثلاث جرائم سلب في الطرقات كتب ظاهر اليهم يؤنبهم على فعلتهم وينهاهم عن مثلها . واتفق يوماً ان رجلا من الناصرة خرج الى الشام ومعه بغلان عليهما بضاعة فسلب الصقر البغلين مع حمولتها . اشتكى الرجل الى ظاهر فأرسل ظاهر الى ارشيد الجبر مع الرجل المنهوب يقول : كتبت لكم مرارا ان تقفوا عند حدكم والى الآن لم تسمعوا ، ان الرجل الفلاني حضر الينا منهوبا وهو في الطريق العام ، فبوصول امري هذا اليكم يجب

٣) سليم عليان .
٤) المعلوف ص ١٣٠ .

أن تنظروا في من نهبه من عربكم وأن ترسلوا الينا غريمه السارق وترجعوا المنهوب الى صاحبه او تخرجوا انتم من حقه •

فلما اطلع ارشيد الجبر على الكتاب شمخ بأنفه تكبراً ولعن ظاهراً وقال لصاحب البغلين : ان كنتَ انت لا تعرف غريمك فلا اعرفه انا ، ولما وصل هذا الجواب الى ظاهر جمع على الفور اولاده وعسكره المغاربة وسار بهم الى مرج ابن عامر ، فالتقى ظاهر بالصقر في وادي الملح جنوب حيفاً فنازلهم وكسرهم وقتل أميرهم ارشيد الجبر في معركة طالت حتى منتصف النهار (٥) •

يصف شاعر الزيادنة مقتل ارشيد الجبر فيقول :

نزلنا مرج ابن عامر دهكناه
وكم شارب وكم لحيه دهكناه
حتى ارشيد اخو دله دهكناه
دعينا شاربه تحت الوطا (٦)

كان يرافق الشيخ ظاهرا في هذه المعركة حفيده الجهجاه ابن ولده عثمان وكان في الرابعة عشرة من عمره • وحدث خلال المعركة ان جمح جواد الجهجاه ودخل صفوف الصقر ولم يقدر الفتى على رده فأحاط الصقر بالجهجاه وقتلوه ورموا جثته الى الطريق •

ثار غضب ظاهر فركب جواده وقال لن انزل عن جوادي حتى آخذ بثأر الجهجاه • وسار بعسكره الى المرج،فالتقى بالصقر وهاجمهم على غرة وذبحهم ذبحة مستوحشة وفعل بهم ما لا يسمح ضمير بفعله من قتل الاطفال والشيوخ والنساء وقتل من مشايخهم ما يزيد على سبعة وعشرين شيخا حتى ان الخيول غاصت بالدم ، والذين افلحوا في الهرب اختبأوا في المغاور وكهوف الارض (٧) •

ندم ظاهر على بطشه بالصقر هذه البطشة الكبرى وظل الندم يلاحقه طيلة أيام حياته ، وكان يردد دائماً هذه العبارة « اني الوم نفسي لخفتها اذ استفزني الحزن على الجهجاه عندما قتله الصقر وانتقمت منهم نقمة استغفر الله منها » (٨)•

٥) ميخائيل ص ٨٢ •
٦) حسن ملحم •
٧) ميخائيل ص ٨٣ •
٨) ميخائيل ص ١٥٤ •

أما عرب الصقر فقد جمعوا شملهم بعد هذه المجزرة ورجعوا الى منازلهم في مرج ابن عامر وأقاموا عليهم أميرا قعدان الفائز بعد مقتل ارشيد الجبر ، وتقدموا الى جوار الناصرة وفي نيتهم أن يأخذوا بثأرهم من ظاهر •

٢) عثمان بن ظاهر يخرج على ابيه ويلتجىء الى الصقر :

وفي خلال الستينات بعث عثمان بن ظاهر الى أبيه يطالب بقرية شفاعمرو لتكون ولاية له والا فسيتمرد عليه ويخرج عن طاعته • وفي الوقت نفسه جعل عثمان يطوف على اخوته ويحرضهم على مطالبة ابيهم بالمزيد من المقاطعات او العصيان عليه في حالة الرفض • ولما ابى ظاهر تلبية طلبهم قام اولاده ومعهم عثمان فهاجموا شفاعمرو وضربوا عليها الحصار • كتب ظاهر الى اهل شفاعمرو يقول : لا تكلفوني ان اركب وفيكم مقدرة على طرد ابنائي فاياكم ان تدعوهم يدخلون بلدكم والا اعملت السيف في رقابكم وخربت دياركم ومحوت آثارها ، فتشجع اهل شفاعمرو وقاوموا ابناء ظاهر وطردوهم من بلدهم •

مضى ابناء ظاهر الى اخيهم الاكبر صليبي حاكم طبريا ورجوه التوسط في الخلاف الناشب بينهم وبين أبيهم فكتب صليبي الى والده وشفع في اخوته اليه فلم تجد شفاعته الى قلب والده سبيلا فاغتاظ عثمان واتفق مع اخوته على التمرد على ظاهر ، وكتب الى عرب الصقر لينصروه على أبيه فأجابوه الى ما طلب وجعلوا يحشدون عساكرهم لهذا الغرض •

عندما علم ظاهر بما عزم عليه عثمان استشاط غيظا وادرك ان التجاء ولده الى الصقر سيؤدي الى خراب البلاد وسفك المزيد من دماء العباد ، فجمع عسكره وسار به الى المرج ، وكان غرضه اقناع مشايخ الصقر بالتخلي عن نصرة اولاده •

وفي منتصف الليل ركب ظاهر جواده وتوجه وحده دون ان يعلم به احد الى مضارب الصقر ودخل فجأة خباء الامير قعدان الفائز ولم يكن في الخباء احد سوى أم الامير وجواريها اذ كان الامير قعدان غائباً ، فلما شعرت أم الامير بالقادم صاحت :

ــ من الفارس ؟

ــ انا يا وطفاء ، ثم سألت :

ــ ومن انت ؟ فأجابها ظاهر وهو ينزل عن جواده :

— انا ضاهر ، فمن اكثر فروسية يا وطفاه انا ام الامير قعدان ؟

— مرحباً بك يا شيخ ، يخسأ قعدان ، تقتل أميرنا وسبعة وعشرين شيخاً من مشايخنا ثم تأتينا وحدك ... ؟ (٩) .

ثم جلست أم الامير تحادثه وتكرمه الى أن حضر الامير قعدان .

تعاتب ظاهر والامير قعدان طويلا الى أن تصالحا وأعطى الامير على نفسه عهدا بالامتناع عن مساندة ابناء ظاهر على ابيهم .

وعندما بلغ أبناء ظاهر أن والدهم استرضى عرب الصقر أسقط في ايديهم فأرسلوا الى والدهم يطلبون عفوه وسماحه ، فسمح ظاهر لاولاده بالعودة سالمين الى منازلهم ما عدا عثمان الذي بقي ثائرا ومصرا على الفوز بشفاعمرو ولاية له .

توسل اهل شفاعمرو الى ظاهر ان لا يسمح لعثمان ببلدهم قائلين له انا نختار الموت على الحياة مع عثمان لسلوكه غير المرضي مع الناس ، وكان ظاهر ذلك الرجل المحنك البعيد النظر يراعي عواطف أهل البلاد فأستجاب لرغبتهم وعرض على ولده بلدا آخر دون ان يفصح له عن السبب لئلا يقع من ولده مكروه على اهل شفاعمرو انتقاماً منهم اذا ما علم برفضهم اياه حاكماً على بلدهم . ولبث عثمان في مكانه غير راض بما هو فيه .

التجأ عثمان بعد ذلك الى دروز بلاد صفد وجعل يحرضهم على محاربة ابيه ووعدهم ان هم ناصروه عليه وطلبوا نجدة اخوانهم دروز لبنان ، انتصر عثمان لدينهم ، ففعلوا وقاموا معه على أبيه . وكان كبيرهم الشيخ عزام زيتاً على رأسهم فجردوا عساكرهم وعسكروا في قرية « ابو سنان » المقابلة لعكا . ارسل ظاهر دعا اليه ولديه عليا واحمد وركب بعسكره معهما وهاجموا عثمان في قرية «ابو سنان» وانتصروا عليه وعلى انصاره الدروز . استطاع عثمان النجاة بنفسه واللجوء الى عرب الصقر ثانية .

انتقم ظاهر من الدروز ولكنه سرعان ما عفا عنهم وأذن لهم بالعودة الى قراهم شريطة ان لا ينصروا ولده عليه مرة اخرى .

كتب ظاهر الى مشايخ الصقر يأمرهم بطرد عثمان من منازلهم فأجابوه قائلين:

٩) هكذا اورد ميخائيل هذه المكالمة ، ص ٥٨ .

كيف نطرد النزيل علينا ولا سيما اذا كان المستجير بنا هوابنك . نحن اصحاب عرض وناموس وانت اخبر الناس بنا ، فوالله لو تسجير انت بنا على ولدنا لناصرناك ، فوالله اننا لن نطرد عثمان من ربوعنا وهو عندنا على الرحب والسعة الى أن تسمح بمطلوبه .

اغتاظ ظاهر من الصقر فجمع عسكره سرا وسار الى مضاربهم في المرج . وفوجيء عثمان بما لم يكن يتوقعه فقام من خيمته مذعورا وبصحبته غلامه عبد العيس ولاذ بالفرار (١٠) .

وها هنا موضع حكاية مشهورة : قيل انه عندما اقترب ظاهر من منازل الصقر قبيل فجر احد الايام كان ولده عثمان وقتئذ يلعب الشطرنج مع امير من الصقر . دخل عليهما حارس القبيلة وانشد هذا البيت من الشعر محذرا عثمان من أبيه :

صابح الجمهور ابو صليبي ودار
وانطوى الحبل فيكو واستدار
شيل فرزك ما بقى لك غير دار
أجاك ضاهر والبيارق ناصبة (١١)

٣) عثمان الظاهر يلتجيء الى الشهابيين عام ١٧٦٦ :

ثار عثمان على أبيه ظاهر مرة اخرى بسبب حقده على الامتيازات التي نالها أخوه علي ، وزاد في ذلك كونهما من امين مختلفتين ، وتمكن ظاهر من القبض على ولده ، وسجنه ستة أشهر ثم وضعه تحت الاقامة الجبرية ، ولكنه استطاع الهرب الى لبنان خلال ولاية الامير منصور الشهابي ، ومكث في الغربة زهاء السنة كان خلالها يشن هجمات تخريبية على بلاد ابيه ، حتى تعطلت المواصلات بين صيدا وعكا وتضرر الريف من جراء ذلك (١٢) .

ان فرار عثمان على هذه الصورة اثار حنق ظاهر عليه فوضع يده على املاكه قصاصا له وانتقاما منه . يقول الامير حيدر : «في هذه السنة (١١٨٠) حضر

١٠) ميخائيل ص ٨٦ .
١١) جريس عزام — ابو صليبي هو ظاهر .
١٢) عبد الكريم رافق ص ٣٦٩ ، حيدر ص ٦٧ .

الشيخ عثمان ابن الشيخ ظاهر العمر غضباناً على أبيه لانه كان غضب عليه واعتقله واستقام مدة عند الامير منصور الى ان اصلح امره مع ابيه»• ويصف المؤرخ عثمان بقوله : « وكان عثمان شاعرا فصيحاً اديباً حسن الصورة طويل القامة(١٣)».

كان عثمان خلال اقامته في لبنان قد نظم قصيدة تتألف من ستة وتسعين بيتاً يعارض فيها معلقة عنترة العبسي ويمدح نفسه ويبدي تشوقه الى بلاده ، نشرها الامير حيدر بكاملها ومطلع القصيدة :

كم غادر الشعراء من مترنم   وعرفت الدار قبل توهمي

ويقول :

فعلام تعطي للوشاة اصاخة   وهواهم من ضرب ما لم يفهم
حبي مقيم بالفؤاد مغلل   لم تعتريه وساوس المتلوم
اني من النفر الذين اذا اعتراه   ضيم أبوه بكل عضب مخذم
واذا السنين ترادفت ازمانها   سالوا سيول سماحة وتكرم
قتلوا الزمان تجاربا وتحاربا   وجروا على سنن بمجد اقدم
شمس على كيد الزمان وغيرهم   متضائل في الحادث المتجهم

كان لعثمان محبون ومريدون في شفاعمرو ، البلدة التي رفضته ، منهم جارية تسمى زعفران ، فلما طال غياب عثمان انشدت زعفران تقول :

عقب عثمان ما نسوي جديدين
ولا نحرز من التاجر جديدين
نذر لاذبح لوجه الله جدي دين
متى عثمان على الديره لفى (١٤)

وأخيرا ، وبواسطة الامير منصور الشهابي ، اصطلح عثمان الظاهر مع أبيه وعاد سنة ١٧٦٧ الى بلاده في موكب عظيم ضم مئات الفرسان يقودهم الامير اسماعيل الشهابي حاكم وادي التيم والشيخ علي جنبلاط والشيخ ناصيف النصار وكثيرون غيرهم من امراء ومشايخ لبنان وجبل عامل • والتقى ظاهر بالموكب في

١٣) حيدر في حوادث سنة ١١٨٠ هـ. بدؤها الاثنين ٩ حزيران سنة ١٧٦٦ •
١٤) سليم عليان ـ جديدين الاولى معناها دراهم ، والثانية ثياب ، والثالثة جدي ماعز تشتريه ولو بالدين ، لشدة فقرها متى عاد سيدها الى الديره •

رأس العين خارج صور واقام له وليمة فاخرة ظلت حديث الناس حتى مطلع القرن التاسع عشر •

وتولى عثمان بعد قدومه من لبنان مدينة شفاعمرو ، وفي خلال سنة ١٧٦٨ شرع في بناء قلعتها المشهورة القائمة حتى هذا اليوم •

٢) ظاهر العمر يستخدم الصقر لتاديب اولاده الخارجين عليه :

عصى ابناء ظاهر يوما على أبيهم ولم يدفعوا له المال الميري المكسور على بلادهم منذ اربع سنوات • ركب ظاهر الى شفاعمرو وطلب مشورة رجل من دروز القرية يسمى « أبو راشد » وكان ظاهر يستأنس برأيه ويعتمد عليه في الشدائد ، فقال ابو راشد لظاهر عليك بالصقر فما من احد يستطيع انقاذك من ورطتك سواهم ، فقال ظاهر : ان دمهم لم يجف بعد ، قال أبو راشد استرضهم بما تستطيع •

توجه ظاهر الى مضارب الصقر في مرج ابن عامر وتم الاتفاق بينه وبين الامير محمد ارشيد (ابن ارشيد الجبر) على ان يرحل الصقر الى سهل عكا ويضايقوا ابناءه في قراهم ، فيعتدون على الطرقات كسابق عهدهم في الساحل •

وهكذا رحل الصقر الى سهل عكا والى المناطق الجبلية في شفاعمرو وجدين وطرشيحا وغطوا روابي التلال بخيامهم السوداء من شفاعمرو حتى رأس الناقورة وتوزع فرسانهم على القرى يأكلون ويشربون ويعتدون على السابلة حتى ضج ابناء ظاهر من ثقلتهم ولم يكن لهم طاقة على قتالهم بدون ابيهم •

ولم يطل الزمن حتى خضع الابناء لابيهم ودفعوا له مال الميري المكسور عليهم وارتفع الصقر عن بلادهم (١٥) •

وقبل الانتهاء من هذا الفصل ينبغي ان اشير الى عرب الفضل واميرهم فاضل المزيد النازلين في أراضي الجولان شرقي جسر بنات يعقوب • كان لعرب الفضل من النفوذ في الجولان ما كان لعرب الصقر في مرج ابن عامر وغور الاردن ، وقد اشتبكوا في حروب شديدة مع علي بن ظاهر حاكم صفد ، كما سيأتي بيانه •

١٥) سليم عليان ، يوسف البابا •

الفصل الثامن

ولاية حسين باشا ابن مكي على دمشق وحادث نهب قافلة الحاج عام ١٧٥٧

في كانون الثاني سنة ١٧٥٧ عزل اسعد باشا العظم عن ولاية دمشق وتولى مكانه في شهر شباط حسين باشا ابن مكي الفلسطيني الغزي الاصل وكان والده كتخدا لاسعد باشا . والجدير بالذكر ان اسرة ابن مكي الفلسطينية هي ثاني اسرة من العرب صار ابناؤها وزراء ، واول اسرة عربية تولت الوزارة ، كما قدمنا ، كانت عائلة العظم .

يقول المؤرخون لم يكن حسين باشا شرها الى جمع الاموال وكان يميل الى الصدق .

كان غرض الدولة من عزل اسعد باشا هو اتباع سياسة أشد حزماً في سوريا بعد ما ظهر من تغاضيه عن مطامع ظاهر التوسعية سنين طوالا .

يشير المؤرخون الى سبب آخر عجل في نهاية اسعد باشا وهو خصومة شخصية كانت بينه وبين أحد عبيد السلطان المدعو احمد آغا : في سنة سابقة كان أحمد آغا قد حج الى مكة وكان قد مر بدمشق اولا في طريقه الى الحجاز فلم يقدم له أسعد باشا التكريم الكافي فغادر احمد آغا دمشق مستاء الى مكة ، وفي أثناء عودته من الحج وفي طريقه الى الاستانة مر بغزة وزار وزيرها حسين باشا ابن مكي فاحتفى به هذا الاخير احتفاء منقطع النظير . كان لهذه الزيارة الى غزة اثرها الحسن في نفس احمد آغا فلما وصل الى الاستانة مدح حسين باشا وذم اسعد باشا ، ونتيجة لذلك فصلت القدس عن ولاية دمشق كخطوة اولى لتقليص نفوذ اسعد باشا ، وألحقت بغزة .

قيل انه حين اصبح احمد آغا رئيسا لحجاب السلطان بعد ذلك بمدة بذل ما يستطيع لعزل اسعد باشا عن الولاية . وما زال في ذلك حتى عزل الوزير عن منصبه

فغادر دمشق الى الصحراء مختبأ ومتواريا عن عيون الرقباء حاسبا الف حساب لهذا العزل غير المتوقع ، وتولى دمشق مكانه حسين باشا بتوصية من احمد آغا (١) .

كانت اولى التوجيهات الى حسين باشا وزير دمشق الجديد وجوب حشد كل القوى لمهاجمة ظاهر العمر ، فجمع عسكره وخرج الى الدورة(٢) كعادة الولاة في كل سنة ، قبل التوجه الى الحجاز ، وفي الوقت نفسه بعث الى ظاهر يتهدده ويأمره بلزوم التخلي عن حيفا وقراها التابعة لدمشق والا فانه سيهاجمه ويؤدبه ويجعله عبرة لمشايخ البلاد (٣) .

كانت العادة في ذلك الزمان ان يدفع الحج الشامي او المصري عند خروجه الى الحجاز لمشايخ بني صخر وبني عنزة وبني عطية وغيرهم ممن تمر قافلة الحجيج في أراضيهم عوائد أي « خاوه » كانت مرتبة ومقررة لهم منذ أيام الخلفاء العباسيين . ولما صار أمر الاسلام الى دولة بني عثمان سار العثمانيون على هذه السنة وجعلوا امارة الحج من اكبر وظائف الدولة واسندوا امرها الى الوزير الاول في بلاد الشام مع لقب امير الحج ومنحوه امتيازات خاصة فلا يقتل ولا يشهر عليه سلاح . كان هذا الوزير يقود بنفسه جردة الحج الى الحجاز ويهيء للحجاج الراحة والغذاء والامن المنشود .

على أن البدو كانوا في كثير من الاحيان يتعرضون لقافلة الحجيج وينهبونها اما لانهم كانوا يستقلون تلك العوائد او لانهم لم يكونوا يعطوا شيئاً منها الى أن قدم الى بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السادس عشر الوزير العثماني سنان باشا ، فأحضر اليه مشايخ القبائل أصحاب المصلحة وقرر لهم مبالغ معينة من المال تعطى لهم كل سنة مقابل مرور قوافل الحج في أراضيهم ، والذين لم

---

١) بريك ، المرادي ج٢ ص ٦٠ ، ميخائيل ص ٧٥ ، هيد ص ٣٥ ، عبد الكريم رافق ص ٣٤٢ .

٢) الدورة معناها خروج الوزير في جولة لجمع المال الميري ، وكان يقوم بها عادة قبل سفر جردة الحج بشهرين او ثلاثة .

٣) عبود ص ١٠ .

يرتضوا بهذه التسـوية زاد الوزير من عوائدهم حتى أرضاهم جميعا ، ومع ذلك فلم تسو هذه القضية بصـورة نهائية .

كان البدو احيانا على حق في تعرضهم لقوافل الحجاج، فكان اذا مضى امير الى الحجاز ومعه قوة كافية من العسكر لحراسة القافلة طمع في البـدو وتنكر لحقوقهم وما اسرع ما كانت تقع الحرب بينهم،فاذا كانت الغلبة للبدو نهبوا الحجيج وقتلوا رجاله وسبوا نساءه ، واذا كانت الغلبة للوزير فر البدو من امامه وفتحوا له الطريق ليمر بسلام ثم يستعدون لملاقاته وقطع الطريق عليه عند عودته من الحج او في سنة ثانية فتنشب الحرب بينهم مرةاخرى الى ان ينالوا حقوقهم المـقررة لهم مـن قديم الزمـان .

في ربيع سنة ١٧٥٧ حشد حسين باشا ابن مكي جموعا غفيرة من الجنـود . وهي القوات التي كان الوزير قد اعدها لقتال ظاهر العمر . وسار بها الى الحجاز مع جردة الحج البالغ عددها ستين ألفا من عرب وترك وعجم . ويقال امتنع حسين باشا عن دفع عوائد البدو وأعد نفسه لمقاتلتهم اذا ما اعترضوا طريقـه . وأدرك البدو هذه الحقيقة بسبب ضخامة القوات التي كانت ترافق القافلة فتركوا الوزير يمر بسلام مصممين على مهاجمته عند عودته من الحج ، وجعلوا يستعدون لذلك .

ولما عاد حسين باشا من الحجاز ووصل الى قلعة تبوك من أراضي معان في ٢٠ ذي الحجة سـنة ١١٧٠ هـ (٥ ايلول سنة ١٧٥٧) تصدى له جمـوع غفيرة من بني صخر وعقيل وكليب والسردية يقودهم الامير قعدان الفائز شيخ قبيلة بني صخر وطالبوا الوزير بعوائدهم الموروثة ، ويقال ان الوزير رفـض دفعهـا ، وفي رواية اخرى ان الوزير اختلف مع البدو على مقدارها ، فهـاجموه في نواحي معان ثم في الطريق المؤدية الى تبوك بعد حصار دام اثنين وعشرين يوما ، وانزلـوا بجردة الحاج وبالقافلة المرافقة لها من الخسائر في المال والانفس مما يقصر القلم عن وصفه . يقول فولني :

ان ستين الفا من الجنود والحجاج قتلوا او سلبوا وشتتوا في القفار : منهم من قتل بالسيف ومنهم من قضى جوعاً وعطشاً ، كما أن عدداً كبيراً من نسائهم اختطف وسبي على أبشع وجه فضلا عن انتهاك حرمة الحج وتـدنيس شعائره . ويقدر المؤرخ عدد الهالكين بعشرين الفاً راحوا ضحية طيش الوزير الجديد وجهله .

نجا حسين ابن مكي بأعجوبة ومضى هارباً الى بلده غزة ومكث فيها . وفي

أواخر تشرين الاول سنة ١٧٥٧ وصل خبر هذه الفاجعة الى دمشق فأحـدث في المدينة حزنا عظيما . كما هزت اخبار هذه الفاجعة اركان العالم الاسلامي وقتئـذ وظلت عالقة بأذهان الناس يتحدثون عنها ويترحمـون على ضحاياهـا حتى اواخر القرن الثـامن عشر .

غنم البدو اموال الحجيج وارزاقه بما في ذلك خيوله وجماله كمـا استولوا على المحمل الشريف والعلم النبوي واما الجيش المرافق للقافلة فقد ابيد على بكرة ابيه .

كان على البدو ان يجدوا سوقا لغنائمهم واخيرا وبدون اية مشقة وجدوا هذه السوق في عكا وغزة البعيدتين عن كل نفوذ عثماني ووجـدوا في ظـاهر العمـر استعدادا طيبا لشراء ما نهبوه فاشتراه ، وكانت صفقة رابحة له .

ولما تسامع في البلاد نبأ شراء ظاهر لاموال القافلة المنهوبة قامت الضجة حوله في جميع انحاء السلطنة العثمانية كما اعتبر ظاهر شريكاً للبدو فيجريمة نهب الحج. والصقت باسعد العظم تهمة التحريض على نهب القافلة انتقاما من حسين ابن مكـي الـذي خلفـه عـلى ولايـة دمشق .

تعالت الاصوات تطالب بقطع رأس حسين باشا وغيره من المسؤولـين عـن هذه الكارثة ، وهو امر احرج اولي الامر في الاستانة واوقعهم في مأزق لم يكن من اليسير الخروج منـه .

ولكي يهدىء السلطان من غضب الشعب الهائج امر بقتل احمـد آغا رئيس الحجاب الذي اوصى بتعيين حسين باشا واليا على دمشق ، وبتاريخ ٢٧ تشريـن الثاني سنة ١٧٥٧ وفي يوم عيد المولد النبوي الشريف قطع رأس الاغا في الاستانـة وعرض امام الجماهير والى جانبه ورقة كتب فيها « هذا جزاء الرجل الـذي كـان سبباً في هلاك الحجاج » (٤) .

ولنعد الان الى ظاهر العمر . نفى ظاهر ان يكـون له ضلع في نهب قـافلـة الحجيج وارسل الى الاستانة كتابا يقول فيه ان طمع الوزير بعوائد البـدو المقررة لهم من قديم الزمان هو الذي أوجب على البـدو مهاجمتـه .

---

(٤) هيـد ص ٣٨ .

اصدر الباب العالي امرا بقطع رأس حسين باشا فكتب هذا الاخير يعتذر عما حدث ويقول ان ظاهراً هو الذي اغرى العربان بنهب الحج بدليل أنه اشترى منهم ما نهبوه ، ووجه حسين باشا مثل هذه التهمة ايضاً الى أسعد العظم زاعماً انه هو الذي اثار البدو عليه للانتقام منه لانه خلفه على ولاية الشام وابرز حسين باشا كتابةً ادعى أنه بتوقيع اسعد باشا يثبت اشتراكه في جريمة نهب الحج ، على ان هذه التهمة سواء كانت صحيحة او كاذبة ، على حد قول المؤرخ ، كانت بمثابة الحكم بالاعدام على أسعد باشا ولم يكن ما يمنع تنفيذه سوى بعض الوقت .

لم يسع دوائر الاستانة الا ان ترسل قبجي سلطاني للتحقيق فيهذه الفاجعة فاجتمع القبجي بحسين باشا واستمع اليه ، كانت حجج الباشا هي المذكورة آنفاً وهي ان ظاهر العمر واسعد العظم هما اللذان حرضا بدو الصحراء على مهاجمة القافلة ونهبها . واجتمع القبجي بظاهر في عكا فأرسل ظاهر اتى بمشايخ البدو الذين كانوا عمدة هذا النهب وجمعهم بالقبجي فأدلى هؤلاء بحججهم وابلغوا مبعوث السلطان ان حسين باشا هو الذي تنكر لحقوقهم وانهم قد انذروه ثلاثاً قبل ان يهاجموه ولم يستمع اليهم ، ولذلك فانهم حاربوه ونهبوه .

اقتنع القبجي بما سمع وعاد الى الاستانة دون ان يجد ظاهر ضرورة لان يرشيه ببعض المال بعد ان ازاح عن كاهله بسهولة هذه التهمة الشنيعة .

واخيراً صدر امر بعزل حسين باشا ابن مكي عن ولاية دمشق ، وبقي منصب الولاية خاليا مدة الى ان شغله بتاريخ ٢٧ ربيع الثاني سنة ١١٧١ هـ الموافق ٨ كانون الثاني سنة ١٧٥٨ عبد الله باشا الشتجي من اهل العراق ، وكان جندياً بطاشاً ومن العسكريين المشهورين . وما ان استقر الوزير الجديد في منصبه حتى هاجم منازل بني صخر في معان والبلقاء فأوقع بهم وأجلاهم عن مواقعهم وكسرهم كسرة هائلة انتقاما لما فعلوه بقافلة الحجيج . ولاسباب داخلية ومنازعات شخصية عزل عبدالله باشا في شباط سنة ١٧٦٠ عن الولاية وخلفه في دمشق محمد باشا الشاليك وهو من بر الترك ، ولم يطل به الزمن حتى عزل هو الآخر عن منصبه في ٢٧ ربيع الاول سنة ١١٧٤ هـ الموافق ٦ تشرين الثاني سنة ١٧٦٠ وتولى دمشق مكانه عثمان باشا الكرجي ، الملقب بالصادق منقولا اليها من طرابلس ، المعروف

بعداوته الشديدة لظاهر العمر ، تاركاً ابنه محمد باشا والياً مكانه على طرابلس .

ولا بد من كلمة عن اسعد باشا العظم . قتل أسعد باشا في الاناضول بأمر من الدولة في ١٤ نيسان سنة ١٧٥٨ بتهمة التحريض على نهب قافلة الحاج وضبطت امواله الطائلة وحمل رأسه الى استنبول ، وهو الرجل الذي تولى دمشق اربع عشرة سنة وخدم الدولة العثمانية خدمات جلى لم يقم بها أحد من ولاتها في بلاد الشام .

وبعد التحقيق الطويل والشاق في الاسباب التي أدت الى كارثة قافلة الحاج فقد صفح الباب العالي عن حسين باشا ابن مكي وانعم عليه بالولاية على مرعش ثم توفي قتلا سنة ١٧٨٣ (٥) .

ولكن الدولة لم تصفح عن ظاهر فبعثت الى عثمان باشا الصادق وزيرها الجديد في دمشق تحثه على قتاله او اغتياله كما سأتي بيانه في الفصل القادم .



٥) عبد الكريم رافق ص ٣٤٢ – ٣٥٩ ، المرادي ج٢ ص ٦٠ ، ميخائيل ص ٧٥ .

الفصل التاسع

ولاية عثمان باشا الكرجي على دمشق من سنة ١٧٦٠ - ١٧٧١

* * *

١) عثمـان باشـا الكرجي :

هو عثمان باشا الكرجي الملقب بالصادق . كان كتخدا لاسعد العظم ومن كبار اتباعه ، ولي دمشق زهاء احدى عشرة سنة من سنة ١١٧٤ هـ (خريف ١٧٦٠) حتى عزله عنها في جمادى سنة ١١٨٥ هـ (تشرين الاول سنة ١٧٧١ م) .

عرف عثمان باشا بظلمه وقسوته في جباية الاموال الاميرية . كـان خادما مطيعا للدولة العثمانية ، حارب من اجلها وافنى حياته في الدفاع عن مصالحها في سوريا . لقد كـان خصما عنيـدا لظاهر العمر حاربـه وحـاول قتلـه ولكنه احفق في مساعيه وغلب على امره ثم ما لبث ان مات بالذل والهوان سنة ١٧٧١ .

كان عثمان باشا يلقب بالصادق وسبب هذا اللقب انه كان من بعض ممـاليك اسعد العظم وكان هذا يحبه لنباهته فلما قتل اسـعد باشـا سنة ١٧٥٨ وضبطت الدولة امواله ، طلبوا عثمان باشا بصفته من المقربين اليه فأخبرهم بخزائن مـولاه واطلعهم على ما فيها . ثم عثر رجال الدولة على قائمة بتلك الاموال بين موجودات اسعد العظم فكانت القائمة مطابقة لكلام عثمان باشا ، فأنعمت الدولة عليه بثلاثة اطواخ(١) ولقبته بالصادق .

وفي بعض الروايات ان عثمان باشا هذا هو الذي غدر بولي نعمته اسعدباشا وكشف عن امواله لغرض في نفســه .

لقد ضاقت الدولة ذرعا بظاهر ولم تعد تحتمل ان يكون في بلاد الشام رجل بمثل هذه القوة وهذا الاستقلال ، اضف الى ذلك تمرده على ولاتها وسلوكه طريقا

١) الطوخ او التوخ هي رتبة عسـكرية عند الاتراك ، فالباشا كان يطوخـين والوزير بثلاثـة اطـواخ .

مغايرا لرغباتها في الشرق العربي ، ولا يخفى ما احدثه من اثر سيء في نفوس ولاتها استيلاؤه على حيفا وبلادها وسلوكه الودي ازاء فرسان مالطه وعشائر البدوالذين نهبوا الحج في سنة سابقـة .

٢) عثمان باشا يستهل حكمه بزيادة الضرائب والتحرش بظاهر العمر في حيفا عـام ١٧٦١ :

استهل عثمان باشا حكمه في دمشق بأن امر بزيادة الضرائب في المقاطعـات الداخلة ضمن نفوذه باجراء تعديلات عليها من حيث نوعها ودرجتها وكيفيتها ، من ذلك انه جعل للعوائد التي تدفع عادة للوالي كهدايا بعد عودته من الحج ، صفـة الضرائب الثابتة الملزمة لمشايخ الاقطـاع .

كذلك عمد عثمان باشا الى زيادة نسبة الضرائب على اراضي الميرى في البلاد التابعة لظاهر والتي كانت في الاصل تشكل قسما من ولاية دمشق كحيفا مثلا ، ابى ظاهر دفع الزيادة . يقول المؤرخون في هذا الصدد : كانت مطالب عثمان باشا على سبيل التجربة وكذريعة للاحتكاك بظاهر توطئة لمهاجمته وقتله ، فلما رفض ظاهردفع الزيادة لجأ الوزير الى التهديد والوعيد وجعل يترقب الفرص لشن حرب عليه .

في سنة ١٧٦١ حصل عثمان باشا على فرمان يبيح له القيام بمحاولة لاسترداد حيفا وقراها من قبضة ظاهر ، وارسلت الدولة في الوقت نفسه الى وزير صيدا امرا بالقبض على ظاهر وارساله اسيرا الى الاستانة اذا ما عارض عثمان باشا في حملتـه هذه على حيفا او حمل السلاح في وجهه .

وعلى اثر ذلك ارسل عثمان باشا في ايار سنة ١٧٦١ سفينة فرنسية الى حيفا وعلى ظهرها ثلاثون جنديا بقصد مباغتة حاميتها واحتلالهـــا فيضطر ظـاهر الى السكوت والموافقة على الامر الواقع . وما كاد خبر هذه السفينة القادمة الى حيفا يصل الى ظاهر حتى امر بمهاجمتها فهوجمت عند وصولها الى الشاطىء بالبـارود واجبرت على الفرار والذين افلحوا من جنودها في النزول الى البر فقد قتل بعضهم وجرح البعض الآخر ، واطلق سراح الاسرى بفدية كبيرة(٢) . كان لفشل عثمـان باشا في محاولته احتلال حيفا وقع سيء في دوائر الاستانة .

والجدير بالذكر ان قيام عثمان باشابهذهالغارة على حيفا قد اثار حنقظاهرعلى

٢) هيد ص ٤٠ .

الفرنسيين القاطنين في عكا واعتبرهم شركاء لعثمان باشا في هـذه المحاولة الفاشلة ، ولما كان الفرنسيون لايرغبون في مغـادرة المدينة فلومهم وضيق الخناق عليهم ، فقد اتصلوا بسفير دولتهم في الاستانة والتمسوا والتخلي عن اعمالهم الرابحة فيها منه الحماية ورفع الحيف عنهم ، فاتصل السفير بوزير خارجيـة تركيـا «الرئيس افندي» ونقل شكوى فرنسيي عكا اليه فأخبره الوزير ان الباب العالي لـم يعد يحتمل النفوذ الذي صار اليه ظاهر وانه سيخضعه او يحد من سلطته، بمساعدة عثمان باشا والي دمشق(٣) •

وتأكيدا لهذه الارادة السلطانية أعلن عثمان باشا انـه ذاهب قريبـا الى الحج وانه سيهاجم ظاهرا في عقر داره بعد عودته ، ولكنه لاسباب نجهلها ارجأ هذا الهجوم الى وقت آخر مكتفيا بمحاربته عن طريق الدس والفتنة وسلخ الاعوان عنه.

ان فترة الهدوء التي تمتع بها ظاهر طوال ولاية اسعد باشا العظم على دمشق اتاحت له بعض الراحة ، فازدادت ثروته وعظم نفوذه ، لذلك كان ظـاهر في مطلع الستينات في اوج قوته وغناه ، فحسده اخوه سعد العمر كما طمع به اولاده الكبار وخاصة عثمان وعلي وسعيد ، لهذه الاسباب وجد عثمان باشا الفرصة مهيأة له لبذر بذور الشقاق بين الاخ واخيه وبين الاب واولاده ، ووجد حوله اناسا ممن يحسنون الاصطياد في المياه العكرة • ففي مطلع الستينات ، بل وقبل ذلك، ثار الاولاد على أبيهم مطالبين بضم اقطاعات جديدة الى بـلادهم وغير ذلك من الطلبات التي لم يكن لها اول ولا آخر ، وما كان في وسـع ظاهر تلبية مطالبهم نظر الحاجته الى المال من اجل الاستعداد لحروب لا مفر له منها ضد عثمان باشا ، لذلك حارب الاولاد والـدهم وشنوا حملات تخريبية على بلاده من اجل ارغامه على الاستجابة لمطالبهم، واستمرت هذه الفتن الاهلية في الاستعار حتى انهيار حكم الزيادنة في الجليل، وكانت من اهم الاسباب التي قوضت اركان حكمهم ، وقد مر بنا كيف أن عثمان الظاهر اعتقله ابوه في السراي ثم فر الى دير القمر بلبنان سنة ١٧٦٦ •

هذا من ناحية الاولاد واما سعد العمر فقد ثار هو الآخر عـلى أخيـه في اواخر الخمسينات واشتبك معه في مواقع كثيرة وظل الحال على ذلك حتى مقتل سعد في عكا في اوائل الستينات ، وما كانت هذه النزاعات والفتن الاهلية لتثور، سواء بين الاب

---

٣) فولني ج٢ ص ٨٨ ، هيد ص ٤٠ عن كتاب القنصل الفرنسي في صيـدا تـاريخ ١٧٦١/١١/١٠ •

واولاده او بين الاخ واخيه ، الا بدسائس عثمان باشا وتحريضه بقصد اضعـاف قوة ظاهر والاطاحة بحكمه •

وفيما عدا ذلك شملت البلاد فترة هدوء او هدنة موقتة غير منصوصـه بـين ظاهر والدولة العثمانية ، كان عثمان باشا خلالها يطالب السلطان باذن لمهاجمة ظاهر، ولكن حتى الآن لم يؤذن لـه •

٣) مقتـل سـعد العمر :

قتل سعد العمر في مستهل عهد عثمان باشا الصادق في دمشق أي في سـنة ١٧٦١ او بعدها بقليل(٤) • ان الطمع والمصالح الشخصية كانتا السبب ، كما سبق وذكرنا ، في المنازعات التي نشبت بين ظاهر العمر وبين منافسيه على الحكم ، وهما ابن عمه محمد العلي ، واخوه سعد العمر ، كما ان الحرب بين ظاهر وبين كل مـن منافسيه وقعت اكثر من مرة ، وكان ظاهر فيها المنتصر(٥) •

كانت حجة سعد في الخروج على ظاهر ان ظاهرا قد عتا وتجبر وأخذه الغرور فصار قليل الخير لاهله محبا لنفسه مع أنه لم يقم الا بهم ، حتى صار يكرم الانسان عند حاجته ومتى نال مراده منه يعطيه جانبه ، وأصبح ظاهر لا يرى من أهله احدا على وارتفع الا أذله ونكس رأسه فان كان يفعل ذلك وهو في جزء من الدولـة فكيف اذا أمن جـانبهـا(٦) •

ويقول عبود الصباغ في مقتل سعد العمر ما يلي : « ففي ذلك الـوقت (أي في الوقت الذي كان عثمان باشا الصادق يطالب بالاذن لمحاربة ظاهر) اراد سـعد اخو ظاهر الاكبر ان يتفق مع اعداء ضاهر لاجلما ان يقتـل ضاهر ويصـير شيخا عوضه لانه انحسد منه فاذ علم ضاهر بذلك حالا اظهر الى أخيه الحب الزائـد الى ان وجد فرصة فبالحال مسكه ووضعه في البير وخنقه وقال انه من شدة الخوف مات موت ربه »(٧) •

يؤيد شيوخ زماننا رواية عبود هذه ، قال الراوي : اراد سعد العمر الخروج

---

٤) تختلف المراجع بشأن تاريخ مقتل سعد : ميخائيـل يجعله سنة ١٧٥٥ وفولني لا يحـدد لـه تاريخـا •

٥) فولني ج٢ ص ٧٩ •

٦) ميخائيل ص ٦٩ •

٧) عبـود ص ١١ •

على اخيه ظاهر فمضى الى قرية «فيق» الواقعة على تلال بحيرة طبريا الشرقية حيث اجتمع بوزير دمشق واتفق معه على خطة لقتل ظاهر ، ولما تناهى خبر هذه المؤامرة الى ظاهر احتال على أخيه سعد حتى قبض عليه في سوق عكا وحبسه ... ويستندون في ذلك على هذه الابيات الشعبية المشهورة :

بروج الدير حدّت يوم سيدي
كريم وقاهر الخيلين سيدي
يا ستي وين راح اليوم سيدي
نزل عسوق عكا واختفى(٨)

* * *

بروج الدير حدّت يوم سيدي
سعد يا مصدّر العانات سيدي
يا ضاهر وين راح اليوم سيدي
دخل سوق عكا واختفى(٩)

* * *

هات القلم والدواة تخط بيدي
على دهر مضى وايش عاد بيدي
يا ضاهر وين راح اليوم سيدي
تسوّق عكا واختفى (١٠)

* * *

بروج الدير حدتّ يوم حدين
شيوخ وحاملين سيوف حدّين
ألا يا بنات العم حدّين
على فقد الشوارب واللحى(١١)

* * *

٨و٩) محمد الخطيب ، يوسف سماره – بروج الدير هي ابراج دير حنا المشهورة مصدر العانات أي الكريم مقدم العون للمحتاجين .
١٠) صالح الاحمد .
١١) محمد العبد طرابيه .

هذا قليل من كثير مما قيل في مقتل سعد العمر ، هذه الابيات تؤيد بدون ادنى شك ، نزول سعد الى عكا وموته فيها وتدحض كل ما قيل خلاف ذلك(١٢)

وبمقتل سعد العمر في مستهل الستينات دخلت قرية دير حنا وما حولها من القرى تحت حكم ظاهر وتولاها ولده احمد ، فتقرب الى عرب الصبيح النازلين في جوارها وتقوّى بهم ، ومن دير حنا انتقل احمد الظاهر سنة ١٧٧١ الى قرية تبنه بعجلون التي كانت تابعة لدمشق ، كما سيجيء .

٤) عثمان باشا يهاجم ظاهر العمر :

كان ظاهر يحارب في احد الايام اثنين من أولاده ويحاصرهما في احد الحصون واذا برسول يفد فجأة عليه ، حاملا معه رسائل هامة من جواسيسه في الاستانة . وحالما وقف ظاهر على فحوى الرسائل أمر بايقاف الحرب وأرسل الى ولديه يطلب منهما اعداد العدة لاستقباله وتهيئة عشاء فاخر لثلاثة اشخاص لانه يريد ان يطلعهما على اخبار هامة . وتوقف القتال على اعتبار ان مصلحة البلاد تعلو كل الخلافات المحلية والعائلية(١٣) ، وكان ذلك سنة ١٧٦٥* .

واطلع ظاهر ولديه على مضمون الرسائل وخلاصتها ان السلطان خدع ظاهرا بالهدنة القائمة بينهما وانه (اي السلطان) اصدر « خط شريف » بقتله هو وكل اولاده وان عثمان باشا وزير دمشق بحجة الخروج للدورة السنوية يزحف الآن سرا لقتاله . وهز النبأ كافة الحاضرين .

كان رأي الاكثرية ان يهاجموا عثمان باشا وجها لوجه في معركة فاصلة، ولكن علي بن ظاهر لم يستصوب رأي الاكثرية بحجة ان جيشا كامل العدة والعدد لا يستطيع الوصول الى معسكر الباشا بالسرعة المتوخاة كما انه يعطي الاتراك فرصة للاستعداد ، وكان يرى ان حربا سافرة كهذه تعتبر عملا عدوانيا من جانب ظاهر واخلالا بالهدنة القائمة بينه وبين الدولة العثمانية منذ سنة ١٧٦١ ، وطلب علي ان يوكل اليه منفردا أمر القضاء على هذا العدو الزاحف اليهم مؤكدا انه لا يحتاج الى

---

١٢) ان ما رواه ميخائيل الصباغ عن مقتل سعد مغلوط فيه من اوله الى آخره، ولكنه يعود فيقول : وقد اختلف شيوخ زماننا حول مقتل سعد فالبعض قالوا ما تقدم (اي الرواية المغلوطة التي اعتمدها) والبعض قالوا ان ظاهرا دعا اليه سعدا وحبسه في بير الدم ومنع عنه الطعام حتى مات . ص ٧٢
١٣) فولني ج٢ ص ٩٠ .
* منصور ص ٥١ – ويضيف : ان ولدي ظاهر هما عثمان وعلي ، والحصن هو قلعة دير حنا . والأصح ، برايي ، ان الولدين هما علي وسعيد .

اكثر من خمسماية فارس لهذا الغرض . وبعد نقاش حاد وافق الحاضرون على طلبه،

توجه علي وفرسانه نحو معسكر عثمان باشا ، كانوا يسيرون ليلا ويستترون نهارا ، فلما وصلوا اليه بعد مسيرة ليلتين ، احاطوا به وهاجموه قبيل الفجر بقليل، كان الاتراك وقتئذ نياما والمعسكر خاليا من الحرس . يقول فولني :

ان اسم علي الظاهر قد اوقع الذعر في قلوب الاتراك وفعل في نفوسهم اكثر من فعل السيف فولوا الادبار في فوضى وفزع شديدين وبضمنهم الوزير نفسه .

وشق علي طريقه الى صيوان الوزير الحافل بالسلاح والعتاد وغنم خنجره وسلاحه ونارجيلته وثيابه كما عثر على الخط الشريف الذي اجاز للوزير مهاجمة والـده .

وعلى اثر ذلك التهبت نار العداوة من جديد بين عثمان باشا وظـاهر العمر وكثرت حوادث قطع الطرق والاصطدامات الدموية على طول حدود بلاديهما كان الزيادنة في كل هذه الحوادث منتصرين والاتراك خاسرين(١٤) .

ان هذه الحادثة الفريدة في نوعها تلقي ضوءا على شخصية ظاهر وعلاقاته بأبنائه وطرق معالجته لمشاكله معهم . ففي خلال الستينات وحتى انهيار حكـم الزيادنة في الجليل ، كانت الفتن الداخلية ترافق الحروب الخارجية ، ففي هذه الحالة كـان ظاهر اذا ما فوجىء بشيء من هذا القبيل يسارع الى تهدئة الفتن الاهلية ليتفرغ هو وابناؤه معا لملاقاة العـدو المشترك .

٥) الخلاف على حيفا يحال الى المحكمة عام ١٧٦٦ :

ما فتىء عثمان باشا يطالب السلطان بأن يأذن له بمهاجمة ظاهر ولكن لم يؤذن له ، والسبب في ذلك هو انه كان لظاهر في الاستانة اصدقاء وقـد عمـل هـؤلاء الاصدقاء كثيرا على افشال خطط عثمان باشا في الاستانة وعلى منعه مـن محاربة ظاهر . واما الآن (اي حوالي سنة ١٧٦٥) فقد تغيرت الاحوال وتبدلت الحكـام واصبحت الحرب بين الرجلين وشيكة الوقوع وذلك لانه لم يبق لظاهر اصدقاء في العاصمة التركية ، فيعقوب الارمني صديقه الحميم قُتل والقزلار اغا مات وسليمان اغا السلحدار اتنفى مؤخرا الى قبرص غير انه لم تكن لظاهر معرفة شخصية بسليمان اغا انما كانت معرفته به عن طريق يعقوب الارمني الذي قُتل ، ومع ذلك اراد ظاهر

١٤) فولني ج٢ ص ٩١ .

الاتصال به ومكاتبته لعله يستطيع وهو في منفاه في قبرص مساعدته ومنـع عثمان باشا مـن مهاجمتـه .

في غضون ذلك ارسل ظاهر الى قبرص رسولا ليشتري شعيرا لخيله وذخيرة استعدادا لما يُعد له عثمان باشا من مفاجئات ، وارسل مع الرسول كتابا لطيفـا مع حصان اصيل هدية لابن سليمان اغا الصغير البالغ الثانية عشرة من العمر . اغتبـط سليمان اغا بالهدية المرسلة الى ولده وبعث الى ظاهر يشكر له هذه الهدية ويسألـه في الوقت نفسه اذا كان في حاجة الى شيء ليقضيه له . كتب ظاهر الى سليمان اغـا يقول : « لي اليك حاجة ارجو ان تقضيها لي وهي ان تمنع عثمان باشا من محاربتي وتردعه عن محاولاته الخبيثة لسلخ حيفا وقراها الساحلية عن بلادي التي هي بمقام شريان الحياة لي » . وشرح ظاهر للاغا تهديدات عثمان باشا واستعداداته لمهاجمته وكان الاغا يعرف عن هذا الخلاف بين الرجلين قبل رحيله الى قبرص .

عندئذ ارسل سليمان اغا رسولا الى عثمان باشا وظاهر ليسلم كلا منهما كتابا بشأن النزاع الناشب بينهما . ولما استلم عثمان باشا كتابه ووقف على مضمونه شتم سليمان اغا السلحدار وطرد الرسول . عاد الرسول الى عكا واخبر ظاهرا بما جرى له مع عثمان باشا في دمشق ، فقال له ظاهر عد الى قبرص واعلم سليمان اغـا بمـا شاهدت في دمشق وما شاهدت في عكا ، واعطاه المزيد من الهدايـا لابن الاغـا الصغير(١٥) .

لما أفرج عن سليمان اغا وعاد الى وظيفته كسلحدار (اي كاتم سـر) في دار السلطنة نجح في الحصول على فرمان سلطاني بالتحقيق في اسباب النزاع بـين ظاهر وعثمان باشا ، وتولى تنفيذ هذه الارادة السلطانية قبجي باشي (اي مبعوث السلطان) يسمى مسعود بك .

توجه مسعود بك الى دمشق اولا وكان يحمل فرمانا يأمر عثمان باشا بلزوم الوقوف بالشرع مع ظاهر ، ثم توجه الى عكا وفي جعبته فرمان آخر يأمر ظاهرا امتثال ما كان قد أمر به عثمان باشا في الفرمان الاول ، مع التعليمات بأن يعقـد مجلس

١٥) عبود ص ١١ ، هيد ص ٤٣ ، راجع فصل «٥» باب «٥» ـ يعطي هيد رايا آخر بشأن شخصية سليمان اغا السلحدار ، ويرى انه لم يرسل منفيا الى قبرص بل ارسل سنة ١٧٦٦ لاخماد ثورة هناك . وفي خلال اقامته قام بمسعى الصلح هذا بـين عثمان باشـا وظـاهر .

الشرع في عكا وان يكون لقرار العلماء الحكم المبرم •

قبل عثمان باشا ان يقف بالشرع مع ظاهر ولكنه أبى ترفعا واستكبارا ان تعقد المحاكمة في عكا أو يمضي هو الى عكا لهذا الغرض ، وبعد أخذ ورد أقام عثمان باشا مسعود بك وكيلا عنه وارسله الى عكا بهذه الصفة •

وفي اليوم التالي لوصول مسعود بك الى عكا التأم مجلس الشرع ، وكان يتألف من مسعود بك وكيلا عن عثمان باشا وزير دمشق ومن ظاهر العمر الذي جلس الى جانبه ، ومن قاضي عكا ومفتيها وبعض العلماء ، وكان في جملة من حضر المجلس ايضا ابراهيم الصباغ وزير ظاهر •

كان موضوع البحث المطروح امام المجلس حيفا والطيرة والطنطورة والنزاع بين ظاهر العمر وعثمان باشا بشأنها •

يقول المؤرخ : لما فرغ مسعود بك من كلامه لم يستطع ظاهر ان يجيب على ادعاءاته لانه (اي ظاهر) كان رجل حرب لا المام له بالشرع ، ولكن ابراهيم الصباغ الواقف في ناحية من المجلس هو الذي رد الجواب ، فانتهر مسعود بك ابراهيم الصباغ قائلا كيف تجيز لنفسك ايها النصراني حضور هذا المجلس السلطاني والشرع الشريف ، وترد الجواب على القبجي السلطاني ووكيل وزير الشام اخرج من هذا الديوان في هذه الدقيقة • لم ينطق الصباغ بكلمة واستدار محاولا مغادرة القاعة عندما تقدم ظاهر من وزيره وأمسك بيده وصاح بأعلى صوته : « يا مسعود بك انت وكيل عثمان باشا وانا وكيلي ابراهيم الصباغ هذا فكلما ثبت على وكيلي فهو ثابت علي فاشهدوا بذلك يا علماء مع كامل من هو موجود في هذا الديوان » •

سجل العلماء وكالة ظاهر لوزيره ابراهيم وشرعوا في المحاكمة ومازالوا في ذلك حتى ظهر الحق الى جانب ظاهر ، فتقرر أن استيلاء ظاهر على حيفا وقراها كان حماية لدمه وصيانة لحياته •

مضى مسعود بك بالقرار الى دمشق وسلمه لعثمان باشا ، فاستشاط الوزير غيظا وهمّ بقتل القبجي ولكنه (اي القبجي) فرّ من دمشق وسافر الى الاستانة •

ونتيجة لهذا القرار اصدر الباب العالي فرمانا جديدا يؤيد فيه حق ظاهر على حيفا والطيرة والطنطورة ويحظر على عثمان باشا محاربته ، وهو امر كان له اسوأ الاثر في نفس الوزير(١٦) •

١٦) عبود ص ١٢ — ١٣ ، وهو المرجع الوحيد لهذه المحاكمة • ولكنه لا يحدد لها تاريخا ، ولعلها جرت سنة ١٧٦٦ ، او بعد ذلك بقليل •

كان من نتائج هذه القضية ان ساد البلاد السورية توتر شديد تخلله :

١ — غارات وتعديات متواصلة من جانب عثمان باشا وظاهر على القرى الامامية الواقعة على حدود بلاديهما من الشمال الى الجنوب •

٢ — ثورات سكان يافا والرمله وغزه والخليل سنة ١٧٦٦—١٧٧٠ على عثمان باشا بسبب فداحة الضرائب ووسائل قمعها الوحشية •

٣ — حروب متواصلة بين ظاهر وابنائه من جهة ، وبين الابناء انفسهم من جهة اخرى •

٤ — ارتباط ظاهر بأحلاف عسكرية مع جيرانه المتاولة والشهابيين احتياطا للطوارىء واستعدادا لكافة الاحتمالات •

ومن الاحداث الهامة في هذه الفترة اندلاع نار الحرب بين تركيا وروسيا في اواخر سنة ١٧٦٨ ، ووقوع الاتصال الودي بين ظاهر العمر وعلي بك حاكم مصر والتحالف العسكري بينهما على تحرير البلاد العربية من نير العثمانيين الحاكمين

٦) ظاهر العمر يقيم الاحلاف العسكرية مع جيرانه :

١) المتاولة :

اوضحنا في مستهل هذا الكتاب ان المتاولة اليمنية ، وهم شيعة اثنا عشرية • كانوا اعداء للزيادنة القيسية في اوائل القرن الثامن عشر عندما كانت العصبيات القبلية هي المسيطرة على الحزبيات والموجهة لسياسة البلاد ، ولكن الوعي القومي المتفتح والاتجاه التحرري الذي سار عليه ظاهر العمر في كفاحه ضد الاتراك ادى الى اضعاف هذه النعرة القبلية الضيقة وقيام عصبية اخرى مبنية على الوطنية والقومية •

وبالاضافة الى ذلك كان المتاولة يعيشون في جو مشبع بالكراهية والعداء • كان العثمانيون وولاتهم في صيدا يكرهونهم « لشيعيتهم » ويعدونهم من الروافض ولم يدعوا فرصة الا وحرضوا جيرانهم الشهابيين على محاربتهم من الشمال ومشايخ جبل نابلس من الجنوب ، وقد حارب هؤلاء الجيران اعداءهم المتاولة فعلا سنين طويلة وانزلوا ببلادهم التلف والدمار ، ولكن ذلك لم يفت في عضد المتاولة وواجهوا بمنتهى الشجاعة هذه القوات المعادية المحيطة بهم وتغلبوا عليها في كثير من الاحيان واصبح المتاولة بعد سنة ١٧٥٠ يسيطرون على مساحات واسعة من الاراضي ،

وامتدت « تعدياتهم » على ما رواه فولني(١٧) من بشري شمالا (كـان المتاولة يوجدون بكثرة في نواحي بعلبك وطرابلس) حتى صور جنوبا ، وهو امر اثار سخط امراء لبنان عليهم وجعلهم هدفا لغزوات كثيرة من جانب الشهابيين في السنوات الاخيرة . لذلك انحاز المتاولة اليمنية في اواخر عهد الامير ملحم الشهابي الى جانب ظاهر العمر خصم الشهابيين والعثمانيين الاول في سوريا .

يقول المؤرخون انه في ما بين سنة ١٧٥٠ – ١٧٦٠ طالب وزيرا صيدا ودمشق مشايخ المتاولة بدفع المال الميري المكسور عليهم . وفي نفس الوقت اتهم الوزيران المتاولة بالقيام بسرقات واعتداءات على اناس من رعاياهما واوشك الوزيران ان يغزوا بلاد المتاولة عقابا لهم لولا ما كان من ظاهر الذي تدخل في هذا الخلاف وتوسط بين الوزيرين وبين المتاولة . فكفل ظاهر لوالي صيدا ما لزم المتاولة من مال كما ضمن له هدوءهم وحسن جوارهم . ولكي يبرهن ظاهر على حسن نيته وصدق ما تعهد به للوالي دفع له من ماله الخاص ، جميع المال المكسور على بلاد بشارة ومسقطا عن اصحابها ربع هذا المال المكسور ، وهو امر كان له اطيب الاثر في نفوس المتاولة الذين كانوا اقوياء لدرجة انه كان في مقدورهم ان يمدوا ظاهرا بعشرة آلاف فارس. والحق يقال كان حلف الزيادنة والمتاولة نعمة وبركة على المتاولة . يقـول الامير حيدر : « وفي هذا الزمان كان اكبر مشايخ بني متوال واقواهم في المـال والرجال الشيخ ناصيف النصار وكان تحت يده حصون وقلاع وبلدان وضيـع يركبون فداوية وفرسان وابطال وشجعان وقد راق بهم الزمان وتسلكوا تلك البلدان وهجعت عنهم حكام جبل الدروز واستكنت وراقت ايامهم واطمأنت(١٨) .

من هذا الكلام يتبين لنا الفرق العظيم بين ما هم عليه الآن في سني ٦٠ – ٧٠، وما كانوا عليه في ايام نصار بن علي الصغير والد ناصيف قبل ثلاثين سنة او يزيد . واخلص المتاولة لظاهر وسلموه زمام امرهم ونصروه في حروبه . وفي كتـاب لاحد الفرنسيين سنة ١٧٥٥ يقول فيه ان ظاهر العمر كان يدعو نفسه ابـا ناصيف النصار وحاميه . ولم يكن الفرنسيون يستطيعون التجول في جبل عامل الا بـاذن خطي من ظاهر ، فبهذا الاذن كان الفرنسي يأمن على نفسه من التعـدي في بـلاد المتـاولـة(١٩) .

١٧) فولني ج٢ ص ٧٣ .
١٨) حوادث سنة ١١٨٣ هـ. (١٧٦٩) .
١٩) هيد ص ٤١ .

ب) الشهابيون في لبنان :

استمال ظاهر اليه بعض الامراء الشهابيين ومما ساعـده على ذلك الانقسـام الذي كان يسود صفوفهم وتنافس كبارهم على الامارة .

يقول المؤرخون في سنة ١٧٥٣ دخلت شوكة صبر يد الامير ملحم بن حيـدر الوالي فورمت يده فعالجه الاطباء فعجزوا عن شفائه فنحل جسمه ووهنت همتـه فطمع به مشايخ الجبل واتفقوا مع اخويه احمد ومنصور ،وكانا اخوين لاب مـن امرأتين شقيقتين ، على عزله فعزل بسبب المرض وتسلم مقاليد الامارة بعده سـنة ١٧٥٤ اخواه منصور واحمد مشتركـين .

توفي الامير ملحم في بيروت سنة ١١٧٣ هـ (١٧٥٩ – ٦٠) تاركا ستة ابناء صغار ، يهمنا منهم الامير يوسف الذي كان عند وفاة والده في الحادية عشرة من عمره . وما كاد الاميران احمد ومنصور يتوليان امارة الجبل حتى ظهر لهمـا منافس جديد على ولاية الجبل وهو ابن اخيهما الامير قاسم بن عمر حيدر ، وبذلك انشطر اهل الجبل الى شطرين فريق يؤيد الاميرين احمد ومنصور والآخر يعضد الامـير قاسم عمر ولم يطل الزمن حتى وقعت الحرب بين هذين الحزبين فانتصر الامـير قاسم على عميه واستولى على بيروت بمؤازرة وزير صيدا والدولة العثمانية ، ومع ذلك اي رغم هذا الانتصار الذي ظفر به الامير قاسم عمر فانه لم يحظ بولاية الجبل وذلك لوقوع الصلح بينه وبين عميه وتنازله عن حقه بالولاية لهما . وهكذا استمر الاميران احمد ومنصور يديران مقاليد الامارة مشتركين .

ومما يجدر ذكره ان الامير منصور احتضن ابن اخيه الامير قاسم عمر وزوجه ابنته سنة ١٧٦٢ فولد لقاسم منها ولدان هما حسن وبشير وهو الامير بشير الثاني الملقب بالكبير . وكـانت ولادتـه سنة ١٧٦٧ .

على ان الامور لم تستقر في لبنان باعتزال الامير قاسم الحكم في الجبل لان نزاعا شديدا على الولاية لم يلبث ان نشب بين الاخوين احمد ومنصور ، فتوجـه الامير احمد الى دير القمر عازما على الانفراد بالولاية وتوجه الامير منصـور الى بيروت عازما على ما عزم عليه اخوه . وبقي الحال على ذلك حتى تدخل بالنزاع سنة ١٧٦٣ محمد باشا العظم وزير صيدا لصالح الامير منصور وامده بعسكر من عنده

استطاع الامير بمساندته ان يتغلب على اخيه الامير احمد ويستولي على دير القمر ويستقل بالولاية على لبنان بعد حكم ثنائي دام تسع سنوات .

ولم يطل الزمن حتى انعقد الصلح بين الاخوين على ان يتسلم الامير منصور ولاية الجبل ويبقى الامير احمد مقيما في دير القمر كغيره من الشهابيين دون تعرض للولاية . وتوفي الامير احمد في دير القمر سنة ١٧٧٠ عن ولد واحد هو الاميرحيدر المؤرخ المشهـور .

لم ينعم الامير منصور بالاستقرار لظهور منافس آخر له سنة ١٧٦٤ وهو الامير يوسف بن ملحم الوالي الذي اصبح الان في السادسة عشرة من عمره . كان الامير يوسف متحزبا مع عمه الامير احمد ضد عمه الآخر الامير منصور وكان يعتبر نفسه احق بالولاية على الجبل من عمه الامير منصور لكونه ابن الامير ملحم الوالي في سنة ١٧٦٤ قامت في الجبل حركة لتنصيب الامير يوسف واليا على لبنان وكان باعث هذه الحركة الشيخ علي جنبلاط والفئة الجنبلاطية . مضى الامير يوسف الى دمشق صحبة مدبر اموره سعد الخوري المعروف بميوله العثمانية ليستعين بعثمان باشا على عمه الامير منصور ويفوز بولاية الجبل بمبادرته . ولما كان ذلك غير مستطاع في حينه عرض عثمان باشا على الامير يوسف ولاية اقليم جبيل والبترون في لبنان الشمالي وارسله الى ولده محمد باشا الذي اسندت اليه مؤخرا ولاية طرابلس ، ليقره واليا على تلك الديـار .

وهكذااستقر الامير يوسف فياقليمي جبيل والبترون،واستظهرعلىاحزابها،غيرانه ظل يزاحم عمه الامير منصورا على الولاية وكان دائم التطلع الى اليوم الذي سيخلفه فيه على لبنان مستندا في ذلك على عثمان باشا وبعض الاحزاب اللبنانية القوية .

على ان لجوء الامير يوسف الى دمشق وتعيينه واليا على جبيل والبترون سنة ١٧٦٤ بمساعدة عثمان باشا اثار مخاوف الامير منصور امير لبنان ، ومما زاد الامير منصور قلقا وتخوفا من المستقبل عزل صديقه محمد باشا العظم عن صيدا في نفس السنة وانتشار اشاعة مفادها قدوم محمد باشا ابن عثمان باشاليكون والياعليها(٢٠)

---

٢٠) حيدر في حوادث سنة ١١٧٨ هـ . (١٧٥٤ ـ ٥٥) ـ ومما يجدر ذكره ان التنافس على الفوز بولاية صيدا كان شديدا بين محمد باشا العظم وبين عثمان باشا الذي كان يريد هذه الولاية لابنه محمد ، وهذا ما يوضح لنا السبب ، بالاضافة الى اسباب اخرى ، في انحياز محمد باشا الى الامير منصور .

ومن هنا كان الانقسام في صفوف مشايخ الجبل فمال الامير منصور الى ظاهر العمر نكاية بعثمان باشا ، وارتمى الامير يوسف في احضان عثمان باشا والاتراك ، وكان لكل منهما اتباعه وانصاره في لبنان وخارج لبنان . وظل التنافس بين الاميرين على الولاية في ازدياد حتى ظفر بها في صيف ١٧٧١ ، عقب حملة محمد بك ابي الـذهب على دمشق ، الامير يوسف بمساعي عثمان باشا والدولة العثمانية . ومنذ ذلك الحين تولى الامير يوسف امارة جبل لبنان واستقر في دير القمر منقولا اليها من جبيـل واستوطن الامير منصور مدينة بـيروت .

هذا عرض للعوامل الداخلية والخارجية بما في ذلك المطامع الشخصية التي وجهت سياسة الجبل بين سنة ١٧٥٤ وسنة ١٧٧١ واشاعت الانقسام في صفـوف زعمائه في غمرة هذا الاصطراع العنيف الناشب بين ظاهر العمر والدولة العثمانية.

ج) الشهابيون في وادي التيم :

استمال ظاهر اليه ايضا اسماعيل بن نجم الشهابي حاكم حاصبيا وخال الامير يوسف. في سنة ١٧٦٤ـ٦٥ هاجم عثمان باشا الامير اسماعيل وحاصره فيقلعةبانياس فتضايق الامير واستنجد بصهره الامير منصور الشهابي امير لبنان . فأسرع الامير منصور الى نجدته ولكنه (اي الامير اسماعيل) كان قد اكره على القاء السلاح والاستسلام للوزير المهاجم قبل ان يصل اليه المدد من لبنان . ان هذه الغزوةلبانياس ايقظت مخاوف الامير اسماعيل ودفعته الى الارتماء في احضان ظاهر العمر والمتاولة فارتبط بهم بحلف وربط مصيره بمصيرهم . وبطبيعة الحال انضم الامير منصـور الى هذا الحلف ، لا لانه كان حليفا لظاهر فقط بل لانه كان زوجا لاخت الامـير اسماعيل ، والجدير بالذكر ان اخت الامير اسماعيل الثانية كانت زوج الامير ملحم الوالي وام الامير يوسف .

يتضح لنا مما تقدم ان البلاد التي كانت تابعة لظاهر بما فيه البلاد التي شملتها هذه الاحلاف كانت تمتد من الطنطورة ومرج ابن عامر جنوبا حتى جبـل عامـل ومنابع الاردن شمالا . وكان لظاهر من الموانىء حيفا وعكا بينما كانت صور للمتاولة وصيدا للاتراك وبيروت للشهابيين . اما يافا في اقصى الجنوب فكانت تابعة لمشايخ جبل نابلس الذين عرفوا بميولهم العثمانية .

٧) الاتجاهات السياسية في القرن الثامن عشر :

اشتهر القرن الثامن عشر بظهور ثلاث اسر لعبت دورا هاما في حياة البلاد السورية وهي : آل العظم في الشام وآل شهاب في لبنان وآل زيدان او الزيادنة في الجليل . ومما يجدر قوله ان تاريخ هذه الاسر الثلاث مرتبط بعضه ببعض ، كانت العلاقات بينها تارة حسنة وتارة متأزمة وذلك حسب الاوضاع الداخلية في بلادها وسياسة اولي الامر في الاستانة . كذلك ان تاريخ البلاد العربية في هذا الدور كما في جميع ادوار العهد العثماني متصل بعضه ببعض ومتشابك بحيث لا يستطيع الباحث ان يلم بتاريخ بلد عربي دون الرجوع الى البلد الآخر وبعبارة اخرى ان ما اصاب دمشق هز بيروت وعكا والقاهرة وما وقع في القاهرة كان له اصداء قوية في في القدس وعكا ودمشق ، وكذلك كان الحال بين جميع الاقطار العربية الاخرى . ولا غرو فانها بلاد عربية واحدة تحكمها سلطة واحدة ويجمع بين اهليها تاريخ واحد ولسان واحد وكفاح واحد وآمال واحدة .

اما الدور الذي لعبته كل من هذه الاسر في هذه الحقبة من الزمن فيختلف : فآل العظم كانوا ، كما سبق ذكره ، عمالا للاتراك يرعون مصالحهم ويجبون اموالهم ويوطدون دعائم حكمهم في الشرق العربي ، وكان الشهابيـون اصحـاب اقطـاع يديرون شؤون الجبل من دير القمر في جبل الشوف باشراف وزراء الدولة العثمانية في دمشق وصيـدا وطرابلس .

والحق يقال ان تاريخ الشهابيين في هذا الدور وما بعده لم يكن الا سلسلة من الفتن الاهلية والمنازعات الحزبية الناشئة عن تنافس كبارهم على الامارة . كان التنافس بينهم على مراضاة ولاة الدولة واكتساب ودهم اشد ايلاما على النفس من التنافس المحموم على امارة الجبل ، وللشهابيين في هذا الميدان مآس اليمة . كـان الامير منهم ، على ما جاء في كتب التاريخ الحافلة بالكثير من امثلة التذلـل على ابواب الولاة ، لا يتورع عن تمريغ جبينه على اعتاب وزير الدولة في صيدا واغراقه بالرشى والعطايا ليخلع الوزير عليه خلعة الرضا ويسنده في حكم الجبل او ينصره ضد اخ منافس له او ابن اخ او ابن عم والسعيد منهم هو الذي كان يفوز برضا الوزير وينال الحظوة عنده فسرعان ما تزف الامارة اليه في عز عظيم ويمضي الى دير

القمر ظافرا منصورا . كانت الكرامة في هذا العهد ثمنا لكرسي الامارة على جبـل لبنـان(٢١) .

واما في ما يتعلق بالزيادنة في الجنوب فالامر يختلف . لقد انتهج ظاهر العمر نهجا تقدميا مغايرا لما سلكه معاصروه متحديا في ذلك اكبر دولة في العالم آنـذاك ومعرضا حياته لاعظم الاخطار . وبعبارة اخرى كان ظاهر العمر رائـدا لحركـة تحررية وضع اسسها والهب نارها في كل مكان وطئته قدماه في سبيل هـدف قومي كان يسعى دائما اليه الا وهو سلخ البلاد السورية عن السلطنة العثمانية الواحـد بعد الآخر والسير بها نحو الحرية والاستقلال ، فما اعظمه من هدف وما اعظم الفرق بين ما سعى اليه هذا الشيخ وما كان يسعى اليه معاصروه ممن تقدم الكلام عليهم .

٨) توازن القوى بـين الجبهتين المتحاربتـين :

على ان الصراع بين ظاهر والعثمانيين من اجل التحرر قد اتسع مـــداه حتى شمل سنة ١٧٧٠ وما بعدها مصر وبلاد فلسطين ، ثم لم يلبث ان شطر البلاد العربية الى شطرين او حزبين سياسيين متنازعين : ففي الشرق والشمال كان حزب الباشوات وعلى رأسه عثمان باشا واتباعه وزراء الدولة في صيدا وطرابلس وحلب والقدس . وفي الجنوب كان الحزب الوطني وزعيمه ظاهر العمر في عكا وكان اتباعه مشايـخ المتاولة وعرب الجليل وبعض عشائر البدو ، وناصره بعد سنة ١٧٦٩ علي بك الكبير بساليكه ، والى جانبه وقفت ايضا روسيا وساندته بجنودها واسطولها في البحـر الابيض المتوسـط .

اما المشايخ اصحاب النفوذ في نابلس ويافا والرملة وغزة والساحل الفلسطيني فقد كانوا منقسمين الى قسمين فريق منهم كان مشايعا للاتراك وعلى رأسه حكـام من آل طوقان وآل النمر من مدينة نابلس والآخر كان مواليا لظاهر العمر كما يظهر ذلك من تعاقب الحروب التي وقعت في هذه النواحي عقب سنة ١٧٧٠ والتي اوجبت قدوم ظاهر اليها واخضاعها المرة بعد المرة وتأديب الموالين للاتراك فيها .

كذلك كان حال لبنان الحصين بجباله والمنقسم على نفسه : كان الجبل احيانا

(٢١) يرجع المؤرخون نسب الشهابيين الى رجل من اشراف العرب من آل مخزوم من قريش يلقب بشهاب اقره عمر بن الخطـاب اميرا في حـوران ، ثـم رحل بعض افراد اسرته في عهد الايوبيين الى حاصبيا في وادي التيم ،واستقروا فيها وصاهروا المعنيين . والامير حيدر هو جد الامراء الشهابيين الحاليين .

يقف على الحياد او مواليا لظاهر العمر كما في عهد الامير منصور من سنة ١٧٥٤ – ١٧٧١ • واحيانا اخرى كان الجبل يقف الى جانب الاتراك في نزاعهم مع ظاهر العمر كما في عهد الامير يوسف ملحم من صيف سنة ١٧٧١ حتى ربيع سنة ١٧٧٣، ومنذ ذلك الحين اي منذ ربيع سنة ١٧٧٣ وقف جميع الشهابيين وبضمنهم الامير يوسف نفسه الى جانب ظاهر العمر في نزاعه مع الدولة العثمانية بمقتضى المحالفة التي عقدت بين الطرفين على جسر نهر الاولي شمالي صيدا كما سيجيء شرحه بالتفصيل،

كان لجبل لبنان قوة مرجحة في نزاعات ذلك الزمن نظرا لمناعته الطبيعية بين مراكز القوى في دمشق وعكـا • لذلك حرص العثمانيون على ان يكون لهم يد في تعيين امير الجبل او انتخابه ليضمنوا نجاح الامير الذي يختارونه ، وولاءه الدائم لهـم

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى تميز موقف الشهابيين من النزاع العربي التركي بالضعف سواء في عهد الامير منصور صديق ظاهر او عهد الامير يوسف ، فقدغلب على امرائهم المنقسمين على انفسهم الخوف من الاتراك والتردد في اتباع سياسة واضحة جريئة ازاء هذين الفريقين المتحاربين• ويتحدث فولني عن سياسة حكام الجبل في هذا العهد فينعت الامير يوسف بالضعف والتردد ، ويصف الامير منصور بأنـه كان مع الاتراك في الظاهر ومع ظاهر العمر في الباطن •

والجدير بالذكر ان هذا الانقسام الذي ابتلي به جبل لبنان هو الذي مكـن ظاهر العمر من ان يحرز الانتصارات العظيمة على الامير يوسف سنة ١٧٧١ ومـا بعدها لان مشايخ الجبل كانت تناصر بالسر الامير منصور وحليفه ظاهرا ، ولـذلك فانها لم تكن تحارب حربا جـدية •

هذا من جهة الانقسام السياسي في تلك الايام واما من جهة الانقســام المحلي بين الحزب الجنبلاطي وزعيمه الشيخ علي جنبلاط والحزب اليزبكي وزعيمه الشيخ عبد السلام العماد ، فلم يلعب دوره الهام بعد في هذا الوقت غير ان الامير منصور كان يميل الى الحزب الجنبلاطي ، واخاه الامير احمد كان يعتمد على الحزب اليزبكي وقد التمس الامير احمد مساعدة هذا الحزب له على اخيه الامير منصور ولكنه لـم يحظ منه بأية مساعدة لان الاتجاه العام في لبنان في سني ١٧٦٠ – ١٧٧٠ كان يسير لصالح الامير منصور ، حليف ظاهر العمر ، ومحمد باشا العظم والي صيدا •

أما الانقسام القديم المعروف بالقيسي اليمني فقد تلاشى تماما في هذه الحقبة من الزمن وذلك بفضل جهود ظاهر الرشيدة • فمن مآثر ظاهر العمر انه قضى عـلى النزاع القيسي اليمني القائم على العصبيات القبلية وحوله الى كفـاح عربي قومي ضد الاتراك • هذه ناحية تقدمية هامة في حياة البلاد السياسية والاجتماعية اغفـل المؤرخون ابرازها او تقديرها حـق قدرهـا •

٩) طمـوح ظـاهر العمر :

في سنة ١٧٦٨ او سنة ١٧٦٩ بدأ طموح ظاهر يظهر للعيان بشكل ملموس ولعل السبب في ذلك يرجع الى ظهور بوادر التحالف العسكري مع علي بك حاكم مصر ، او الى تورط الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا • في خلال ذلك اتضح للدولـة اكثر من اي وقت مضى ما كان يسعى اليه ظاهر من تفرد بالحكم واستقلال في البلاد، فزاد ذلك من مخاوفهـا واثار حفيظتهـا •

كان ظاهر حتى الآن يحكم البلاد بصفته ملتزما اي ضامنا للاراضي الواقعـة تحت نفوذه مقابل مبلغ سنوي معلوم يدفع لوزيري دمشق او صيدا • وكان لقبـه الرسمي كما تبين من بعض تواقيعه « ضاهر عمر ضابط عكا وبلادها » ولكن كرامته أبت عليه ان يبقى حاكما للابد بهذه الصفة ، اي ان يكون تابعا للسلطان ويستمـد سلطته من وزراء الدولة في صيدا ودمشق بل رأى في نفسه ، وهو صاحب الحق ، من القوة والكفاءة ما يجعله يطالب بحقوق وامتيازات اكثر مما كان لديه تضمن له ولاولاده من بعده الحكم الدائم والسلطة المتوارثة • يقول المؤرخون : ان ظـاهرا في هذا الوقت رأى ان يوطد حكمه حتى يكون لاولاده حق وراثة الحكـم مـن بعده ، لذلك كتب الى السلطان طالبا ان يكون لقبه الجديد « شيخ عكا امير الامراء حاكم الناصرة وطبريا وصفد وشيخ الجليـل » •

واخيرا رضخت الدولة لظاهر ومنحته اللقب الجديد اما خوفا منه او طمعا في الاموال الكثيرة التي اغدقها عليها ، ولكنها ظلت على موقفها الحذر منه تـداوره وتراوغـه وتتربص بـه الـدوائر

وفي رواية للمؤرخ التركي انور افندي ان اللقب الذي استطاع ظـاهر ان يحصل عليه بعد مفاوضات طويلة كان « دركاه عالي قبوجي باشيلرندن ظاهر عمر » وهو على الغالب لقب شرف كان قد حصل عليه بحسب رأي المؤرخ قبل سنة ١٧٧٢

يدل اللقب الجديد على أن ظاهرا لم يعد ملتزما عاديا تابعا لـدمشق او صيدا بل اصبح تابعا رأسا للسلطان(٢٢) •

وبودي ان اشير بهذه المناسبة الى اللقب الذي اطلقه على ظاهر بعض معاصريه منهم المؤرخ محمد خليل المرادي الدمشقي اذ سماه « بالظاهر الصفدي الزيداني حاكم مدينة عكا وشيخ شيوخ البلاد الصفدية صاحب المواقع الشهيرة والخارج عن طاعة الدولة العثمانية ••• » • وكان ظاهر يخاطب من قبل اصحاب المصالح بـ « حضرة ولي النعم الشيخ ظاهر العمر دام بقاه » • وايضا « سعادة افندينا ظاهر العمر الفايق الشرف » •وغير ذلك •

١٠) بلاد فلسطين تستنجد بعلي بك حاكم مصر :

ان حالة الاضطراب التي سادت البلاد السورية عقب سنة ١٧٦٦والاشتباكات الفردية بين ظاهر ووزير دمشق على طول حدود بلاديهما قد انضبت خزينة عثمان باشا واستنزفت موارده ،فعمد الوزير الى زيادة الضرائب في البلاد التابعة له مستخدما في سبيل جبايتها ضروبا من التعذيب والتنكيل بأهل البلاد كالقتل احيانا والجلد احيانا اخرى حتى ادى ذلك بالاهلين الى التمرد على عثمان باشا ومقاتلته ، ففي سنة ١٧٦٦ ركب الوزير على مدينة الرملة التي كانت محاصرة من عساكره ففتحها ونهبها ثم نهب مدينة غزة والخليل ، وفي سنة ١٧٦٧ ثارت غزة والرملة مرة اخرى فأخمد الوزير ثورتها بشدة متناهية ، وفي سنة ١٧٦٩ تمردت مدينة يافا فقمع الوزير تمردها بشدة لا مثيل لها • فهجر الجنوب سكانه والتجؤا الى ظاهر العمر في عكا(٢٣) •

ولم يسلم فرنسيو يافا من التعذيب من ذلك ان عثمان باشا امر بجلد تاجر مسن من البندقية خمسمائة جلدة ولم ينقذه من الموت سوى دفع المال • وفي سنة ١٧٧٠ تعرض فرنسيو الرملة الى العذاب ولم ينقذهم من الموت سوى دفع فدية كبيرة(٢٤) • وفي سنة ١٧٧٠ اقترف عثمان باشا في غزة من الجرائم ما تقشعر له

٢٢) فولني ج٢ ص ٨٦ ، هيد ص ٤٤ .
٢٣) بريك في حوادث سنة ١٧٦٦ .
٢٤) هيد ص ٤٣ .

الابدان • قيل انه دفن علماء المدينة احياء مما الجأ اهل البلاد الى الشكاية عليه الى علي بك الثائر على الدولة العثمانية(٢٥) •

كان علي بك سنة ١٧٦٩ في أوج قوته وكان يسعى منذ زمن لغزو البلاد السورية بغية تحريرها من العثمانيين ، ولكن هل كان في مقدوره ان يفعل ذلك دون ان يكون له فيها حليف يسنده في غزوته ويشاركه طموحه واهدافه ؟ ومن جهة اخرى عرف ظاهر انه لا يستطيع الصمود طويلا امام عثمان باشا لان امكانياته العسكرية وموارده كانت اقل مما كان لدى الدولة العثمانية • لذلك كان لزاما على ظاهر ان ينشد نفس الحليف في مصر او في اي بلد آخر ليشد ازره في حربه ضد عثمان باشا والاتراك • ومن هنا التقى ظاهر وعلي بك فتحالفا وتكاتفا، وهل في ذلك من حرج ؟ وماذا يمنع من ان يدخل الرجلان في حلف عسكري لتحرير البلاد العربية من نير العثمانيين الغاصبين ؟ فسوريا ومصر شقيقتان طالما جمعتهما دائرة حكم واحد فضلا عما بينهما من روابط المصلحة والاماني والجنس واللغة والتاريخ منذ اقدم العصور ، واهم من هذا كله ان البلدين كل منهما متمم للآخر وما يصيب الواحد يؤثر في الآخر والاخطار التي تهدد احدهما تهدد الآخر والعدو الذي يحتل احدهما يسهل عليه احتلال الآخر • ان تجارب التاريخ علمتنا انه لا يمكن الدفاع عن ناحية دون الاخرى ، فسلامة سوريا مرتبطة بسلامة مصر وسلامة مصر مرتبطة بسلامة سوريا وكانت كل منهما الباب الذي يطرقه الغزاة ويكتسحون منه ما خلفه من البلاد : فسوريا كانت منذ عهد الاسكندر الباب الذي منه تنحدر جحافل الفاتحين نحو الجنوب كما كانت مصر منذ الغزوات الصليبية حتى هذا اليوم الباب الآخر الذي يمهد للفاتح احتلال الشرق العربي ويثبت اقدامه فيه ، وقد شبه احد الكتاب مصر وسوريا بالنسبة الى ما ورائهما من البلدان الشرقية « بشقتي باب واحد فكل من هذين القطرين متمم للآخر والجمع بينهما فيه الخير كل الخير لهما »(٢٦) •

ولم يخف على الدولة العثمانية ما كان يجري في الخفاء بين ظاهر وعلي بك ، فعزمت على احباطه : ففي ايلول سنة ١٧٧٠ اسندت الى درويش باشا ابن عثمان باشا الولاية على صيدا(٢٧) ، وفي هذا الخصوص كتب الى ظاهر بعض عيونه في

٢٥) المرادي ج١ ص ٥٤ ، بيان علي بك .
٢٦) ابو عز الدين ص ٣٢ .
٢٧) عبد الكريم رافق ص ٣٧١ .

الاستانة يقول : « ان الدولة ارسلت الى عثمان باشا تحثه على قتالك وانها مساعدة منها لوزيرها وحسب طلبه فوضت ايالة صيدا الى ولده درويش باشا ، كما ارسلت الى والي حلب والامير يوسف حاكم جبيل ليكونا عونا لهما على قتالك وقطع رأسك ورؤوس اولادك جميعا »(٢٨) .

وبالاضافة الى ذلك وسعت الدولة ايالة دمشق فأضافت اليها القدس ويافا واللد والرملة وغزة وهي البلاد التي كانت قد سلخت عن ايالة دمشق في اواخر عهد اسعد باشا العظم والحقت بغزة تحت ادارة حسين ابن مكي . لقد فعلت الدولة كل ذلك تقوية لجبهة عثمان باشا من الجنوب واحكام الطوق حول ظاهر . ولما حصل عثمان باشا على ما اراد بعث الى ظاهر في خريف سنة ١٧٧٠ مهددا ويقـول : « ان الدولة اسندت الى ولدنا درويش باشا الولاية على صيدا فعند ذهابنا اليهـا وذلك بعد ان نفرغ من الدورة الحالية في جبل نابلس ، سنمر بعكا وننصب خيامنا علـى تل الفخار الكائن في مدخل عكا »(٢٩) .

ولما وصل هذا التهديد الى ظاهر ارسل الى علي بك يستنجد به . ولبى علي بك طلب ظاهر وامده في تشرين الثاني سنة ١٧٧٠ بفرقة من الرجال وآلات الحرب بقيـادة اسماعيـل بك وغـيره .

يعطي فولني ثلاثة اسباب لارسال علي بك جيوشه الى بلاد الشام وهي :

١ ــ تحالفـه مع ظاهر العمر الثائر مثله علـى العثمانيين .

٢ ــ الحرب الروسية التركية التي اشغلت معظم الجيوش التركية في الشمال.

٣ ــ الظلم وثورة الشعب العربي على الاتراك ووزيرهم في دمشق عثمـان باشـا الـكرجي (٣٠) .

واهم من هذا كله طموح علي بك الى الانسلاخ عن السلطنـة العثمانيـة والاستقلال بالبلاد العربية واحياء دولة المماليك .

هذه هي الاسباب الحقيقية التي حملت علي بك على ارسال جيوشـه الى بر الشام ، وقد اصدر في اواخر سنة ١٧٧٠ بيانا يشرح فيه غرضه وسياسته ويؤكـد فيه : « ان الله قد زوده بالقوة والبركة واصطفاه من دون الناس لرفع الظلم عـن

٢٨) ميخـائيـل ٩٩ .
٢٩) عبـود ص ١٤ .
٣٠) فولني ج٢ ص ٩٣ .

المظلومين وتحرير البلاد العربية من ظلم عثمان باشا وزير العثمانيين الغاصبين(٣١).

ومما يجدر ذكره في هذا المجال ان تحالف علي بك وظاهر العمر لهو مظهـر قوي من مظاهر التضامن العربي في القرن الثامن عشر وحدث هام في تاريـخ العرب الحـديث .

* * *

٣١) صـورة عن البيـان في بـاب المـلاحق .

الفصل العاشر

الشيخ ظاهر العمر وعلي بك الكبير

* * *

١) البلاد المصرية في القرن الثامن عشر :

دخلت مصر في حوزة سلاطين ال عثمان سنة ١٥١٧ على يد السلطان سليم الاول ، ومنذ ذلك الحين اصبحت مصر ولاية عثمانية يدير شؤونها وال يمثل السلطان في البلاد . وكان يسند الوالي في عمله فرق من الدالاتية والانكشارية ذوي النزعات المتباينة والاهداف المتضاربة . وانشأ الوالي مجلسا مؤلفا من ضباط هذه الفرق وفوض اليه ادارة اعمال الحكومة وخوله سلطة ايقاف تنفيذ قرارات الوالي واستئنافها الى الاستانة .

قسم الوالي البلاد المصرية الى اربعة وعشرين سنجقا (اي مقاطعة) ووضع على رأس كل سنجق منها احد بكوات المماليك وكان هؤلاء البكوات يؤلفون في مجموعهم مجلسا قويا ينازع الوالي في سلطانه ويزاحمه على السلطة مما ادى الى تصادم في المصالح وبالتالي الىحروب اهلية شديدة بين الوالي العثماني والمماليك.

كان المماليك وهم ينحدرون من شعوب مختلفة يرون ان التسلط على البلاد هو من حقهم لانهم توارثوه عن اسلافهم دولة المماليك التي تقدمت العهد العثماني. ومع ان الشعب العربي في مصر كان يعتبر المماليك غرباء عن البلاد فهناك حقيقة واحدة لا يمكن انكارها وهي ان مصر كانت بالفعل وطن المماليك الدائم وقد تسلسل بعضهم من اسلاف تولوا مصر منذ اجيال . اما الذي كان ينازعهم السلطة فهو الوالي العثماني الذي كان غريبا عن البلاد دخيلا عليها ، لذلك فالوطنيون المصريون والمماليك منهم هم احق بالحكم من العثماني الغريب المغتصب .

ومع الزمن طغى نفوذ المماليك على الوالي العثماني وجنوده الانكشارية المرتزقة وصار لزعيمهم الذي عرف باسم « شيخ البلد » الكلمة العليا في تسيير دفة

امور البلاد فيعزل الوالي ويقيم على حبسه في القلعة ، ثم ذهب بالمماليك الامر الى الطمع في الانفراد في السلطة وطرد العثمانيين من مصر ، ولولا ما كان من تفرق كلمتهم وتعدد احزابهم وتنازع كبارهم على السلطة لنجحوا فيذلك قبل زمن بعيد . لهذا كله كانت مصر في حالة فوضى واضطراب لا نهاية لهما : فالحروب في شوارع القاهرة لم تكن لتنقطع بين الولاة العثمانيين وبين جنودهم بسبب تأخر دفع المرتبات او بينهم وبين بكوات المماليك من اجل السلطة ، زد على ذلك حروب اهلية ضارية لا اول لها ولا اخر بين احزاب المماليك المتنافسة والمتنازعة .

هذا ما كان عليه الحال في مصر في اواسط القرن الثامن عشر حين نشأ وترعرع علي بك الجركسي الملقب بالكبير .

٢) علي بك الكبير (١٧٦٠ – ١٧٧٣) :

كان علي بك مملوكا جركسي الاصل من بلاد القفقاس اسمه الاصلي يوسف بن داود ان تاريخ ولادته بالضبط غير معروف وان كان بعض المؤرخين يجعله سنة ١٧٢٨ . كان شأنه في اول عهده شأن الكثير من فتيان القفقاس والبلاد الاوروبية الذين كانوا يباعون بالمال الى الراغبين في الشراء .

كانت مصر في ذلك العهد سوقا رائجة للرقيق يباع فيها العبيد والجواري والاماء ويشترون ، كانت هذه الاجسام البشرية تعرض في اسواق القاهرة كما تعرض السلع وتقلب كما تقلب الفاكهة بينهن السمراوات والشقراوات والرشيقات المشوقات والبدينات الرعبوبات . والجدير بالذكر ان اكثر حكام مصر من المماليك خبروا هذه التجارة ومروا بأسواقها بل وعُرضوا للبيع والشراء في ساحاتها مثل محمد بك ابي الذهب واحمد الجزار ومراد بك وغيرهم من كبار المماليك .

كان بكوات المماليك يكثرون من الفتيان في قصورهم ويعتنون بهم ويغدقون عليهم الاموال الطائلة ليكونوا لهم عونا في الشدة وبلغ من عنايتهم باتباعهم وارقائهم انهم كانوا يتخذون منهم ابناء او من هم في مكانة الابناء وكانوا يدعونهم ابناءهم وهم ليسوا بالابناء ، من ذلك ابناء علي بك الكثيرون كمراد بك ومحمد بك ابي الذهب مثلا ، فكان علي بك يدعو نفسه والدهما وما هو بوالدهما وانما هو ولي امرهما وسيدهما او استاذهما .

يقول المؤرخون انه في سنة ١٧٤١ او حول هذا التاريخ وقع علي بك في ايدي عصابة من اللصوص ثم بيع بعدها لشخص يسمى احمد ، فاتى به بعض التجار الى القاهرة ، وما زال ينتقل من يد الى يد حتى دخل في خدمة ابراهيم بك شيخ البلد . فاعتنق الاسلام وتسمى باسم علي بك .

حين بلغ علي بك الثامنة عشرة من عمره اعتقه سيده ابراهيم بك وزوجه ووهبه المال الكثير . وقد اتيحت لهذا المملوك فرصة الحج الى مكة مع سيده ابراهيم بك سنة ١٧٥٠ فاظهر من ضروب الشجاعة في القتال ضد البدو ما حببه الى سيده فرقاه الى درجة كاشف في الجند ، اي حاكم مقاطعة ، او سنجق ، ثم اصبح عضوا في مجلس السناجق الاربعة والعشرين وهو الهيئة الحاكمة في مصر ويعتبر المؤرخون فترة نفوذه الفعلية في مصر ، سنة ١٧٦٠ حتى سنة ١٧٧٣ .

ان هذا النجاح الذي احرزه علي بك ايقظ فيه حب التسلط والطموح ، فبعد مقتل ابراهيم بك سنة ١٧٥٤ عمل على الانتقام لسيده ، فاشترك في كل محاولة او مؤامرة لترقية مملوك او عزله او قتله ، كما كان القوة المحركة في المؤامرة التي افضت الى قتل رضوان بك الذي خلف ابراهيم بك في منصبه . وفي سنة ١٧٦٤ تولى علي بك مشيخة البلد وامارة الحج .

قام علي بك بمغامرات كثيرة واصيب بنكسات عديدة وانكسر في حروبه الداخلية اكثر من مرة ، واستمر الحال على ذلك حتى آذار سنة ١٧٦٦ عندما غلب على امره وهرب من وجه منافسيه الى غزة بفلسطين التي كانت ، كبلاد الصعيد في مصر العليا ، ملجأ لبكوات المماليك المكسورين والهاربين من القاهرة ، ولكن عثمان باشا الكرجي امر متسلم غزة بطرد علي بك من مدينته فطرد وعاد الى مصر حيث جعل يحشد العساكر ويتهيأ للحرب ، ثم زحف على رأس جيش من انصاره الى القاهرة واستولى عليها ، ففر خصومه الى دمشق ملتجئين الى وزيرها عثمان باشا الذي اغاثهم واكرمهم . وفي سنة ١٧٦٧ استتب الامر لعلي بك في مصر . من هذه الحادثة نستنتج ان العلاقة بين عثمان باشا وعلي بك كانت سيئة للغاية .

كان علي بك يطمح الى اكثر من ذلك ، لقد كان يطمح الى الانسلاخ عن السلطنة العثمانية كما كان يسعى ليكون سلطان مصر ويعيد اليها سيادة اسلافه المماليك . ان اول خطوة خطاها في هذا السبيل انه عزل جميع مستخدمي الدولة

الكبار واستبدلهم بغيرهم ممن يطمئن اليهم وكانوا على رأيه ومبادئه .

عندما اعلنت الحرب بين تركيا وروسيا في خريف سنة ١٧٦٨ امرت الدولة علي بك بحشد اثني عشر الف مقاتل ليقاتلوا الروس الى جانبها ففعل علي بك كما امر الا ان اعداءه في مصر بعثوا الى الاستانة بوشاية مفادها ان علي بك يحشد هذه الفرق للانتفاض على الدولة لا لمساعدتها في حربها فبعثت الدولة الى واليها في القاهرة بفرمان تأمره فيه بقتل علي بك . وما كاد خبر ذلك يصل الى علي بك من عيونه في الاستانة حتى اخذ يترصد لحامل الفرمان القادم الى القاهرة فقبض عليه واستولى على اوراقه وبضمنها الفرمان ، اتخذ علي بك من هذا الحادث ذريعة لقطع صلاته بالدولة ، فطرد الوالي العثماني من القاهرة وسك عملة جديدة باسمه واصبح منذ اواخر سنة ١٧٦٩ الحاكم الفعلي لمصر .

في ربيع سنة ١٧٧٠ هاجم علي بك البلاد الحجازية برا وبحرا فاستولى على جدة ومكة وسواحل البحر الاحمر فدانت له هذه البلاد ولقب بسلطان مصر وخاقان البحرين وخطب باسمه في المساجد .

كان غرض علي بك من غزو الجزيرة العربية تحريرها من العثمانيين وتحويل طريق الهند من رأس الرجاء الصالح الى البحر الابيض المتوسط وجعل جدة مركز للتجارة بين مصر والهند .

من اتباع علي بك الكبار محمد بك ابو الذهب ومراد بك واسماعيل بك وعلي بك الطنطاوي وذو الفقار كاشف . وكان كتخداه المعلم رزق القبطي ورئيس دواوينه ميخائيل فخر الذي كان حلقة الاتصال بينه وبين ظاهر العمر حاكم عكا(١) .

---

١) فولني ج١، الجبرتي، عبود، شكري، عبد الكريم رافق، ملحق تمثيلية علي بك، حيدر يصف الامير حيدر علي بك بقوله : « وقد كان مهاب الرجال وبديعا بالجمال خبيرا بالقتال وبطلا من الابطال وكان سعيدا في ركوبه ومنصورا في حروبه مهد امور مصر وقطع اللصوص والخطافين والعربان والسراقين واهلك العصاة واباد العتاة واطاعته العباد وخافت من سطوته البلاد وشاع ذكره في الاقطار وكامل الامصار » .

ويصفه آخرون بانه كان طموحا مغامرا يميل الى الغزو وركوب المخاطر نبيل الخلق مسرفا في الكرم ، مناصرا للحق ، اقام العدل ولم يراع في ذلك احدا ، وبنى عدة ابنية هامة ، وملأ الفراغ الذي خلفه ضعف الدولة العثمانية في مصر ، وسر الشعب بصورة عامة من حكمه ، وكان بذخه السبب في

٣) التعـاون بـين ظـاهر العمر وعلي بك :

ان هدفا واحدا جمع بين ظاهر وعلي بـك وهو الانسلاخ عن دار السلطنة والاستقلال بالبلاد العربية . كان كل من الرجلين يسمـع بالاخر ويتابـع اخباره وانتصاراته على الاتراك كما كان يسعى للتقرب منه والاتصـال به وذلك لان كـلا منهما كان يعمل لنفس الهدف ، وما اسرع ما سنحـت الفرصة لذلـك في اعقاب الحادث التـالـي .

في خلال سنـة ١٧٦٩ وبينما كان ظاهر يستعـد للحرب لمواجهـة تهديدات عثمان باشا ورد كتاب من المعلم ميخائيـل فخر رئيس ديوان مصر الى ابراهيم الصباغ وزير ظاهر يعلن فيه عن حاجة علي بك الى بعض الدروع من اجل الحرب ورغبته في شراء عدد منها من ظاهر. ولما اطلع ظاهر على مضمون الكتاب قال لوزيره: اكتب الى علي بك وقل له "اننا لسنا تجار دروع"اما اذا كان يقبل منا بعض الدروع كهدية فلا بأس بذلك.وكتب ابراهيم الصباغ الى ميخائيل فخر بهذا المعنى فجاء الجواب بقبول الهديـة مـع الشـكر العظيـم .

اعد ظاهر خمسة وسبعين درعا وارسلها الى علي بك في مركب فرنسي صحبة رسول خاص مع كتاب يشرح له فيه متاعبه مـع عثمان باشا الذي يريـد ابادته . ويرجو علي بك في الوقت نفسه ان يسمح لرسوله باستئجار فرقـة مـن عسكـر المغاربة المقيمين في مصر ليستعين بهم في حربه ضد عثمان باشا ، كما يعرض على علي بك صداقته واستعداده لخدمته في كل ما يطلب . اغتبط علي بك بالهدية وكتـب الى ظاهر بانه (اي علي بك) قد اتخذه كوالد له وانه مستعـد لمساعدته في حربـه ضد عدوه الكبير عثمان باشـا ، ولـذلك فانه امر بـارسـال تجريـدة مـن العسكر الى عكا يقودها اسماعيل بك الذي سيكون تحت امره ورهن طاعته(٢) .

اثارة النقمة عليه وازالة سلطنته . كان علي بك يعتبر مصر ملكه لخاص والشعب المصري كتلا بشرية عديمة القيمة . ويعتبر المؤرخون ان علي بك كان احد ثلاثة حاربوا الاتراك وحاولوا الاستقلال بمصر وهم علي بك الكبير ومحمد بك الالفي مستعينا بالانكليز في اوائل القرن التاسع عشر ومحمد علي باشا معتمدا على قوة الشعب ونصرة الجند والعلماء له ، هزم الاول بفعل الخيانة ، وفشل الثاني ، وكتب النصر للثالث .

٢) عبود ص ١٦ .

يشير المؤرخون الى سببين ، بالاضافة الى ما ورد من اسباب ، حملا علي بك على غزو سوريا وهمـا :

١)ضغينة قديمة بين علي بك وعثمان باشا الصادق امير الحاج الشامي سببها مشاجرة وقعت بينهما اثناء التقائهما في مكة في احد مواسم الحج السابقة ، وكان شريف مكة قد وقف الى جانب عثمان باشا في هذا النزاع .

٢)سلوك عثمان باشا الودي ازاء المماليك المعادين لعلي بـك والفارين من وجهه ، وامتناع عثمان باشا من اعادتهم الى مصر لتأديبهم ، وذلك قبل ان يصبح علي بـك شيـخ البلد وبعـده(*) .

على انه اذا تعمقنا في دراسة الاسباب التي من اجلها ثار علي بك وظاهر العمر ثورتهما على الدولة العثمانية نجد أن ذلك لم يكن بسبـب عداوة شخصيـة بـين الزعيمين وبين عثمان باشا بل كان بدافع عربي قومي وهو تحرير البلاد العربية من نيرالعثمانيين. وبهذا المعنى كتب قنصل فرنسا الجديد لصيدا في نيسان سنة ١٧٧٢ يقول:

« ان الفكرة الشائعة ان اعمال علي بك وظاهر العمر هي نتيجـة لكراهيـة مشتركة بينهما وبين عثمان باشا والي دمشق ..... هذه الفكرة لا اساس لها من الصحة مطلقا ... ان سلوك هذين الثائرين يجري حسب برنامج اوسع مدى مـن ذلك بكثير . انه من المؤكد انهما كانا يقفان نفس الموقف العدائي من كل باشا اخر يحاول ان يضع عقبات في طريق رغباتهما ... ان كلا منهما يسعى للاستقلال»(٣).

ان اول بادرة من بوادر التعاون الفعلي بين ظاهر وعلي بك كما وصل الينا ، كانت في شباط سنة ١٧٧٠ عندما طلب علي بك من التجار الفرنسيين في القاهرة ان يحولوا الى ظاهر عشرة الاف قرش عن طريق اخوانهم فرنسيي عكا ليستطيع ظاهر بهذا المبلغ استكمال استعداداته العسكرية لمواجهة عثمان باشا ، ولما لـم يف هذا المبلغ بحاجات ظاهر الضرورية طلب ظاهر في اذار من نفس السنة من فرنسيي عكا ان يسلفوه مبلغا اضافيا(٤) ، وفي تشرين الثاني ارسـل علي بك اولى حملاتـه العسكرية الى بر الشـام .

---

* حيـدر ص ٦٥ .

٣) هيد ص ٤٨ الحاشية .

٤) هيـد ص ٤٩ .

٤) التعـاون السوري المصري وحملة اسماعيل بك على سوريا :

في تشرين الثاني سنة ١٧٧٠ اعد علي بك حملة استطلاعية تضم بضع مئات من الفرسان مع كامل عتادها من الخيام والجبخانات والعربات وقرب المياه المحمولة على الجمال ، والكرارات والمطابخ والطبول والزمور ، وأمرها بالتوجه الى بر الشام والثبات والطاعة لما يأمر به ظاهر • كان يقود هذه الحملة اسماعيل بك وعلي بك الطنطاوي وعلي بك الحبشي وغيرهم من امراء المماليك •

وبعد خروج هذه الحملة بمدة قصيرة اتبعها علي بك بحملة اخرى صغيرة نزلت من طريق البحر على دمياط وجعل على رأسها سليمان بك وعمر بك كاشف(٥) •

كانت هاتان الحملتان الصغيرتان تمهيدا لحملة كبرى يجري اعدادها لارسالها الى بلاد الشام في ربيع السنة القادمة بقيادة محمد بك ابي الذهب •

في اواخر تشرين الثاني سنة ١٧٧٠ استولى اسماعيل بك على غزة والرملة سلما وبرضى اهليهما الذين كانوا ناقمين على مظالم عثمان باشا التي سبق الكلام عنها • واعلن الحكام المماليك الجدد في المدينتين الغاء ضريبة مال الميري لمدة اربع سنوات وكان الهدف من ذلك الدعاية وحمل قرى فلسطين على عدم مقاومة الفاتحين ، وقد اعلنت عدة قرى من التي ارهقتها مطالب عثمان باشا ولاءها لعلي بك** •

نزل اسماعيل بك وقواته في اراضي الرملة • كان عثمان باشا وقتئذ في جبل نابلس يجمع المال الميري استعدادا للتوجه الى الحجاز مع جردة الحج التي حان موعد سفرها • فلما بلغ الوزير وصول المصريين الى غزة زحف بعسكره الى يافا للقائهم وضربهم على انفراد قبل ان يتصلوا بحليفهم ظاهر ، بالتعاون مع حلفائه بكوات واغوات نابلس ، كما ارسل يطلب المعونة من مشايخ البلاد الموالين له •

يقول فولني بصدد حملة اسماعيل بك ما يلي :

وما ان بلغ المماليك خبر وصول عثمان باشا الى اراضي يافا بجيش كبير حتى اصابهم الفزع وامسكوا بأعنة خيولهم استعدادا للهرب والعودة الى مصر ، بيد ان الشيخ ظاهرا ذلك الرجل الذي لم تعرف سوريا له مثيلا ، خلال تاريخها الطويل في الهمة والنشاط اسرع الى الرملة وانتشل حلفاءه المصريين من ورطتهم وفتح البـاب

٥) الجبرتي في حوادث سنة ١١٨٤ هـ.
** عبـد الكـريم رافق ص ٣٧٤ •

لدخول الجيش المصري العظيم الذي كان في انتظاره(٦) •

على انه لم يكن من السهل على ظاهر الوصول الى الرملة واغاثة حلفائه المصريين ، وذلك لان عثمان باشا كان قد ارسل الى عرب الصقر النازلين في مرج ابن عامر وقتئذ يدعوهم الى المرابطة في مخاضة نهر المقطع الواقعة الى الجنوب من حيفا (الطريق الوحيدة الى الجنوب ايام الشتاء) لقطع الطريق على ظاهر والحيلولة دون التقائه بالمصريين ، وفعل الصقر كما امروا •

وفي الوقت نفسه ارسل ظاهر ولده عثمان على رأس كتيبة من الفرسان كطليعة مستعجلة لحماية المصريين من عسكر الاتراك الذين بلغ عددهم اضعاف عدد المصريين• ولكن عندما عرف عثمان الظاهر ان عرب الصقر يرابطون في مخاضة النهر بقصد محاربته وعرقلة سيره ، داخله الخوف وعاد الى عكا • غضب ظاهر على ولده عثمان وركب بنفسه وسار بعسكره لاجلاء الصقر عن النهر بالقوة ، غير انه استطاع ان يعبر المخاضة بسلام لانه عندما علم الصقر بعودة عثمان الظاهر الى عكا ووردتهم اخبار عن وقوع اشتباكات ومعارك في الرملة بين الاتراك والمصريين ، اخلوا مخاضة النهر في عجل واسرعوا جنوبا لنجدة عثمان باشا • وهكذا استطاع ظاهر اختراق المخاضة بسهولة والوصول الى الرملة واغاثة اسماعيل بك في الوقت المناسب(٧) •

كانت مدينة يافا متسلمية تابعة لدمشق شأنها في ذلك شأن جميع بلاد فلسطين

٦) فولني ج١ ص ١١٦ ـ ويتحدث الامير حيدر عن هذه الحملة (حوادث سنة ١١٨٣ هـ. ، ١٧٦٩ م.) فيقول « وكان في هذه الايام نايبا على مدينة دمشق عثمان باشا الصادق وكان بينه وبين الشيخ ظاهر العمر مشاجرة ،ومنافرة فعين هذا الوزير عدة عساكر وجمع القبائل والعشائر وتوافق مع امراء جبل الدروز (اي جبل لبنان) فلما بلغ الشيخ ظاهر تلك الاحوال كتب الى الامير علي بك ،والي مصر وشرح له حقيقة الامر ... وارسل الشيخ ظاهر الى الامير علي بك هدية عظيمة وطلب منه ان يمده بالاسعاف وان يكون مساعدا له في بر الشام بجانب من العساكر ... وارسل علي بك الى الملكة كاترينا ملكة روسيا المسكوبية ،وطلب ان تمده بالاسعاف وترسل المراكب والفرسان وهو يملكهم المدن التي في عربستان (اي البلاد العربية) . لما وصلت له رسالة الشيخ ظاهر جهز له ست سناجق كبار وقدم عليهم الاسد الشهير والبطل الخبير اسمعيل بك الكبير وهو من مماليك ابراهيم بك ووجه صحبتهم عشرة آلاف محارب (اربعة آلاف حسب ميخائيل وخمسماية حسب فولني) من كل ماشي وراكب من مغاربة وغز (اي فرسان المماليك) وعربان وامرهم ان يكونوا في طاعة الشيخ ظاهر العمر الى اين ما اراد وامر » •
٧) عبـود ص ١٦ •

السـاحلية وبضمنها اقليم بني صعب المتاخم للساحل والواقع الى الغرب من مدينة طولكرم • كان متسلم يافا في هذا الوقت احمد بك طوقان من نابلس غير ان سكانها كانوا ، كما مر بنا في الفصل السـابق ، منقسمين على انفسهم ، فعند وصول المصريين الى الرملة ثارت الفتنة من جديد بين الجانبين المتخاصمين واشتبكا بالقتال داخل المدينة : كان فريق منهم مواليا لظاهر العمر وعلي بك والفريق الآخر مواليا لعثمان باشا والاتراك وعلى رأسه مشايخ من آل طوقان في نابلس ، وبطلب من مصطفى بك طوقان شيخ اقليم بني صعب واخيه احمد بك متسلم يافا غادر عثمان باشا جبل نابلس ، كما ذكرنا ، وتوجه الى يافا على رأس جيش كبير من البدو والحضر لنجدة حليفيه مصطفى بك واحمد بك ، فالتقى بالمصريين في مشارف الرملة واشتبكت قواته معهم بالقتال ، وفي الوقت نفسه تابع الوزير زحفه الى يافا لفتحها واخضاعها ، ولكن ما كاد خبر قدوم ظاهر الى الرملة ينتشر بين سكان يافا المتحاربين حتى استبسل اعوان ظاهر فيها فثاروا على خصومهم وتغلبوا عليهم ، ثم اغلقوا بوابات المدينة في وجه عثمان باشا القادم اليهم كراهية له ولحكمه الظالم ، وظلت يافا مغلقة على هذا النحو حتى فرار الوزير من اراضيها بعد ذلك بيوم او بيومين(٨) •

لما التقى اسماعيل بك بالشيخ ظاهر اخبره انه اشتبك بالامس مع قوات الاتراك بقتال في اراضي الرملة وذكر له كيف ان الوزير اوقف القتال وارسل اليه رسولا للمفاوضة ••• وما ان سمع ظاهر بالرسول حتى طلب من اسماعيل بك ان يجمعه به ، فلما حضر قال ظاهر للرسول متحديا ومهددا : « اذهب الى عثمان باشا وقل له انك عرفت الشيخ ظاهر ان مرادك الحضور الى عكا وتريد تنصب خيامك على تل الفخار فظاهر لا يمنعك بل حضر اليك ونهار غد لا بد من القتال وان كان عثمان باشا لا يحضر الى الرملة فلا بد لي ان اقابله في يافا » (٩) •

لما بلغ عثمان باشا هذا التحدي تغير وجـه الصورة ، فـانسحب مصطفى بك واحمد بك الى بلدهما نابلس ، وهرب عثمان باشا في ٩ كانون الاول سنة ١٧٧٠ الى دمشق بعد ان يئس من وصول المعونة التي وعده بها ابن جرار شيخ قلعة سانور* وكان بعض عسكر عثمان باشا قبل رحيلهم تسللوا الى يافا المغلقة واشعلوا فيها

٨) فولني ج٢ ص ٩٤ ، النمر ص ١٤٠ .
٩) عبود ص ١٧ ــ راجع فصل ٩ باب ١٠ .
* عبد الكريم رافق ص ٣٧٥ .

الحرائق واعملوا في اموالها يـد السلب والنهب •

وفي فجر اليوم التالي دخل ظاهر العمر واسماعيل بك مدينة يافا فنظما امورها واقاما فيها الحاميات ، وبذلك كسب ظاهر ميناء آخر الى جانب عكا ، واستخدمه لانزال المعونة المنقولة اليه بحرا من مصر •

وباستيلاء ظاهر العمر على يافا اصبح الساحل الفلسطيني تابعا له حتى الحدود المصرية ، ومع ذلك لم تنعم هذه النواحي بالاستقرار اذ ظلت مسرحا لثورات ونزاعات طويلة الامد بين اهليها المنقسمين على انفسهم مما حمل الشيخ ظاهرا على مهاجمتها بين الحين والآخر ومهاجمة نابلس موطن آل طوقان ، كما سـيرد بيانـه في البـاب القـادم •

لحق ظاهر بالوزير الهارب ولشدة خوف الوزير من مطارديه رمى مدافعه الى بئر في الطريق وتوجه شمالا ماشيا على قدميه ليلا ونهارا ووصل الى دمشق في اواسط كانون الاول • وكان ظاهر وهو يطارد الوزير قد وصل الى قرية قاقون من قرى جبـل نابلس الغربية ، وهنا اصيب بمرض شديد فجأة اقعده عن هذه المطاردة ، ولبث في القرية يعاني سكرات الموت الى ان قدم طبيبه ابراهيم الصباغ لمعالجته ، ثم نقـل الى الناصرة حيث مكث فيها سبعة ايام ومنها نقل الى عكا ، وبعـد مرض لازمـه اربعين يوما شفي مما الم به** •

واعجب ظاهر بالجنود المصريين لشجاعتهم وجمال هندامهم وصلابة عودهم في القتال واذن لهم بالنزول في اراضي مرج ابن عامر حيث ضربوا خيامهم وتهيـأوا انتظـارا لمـا يأمر به ظاهر •

وهكذا دخلت سنة ١٧٧١ ، وكان ينبغي على عثمان باشا ان يتوجه الى الحجاز على رأس قافلة الحاج • ففي اواسط كانون الثاني من هذه السنة وقبل ان يـبدأ عثمان باشا مسيرته الى الحجاز بايام قليلة نهض اسماعيل بك وظاهر العمر ، بعد ان شفي من مرضه ، واولاده ومشايخ المتاولة وساروا الى قرية المزاريب جنوبي دمشق لمحاربة عثمان باشا والاستيلاء على امارة قافلة الحاج ، وكانوا في نحو عشرين الفا • وعندما وصل الى دمشق خبر هذه القوات المرابطة في قرية المزاريب بقصـد قطـع الطريق على عثمان باشا ومهاجمته تخربطت الدروب وهلعت القلوب خوفـا عـلى

** عبـود ص١٨ •

مصير القافلة وحياة الحجاج ، فبعث عثمان باشا الى اسماعيل بك يقول :

« اني قصدت المسير الى الحج الشريف بالمحمل المنيف ولا يمكنني ان اعاق، وان كنتم تريدون محاربة الزوار الى بيت الله الحرام فنحن استعنا بالله عليكم » .

لما وصل هذا الجواب الى اسماعيل بك توقف عن المسير بخلاف ظاهر العمر الذي اصر على مهاجمة الوزير مهما كلف الامر ، ولكن بدون جدوى .

قيل ان امتناع اسماعيل بك عن مهاجمة الوزير في المزاريب لم يكن شفقة منه على الزوار والحجاج بل كان ذلك بسبب ما قيل عن اشمئزازه من ابناء ظاهر العمر وعدم تآلفه معهم . وقد احتج ظاهر بعدئذ لدى علي بك على موقف اسماعيل بك المتخاذل(١٠) .

وهكذا خرج عثمان باشا من دمشق على رأس قافلة الحاج في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٧٧١* تاركا خلفه بلادا ثائرة وجيوشا عربية تتحفز للزحف الى دمشق .

ولنعد الآن قليلا الى يافا وبلادها التابعة لظاهر العمر . كانت يافا ذات موقع استراتيجي هام بالنسبة الى ظاهر لانها تقع على طريق عكا — القاهرة ، وكانت عبر الاجيال حلقة الاتصال البرية الوحيدة بين القطرين المصري والسوري . لذلك كان يقتضي على ظاهر الآن اي في شهر آذار سنة ١٧٧١ ان يستعد لمهاجمة جبل نابلس ويقاتل مشايخه لارغامهم على كف ايديهم نهائيا عن يافا والساحل الفلسطيني انتقاما لتعرضهم لاسماعيل بك في الرملة قبل اشهر قليلة ، وتأمينا لسلامة الحملات المصرية التي كان يعمل علي بك على تعبئتها لارسالها الى عكا ، تمهيدا للزحف الى دمشق .

٥) ظاهر العمر يهاجم جبل نابلس(١١) :

كانت نابلس متسلمية تابعة لدمشق ، من مشايخها في هذا الوقت قاسم النمر متسلم نابلس وابراهيم النمر متسلم القدس واحمد طوقان متسلم يافا واخوه مصطفى طوقان شيخ اقليم بني صعب . وكان يوسف الجرار صاحب قلعة سانور . منح آل النمر لقب « اغاوات » وآل طوقان لقب « بكوات » .

بعد ان تحالف ظاهر العمر مع علي بك ارسل عثمان باشا الصادق الى مصطفى بك طوقان شيخ اقليم بني صعب السلاح والعتاد وكلفه بعرقلة مساعي ظاهر العمر.

١٠) حيدر ص ٨٠ ، بريك ص ٩٣ ، ميخائيل ص ١٠٥ .
* عبد الكريم رافق ص ٣٧٦ .
١١) هاجم ظاهر مدينة نابلس مرة ثانية في ربيع سنة ١٧٧٣ .

الا ان ظاهر العمر اصبح في هذه الآونة قويا جدا بتحالفه مع علي بك وروسيا ، فلما استولى ظاهر بمساعدة اسماعيل بك في كانون الاول سنة ١٧٧٠ على يافا والساحل الفلسطيني ، كما تقدم ذكره ، لم يثبت مصطفى بك امامه بل اضطر الى الانسحاب الى بلده نابلس ، لكن الشيخ ظاهرا لم يكتف بانسحاب مصطفى بك الى نابلس بل اخذ يعد العدة للحاق به ومهاجمته في عقر داره تأمينا لسلامة الحملة المصرية المتوجهة شمالا الى عكا بقيادة محمد بك ابي الذهب، لهذا السبب هاجم ظاهر برجاله وخيوله ومدافعه مدينة نابلس ، وكان ذلك في اواخر سنة ١١٨٤ هـ(١٢) الموافق اوائل نيسان سنة ١٧٧١ .

اسرع ابراهيم اغا النمر متسلم القدس بالقدوم الى نابلس واتفق مع البكوات على الدفاع عن نابلس بكل قواهم فأصلحوا البوابات ورمموا الاسوار وحشدوا الالاف من سكان القرى ، فتولى آل النمر الدفاع عن القسم الشرقي من المدينة وآل طوقان عن القسم الغربي منها وجعلوا خان التجار حدا فاصلا بينهما ، وبلغ عدد السلاح الناري في المدينة اثنتي عشرة الف بارودة .

وبعد مشقة كبيرة لاقاها ظاهر في نقل المعدات والعسكر الى نابلس بسبب وعورة الطريق ومقاومة القرويين له خلال زحفه فقد وصل الى كرم القاضي الواقع في سفوح جبل عيبال الشاهق تحت المحاجر الشمالية ونزل فيه ، وارسل ظاهر يطلب تسليم مصطفى طوقان اليه ويهدد نابلس بالويل والثبور . فخرج اليه احمد بك اخو مصطفى بك بالهدايا ورجاه ان يرسل الى المدينة وفدا للمفاوضة .

استعدت نابلس استعدادا عظيما للقاء الوفد المكون من كريم الايوب الزيداني وناصيف النصار ، وكان بصحبتهما احمد طوقان بالاضافة الى ستين فارسا من عسكر ظاهر ، وقد استقبلوا بحفاوة عظيمة ، واجريت المفاوضة بين الجانبين.

كانت شروط ظاهر تسليم جميع السلاح وخروج مصطفى بك واحمد بك اليه كي يلبسهما الاول متسلما على نابلس والثاني متسلما على القدس بدلا من مشايخ آل النمر الذين يستمدون سلطاتهم من والي دمشق(١٣) .

١٢) النمر ص ١٤٠ — السنة ١١٨٤ هـ. تنتهي يوم ١٥ نيسان سنة ١٧٧١ .
١٣) كانت العادة في ذلك الزمن انه حينما كان يتولى متسلم بلدا يلبسه الوالي فروة وكان المتسلم بدوره يقدم للوالي هدية من المال .

وبعبارة اخرى كانت مطاليب ظاهر ان يقطع جبل نابلس صلاته بدمشق والدو
العثمانية ويكون تابعا له في عكـا .

رفض مشايخ نابلس هذه الشروط بلا تردد واتفقوا على ان يخرج احمد بك
ثانية الى ظاهر ليفاوضه على شروط جديدة .

خرج احمد بك ثانية الى ظاهر ومعه رأسان من الخيل الجياد هدية له واعل
بقرار المشايخ ، فغضب ظاهر واحتد والح بتسليم مصطفى بك صاغرا اليه وتسل
جميع السلاح الموجود داخل المدينة واذعان نابلس له والا فانه سيهدمها بمدافعه.

ولما سمع احمد بك هذه التهديدات تظاهر بالقبول والموافقة ، واعلم ظاهر
انه على استعداد للرجوع ثانية الى نابلس ليأتيه بأخيه مصطفى بك قائلا له : « نحن
يا شيخ مرادنا نكون كعيالك وتحد في حبالك » فصدق ظاهر كلامه وسمح له
بالرجوع الى نـابلس .

وعاد احمد بك الى نابلس الا انه لم يكد يبلغ حدود البلد حتى كشف عن
نياته فانقلب على ظاهر واستجد ، فأنجدته رجال نابلس واغار من ساعته على عسكر
ظاهر عند الغروب ، وهكذا عرف ظاهر ان نابلس رفضت شروطه بطريقة عملية

لم يحدث شيء في اليوم التالي ، وفي اليوم الثالث هجم عسكر ظاهر على بوابة
نابلس الغربية فتلقاهم النابلسيون برباطة جأش وردوهم على اعقابهم سبع مرات
وقتل منهم عدد كبير .

وبعد بضعة ايام فاجأ ظاهر مدينة نابلس من الجهة الغربية الجنوبيـة فحط
عسكره في قرية رفيديا المشرفة على المدينة ونصبوا مدافعهم في اتجاهها وزحفوا
اليها تحت حمايتها فهدمت المدافع القسم العلوي من مأذنة جامع الخضـرة وبعض
المباني وتمكنوا من الوصول الى جدران جامع الخضرة والبساتين المحيطة به ، ولما
شعر النابلسيون بعسكر ظاهر خرجوا اليهم من جهة رأس العين وقطعوا عليهم الخط
وحصروهم في الزاركية مقبرة نابلس الغربية ثم اشتبكوا معهم بين القبور في معركة
حامية الوطيس ، فانسحب عسكر ظاهر من مواقعهم وارتدوا الى الوراء بعد ان
تكبدوا خسائر كبيرة في الانفس والعتاد والمدافع .

بعد هذه المعركة نزل ظاهر ثانية في كرم القاضي وارسل الى آل النمر يطلب
مفاوضتهم على يد احد العلماء فأرسلوا اليه الشيخ لطفي من علماء نابلس ، فتفاوض

الرجال وتعاقدا على « المتاركة » اي ان لا يتعرض ظاهر لمدينة نابلس ولا تتعرض
نابلس له ، وعلى هذه الشروط ارتفع ظاهر عن جبل نابلس وعاد الى عكا . كان
وقوع هذه الحوادث في اواخر نيسان سنة ١٧٧١

وفي هذه الاثناء قدم عثمان بن ظاهر الى نابلس ونزل ضيفا على مصطفى طوقان
مظهرا عدم الرضا من ابيه(١٤) .

وبقي الحال على ذلك الى السنة التالية اي الى ربيع سنة ١٧٧٢ عندما اخل
النابلسيون بأحكام هذه « المتاركة » ، فأعلنوا العصيان على ظاهر بايعاز من وزير
دمشق واستولوا على يافا والبلاد التابعة لها ، ثم قطعوا الطريق على علي بك وهو
متجه شمالا الى عكا هربا من خصومه في مصر في ايار سنة ١٧٧٢ ، مما حمل الشيخ
ظاهرا على مهاجمة يافا ثم نابلس وتطهيرها من العناصر الموالية للاتراك واحتلالهما
كما سيأتي بيانه مفصلا في الفصلين الثالث عشر والرابع عشر من الكتاب .

* * *

١٤) النمر ص ١٠٩ – ١١٩ ، اخذ احسان النمر هذه التفاصيل عن مخطوط ابراهيم الدنفي السامري كاتب سراي نابلس في الزمن الذي نتحدث عنه .

الفصل الحادي عشر

حملة محمد بك ابي الذهب على سوريا عام ١٧٧١

* * *

١) محمد بك ابو الذهب :

هو محمد بن عبدالله الخزندار الجركسي المكنى بـ « ابو الذهب » ، كان مولى من موالي علي بك اشتراه في اوائل الستينات ، وجعله في مصاف الابناء، وانشأه حتى غدا ساعده الايمن ومن كبار المماليك في مصر .

في سنة ١٧٦٤ اعتقه سيده والبسه كاشفا على المنوفية ثم البسه سنجقا،وكانت العادة عند المماليك حين يتولى احدهم سنجقا او يصبح سنجقا او صاحب سنجق ان يخرج من دار استاذه وهو ينثر الفضة على الخدم وعلى الفقراء ، ولكن محمد بك الخزندار حين احتفل بالباسه سنجقا في القلعة وخرج من الديوان ابتدأ ينثر الذهب على الناس عوض الفضة فكنوه « ابو الذهب » .

استخدم علي بك ابا الذهب في القضاء على خصومه واخضاع الاقاليم المتمردة في الجنوب فأبلى في ذلك بلاء حسنا وكسر شوكة البدو المنتشرين في صحراء الصعيد وعلى الحدود ومهد هذه الاقاليم بالامان .

كان علي بك يرى انه لا يستطيع غزو سوريا واستخلاصها من ايدي العثمانيين ما لم يحرر البلاد الحجازية من قبضتهم اولا ، فجهز حملة بحرية بقيادة اسماعيل بك واخرى برية بقيادة محمد بك ابي الذهب وساقهما في ربيع سنة ١٧٧٠ الى الحجاز فاستظهر المصريون على شريف مكة مساعد بن زيدواستولوا حتى تموز من السنة نفسها على جدة ومكة وسواحل البحر الاحمر .

كان علي بك يتحين الفرص لغزو بلاد الشام منذ ان استقل بمصر ، فلما قضى على خصومه في مصر وامن شر اعدائه في الجزيرة العربية — جناح الجبهة الايمن في الزحف الى الاناضول — اصبح في مقدوره الآن ان يتفرغ لغزو بر الشام .

٢) محمد بك ابو الذهب يستولي على دمشق :

في آذار سنة ١٧٧١ اخرج علي بك حملة عظيمة الى بلاد الشام في جند كثير من المصريين والمغاربة والشوام والترك والهنود واليمانية يتقدمهم بكوات المماليك على جيادهم المطهمة وعلى رأسهم امير الحملة محمد بك ابو الذهب ، وامرهم بأن يكونوا في طاعة ظاهر العمر والي عكا .

بلغ عدد رجال الحملة على ما ذكر فولني ، اربعين الفا قسمهم كما يلي : خمسة آلاف فارس من المماليك وفي ركاب كل منهم تابعان يرتديان السراويل القصيرة وفي يد كل منهم عصا ، بالاضافة الى الف وخمسمائة مقاتل من البربر والوطنيين المشاة، والفين من الخدم الفرسان الحقوا بالجيش لخدمة البكوات والكشاف ، والباقون كانوا متعهدين للجيش يقدمون الطعام والشراب ، ومرافقين من الصناع والسراجين والتجار تتبعهم ارتال من الجمال والبغال والحمير تحمل المؤن والذخائر والمدافع والخيام .

لما وصل ابو الذهب الى غزة التقى باسماعيل بك واولاد ظاهر العمر الذين هرعوا جنوبا لاستقباله ، ثم ساروا جميعا الى الشمال ، يقول الجبرتي : « امتنعت يافا عليهم (الموالية للاتراك بزعامة بكوات من نابلس) فحاصروها وملكوها بعد أيام كثيرة » ، وكان ذلك في نفس الوقت الذي هاجم ظاهر فيه جبل نابلس على نحو ما تقدم ذكره في الفصل السابق .

كانت قوات ظاهر العمر التي انضمت الى المصريين تتألف من ثلاثة آلاف فارس يقودهم علي بن ظاهر وبعض اخوته منهم الف وخمسمائة فارس من الصفدية والف وثلاثمائة فارس من المتاولة بقيادة ناصيف النصار اتحدوا جميعهم مع المصريين في جيش واحد ضم ، على ما رواه المرادي ، تسعة سناجق وخمسة من اولاد ظاهر العمر ومعهم ثمانون مدفعا وعدد كبير من المشاة .

في اواسط ايار سنة ١٧٧١ وبعد ان اخضع الجيش العربي المتحالف الفئات الموالية للاتراك في يافا والرملة وجبل نابلس ، زحف الى دمشق ترافقه الزغاريد والاهازيج الداعية له بالنصر . والجدير بالذكر ان ظاهر العمر ابى مقابلة ابي الذهب اثناء مكوثه في بلاد الشام بل ارسل اليه اولاده وقادة عسكره كما تقدم ذكره .

ولما كان عثمان باشا الصادق خلال ذلك في الحجاز مع قافلة الحاج التي اوردنا

خبرها في الفصل السابق ، فقد ندبت الدولة العثمانية لقتال المصريين وحماية بلاد الشام منهم عبد الرحمن باشا والي حلب وخليل باشا الدالي والي كليس ، ومحمد باشا والي طرابلس ، ولكنهم ، على ما ذكر المؤرخون، لم ينفعوا دمشق في شيء وكان ضررهم اكثر من نفعهم(١) .

ولما عاد عثمان باشا في غضون ذلك الى دمشق انضم بعساكره الى زملائه الوزراء فاجتمع للاتراك جيش قوامه ثمانون الف مقاتل من المرتزقة اي ما يزيد على ضعفي القوات العربية المتحالفة ، فضرب الوزراء الاربعة وطاقهم تحت اسوار المدينة في انتظار القوات العربية الزاحفة شمالا .

ويبدو ان عثمان باشا لم يكتف بما كان لديه من عسكر، فبعث الى الامير يوسف الشهابي حاكم اقليم جبيل يطلب معونته وارسل اليه يوسف اغا ابن جبري رئيس الانكشارية ونائبه في دمشق ليستدعيه على وجه السرعة ، فأخذ الامير يوسف يتثاقل ويجمع العسكر بين المهلة والتراخي لينظر في عاقبة الامور(٢) .

في يوم الاثنين ٣ حزيران سنة ١٧٧١ (٣) وصلت العساكر المصرية ومعهم عسكر ظاهر العمر والمتاولة الى دمشق ونزلوا بوطاقهم عند « ثغرة كوكب » جنوب غرب المدينة فخرج اليهم الوزراء الاربعة وهاجموهم في سهل داريا بالسلاح الابيض في معركة حامية الوطيس . وفي اقل من ساعتين انكسر الاتراك ، وولى هاربا خليل باشا الدالي وعبد الرحمن باشا وعساكرهما في حين استمر عثمان باشا وولده محمد يقاتلان بشجاعة وثبات حتى مساء ٦ حزيران عندما ارغما ــ بعد غارة مفاجئة شنها عليهما علي بن ظاهر والمماليك ــ على الانسحاب من ساحة المعركة والتراجع الى دمشق ، ثم قام العسكر المتحالف ونزل في ارض القدم فوق باب الله وهجم على المدينة بالسيف هجمة واحدة وملكها ونهب وحرق بعض محلات حي الميدان .

يقول فولني في هذا الصدد : كان انكسار الاتراك مهينا وساحقا الى درجة ان درويش باشا وزير صيدا الذي حضر المعركة فر من دمشق في ذعر شديد واختبأ في منزل الامير يوسف الشهابي .

١) عبود ص ١٨ ، بريك ص ١٤ ، فولني ج١ ص ١١٧ ، المرادي ص ٥٤ ، الجبرتي في حوادث سنة ١١٨٥ هـ. ــ يقدر ميخائيل فرسان الحملة بعشرة الاف مقاتل بينما يقدرها عبود باثني عشر الفا .
٢) عبود ص ١٩ ، الشدياق ص ٢٨ .
٣) المرادي ج١ ص ٥٤ .

وفي صباح الجمعة ٧ حزيران ارسل ابو الذهب الى علماء دمشق يدعوهم الى مقابلته فلما قدموا اليه طالبهم بتسليم المدينة وتوعدهم بحرقها ان لم يفعلوا ، فطلب العلماء منه ان يمهلهم الى يوم السبت ٨ حزيران ليتسنى لهم الاجتماع والتشاور .
وفي خلال ذلك أي في مساء الجمعة نفسه غادر عثمان باشا وولده محمد مدينة دمشق هاربين الى حمص وخلت المدينة من كل مقاتل ما عدا قادة القلعة الدمشقية الذين عولوا على الحصار .
ثم طلب ابو الذهب من العلماء تسليم القلعة فقالوا هذه قلعة السلطان وبداخلها اوجاق القبيقول بزعامة مصطفى اغا المطرجي وليس لنا حكم عليها بوجه ما ، فأجابهم حسنا اني سأملكها بقوة السيف .

وفي ٨ حزيران قابل العلماء محمد بك حسب الوعد واخبروه انه لم يبق في المدينة مقاتل واحد ، وقالوا له ايضا ان البلد لمولانا السلطان مصطفى خان فتسلمها انت واحقن دماء المسلمين فارتضى محمد بك واخرج من ينادي في شوارع المدينة بالامان ورفع القتال ، وصار المصريون ينزلون الى الاسواق ولا يتعرضون لاحد من اصحابها كما لم يحدث منهم اي ضرر كليا(٤) .

وتأكيدا لغرضه السامي الذي جاء ابو الذهب من اجله اطلع علماء المدينة على بيان من علي بك يمنح فيه اهل دمشق الامان والعيش الكريم ويعلن فيه ان غرضه من هذه الحرب هو تحرير الديار الشامية من ظلم عثمان باشا نصرة للدين وغيرة على المسلمين ، ويذكرهم فيه بما اتاه عثمان باشا من الاستهانة بحق الحجاج والزوار والمسافرين والتجار ، ويقول انه اخذ فتوى المذاهب الاربعة في قتاله .

شاع خبر سقوط العاصمة في طول البلاد وعرضها فكان الناس بين راض وغاضب غير ان اكثرهم سرورا كان علي بك الذي اقام الاحتفالات بهذه المناسبة في مصر والامير منصور الشهابي حليف ظاهر الذي استقبل قدوم محمد بك بالفرح العظيم نكاية بعثمان باشا الذي احتضن خصمه وابن اخيه الامير يوسف واقامه حاكما على جبيل . وكان ظاهر العمر قد كتب حسنا بحق الامير منصور الى محمد بك واوصاه به ، ولذلك اخرج محمد بك مرسوم « طيبان خاطر وامان » للامير منصور بعد افتتاحه لدمشق ، ومن جهة اخرى ارسل الامير منصور اليه ثلاثة جياد بالعدد الكاملة على سبيل الهدية والمصانعة مع كتاب يستعطف به خاطره ويهنئه بالقدوم(٥) .

٤) بريك ص ٩٤ ، المرادي ج١ ص ٥٤ ، فولني ج١ ص ١١٩ وج٢ ص ٤٥ .
٥) يجد القارىء صورة عن كتاب الامير منصور في باب الملاحق .

هذا ما كان من امر مدينة دمشق اما القلعة الدمشقية فكان لها شأن آخر ، رفض مصطفى اغا قائد القلعة التسليم ولذلك كان لا بد لمحمد بك من مهاجمتها وقصفها بالمدافع • فهاجمها وحاصرها ثمانية ايام وضربها بالقنابر والمكاحل من مدافعه التي نصبها على المرج الاخضر • فصارت القنابر تنزل على اهل البلد ولا تصيب القلعة حتى سقط على سقف الجامع الاموي منها قلة واحدة فمزقته ، فاضطرب اهل دمشق وارسلوا احتجاجاتهم الى محمد بك كما ان حماة القلعة نصبوا السنجق على اسوار القلعة وطلبوا وقف القتال فأعطاهم محمد بك الامان شريطة ان يتسلم القلعة في اليوم التالي الموافق ١٧ حزيران ، ولكن حدث في هذه الاثناء ما غير مجرى الحرب وقلب الاوضاع السياسية في بلاد الشام رأسا على عقب •

يقول المؤرخون انه في اليوم الذي تحدد فيه تسليم القلعة الدمشقية واستسلام حاميتها ولم يمض بعد على قدوم محمد بك الى دمشق خمسة عشر يوما ، حتى وقع ما لم يكن في الحسبان : في هذا اليوم بالذات وبدون اية دلائل تشير الى ذلك اصدر محمد بك اوامره الى عسكره بالانسحاب من دمشق والعودة الى مصر فورا ، وعبثا حاول علي الظاهر وناصيف النصار قائدا عسكر ظاهر معرفة السبب في هذا القرار الفجائي ، ولم يكن جواب محمد بك لهما سوى تهديد مشحون بالغطرسة وتلويح باستعمال القوة •

كتب محمد بك الى اعيان دمشق كتابا يعلمهم فيه بما عزم عليه ويقول : « انه كان سبب مجيئنا الى هذه البلاد الشامية لاجل مقاتلة عثمان باشا فلو خرج لخارج البلدة ما قارشناكم وسبب تعرضنا للقلعة ان بها عثمان باشا وامواله فلما تحققنا ذهابه وانه ليس بها رفعنا القتال عنها وما مرادنا بلدتكم ولا اضراركم واذيتكم فهذه بلدة مولانا الاعظم مصطفى خان والقلعة ابد الله خلافته الى يوم الدين ولم يقع من عسكرنا اذية لاحد من اهل الشام » •

طلب محمد بك من الاعيان والعلماء الجواب على ذلك فأجابوه : « انه وصل كتابكم وعرفتمونا ان سبب مجيئكم عثمان باشا وقد ذهب وان البلدة بلدة مولانا السلطان وما مرادنا البلدة ، والآن انكم عزمتم على العودة الى مصر فتوجهوا الى حيث شئتم » (٦) •

٦) المرادي ص ٥٥ ، حيدر ص ٨٣ ، فولني ج١ ص ١٢٠ ، ١٣٥ ، وج٢ ص ٩٤ .

هذا ما بعث به محمد بك الى اهل دمشق وبهذا برر رحيله عن مدينتهم • فالكتاب لا يعدو ان يكون محاولة فاشلة لتبرير انسحابه من دمشق وهو يدين صاحبه ، اما جواب العلماء فيستشف منه الخوف والتحفظ •

٣) عودة محمد بك الفجائية الى مصر :

في ١٨ حزيران سنة ١٧٧١ شرع المصريون في الرحيل عن دمشق متخلين عن انتصاراتهم ومخيبين آمال حلفائهم، وهو امر اثار دهشة الجماهير الشامية وتقولاتهم • اقتلع المماليك خيامهم في صخب وحملوا ارزاقهم ومعداتهم في عجل وتوجهوا الى مصر في فوضى ، وكان حالهم كحال الجيش المنهزم المطارد من المنتصر ، فالطريق الى القاهرة كانت مغطاة بالفرسان والجنود المشاة وقد هرعوا جنوبا بدون نظام تاركين خلفهم بعض عتادهم الثقيل ، واما بقية الاعتدة فقد نقلت الى مصر بحرا عن طريق عكا •

اتفق المماليك فيما بينهم على ان يكون خبر قدومهم الى القاهرة يسبق وصولهم الفعلي بست ساعات حتى لا يكون امام علي بك متسع من الوقت لحشد قواته ومقاتلتهم بسبب رجوعهم الى مصر بدون اذن منه •

ولما رأى ابناء ظاهر العمر خيانة المماليك لهم ، وانهم قد فارقوهم وتركوهم وحدهم عجزوا عن فتح القلعة الدمشقية ورجعوا الى ديارهم •

يؤرخ احد الظرفاء الدمشقيين هذه الاحداث فيقول :

ابو الذهب عليه   دائرة السوء حقّت
قد رام اخذ دمشق   في يوم نحس موقت
فأمها بجنود   من الشقاء تلقت
فنال ما نال منها   بالمكر من حيث رقت
وصار يبحث عنها   وعن حصون تبقت
وسيف عثمان اضحى   كم مهجة منه شقت
ففر بالخوف ارخ   منه الى حيث القت(٧)

والتاريخ هو ١١٨٥ هـ = ١٧٧١ م•

كانت هذه الحملة المصرية السورية المشتركة من اعظم الحملات العسكرية التي

٧) حيدر ص ٨٧ .

عرفتها سوريا منذ العهد الصليبي ، كما كان سقوط دمشق عملا جريئا هز اركان دار السلطنة ، وفتح الطريق للمصريين شمالا حتى الاناضول . وكان الاعتقاد السائد لدى السياسيين العرب والاجانب ان احتلال بقية الولايات السورية والوصول الى الاناضول ان هو الا مسألة وقت لان الدولة العثمانية كانت في وضع صعب بسبب حربها لروسيا .

نسب هذا الانسحاب في اول الامر الى نبأ يعلن وفاة علي بك في القاهرة فجأة ، ونبأ كهذا سواء كان صحيحا او كاذبا من شأنه ان يعجل بعودة محمد بك الى مصر ليتسلم مقاليد الحكم بعد سيده لانه كان المرشح الاول لهذا المنصب . قيل ان عثمان باشا هو الذي اوعز الى اتباعه من خصوم علي بك في القاهرة باذاعة هذا النبأ المختلق بقصد اشاعة الفوضى في صفوف المصريين .

وفي رواية اخرى ان عثمان باشا عندما اشرف على الهلاك في معركة دمشق بعث الى محمد بك بصرّة ثقيلة من الدنانير لحمله على العدول عن محاربته فارتشى منه وأمر عسكره برفع الحصار عن القلعة الدمشقية التي كانت على وشك السقوط ، ثم رحل الى مصر(٨) .

٤) اسباب عودة محمد بك الى مصر :

يقول الجبرتي في اسباب عودة محمد بك الى مصر ما يلي :

ورود اوامر من علي بك الى محمد بك بان يستمر في زحفه ويتعدى الحدود السورية الى الاناضول ، غير ان محمد بك وقادة حملته رفضوا هذه الاوامر لتعبهم من الحروبات والفتوحات واشتياقهم الى اوطانهم . ويضيف الجبرتي قوله : وكان وصولهم الى القاهرة في اواخر شهر رجب سنة ١١٨٥ هـ (اواخر تشرين الاول سنة ١٧٧١) على خلاف مراد مخدومهم .

يرجع فولني السبب في انسحاب المصريين من دمشق الى اتفاق سري جرى في صيوان محمد بك مع مبعوث ارسله اليه عثمان باشا في الليل تحت ستار بحث شروط الصلح ، فاستطاع هذا المبعوث الداهية ان يحقق لسيده من المكاسب ما عجزت الحرب عن تحقيقه ، لقد ادخل هذا المبعوث الى ذهن محمد بك الحقائق التالية :

٨) كرد علي ص ٣٠٤ .

أ)ان هذه الحرب تتنافى مع مصلحة محمد بك وان السلطان سيعاقب مسببها باقسى العقوبات .

ب)ان احتلال مدينة مقدسة كدمشق وهي احد بابي الكعبة هو تشويه لقدسيتها .

ج)انه حط من شرف محمد بك وامتهان لكرامته ان يخدم شخصا اخر دون السلطان في المرتبة وان يجعل بينه وبين السلطان مملوكا آخر كعلي بك .

د)ان علي بك يستخدم محمد بك لتحقيق اغراضه الخاصة وهو أمر من شأنه ان يعرض حياة محمد بك لمخاطر يومية كما يعرضه لشماتة اعدائه وفي مقدمتهم رزق القبطي عدوه اللدود وكتخدا علي بك (اي وكيل علي بك) .

هذه الاسباب وخاصة الاخيران منهما في رأي المؤرخ(٩) هي التي حملت محمد بك أبا الذهب ومساعده اسماعيل بك على التخلي عن انتصاراتهما في دمشق والعودة الى مصر فورا .

واستقبل اولو الامر في الاستانة انباء دمشق بالرضاء والارتياح . هذا مجمل ما ذكره المؤرخون من اسباب عن فشل حملة محمد بك ابي الذهب على سوريا عام ١٧٧١ .

واما حملته الثانية على سوريا وموته في ضواحي عكا في حزيران عام ١٧٧٥ فسيأتي تفصيل ذلك في فصل قادم .

* * *

٩) فولني ج١ ص ١٢١ .

الفصل الثاني عشر

ظاهر العمر يستولي على صيدا

١ ـ نتائج الحملة المصرية على دمشق :

كان للحملة المصرية على دمشق نتائج خطيرة وبعيدة المدى ، فما كاد خبر فشل هذه الحملة ينتشر في الاقاليم حتى ارتفعت مكانة العثمانيين وانصارهم العرب في سوريا وانخفضت مكانة الثوريين الوطنيين وتعرض انصارهم للتنكيل والاضطهاد في كثير من البلاد . فاصيب ظاهر العمر وعلي بك بنكسة شديدة وكاد حلفهما ان يتصدع .

في ٢٦ حزيران سنة ١٧٧١ عاد عثمان باشا الى دمشق* ، كما قدم اليها ، بعد فوات الاوان ، يوسف ابن جبرى وبصحبته يوسف الشهابي على رأس خمسة الاف فارس للمشاركة في حرب دمشق .

قبل عثمان باشا معاذير الامير يوسف لتخلفه عن المساهمة في حرب دمشق ، ثم قام الرجلان بشن حملة دموية تطهيرية ضد انصار ظاهر وعلي بك في الشام .

صب عثمان باشا غضبه على اهل دمشق عامة وعلى الذين اشتبه بتعاونهم مع المصريين خاصة ، ومن بين الذين تناولهم غضب الوزير يوسف اغا نفسه نائبه على دمشق فقبض عثمان باشا عليه ونهب امواله ثم امر بخنقه فخنق في القلعة لانه ، على ما زعم الوزير ، كان السبب في تقوية الدولة المصرية على الدولة العثمانية طمعا منه في قتل عثمان باشا والفوز بالولاية دونه . واقام الوزير نائبا اخر له على دمشق هو عثمان آغا ابن شبيب من اهل الشام .

وفي لبنان كان لاحداث دمشق صداها القوي فعلى اثر حملة التطهير التي شنها الاتراك على احرار دمشق رجع الامير يوسف في صيف هذه السنة الى دير القمر واقام فيها وقد لمع نجمه ولهج الناس باسمه كثيرا ، واخيرا اكره الامير منصور حليف ظاهر على التنازل عن امارة الجبل لصالح ابن اخيه الامير يوسف في اجتماع

* عبد الكريم رافق ص ٣٨٠ .

عقد في نبع الباروك حضره مشايخ الجبل . وكتب اعيان لبنان الى عثمان باشا يخبرونه بما كان ملتمسين منه اقرار الامير يوسف واليا على الجبل مكان عمه الامير منصور . رحب الوزير بالطلب وكتب الى ولده درويش باشا وزير صيدا بأن يوجه خلع الولاية الى الوالي الجديد ففعل . ومنذ ذلك الحين استقر الامير يوسف في دير القمر منتقلا اليها من جبيل ، واستقل له الامر في الولاية على لبنان من طرابلس حتى صيدا واستوطن الامير منصور بيروت . وهكذا انحاز الجبل في صيف سنة ١٧٧١ الى جانب عثمان باشا والاتراك(١) .

وفي عكا كان لاحداث دمشق وقع سيء ايضا ، فلما وصل الى ظاهر خبر رحيل المصريين الى بلادهم عقد مجلسا من خواصه للتداول في ما ينبغي لهم عمله بعد هذه النكسة . قال ابراهيم الصباغ لظاهر: يا مولاي ان مماليك مصر لا يمكن ان يوثق بهم انظر في تواريخ ملوكهم من اول نشأتهم حتى هذا اليوم تجد انها سلسلة خيانات وغدر فان شئت وقبلت كلامي ينبغي ان تدعهم وشأنهم وعالج الامور بمهادنة الدولة وذلك بالسلام والصلح معها . فاجابه ظاهر : وما ذنب علي بك والخيانة من ولده محمد اكتب الى علي بك وخبره بما فعل ولده واستوضح منه عن سبب ذلك(٢) .

على ان ظاهر العمر رغم هذه النكسة التي حلت به استطاع ان يتغلب عليها ويخرج منتصرا من كل معركة خاضها ضد الاتراك عقب حرب دمشق مباشرة ، كما استطاع خلال شهر تشرين الاول من هذه السنة ان يقصي عثمان باشا وولديه درويش ومحمد وزيري صيدا وطرابلس عن المسرح السياسي في بلاد الشام وينزل بالامير يوسف هزيمة ساحقة ويستولي على مدينة صيدا .

هذا ما كان يجري في سوريا بعد رحيل المصريين عنها ، واما في مصر فقد ادى تطور الحوادث فيها الى نشوب نزاع مسلح على السلطة بين علي بك ومحمد بك ابي الذهب انتهى بوقوع انقلاب موال للعثمانيين بزعامة محمد بك وفرار علي بك في نيسان سنة ١٧٧٢ الى عكا ، وهو امر افقد الجبهة العربية اكبر اجزائها وقلب ميزان القوى في الشرق العربي رأسا على عقب .

١) حيدر ص ٨٨ .
٢) ميخائيل ص ١١١ ـ هكذا اورد المؤرخ هذه المكالمة .

٢ ـ معركة الحولة :

لم يكن من هدف لعثمان باشا بعد رجوعه الى دمشق الا ان ينتقم من ظاهر ليغسل عار هزيمته في حرب دمشق ، من ذلك انه جعل يستجيش العساكر ويعد العدة لمهاجمة ظاهر وبني متوال في اقصى سرعة قبل ان يأتيهم مدد من حلفائهم في القاهرة،فأرسل الى والي حلب والى ولديه درويش ومحمد يدعوهم الى حشد قواتهم بسرعة للمشاركة في المعركة القادمة على اسوار عكا ، وأرسل أيضا الى امير الجبل الجديد يعرفه بما عزم عليه ويطلب منه ان يوافيه بعسكره الى بحيرة الحولة من ناحية صور على الساحل ووهبه مقابل ذلك مال ميري الجبل عن ثلاث سنوات . امتثل الامير يوسف للطلب وجعل يحشد العسكر في نشاط ، واما مشايخ الجبل فاخذوا يتراخون ويماطلون كعادتهم في جمع العسكر من يوم الى يوم لان أغلبهم كان في الظاهر مع الاتراك وفي الباطن مع ظاهر العمر وما كان في مقدورهم ان يظهروا ولاءهم لظاهر خوفا من اميرهم الذي كان ، حسب قول المؤرخ عبود . يحب عثمان باشا ويكره الشيخ ظاهر .

وفي اواخر آب سنة ١٧٧١ خرج عثمان باشا من دمشق والتقى بحلفائه في الحولة ، عدا الامير يوسف الذي تأخر قدومه للسبب المتقدم ذكره ، واجتمع له من العسكر ما ينيف على خمسة عشر الف مقاتل .

كان ظاهر حين بلغه خروج عثمان باشا من دمشق لمحاربته قام هو الاخر بعسكره من عكا الى الناصرة وارسل الى اولاده ومشايخ المتاولة يدعوهم اليه . ان مشايخ المتاولة قدموا اليه على الفور اما اولاده فمنهم من توجه الى الناصرة ومنهم من لاقاه في الحولة وقت الحرب ، من هؤلاء ولده علي .

رتب ظاهر عسكره على ما صح عليه رأيه فنصب نفسه قائدا عاما وجعل ولده عثمان قائدا بطابور ، وعليا بطابور ، وفرسان المتاولة بطابور ضم سبعة بيارق في شمالي الحولة ، واقام ولديه صليبي واحمد على طابور واحد .

قبيل فجر الاثنين ٢ ايلول سنة ١٧٧١ بقليل وصل ظاهر الى البحيرة فاحاط بقواته عساكر الاتراك النازلين على ضفافها الغربية وسد عليهم منافذ الهرب ، ثم هاجمهم : فاقتتل الجيشان قتالا شديدا حتى ان الخيول غاصت في الدم ، ودامت حرب السيف بينهم من مطلع الفجر حتى ثلاث ساعات بعد شروق الشمس ،

فانكسر الاتراك شر كسرة ، ولما لم يجدوا سبيلا الى الهرب لاحاطة عسكر ظاهر بهم من البر القوا بانفسهم الى البحيرة وبضمنهم عثمان باشا نفسه والوزراء المرافقين له تخلصا من ضربات السيوف الهابطة على رقابهم فهلك من عسكر الاتراك خلق كثير جدا قتلا وغرقا ، وانقذ عثمان باشا من الغرق باعجوبة ووصل الى دمشق في ٦ ايلول* .

استولى ظاهر على جميع معدات الاتراك فوهب ابنه عليا الخيول والاسلحة والذخيرة واستبقى لنفسه الخيام والمدافع وعاد الى عكا . ووبخ عثمان باشا بعدئذ الامير يوسف لتقاعسه عن المساهمة في حرب الحولة واتهمه بالخيانة(٣) .

رُوي لي أن المكان الذي نزل فيه عثمان باشا في ارض الحولة سُمي على اثر هذه الموقعة «وادي عوبا» نسبة الى انكسار الاتراك فيه هذه الكسرة المعيبة، والموقع الذي تحصن فيه علي الظاهر الذي كبس الاتراك في الليل على غرة والذي يرجع اليه الفضل في كسب هذه المعركة سمي « خربة الحصينية » . واما الموقع الذي تثبت على ارضه المعركة فقد اطلق عليه « التليل » لكثرة جثث القتلى التي تراكمت عليه حتى اصبح عاليا كالتل(٤) .

٣ ـ قصيدة البحيرة للشاعر شناعه امريح :

يصف الشاعر الشعبي شناعه امريح معركة الحولة التي شهدها بنفسه في قصيدة البحيرة ويشيد فيها ببسالة ابطالها المتاولة وابناء ظاهر العمر وعلى رأسهم علي الذي يلقبه « بهزبر الخليلين » . عنوان القصيدة هو « قصيدة البحرة » من قول شناعه امريح لما ان الدولة العثمانية جردت عساكرها بقيادة والي الشام على

---

* عبد الكريم رافق ص ٣٨٠ .

٣) عبود ص ٢٠ ، ميخائيل ص ١٠١ ، فولني ج٢ ص ٩٦ ، بونا ونتوره ج٢ ص ٩٠ ، شناعة امريح « قصيدة البحرة » حيدر ص ٨٩ ـ يتحدث الامير حيدر عن هذه المعركة فيقول : « وخرج عثمان في العساكر الكثيرة والجنود الغزيرة الى ارض الحولة لمحاربة الشيخ ظاهر العمر وبني متوال الذين كانوا السبب لتلك الاحوال (اي بسبب استيلائهم مع المصريين على دمشق) فجمع ضاهر الفداوية والابطال من رجال بلاده وبني متوال وكبسوا عساكر الشام تحت غسق الظلام فابلوهم بالويل والنقم وكسروهم كسرة مهولة وغرقوا اكثرهم في بحيرة الحولة ، وهرب عثمان بنفر قليل من رجاله وقد احتوت الاعداء على وطاقه واثقاله . وكتب ظاهر الى علي بك يعلمه عن كسرة عسكر الشام » .

٤) كمال السعيد .

الزيادة بأيام ضاهر العمر » • تتألف القصيدة من خمسة وثمانين بيتا ، ومطلعها :

هام ولد امريح في قوله ورد   في قوافي شعر مـن زهر الورد

ثم يقـول :

وقعة عاينتها صارت جـديـد   كل شيء مكتوب من ربي وعد
يوم والي الشام أتى لينا مصيل   في عساكر ما لها اول وحد
قادهم رشوان من غادي حماة   ينجده عصمان عـاديرة صفد
ما يعلمون بأنها ديرة ليوث   والسعد ما زال فيها منصفد
من دمشق الشام ابو درويش ناض   والعساكر غيم والهرتـك رعد
ارسل الصـوات ليم الـدروز   جملة البدوان باشتنـا جرد
لمّ خيل البدو ما عقب كديش   والـذي محمور واللي بوجرد
وابن فاضل جاء تبريله ضعون   للنهاب يريـد واللي ينوجد
من شفا الجولان لا حصن وصريح   مقبلات اضعونهم عالغرب جد
والصقور الهم ديونـا راجبين   والسرود اجنود ما ليهم عدد
والفحيلي جاء من عرب اللجاه   خيل مثل الزلط ما ليهم عدد
صار البدو مع جيش الترك   والوزير يشور والراي انعقد
من فعاله شيخنـا للحرب ناض   تقول حرا هاض عالصيد هدد
هزبر الخيلين ابو حسين الهمام   نجل ضاهر فاق عالكـل انحمد
ارسل الصوات لا شيـخا لشيوخ   مثل ابو فراج عاكل الشدد
ضاهر المنسوب يـا نعم العقيـد   في ضراه الغيد ينعون الشدد
في علاج الترك له نجم سعيد   محمي البرجـاس بـاب الحرب سد
جرد البـارود جملة والخيول   وانتخـا عثمـان لضاهر ولد
ودعا ابو صليبي المسمى واخوه   يا لهم سيفين ضابـانه هند
وانحدر كالليث تسمعله هدير   مثل فحل الشول ناباته زرد
ارسل الصوات لاكل الجهات   لبنـي متوال دزوا لـه زرد
والمناصب مثل ناصيف العنيد   يا علي الدرويش ينخـا بو حمد
والليوث اولاد نصار السجيع   عند تمـام السعد للبـاري حمد
مقدم الجيشين ضاهر عالخصيم   مثل ما كنه اخو شما سعد

نزلوا في الخيط غربي الجسور   عـاشفير البحر صيوانه فـرد
للدروز يريدهـم تـا ينجدوه   اخرم الميعـاد ميرهم ما نفد
تاه راى الترك ما ليهم مشير   لو فليح الراي باشتنـا شرد
كان يوم الشر مصباح التنين   حين شاف جموعنا للبوش رد
صار بالجمهور راى صليبي صـاح   وانحدر عالخيط عالباشا وجد
شوف عيني عندمـا طـار العجاج   واكملوا داخول خرسان وزرد
والتقوا الجيشين في درج الفجـاج   زول مثل الهيش في بعضه زرد
والخيول تجول في عرضا وطول   والسجيع يصول والفـاين برد
والعجاج يثور والباغي عثور   والفتك منثور رصـاص وبرد
اضلم الميدان واحتار الجوبان   ضيغم الشجعان عالفرسان كد
صار ذلك الوقت شيخي مثل ليث   والشباب الكل يوروا له جلد
مثل اخو سـاره ابو حسين الهمام   والفتى عثمان كم سيفه جلد
مثل ابو نصار سياج المحصنات   من بسيفه هامة العليـا فهد
واحمد اللي فـاق عنتر في وغـاه   مثل صالح صل وكريم فهد
وانحدر للترك سعد الدين صـار   سد للبارود في كمـه صمد
كلهم صاحوا على جيش الترك   صيحة ما عـاد يعقبهـا ردد
والحديث العاديات مع الرماح   خرس ابو درويش ما منه ردد
وانحدر عـالبحر عايم مثـل حوت   والعساكـر كلهـا قفوه تـرد
دشر الصيوان ما كنه وزير   صاح عالشاويش اثنـاني ترد
والعرب عنهم تنحوا لا بعيد   واكثر الاوند بالحلفـا لبـد
من وراهـم طعـن داخول العنيـد   قحموهـم جرف راحوا للابد
ما مرق منهم ولا نفاخ نار   قول يا ستار من ليهم لبد
والنقيصة ما لها منهـم عداد   والوزير يعوم بـالبحره عمد
الف مع الفين اخذناها جميع   والخيام جميعها حتى العمـد
يـا لتروم مـن ضاهر مراد   ركن باشتنا بعون الله انهـد
صابه ما صاب فرعون الاليم   اثرت بـه وقعت البحـره انهـد
هيك تـم وصـار في جيش الاتراك   صادهم بشـراك منصبنا وهـد

فاز فيها شيخنا طول الزمان ضاهر الي صار للدولـه

زغرتن يـا بنـات في ضراه للحشر مـا عـاد يوصلكم

وافرحن ما دام ضاهر عالجواد سعدنـا كرات والصـايل

٤ ـ معركة النبطية واستيلاء ظاهر العمر على صيدا :

على اثر معركة الحولة بعثت الدولة الى يوسف الشهابي عن طريق درويش باشا ابن عثمان باشا وزير صيدا تأمره بغزو جبل عامل ومعاقبة المتاولة لمناصرتهم ظاهر العمر في حرب الحولة . استجاب الامير يوسف للطلب . وكان مما قوى فيه الرغبة في الانتقام من المتاولة هو انهم كانوا قد اظهروا له الشحناء بسبب تولية امارة الجبل مكان عمه الامير منصور في صيف هذه السنة لانهم كـانوا يبطنون الكراهية للامير الجديد ويودون الامير المعتزل حليف ظاهر . واعرابا عن سخطهم على الامير يوسف جعل المتاولة يظهرون العصاوة على درويش باشا ويتطاولون على اطراف لبنان ومرج عيون والحولة .

خاف درويش باشا على نفسه فقام عن صيدا ورحل الى دمشـق حيث مكث فيها بضعة ايام ، ثم تشدد وعاد الى صيدا وما كاد يصل اليها حتى اعلـن مشايخ المتاولة العصيان عليه وتهددوه بالحرب ان لم يرحل ثانية عن صيدا ، خـاف الوزير على نفسه وقام من ساعته ومضى الى دمشق وبعث الى الامير يوسف يخبره بمـا وقع له مع المتاولة ويطلب منه الاسراع في مهاجمتهم وتأديبهم ، ووعـده في مقابل

٥) مصيل من صال . رشوان والي تركي . عصمان هو عثمان باشا . ناض اي نهض الحرب . الصوات هو المنادي للحرب . محمور وجرد من امراض الخيل . تبرله ضعون اي ترافقه جمال لحمل المنهوبات . السرود هم عرب السرديه . اللجاه هي منطقة شرقي حوران . دزوله زرد اي نصوه . الجسور هي جسر بنات يعقوب . البرجاس نوع من سرج الخيل تكسب صاحبها منعة . الخيط هي ارض الحولة . شما هي اخت ظاهر . ناصيف وعلي الدرويش هما من مشايخ المتاولة . بو حمد هو اخو ناصيف النصار كان من الفرسان المعدودين . ابو ناصر هو صليبي بن ظاهر البكر ، وكذلك عثمان واحمد وصالح وسعد الدين . الاوند وتكتب احيانا اللوند ، فرقة تركية اشتهر رجالها بالشجاعة . الحلفا نبات في الحولة . كريم هو زوج بنت ظاهر وابن عمه . قول الشاعر كان يوم الشر مصباح التنين يؤيد وقوع المعركة في يوم الاثنين . عصمان وابو درويش هما عثمان باشا . ابن فاضل هو امير عرب الفضل في الجولان . الحصن والصريح قريتان قرب اربد في الاردن . « ميرهم » هو الامير يوسف .

ذلك بأن يسقط عنه المال الميري المقرر على بيروت وجبل الشوف عن ثلاث سنوات .

حشد الامير يوسف عسكره وبعث الى خاله الامير اسماعيل حاكم حاصبيا يطلب منه المساعدة في قتال المتاولة . واجتمع للامير يوسف جيش قوامه عشرون ألف مقاتل . سار هذا الجيش اللجب في مطلع تشرين الاول سنة ١٧٧١ الى جبل عامل عن طريق صيدا ونزل في جوارها . ولما كان درويش باشا قد رحل الى دمشق تاركا صيدا بدون حماية كافية ارسل الامير يوسف اليها بطلب من الوزير ألف وخمسمائة رجل من الدروز بقيادة الشيخ علي جنبلاط تعزيزا لحاميتها .

نهض الامير يوسف بعسكره الى جبل عامل . مر اولا بأقليم التفاح الملاصق لمدينة صيدا فنزل فيه واحرق قراه ثم اتى قرية جباع الحلاوي فأحرقها وقطع اشجارها وهدم ابنيتها . استنجد المتاولة بظاهر العمر فجاءهم بعسكره وقبل ان يقوم ظاهر بحركة ارسل الى الامير يوسف يعرض عليه التوسط بينه وبين المتاولة . وذلك بأن يمنع ظاهر كل تعدي من جانب المتاولة على لبنان ويكون في الوقت نفسه ضامنا للامير يوسف مال ميري جبل عامل ، ورجاه ان يبقى في مكانه ريثما يصل اليه ويبلغه ذلك مشافهة .

رفض الامير يوسف وساطة ظاهر بالصلح ، وتابع سيره جنوبا حتى وصل الى قرية كفر الرمان فأحرقها ثم أشرف على قرية النبطية .

وفي غضون ذلك حشد المتاولة ثلاثة آلاف فارس يقودهم علي الظاهر وبعض مشايخ المتاولـة .

وبتاريخ ٢٠ تشرين الاول وفي مدينة عكا تطوع خمسمائة فارس من المتاولة وفي مقدمتهم علي الظاهر وناصيف النصار والشيخ قبلان لرد الدروز عن جبل عامل ونذروا نفوسهم للموت في سبيل الاخذ بالثأر ، فساروا شمالا حتى التقوا في اليوم التالي بالدروز في ضواحي النبطية فباغتوهم وانقضوا عليهم بالسيوف والحراب .

ولما انتشر بين العسكر ان ظاهر العمر هو الذي يهاجمهم اصابهم الذعر واستسلموا للهرب ، وما هي الا ساعة من الزمن حتى انكسر الاميريوسف كسرة هائلةواستمرت الهزيمة عليه رغم النجدات التي تقاطرت عليه . يقول الامير حيدر المؤرخ منـددا ومعرضا بابن عمه الامير يوسف بن ملحم « ولم يكن في الزمان انكسر (اي الامـير يوسف) مثل تلك الكسرة » فقتل من عسكره ألف وخمسمائة رجل منهم من قتـل

بالسيف ومنهم من تمزق ومات تحت سنابك الخيل وكثيرون منهم عدموا عقولهم وولوا هاربين • ويضيف الامير حيدر قوله : « ولو كانت عساكر المتاولة الرئيسية وصلت اليهم ما سلم من عسكر الجبل رجل » (٦) •

وكان مما اسعف الامير يوسف قليلا وصول عسكر اسماعيل الشهابي وقر الحرب من حاصبيا وعسكر الشيخ كليب ابو نكد الذين ثبتوا في وعرة وردوا عساكر المتاولة عن الدروز وانقذوهم من مذبحة مروعة • وعاد الامير يوسف الى دير القمر مخذولا محطم النفس •

يعطي فولني سببين لانكسار اللبنانيين • اولهما عنصر المفاجئة الذي افقد الدروز رشدهم واحرج موقفهم ، ثانيهما الانقسام في صفوف مشايخ الجبل وميل بعض الدروز الى ظاهر العمر • ويعطي عبود الصباغ والراهب كرامة نفس السبب •

كانت معركة الحولة هزيمة ساحقة للاتراك كما كانت معركة النبطية انكسارا مهينا للامير يوسف واللبنانيين هاتان المعركتان قضتا على خرافة هيبة الدولة العثمانية في الشرق العربي والامراء السائرين في ركابها كما اكسبتا ظاهر العمر مكنة وقوة وفتحتا له الطريق الى صيدا عاصمة الولاية •

لحق علي الظاهر وناصيف النصار بفلول المنهزمين حتى صيدا فلما بلغ الشيخ على جنبلاط خبر هذه الكسرة الساحقة في النبطية وان علي الظاهر قادم اليه اخلى المدينة على عجل وفر الى لبنان وبتاريخ ٢٣ تشرين الاول سنة ١٧٧١(٧) دخل صيدا علي الظاهر وناصيف النصار من ناحية البر ومماليك علي بك من ناحية البحر واستولوا على المدينة باسم الشيخ ظاهر العمر، وقام القائدان بزيارة ودية لقنصل فرنسا في صيدا واكدا له حرصهما على صيانة مصالح الفرنسيين الذين لم يصابوا بأي ضرر بسبب توصيات ظاهر بهم ، واما المدينة فقد انتهبت على ايدي الجيشين الراحل والغازي ، واقام ظاهر واليا على صيدا احمد اغا الدنكزلي والى جانبه مارس احد المماليك المدعو مصطفى

٦) حيدر ص ٩٠ ، فولني ج٢ ص ٤٥ ، ٩٦ – للشاعر شناعة قصيدة اخرى طويلة يصف فيها معركة النبطية نشرها في مجلة الكلية التابعة لجامعة بيروت الاميركية احمد رضا مجلد ١٦ سنة ٢٩ – ٣٠ تحت عنوان حملة الامير يوسف الشهابي على النبطية .

٧) هيد ص ٥٥ .

بك وظيفة مثل علي بك في المدينة • وكتب ظاهر الى علي بك يعلمه بكسرة الامير يوسف في النبطية واحتلال مدينة صيدا (٨) •

اثار استيلاء ظاهر على صيدا ضجة كبرى في جميع انحاء بلاد الشام ، كما احدث وقعا سيئا في دوائر الاستانة ، فعلى اثر انتصارات ظاهر في الحولة والنبطية عزل في ٢٢ تشرين الاول(٩) عثمان باشا وولداه درويش ومحمد عن الولاية وخلف عثمان باشا في دمشق محمد باشا ابن العظم • ولم تتهيأ للدولة الفرص لاسترجاع صيدا من قبضة ظاهر الا في حزيران سنة ١٧٧٢ ولكنها لم تفلح ، كما سيأتي بيانه في الفصل الرابع عشر من الكتاب •

وقبل ان اختتم هذا الفصل بودي ان اشير الى حملات ظاهر التوسعية في حوران • ففي خريف سنة ١٧٧١ اي بعد انتصارات ظاهر في النبطية وصيدا ارسل ظاهر ولديه احمد وسعيد واستوليا على بلاد اربد وعجلون التابعة لدمشق فاستقر احمد في قرية تبنه بقضاء عجلون وتولاها • وارسل ظاهر ايضا ابنه عليا الى حوران فاستولى على قسم كبير منه كما استولى على المال الميري فيه • وفي خلال ذلك نهب علي كل ما كان يملك والي دمشق من ارزاق ومحاصيل ، وانتشر الذعر في كل مكان حتى وصل الى دمشق فتعطل فيها البيع والشراء وخلت الطرق من المسافرين(١٠) •

٨) هيد ص ٥٥ . كرامه ص ٣٩ ، عبود ص ٢١ ، فولني ج٢ ص ٩٦ – يضيف فولني انه على اثر معركة النبطية اكره الامير يوسف على الاستقالة من منصبه لصالح الامير منصور ، ولكنه (اي الامير يوسف) اعيد الى الحكم سنة ١٧٧٣ .

٩) عبد الكريم رافق ص ٣٨٣ .

١٠) بريك ص ٩٨ .

الفصل الثالث عشر

رحيل علي بك الى عكا

محمد بك ابو الذهب يصل الى القاهرة :

اصيب علي بك بصدمة قوية حين ورده خبر عودة محمد بك الى مصر فجأة بعد ان ملك الشام . اخبر محمد بك سيده ان سبب رجوعه الى مصر على تلك الصورة هو خيانة ظاهر العمر واولاده وفجور رجاله واتباعه ، وذكر له انهم اصحاب في الظاهر واعداء في الباطن وانهم قوم لا يعرفون الامانة خصوصا عليا وعثمان اللذين كانا ، حسب قوله ، يستهينان بحياة العساكر المصرية ويعرضانها بدون سبب للهلاك في بلاد غريبة والامداد لها من تركيا سهل المنال . وانهى محمد بك كلامه بقوله انه فرغ من مهمته بطرد عثمان باشا من دمشق وتطهير البلاد من آثامه .

عند ذلك كتب علي بك الى ظاهر كتابا واشحنه لوما وعتابا ، فانكر الشيخ ظاهر ما نُسب اليه والى اولاده من تهم وبعث الى علي بك يقول : ان محمد بك كان قد تملك الشام ثم تركه وارتحل عنه بدون سبب وفي ظروف مشبوهة فان كنتم تشكون في ما نقول وفي برائتنا مما نسبتموه الينا ، فاننا نرسل اليكم احد ابنائنا ليكون رهينة عندكم لتستوثقوا من صدق ما ذكرناه وتزيلوا ما عساه ان يكون قد علق قلوبكم من ضغينة .

احتال ظاهر على ولده عثمان فأركبه هو وولداه الكنج وعبد العزيز سفينة شراعية وارسلهم بطريق البحر الى علي بك مع كتاب يقول فيه : ان ولدي عثمان الذي شكوت من انه حصل من جانبه خيانة وتفريط في حياة العسكر المصري قادم اليكم فافعلوا به ما يحسن في نظركم .

استقبل علي بك عثمان الظاهر بجفاوة وجعله في ديوانه صباح مساء وبذلك اثبت ظاهر صدق كلامه وبطلان التهم التي نسبها محمد بك اليه .

كان عثمان وهو في مصر خلال الاسابيع الاخيرة من سنة ١٧٧١ يتصل بوالده من حين الى آخر فكتب اليه يوما يشكو آلام الغربة ويلتمس منه الفرج ولا سيما بعد ان بلغ عثمان اخبار انتصارات اخوته في صيدا وغيرها من البلدان ، فبعث الى والده بقصيدته الميمية . يقول فيها :

هبني اسأت وما اسأت فأين عفوك والكرم
اعطيت كلا حقه وجعلت حظي في النقم

على ان العلاقات بين علي بك ومحمد بك ازدادت سوءا بسبب رفض محمد بك الامتثال لاوامر سيده بالعودة الى بر الشام . واخيرا نشب بين الرجلين في مطلع سنة ١٧٧٢ نزاع مسلح اغرق البلاد المصرية في بحر من الدماء .

كتب علي بك الى ظاهر يخبره بالنزاع الدائر في مصر بينه وبين محمد بك ويحثه على الصبر والثبات فيوجه عثمان باشا ريثما يفرغ من تأديب غريمه . ولما وصل كتاب علي بك الى ظاهر وعرف مضمونه دعا اليه وزيره الثائر عليه ابراهيم الصباغ وقال له انك تشير علي بمهادنة الدولة العثمانية والتخلي عن حلفائي في مصر ، فما عذري عند علي بك اذا هادنت الدولة كما اشرت علي ، والخيانة من ولده محمد . لا لن اهادن الدولة في شيء فكأني بما ادفعه لها من مال لترضى علي حرقت بلادي واهلكت نفسي . لا ان ادفع للدولة مالا الا مال الميري سواء ارضيت علي ام غضبت .

جرت هذه المراسلات بين الزعيمين في خريف سنة ١٧٧١ ومطلع سنة ١٧٧٢ ، وفي خلال هذه المدة كان ظاهر في بلاد الشام قد احرز انتصارات باهرة على الاتراك في الحولة وصيدا ، وكتب الى حليفه بشأنها فتشدد علي بك في نزاعه مع محمد بك .

هذا ما كان من امر ظاهر في سوريا واما علي بك فانه هو الآخر لم يتخل عن حليفه ظاهر ، ولئن خسر ثمار حرب باهظة التكاليف بضربة واحدة من رجل باع نفسه للاتراك ، فانه لم يتخل عن مشروعاته في بلاد الشام .

ان علي بك وان كان في ظرف لا يسمح له بمتابعة ارسال حملاته العسكرية الى بلاد الشام على نطاق واسع ، الا انه في خريف سنة ١٧٧١ ارسل بعض الكتائب تعزيزا للقوات العربية المرابطة في يافا ، كما ارسل الى ظاهر عددا من السفن مثقلة بالاعتدة وادوات الحرب ، وجعل يعد العدة لتجهيز حملة اعظم من سابقتها ليصير ارسالها الى سوريا في ربيع سنة ١٧٧٢ .

على ان حملة كهذه لم تتوجه الى بر الشام لسببين :

اولهما : خسارة بعض السفن المشحونة ارزا الى ظاهر التي كان قد استولى عليها قرصان روس في سواحل دمياط .

ثانيهما : وهو الاهم خروج محمد بك ابي الـذهب على عـلي بك وتفاقم الاحوال بينهما في مصر(١) •

٢ ـ النزاع على السلطة في مصر ورحيل علي بك الى عكا :

بعد ان وصل محمد بك الى القاهرة قادماً من سوريا في خريف سنة ١٧٧١ طلب علي بك منه ان يعود الى بر الشام فأبى • وانقضى شهر تشرين الثاني وكانون الاول وعلي بك مصمم على رجوع محمد بك الى جهة الشام وذاك مصمم على خلاف ذلك • فأضمر علي بك الشر لمملوكه وجعل يترقب الفرص لاغتياله • ولم يكن ذلك بالامر السهل لوجود فئة من كبار المماليك المستاءة من كبرياء علي بك كانت تحيط بمحمد بك وتعضده في نزاعه مع سيده •

وفي محاولة للقبض على محمد بك افلت المذكور من الاسر فخرج من القاهرة بأعجوبة وفر في كانون الثاني سنة ١٧٧٢ الى الصعيد حيث جعل يحشد العساكر ويتهيأ للحرب •

أدرك محمد بك انه لا يستطيع المضي في نزاعه مع علي بك ما لم ينل التأييد الكافي من دوائر الاستانة فكتب اليها يعرفها بخروجه على طاعة علي بك وانقياده الى طاعتها راجيا ان يزود بفرمان يدعو الى نبذ طاعة علي بك ويمنح العفو والامان الى كل خارج عليه • فأرسلت الدولة اليه ما طلب •

تشدد محمد بك بهذا الفرمان وجعل يحرض الاهالي وكشاف الاقاليم على التخلي عن علي بك والالتفاف حوله متهما علي بك « بالكفر والالحاد العميق المستقر في قلبه » كما رماه بالتحالف مع « الكفار (اشارة الى الروس) لاخضاع هذه البلاد حتى يقضي على دين الرسول ويرغم اهلها على اعتناق المسيحية » •

وما زال محمد بك في ذلك حتى اجتمع له جيش كبير كامل العدة والعدد ، ثم زحف به الى القاهرة ونزل بالقرب من الجيزة •

وفي آذار ارسل علي بك تجريدة من الفرسان لقتاله يقودها اسماعيل بك وهو زميل محمد بك في الحملة المصرية على دمشق في السنة السابقة ، وما كاد اسماعيل

١) حيدر ص ٨٨ ، عبود ص ٢١ ، ميخائيل ص ١١١ ، فولني ج١ ص ١٢٢ ، شكري ص ٢٨ •

بك يطلع على الفرمان الذي يمنح العفو لكل خارج على علي بك حتى انقلب هو ايضا على علي بك وانضم بكامل قواته الى محمد بك واصبح الجيشان جيشا واحداً • وفي سهل المصاطب في ضواحي القاهرة التقى عـلي بك بالمتمردين والتحمت الحرب بينهم فتقهقر علي بك ولاذ بالفرار ودخل محمد بك ومماليكه القاهرة في موكب عظيم والسيوف مشرعة في ايديهم واستولوا عليها •

وفي ليلة ٢٨ نيسان ١٧٧٢ جمع علي بك مماليكه ومضى الى عكا مستجيراً بظاهر العمر ، ورافقه في رحلته المعلم رزق القبطي مدير خزنته وذو الفقار كاشف مملوكه الخاص وعثمان بن ظاهر الذي شهد هذه الاحداث بالاضافة الى ثمانمائة مملوك من اتباعه يقودهم علي بك الطنطاوي •

وبخروج علي بك من مصر استقل محمد بك ابو الذهب بحكم البلاد المصرية فأعلن ولاءه للسلطان وارسل اليه الاموال المكسورة منذ حركة علي بك الاستقلالية سنة ١٧٦٩ •

بعد ان قطع علي بك وركبه شبه جزيرة سيناء في اواسط ايار سنة ١٧٧٢ ، اعترض سبيلهم مسلحون من جبل نابلس يقود بعضهم احمد طوقان في نواحي يافا ويقود البعض الآخر مصطفى طوقان بين الرملة والمجدل ، وكان مرادهم التصدي لعلي بك وقتله ، فاستولوا على يافا وقطعوا الطريق على المصريين المتوجهين شمالا الى عكا •

كان ظاهر وقتئذ في عكا فلما بلغه خطورة المأزق الذي وقع علي بك فيه جمع فرسانه وسار في مقدمتهم جنوبا الى ان التقى بالمتمردين جنوب مدينة يافا فقهرهم وهزمهم ، وهكذا انتشل ظاهر حليفه من ورطته ، ومهد له طريق الامان الى عكا(٢) •

ضرب علي بك خيامه في بوابة حيفا ، وتولى عثمان بن ظاهر بعد عودته من مصر مدينة الناصرة •

طلب علي بك من ظاهر ان يساعده بالمال والرجال من اجل العودة الكريمة الى مصر • رحب ظاهر بالطلب ووعد حليفه بتجهيز حملة كبيرة من اولاده وحلفائه لتكون تحت تصرفه عند عودته •

٢) الجبرتي (حوادث سنة ١١٨٦ هـ.) فولني ج١ ص ١٢٥ ، عبود ص ٢٢ ، النمر ص ١٤٥ ، ميخائيل ص ١١٨ ، شكري ص ٢٨ •

مكث علي بك في عكا وناحيتها حتى نيسان سنة ١٧٧٣ اشترك خلالها هو ومماليكه الشاشانة الى جانب ظاهر في بعض الحروب وضحى كثيرون منهم بأرواحهم في سبيل الهدف المشترك .

والآن اي في النصف الثاني من ايار سنة ١٧٧٢ كان يقتضي على ظاهر ان يترك عكا وبلادها وفقا الشرذمة وشاكلها ويسرع الى صيدا التابعة له ليواجه الوضع الخطير الذي نشأ هناك حيث كان عشرات الآلاف من جنود يوسف الشهابي وحلفائه الاتراك يزحفون الى صيدا لاحتلالها واستردادها .

٢ – روسيا والنزاع العربي التركي :

في اواخر سنة ١٧٦٨ اعلنت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية . وفي سنة ١٧٦٩ نقلت الملكة كاترينا الثانية قسما من الاسطول الروسي العامل في مياه البلطيق الى البحر الابيض ليقوم بمهاجمة السواحل التركية واثارة الفتن في الممتلكات التابعة لتركيا ، واستطاع الاسطول الروسي الذي كان يقوده الكونت الكسي اورلوب ان ينزل بالاسطول التركي في موقعة جشمه في ٥ تموز سنة ١٧٧٠ هزيمة ساحقة ، ومنذ ذلك الحين تمتع الروس بسيطرة كاملة على مياه البحر الابيض المتوسط (٣) .

ولما كان علي بك مشتبكا في حرب مع الدولة العثمانية فقد بعث الى الكسي اورلوب في الربع الاخير من سنة ١٧٧٠ يرجوه المعونة في هذه الحرب . رحب اورلوب بالطلب ووضع نفسه واسطوله في خدمة العرب ضد العدو المشترك .

كان علي بك قبل خروجه من مصر مهزوما على يد محمد بك ابي الذهب . أرسل الى الكسي اورلوب يطلب مساعدته ويرجوه ان يمده بالذخائر وبعض الضباط . فلبى اورلوب طلبه وارسل اليه الاعتدة التي طلبها مع بعض الضباط على ظهر بعض السفن الشراعية الى الاسكندرية ، ولما كان علي بك خلال ذلك قد خرج منفيا من مصر فقد لحقت به هذه السفن الى عكا ، ومن عكا تابعت طريقها الى صيدا حيث اشتركت في حزيران سنة ١٧٧٢ الى جانب ظاهر العمر في اكبر معركة عرفتها البلاد السورية في هذا العهد ، كما سيجيء تفصيله في الفصل القادم .

٣) عبد الكريم رافق ص ٧٢ــ ، هيد ص ٥٧ ، لوتسكي ص ٣٨ – يؤرخ لوتسكي تاريخ هذه المعركة بـ ٢٥ او ٢٦ حزيران سنة ١٧٧٠ .

الفصل الرابع عشر

علي بك في عكا وحوادث عام ١٧٧٢ .

١ – سوريا في الشهور الاولى من عام ١٧٧٢ :

ساد بلاد الشام في الشهور الاولى من سنة ١٧٧٢ هدوء مشوب بالتوتر صحبه

١ – اهتمام شديد بالنزاع الجاري في مصر بين علي بك ومحمد بك ابي الذهب .

٢ – استعداد للحرب من جانب الدولة العثمانية لاسترداد صيدا من يد ظاهر العمر .

٣ – تغييرات هامة في مناصب الحكام في قواعد الولايات .

على اثر معركة الحولة عزل عثمان باشا الصادق وولداه درويش ومحمد عن الولاية كما ذكرنا . وفي شهر رجب سنة ١١٨٥ هـ ، ٢٢ تشرين الاول سنة ١٧٧١ دخل دمشق محمد باشا بن مصطفى العظم واليا خلفا لعثمان باشا المعزول ، وهو حفيد ابراهيم العظم وابن اخت اسعد العظم . وفي كانون الثاني سنة ١٧٧٢ خرج محمد باشا العظم الى الحجاز على رأس جردة الحج .

في اوائل سنة ١٧٧٢ وفي اثناء وجود محمد العظم في الحجاز دخل دمشق وزير جديد يسمى عثمان باشا المصري الملقب «بالوكيل» ، اشتق لقب المصري من توليته حديثا على مصر ولا ترمز الى اصله او بلده* . وقد أسند اليه منصب قائد ووكيل السلطان في عربستان . وحالما وصل المذكور الى دمشق كتب الى الامير يوسف الشهابي يعرفه بقدومه . يدل هذا التعيين على خطورة الاحداث الجارية في سوريا واهتمام الدولة العثمانية بمعالجتها على اعلى المستويات بالتعاون مع ولاتها في عواصم الايالات وبقي عثمان باشا المصري يشغل وظيفته في الولاية كقائد عام ووكيل السلطان حتى ربيع سنة ١٧٧٤ .

* عبد الكريم رافق ص ٢٨٣ .

على ان قدوم عثمان باشا المصري الى دمشق قد اثـار نزاعا حادا بينه وبين محمد باشا العظم بعد عودة هذا الاخير من الحجاز في ربيع سنة ١٧٧٢ انتهى بعزل ابن العظم عن الولاية ، وتولى دمشق مكانه في خريف السنة مصطفى باشا الباكجي من العراق واستمر في الولاية مدة قصيرة حتى سنة ١٧٧٣ .

لم تكن هذه التغييرات التي اجريت في جهاز الولاية بقصد شن حرب جديدة على ظاهر بل للتقرب منه أملافي عقد هدنةمعه ليتسنى للدولة التفرغ لحرب الروس بعد الهزائم المتتابعة التي منيت بها في البحر الابيض على يد الاسطول الروسي . ومن جهة اخرى لم يكن ظاهر باقل رغبة من الدولة العثمانية في عقد هذه الهدنة . يقول فولني : في هذا الوقت (اي اوائـل سنة ١٧٧٣) كـان ظاهر شديد الرغبة في مصالحة الدولة لينهي ايامه الاخيرة بسلام ولا سيما انه بلغ من الكبر عتيا بخلاف وزيره ابراهيم الصباغ الذي نهاه عن الصلح مؤكدا انه بمساندة علي بك سيتم له النصر على الدولة العثمانية ويوسع رقعة بلاده على حسابها .

لهذه الاسباب بعُد شبح الحرب عن ظاهر وتمتع في مطلع سنة ١٧٧٢ بقسط من الراحة ، فالامير يوسف انزوى في دير القمر منطويا على نفسه بعـد هزائمـه الاخيرة في صيدا والنبطية في حين كان المتاولة الفخورون بانتصاراتهم يتطاولون على بلاده في جزين واقليم الخروب . اما ظاهر فقد قبع في عكا يراقب الاحداث الجارية في مصر مضمرا في نفسه ان يدخل في طاعته الشام كله وهو يستنـد في ذلك علـى القوات المصرية التي يجري تجهيزها في مصر لارسالها الى عكا في ربيع هذه السنة على ان امنية ظاهر هذه لم تتحقق فبدلا من قدوم القوات المصرية الحليفة الى عكا قدم بدلا منها في ايار سنة ١٧٧٢ علي بك نفسه مهزوما على يد خصمه محمـد بك ابي الذهب ومستجيرا بظاهر العمر ، كما سبق ونوهنا بذكره في الفصل السابق .

كانت الدولة تعرف بالنزاع الدائر في مصر وكانت تراقب تطوراتـه باهتمام شديد فلما تحقق لها خبر انكسار علي بك رأت دوائر الاستانة ان الفرصة سانحة لمهاجمة ظاهر من جديد واسترداد صيدا من قبضته ، فرجعت عن سياسة المهادنة التي ارادت ان تسلكها حياله ولجأت الى سياسة القوة فأوعزت الى ولاتهـا في دمشـق وطرابلس وجبل نابلس بالاستعداد لمهاجمته في صيدا وفي كل مكان يحتله .

وتتيجة لهذه السياسة الجديدة اعلنت يافا وبلادها في الشهور الاولى من سنة

١٧٧٢ العصيان على ظاهر وتوجه مشايخها بالطلب من عثمان باشا المصري لمؤازرتهم ومدهم بأسباب القوة .

استقبل الوزير طلبهم بالرضا فأسند الى مصطفى طوقان الولاية (بدلا من آل النمر) على نابلس وغزة والرملة مع لقب باشا والى اخيه احمد الولاية على يافـا ، وترضية للآل النمر فقد ايدت الدولة حق ابراهيم اغا على متسلمية القدس ومنحتـه لقب باشا (١) .

كان الغرض من هذه التعيينات الجديدة في يافا وجبل نابلس التي اجريت من وراء ظهر محمد باشا العظم واثناء وجوده في الحجاز ، هو تقوية الجبهة العثمانية في جنوب سوريا لتدعم وتسند الجبهة الشمالية في دمشـق ودير القمر اسـتعدادا للعمليات العسكرية التي تقرر القيام بها في الاسابيع المقبلة لاسترداد صيدا من قبضة ظاهر . لذلك ان بلاد فلسطين التي كان ظاهر قد استولى عليها في اواخر سنة ١٧٧٠ بمساعدة اسماعيل بك قد خرجت من يده الآن بعد التجاء علي بك الى عكا ، ومـا كان في مقدور ظاهر معاقبة المتمردين في يافا ونابلس في هذا الوقت لانهماكه فـي الاعداد لمعركة صيدا التي استنزفت كل جهوده وامواله ، ولم يتسن له ذلك الا في تموز من هذه السنة اي عقب الانتهاء من معركة صيدا مباشرة ، كما سيرد تفصيله في نهاية هذا الفصل .

٢ ـ الحرب من اجل صيدا واشتراك المسكوب في القتال الى جانب العرب :

في ربيع سنة ١٧٧٢ بدأت بوادر العدوان على ظاهر تظهر في الافق من ذلك ان الدولة ارسلت الى عثمان باشا المصري تأمره بتجهيز حملة كبيرة استعدادا لاسترداد صيدا من قبضة ظاهر واستعادة هيبة السلطان في سوريا .

في ايار سنة ١٧٧٢ حشد عثمان باشا قواته وبعث الى يوسف الشهابي يحثه على جمع العسكر والتوجه الى صيدا للمشاركة في حصارهـا وطرد احمـد اغا الدنكزلي وكيل ظاهر منها ، ومقابل ذلك فقد صدر «خط شريف» يمنـح الامير يوسف مال ميري بيروت والجبل عن تلك السنة كخرج عسكر له .

امتثل الامير يوسف للطلب فجمع عسكره البالغ عشرين ألف مقاتل ونزل بـه

---

١) فولني ج٢ ص ٩٧ ، النمر ص ١٤٧ .

على عين السوق قرب السقانية في ضواحي صيدا ، وانضم اليه خليل باشا الدالي الذي اشترك سنة ١٧٧١ في حرب دمشق ، وكان من فرسان العصر المشهود لهم بالبسالة ، وبصحبته وزير صيدا واحمد بك الجزار وعساكرهما بالاضافة الى عساكر ترك نحو الالف فارس ومدافع وزنبركات وغير ذلك . كان يقود هذه الحملة سبعة باشوات على رأسهم عثمان باشا المصري .

وفي اواخر ايار سنة ١٧٧٢ تحرك الامير يوسف والشيخ علي جنبلاط والباشوات السبعة الى صيدا وضربوا عليها الحصار سبعة ايام .

تضايق احمد الدنكزلي وبعث الى عكا يستنجد بظاهر العمر ، وفي اليوم الثامن وبينما كان الدنكزلي يستعد للتسليم لانقطاع الامل في قدوم المساعدة اليه من عكا وقع ما لم يكن في الحسبان : اسطول حربي روسي يظهر في مياه صيدا فجأة ويمطر عساكر الدولة بالقنابل ، ارسله ظاهر من عكا لمعونة الدنكزلي في محنته ، فارتد يوسف الشهابي وحلفاؤه الاتراك عن المدينة بعد ان كانت على وشك التسليم وتقهقروا الى مكان في الضاحية يدعى الحارة حيث نشبت بعد ايام قليلة اعظم معركة شهدتها سوريا واكثرها تنظيما .

مر بنا انه كان لروسيا في هذه الفترة اسطول في البحر الابيض المتوسط يقوده الكونت الكسي اورلوب وقد عهد اليه في اثارة المتاعب للدولة العثمانية والتصدي لسفنها ومهاجمتها . توجه قسم من هذا الاسطول اولا الى الاسكندرية لمساعدة علي بك في حربه ضد خصومه في مصر ولما كان علي بك قد غادر مصر مهزوما الى سوريا فقد ابحر الاسطول الى عكا وكان وصوله اليها في نفس اليوم الذي كان فيه الاتراك واللبنانيون يكيلون ضرباتهم لصيدا : فأقلع اصحاب السفن الى صيدا لمؤازرتها بطلب من ظاهر .

كذلك حشد ظاهر عسكره وبضمنهم مماليك مصر وزحف الى صيدا تلبية لنداء الدنكزلي المحاصر . والجدير بالذكر ان علي بك لم يرافق ظاهرا الى صيدا لانه كان مريضا (٢) .

٢) عبود ص ٢٢ ، الشدياق ص ٣٩٠ ، حيدر ص ٩٢ – «كان الاسطول الروسي يتألف من خمسة مراكب مسكوبية حربية كبيرة وجملة قطع اخرى صغيرة كانت ارسلت الى مدينة عكا نجدة من كاترينا الثانية ملكة المسكوب الى الشيخ ظاهر العمر . ويضيف المؤرخ « وامر ظاهر المراكب بالتوجه الى صيدا وفي حال وصولها بدات بضرب عساكر الامير يوسف المحيطين بالمدينة » .

لما وصل ظاهر الى صيدا ارسل الى يوسف الشهابي النازل بجوارها من الشمال رسولا يدعوه الى الانسحاب من مواقعه والرجوع بعسكره الى جسر نهر الاولي ريثما يتفقان على أمر حقنا للدماء ، وأفهمه بجلاء انه اذا لم يقبل نصحه فسيهاجمه ويجليه عن المكان بالقوة ، على ان الامير يوسف لم يمتثل للطلب ، فزحف ظاهر الى موقع براك التل طالبا الحرب والنزال .

بلغ مجموع القوات العربية ثمانية آلاف مقاتل بينهم ستة آلاف من المتاولة والصفدية وثمانمائة من المماليك المصريين وألف من المغاربة المشاة ، وكانت اسلحتهم السيوف والزرافات اي الحراب القصيرة . اماالقوات التركية واللبنانية فقد زاد عددها على ثلاثين ألف مقاتل ، بالاضافة الى ثمانية مدافع ، بينهم عشرة آلاف فارس والباقون من المشاة . وبعبارة اخرى كانت القوات العثمانية تزيد على ثلاثة اضعاف القوات العربية .

قسم الاتراك قواتهم الى فرق وفصائل احتلت السهل بكامله في خط واحد من الشاطىء غربا حتى حد الجبل شرقا . تخصص الجناح الغربي منه بالدروز الذين تحصنوا في الخنادق وخلف المتاريس ، وشغل الجناح الشرقي المحاذي للجبل مشاة الامير يوسف المسلحون بالبواريد والطبنجات والذين كانوا كرمل البحر في كثرتهم . اما الجبهة الوسطى فقد ضمت فرسان الاتراك والدروز يقودهم خليل الدالي واحمد الجزار ومعهم المدافع الثمانية .

اتخذت القوات العربية لنفسها مكانا موازيا للقوات التركية يمتد من البحر غربا حتى قاع الجبل شرقا . وحرص ظاهر على أن يكون لقواته نفس المساحة في السهل كما كان للاتراك رغم قلتها ، ورتبها في ثلاث جبهات : الاولى في الجناح الغربي مقابل الدروز يقود هذه الجبهة علي بن ظاهر وتسندها سفن المسكوب الراسية بمحاذاة الساحل ، والثانية في الجناح الشرقي بقيادة ناصيف النصار ويتكون عسكره من المتاولة والمغاربة الذين شغلوا اكبر مساحة في السهل ، واما قلب الجبهة فقد ضم مماليك مصر وفي مقدمتهم علي بك الطنطاوي ، ووقف خلفهم في المؤخرة ظاهر العمر الذي كان ، على ما رواه فولني ، رغم سنيه الثلاث والثمانين يبعث في رجاله القوة والحماس بكلامه ومثاله (٣) .

٣) عبود ص ٢٢ ، فولني ج٢ ص٩٨ .

في صباح ١١ حزيران سنة ١٧٧٢ (٤) وفي سهل الغازية شمال صيدا التقى الفريقان في عراك رهيب ، وما ان اطلقت سفن المسكوب اولى قنابلها على جناح الاتراك الغربي حتى أخلى الدروز مواقعهم وارتدوا الى الوراء ارتدادا غير منظم فتبعهم علي الظاهر واشتبك معهم في القتال . وفي الجناح الشرقي اشتبك المتاولة والمغاربة بمشاة الامير يوسف واقتتلوا قتالا شديدا فانتصر مشاة الامير على المتاولة وازاحوهم عن مواقعهم . اما المماليك في الجبهة الوسطى فقد زحفوا الى الامام في خط واحد وبسرعة فتصدى لهم خليل باشا وفرسانه وفي مقدمتهم المدافع الثابتة ولما وجد رجال المدفعية انفسهم بين صفين من الفرسان ، الاتراك من الخلف والمماليك من الامام ، اطلقوا نيران مدافعهم دفعة واحدة على المماليك فأوقعوا بهم زهاء مائة قتيل وتراجعوا الى الوراء فدفعت الحمية اخوانهم المصريين الى تشديد الهجوم واحتدم القتال .

واراد علي بك الطنطاوي ان يبرهن على شجاعته امام مضيفه ظاهر فاقتحم بشرذمة من رجاله كتيبة خليل باشا واحمد الجزار وجال فيها بسيفه يحز الرقاب ويجندل الابطال حتى اصبح على مقربة من مدافع الاتراك فأغار عليها واختطف رجالها ، وهنا اصبح الطنطاوي وجها لوجه امام خليل باشا فأحاط بفرقته ثم اخترقها ومزقها . ودامت حرب السيف ساعة حتى نزلت الفوضى بعساكر خليل باشا وتقلقلت صفوفهم فتقهقروا وقهقروا من كان خلفهم من الفرسان ، وعند كسرة الفرسان انكسرت المشاة . وفي اقل من ساعة كان سهل الغازية خاليا من اللبنانيين والاتراك ودامت المعركة منذ بدء الصدام حتى نهايته ساعتين .

وهكذا استطاعت القوات العربية خلال ساعتين ان تهزم جيوشا تفوقها عددا وعدة وخبرة ، فهرب الامير يوسف والباشوات السبعة الذين قادوا المعركة وبقيت صيدا في قبضة ظاهر .

خسر ظاهر في المعركة نحوا من الف قتيل اكثرهم من المتاولة ، وخسر الاتراك سبعمائة قتيل بينهم مائة فقط من عساكر الامير يوسف . ان قلة قتلى عساكر الجبل يدل ، كما ذكر اكثر من مؤرخ ، على ان الدروز لم يحاربوا حربا جدية لان ميلهم كان دوما الى جانب ظاهر العمر .

٤) هيد ص ٥٧ ، عن كتاب قنصل فرنسا في صيدا تاريخ ١٧٧٢/٧/٣١ وهو ارجح ما روي عن تاريخ هذه المعركة التي يختلف المؤرخون حول تاريخ وقوعها .

قضت هذه الموقعة على سمعة الدولة العثمانية في البلاد العربية وانزلت هيبتها الى الحضيض . يقول الامير حيدر في معرض كلامه عن هذه الهزيمة : كان الدروز في تقهقرهم يهاجمون الاتراك المنهزمين ويشلحونهم ولذلك سار خليل باشا الى دمشق وهو ناقم على الدروز .

ويشيد الامير حيدر ببسالة علي بك الطنطاوي وكذلك بالدور الذي لعبه خليل باشا في المعركة الذي قام على حد قول المؤرخ بافعال تعجز عنها اشجع الشجعان اذ لولاه لما سلم من عساكر الدروز والاتراك انسان . ولم ينس المؤرخ احمد بك الجزار فقد اثنى على شجاعته ايضا وقال انه فعل في ذلك اليوم فعال الفرسان الابطال . وعاد الجزار بصحبة خليل باشا الى دمشق (٥) .

اما الرواة المعاصرون فيشيدون بشجاعة علي بن ظاهر العمر في هذه الحرب ويقولون انه هو، لا علي الطنطاوي، الذي اغار على مدفعية الاتراك وأسر رجالها. ويستشهدون على ذلك بهذه الابيات الغنائية الجميلة :

عرب واتراك جونا صايلينا
من العرقوب جونا صايلينا
علي الضاهر يا عقيد الصايلينا
طفى البارود بحز الحراب (٦)

ويشيد الشاعر ببسالة علي في هذه المعركة فينشد :

علي يا راعي الرقبه مهزوق
بضرب الطوب والقنبر مهزوق
سبع باشات والثامن مهزوق
ولا السلطان تحسب له حسابا

علي بو حسين ما مثله علي
وشبه ليثا تحدر من عليّة

٥) حيدر ص ٩٣ ، الشدياق ص ٣٩٠ ، كرامة ص ٤٠ ، فولني ج١ ص ١٢٥ .
٦) ابو حمد شمدين ، والاستاذ مراد في القاموس سابقا – العرقوب من اقاليم جنوب لبنان .

علي ما طاع للدولة العليـة
كسرها والبيـارق واقفـــة (٧)

كان علي الظاهر من فرسان العرب المعدودين في عصره وقد اشتهر شهرة لم يبلغها حتى والده ، وكان مجرد ذكر اسمه كافيا لالقاء الرعب في قلوب عساكر الاتراك • قيل انه كان يستخف بالناس ولم يكن يركب جواده الا لقتال الف فارس او يزيد كما انه لم يكن يحسن القتال الا وهو على ظهر الجواد ، ولئن قهر وقتل في النهاية فبالخديعة والغدر ، كما سيجيء تفصيله في الفصل العشرين •

ورد في بعض المراجع انه في خلال ايلول وتشرين سنة ١٧٧٢ اعاد الامير يوسف الهجوم على صيدا المرة تلو المرة بايعاز من وزير دمشق في محاولات عديدة لاحتلالها ولكنه اخفق فيها كلها(٨) •

٣ ـ سفن المسكوب تهاجم بيروت :

في الوقت الذي بدأ فيه ظاهر العمر يجدد عمران مدينة عكا ويقيم التحصينات فيها استولى الامير ملحم الشهابي سنة ١٧٤٩ على بيروت ثم ضمنها بطريق الالتزام من وزير صيدا لقـاء مبلغ من المـال • ومنذ ذلك الحين دخلت بيروت في ولاية الشهابيين كما دخلت في نفس الوقت عكا وحيفا ضمن نفوذ ظاهر العمر •

بلغ عدد سكان بيروت في اواسط القرن الثامن عشر ستة الاف نسمة ، وكان يحيط بها سور قديم متهدم • واصبحت منذ سنة ١٧٤٩ مسكنا لامراء الجبل وثغرا هاما للبنان يصدرون منه محصول بلادهم من قطن وحرير وحبوب من ناتج البقاع وحوران ويستوردون منه الارز والدخان والقهوة وغير ذلك ، وسرعان مـا أخذ ثغر بيروت ينافس ثغري صيدا وطرابلس في تجارتيهما • بنى الشهابيون في بيروت ابنية كثيرة منها قيسارية الامير منصور وخـان الملاحة للامير ملحم ، وهنـاك ابنية اخرى كثيرة ترجع الى ذلك العهد بناها ال ابي اللمع وال عبد السـلام العمـاد وال تلحـوق وغيـرهم •

والجدير بالملاحظة هنا ان استيلاء ملحم الشهابي على بيروت وظـاهر العمر على عكا وحيفا في هذا الوقت بـالذات وتوجيه عنـايتهما الى اعمـار هذه البلاد

٧) محمد الخطيب ـ الرقبة اسم للفرس ، مهزوق اي ما هزوك • الطـوب والقنبر اي المدافع والبارود • باشات اي باشـوات ، ابو حسـين كنيـة علي نسبة الى ولده الحسين •
٨) كرامة ص ٤١ ، هيد ص ٥٩

الساحلية ، لهو خطوة تقدمية قومية وعمرانية في نفس الوقت اقتضتها سنة التطور وحاجات الامم الناشئة المتحررة ، كما يدل ايضا على ادراك كاف من جانب هذيـن الحاكمين العربيين لاهمية البحار والطرق البحرية في حياة الامم •

بعد انتهاء القتال في صيدا وارتفاع القوات المتحـاربة عنهـا في ١١ حزيران توجهت سفن المسكوب بعدايام باشارةمن ظاهر العمرالى بيروت وقصفتها بالمدافع لتحطيم المراكب العثمانية الراسية في مياهها انتقامامن الامير يوسف وعقابا له لمناوءته مع العثمانيين في الهجوم الاخير على صيدا، فاحرق بحارة هذه السفن ـ وكان اكثرهم من اليونانيين الذين يعملون في الاسطول الروسي بالاجرة ـ ثلاثمائةبيت فيالمدينة وبعض الابراج كما نزلوا الى البر ونهبوا المدينة وتملكوهابضعةايام وكان قائد هذه الحملةالبحرية يسمى ريزو •

وخوفا من ان تسقط بيروت فيبد ظاهر العمراو المسكوب جمع الامير يوسف عسكره ومضى الى قرية الحدث عازماعلى القتال من اجل بيروت، وكتب في الوقت نفسه الى عثمان باشا المصري في دمشق يلتمس منه المعونة لحماية بـيروت مـن ظـاهر وحلفـائه المسكوب •

كان الانقسام يسود صفوف الامراء الشهابيين ولذلك كان من العسير على الامير يوسف حماية بيروت مما يهددها حتى ولو لجأ الى القتال من اجلهـا وذلك لوجود ظاهر في صيدا المجاورة لها • فاتصل عقلاء الجبل بـالامير منصور ورجوه استخدام صداقته لدى ظاهر لوقف الاعتداء الروسي عن بيروت • فكتب الامـير منصور الى ظاهر يرجوه اخراج الجنود الروس من بيروت ورفـع سفنهم عنهـا فرفعها في ٢٣ حزيران* بعـد ان استوفى امير السفن المسمى سنبيكو خمسة عشر كيسا خرج عسكر له من الامير يوسف ، فأقلع المسكوب الى عكا ودخل الامـير يوسف بيروت (٩) •

٤ ـ احمد بك الجزار يتولى بيروت :

مر بنا ان التنافس على امارة الجبل بين الاميرين يوسـف ومنصور ظل قـائما منذ سنة ١٧٧١ ، ولئن اعتزل الامير منصور الحكم واستقر في بيروت فبالظاهر فقط

* عبد الكريم رافق ص ٣٨٥ •
٩) الشدياق ص ٣٩١ ، هيد ص ٥٩ ، لوتسكي ص ٣٩ •

لانه استمر ينازع ابن اخيه على الامارة ، تارة في الجهر وتارة في الخفاء ، وكان للامير منصور مريدوه ومؤيدوه في لبنان وخارج لبنان يعملون على اعادة تنصيبه اميرا على الجبل • لذلك جاء الاعتداء الروسي على بيروت ورفعه على يد الامير منصور وظاهر العمر معززا لمخاوف الامير يوسف ومبررا (من وجهة نظره هو) لطلبه المعونة من ولاة دمشق ، مفضلا الارتماء في احضان عثمان المصري والاتراك على التضامن مع قادة العرب الاحرار •

رحب عثمان باشا بطلب الامير وكانت له مآرب خاصة في بيروت يعمل لها منذ زمن بعيد وهي اضعاف شوكة الشهابيين ورفع ايديهم عن بيروت • لذلك ما كاد يصل الى عثمان باشا طلب الامير يوسف منه بالمساعدة على حماية بيروت من الروس حتى ارسل اليه في خريف سنة ١٧٧٢ احمد بك الجزار مع ثلاثمائة من جند المغاربة بصحبة كتخداه الخاص المدعو محمد آغا ، على ان يكون الجزار متسلما تابعا للامير يوسف في المدينة •

ولخوف الامير يوسف من عمه الامير منصور وظاهر العمر قبل ان يكون احمد الجزار نائبا عنه في بيروت كي يحصنها بمعرفة حكام دمشق ويحميها من ظاهر والمسكوب • ومما رغب الامير يوسف في ذلك ما كان له من جميل سابق على الجزار عندما قدم هذا الاخير لاجئا الى دير القمر في ربيع سنة ١٧٧١ وما قام بينهما من اواصر الود ووحدة المصالح والاهداف ، كما سيرد ذكره في الفصل القادم •

اثار تعيين الجزار على بيروت موجة من السخط في كل مكان ، وكان ممن حذر الامير يوسف من شروره ونهاه عن تعيينه محمد اغا نفسه كتخدا عثمان باشا الذي اصطحب الجزار الى بيروت ، وكذلك الامير منصور فقد داخله السخط من قدوم الجزار الى بيروت • قيل ان الامير منصور رشا مغربيا يسمى « ابو عقلين » ليقتل الجزار ، فكمن المغربي للجزار في حرج بيروت واطلق الرصاص عليه فأصيب الجزار في عنقه وجرح ، فأقام الامير يوسف طبيبا لمعالجته حتى شفي ، وقتل المغربي وبعث محمد بك ابو الذهب ايضا الى الامير يوسف يحذره من شر الجزار شارحا له ما اتاه الجزار في مصر من قبيح الفعال قبل هربه منها وطلب من الامير يوسف ان يقتله ويرسل اليه رأسه في مقابل مائتي الف ريال • واعتذر الامير يوسف عن قتل الجزار

بحجة ان قتله سيثير عليه غضب الدولة لان قدومه الى بيروت كان بأمر منها(١٠) • وسرعان ما اتضح للملأ صدق نصح الناصحين • فلم يكد يمضي على تولي الجزار لبيروت اسابيع قليلة حتى كشف عن نياته فشرع في ترميم سور المدينة وقلاعه وابراجه واخذ يهيىء الميرة وآلات الحرب استعدادا للعصيان ، ولم يطل الزمن حتى منع الاهلين من دخول المدينة وحظر خروج اي شيء منها •

عندما اخذ الامير يوسف علما بما يجري في بيروت رأى في ذلك بوادر عصيان من جانب الجزار لا يجوز السكوت عنها ، فجمع عسكره وسار في اواخر سنة ١٧٧٢ الى بيروت ونزل في قرية بعبدا القريبة منها قاصدا قتال الجزار واخراجه من بيروت بقوة السلاح • وكتب في الوقت نفسه الى عثمان باشا يشكو من الجزار ويستنجد به عليه ولكن بدون جدوى • فأدرك الامير يوسف عندئذ انه خدع وبدأ يتفهم الاسباب التي من اجلها ترتب الجزار متسلما على بيروت •

٥ – التدخل الروسي في صيدا وبيروت واثره في المحافل الاجنبية :

ان الحروب المتتابعة التي وقعت في البلاد بين سنتي ١٧٧٠ – ١٧٧٢ اضرت بالزراعة والتجارة المحلية والاجنبية وخصوصا بالتجارة الفرنسية رغم مساعي ظاهر وعلي بك في المحافظة عليها • لذلك لم يقابل الفرنسيون ثورة ظاهر بالرضا لانهم كانوا يتطلعون قبل كل شيء الى السلام والاستقرار السياسي اللازمين لتجارتهم • لهذا السبب وقف الفرنسيون الى جانب الاحزاب الموالية للدولة العثمانية ، من ذلك ان فرنسيي مصر ايدوا محمد بك ابا الذهب بعد فرار علي بك الى عكا ونصروه على خصمه ، كما ان قنصل فرنسا في القاهرة منع السفن الفرنسية من تزويد عكا بحاجاتها من الارز • هذا من جهة ومن جهة اخرى ان هزيمة الاتراك في صيدا سلبت الفرنسيين الامل في ان تستطيع حكومة الاستانة اعادة الاستقرار الى البلاد رغم اعتقاد ذوي الخبرة ان الثائرين ظاهر العمر وعلي بك لن ينجحا في المحافظة على حكمهما الى وقت طويل • هذا الاعتقاد الذي تعزز كثيرا بعد خروج علي بك من مصر •

(١٠) حيدر ص ٩٤ ، عبود ص ٢٢ – كان مصير يوسف الشهابي الذي آوى الجزار في بلده ووثق بالدولة وحارب من اجلها ، القتل شنقا وهو في مقتبل العمر على يد الجزار في عكا سنة ١٧٩١ •

لذلك جاء التدخل الروسي في معركة صيدا معاكسا لرغبات الفرنسيين ومثيرا لمخاوفهم لان تدخلا كهذا من شأنه ان يعزز مكانة الروس في البلاد المقدسة ويمتن روابطهم بابناء الروم الارثوذكس فيهـا • وبهذا الخصوص كتب قنصل فرنسا في صيدا في شهر حزيران سنة ١٧٧٢ (اي بعد انتصار ظاهر العمر في صيدا بأيام قلائل) الى وزير بحرية فرنسا يقترح عليه ارسال ثلاث سفن الى الساحل السوري لحماية الرعايا الفرنسيين وتجارتهم وان تقوم في الوقت نفسه باحتلال عكا وصيدا باسم السلطان العثماني • ويضيف القنصل قوله ان هذا الاجراء سيعيد الى فرنسا هيبتها في الشرق العربي التي تردت كثيرا في الزمن الاخير ، واضاف بأنه لا يوجد ما يحمل على الخوف من ان يقوم علي بك حليف ظاهر باجراء انتقامي ضد الفرنسيين في مصر لانه غلب على امره وخرج منفيا من بلاده •

رفضت الحكومة الفرنسية هذا الاقتراح كما رفضته ثانية عندما جدد القنصل اقتراحه لها في تشرين الاول عقب انكسار الاتراك ثانية في صيدا في خريف هـذه السنة ، لان الحكومة الفرنسية ذات العلاقة الحسنة بالاستانة ، كانت تعرف حق المعرفة ان السلطان لن يوافق على تدخلها في شؤون البلاد العربية بهـذا الشكل . أضف الى ذلك ان الحكومة الفرنسية لم تكن ترغب في الاساءة الى علاقاتها الحسنة بالاستانة خوفا على التجارة الفرنسية الضخمة في الشرق • ومن جهة اخرى ان تدخل فرنسا في شؤون البلاد العربية من شأنه ان يزيد الحالة الدولية تعقيدا في اوروبا ، كما سيسيء اكثر الى العلاقات الفرنسية الروسية التي لم تكن على ما يرام في هـذه الحقبـة من الزمـن •

لهذا السبب لم تعمل الحكومة الفرنسية باقتراح قنصلها في صيدا وان جل ما فعلته في هذا الشأن هو انها اصدرت اوامرها في اواخر سنة ١٧٧٢ الى تجارها وقناصلها بلزوم مبارحة سوريا على وجه السرعة اذا لم يطرأ تحسن عـلى الحالة العـامـة فيهـا (١١) •

٦ ــ حصار يافا سبعة اشهر على ايدي قوات ظاهر العمر وعلي بك :

في الوقت الذي كان فيه الامير يوسف الشهابي في لبنان يطلب المعونة من عثمان باشا المصري لحماية بيروت من ظاهر العمر والمسكوب ، كما قدمنا ، كان

١١) هيد ص ٥٩ .

ظاهر وحليفه علي بك يستعدان لمهاجمة يافا وجبل نابلس لتطهير طريق عكا ــ القاهرة من كل عائق او مخرب •

بعد انتهاء الحرب في صيدا في حزيران سنة ١٧٧٢ وجد ظاهر نفسه مرغما على القيام بعمل عسكري لتأديب العناصر الموالية للاتراك في يافا والساحـل الفلسطيني لم ينس ظاهر حادث قطع الطريق على علي بك في ايار من هذه السنة ولا الحركات المعادية له في جبل نابلس •

وكان مما زاد هذه الحركات تفاقما في الآونة الاخيرة حملة التشهير التي شنها الاتراك واعوانهم العرب على ظاهر وعلي بك والتنديد بموقفهما من قضايا العروبة والاسـلام •

اتهم الاتراك ظاهر العمر وعلي بك بأنهما قد خرجا عن درب الاسلام واتبعا ملكة المسكوب عدوة المسلمين واتفقا معها على محاربة العثمانيين حماة الشريعة والدين معلنين انه قد حل لكـل مسلم قتالهما ونهب حريمهما واموالهما(١٢) •

لم يكن ظاهر يرغب في التعرض لجبل نابلس لان الجبل لم يكن ذات قيمة استراتيجية له ، بل كان جل همه موجها الى اخماد نار الثورة في يافا والرملة واللد وغزة وهي البلاد التي كانت بمقام شريان الحياة له لوقوعها على طريق عكا ــ القاهرة ... الطريق البرية الوحيدة بين القطرين المتحالفين ، وتعتبر بحق مفتاح سوريا من الجنوب • لذلك كان التمرد في يافا وبلادها مصدر قلق لظاهر ولم يكن يطيب له العيش الا باخمـاده •

بدأ الصدام بين ظاهر ومشايخ جبل نابلس بسبب استيلاء بحارة يافا على سفينة كانت مبحرة الى مصر وتحمل الامتعة والذخيرة الى علي بك قبل رحيله الى عكا ليستعين بها في حربه ضد خصومه في مصر (١٣) •

وفي رواية اخرى اكثر وضوحا مع بعض اختلاف ان ظاهر العمر اغتاظ من يافا المتمردة لقطعها الطريق على علي بك يوم وصل الى اراضيها في ايار من هـذه السنة وهو في الطريق الى عكا ، ثم استنجادها بمشايخ نابلس لمحاربته ووقف تقدمـه ، لذلك ارسل ظاهر الى يافا على سبيل الانتقام « بركنده » اي قطعة من الاسطول الروسي الذي كان يعمل وقتئذ بأوامر منه ، وحالما وصلت « البركنده »

١٢) حيدر ص ٨٧ .
١٣) فولني ج١ ص ١٢٦ .

الى مياه يافا سلطت مدافعها على المدينة وامطرتها بالقنابل ، فنزل اليها بحارة يافا واستولوا عليها وقتلوا عددا من بحارتها واغرقوا عشرة انفار واسروا الباقين ثم جاؤوا بالاسرى الى احمد طوقان متسلم يافا .

كان مصطفى طوقان وقتئذ في نابلس فلما بلغه الخبر طلب اسرى السفينة الروسية اليه فلما حضروا قتلهم وقطع رؤوسهم قاصدا بذلك ارضاء صديقه عثمان باشا المصري واحراج موقف ظاهر مع حلفائه الروس .

ولما بلغ ظاهر العمر ما جرى لاسرى السفينة الروسية جن جنونه واقسم بأنه سيهاجم نابلس ولن يتراجع عنها هذه المرة ما لم يسق حصانه من عين الست الواقعة في قلب المدينة ، وصار ينهب قوافل نابلس ويقطع الطرق المؤدية اليها(١٤) ، كما جعل يستعد لغزو يافا وبلادها لاخضاعها واخماد التمرد فيها .

في تموز سنة ١٧٧٢ حشد ظاهر وعلي بك عساكرهما وتوجها الى الساحل الفلسطيني ، فاستسلمت لهما الرملة واللد وغزة ، واما مدينة يافا الحصينة المحاطة بسور فقد اعلنت العصيان ولم تستسلم رغم العروض السخية التي قدمت لحكامها تجنبا للحرب وحقنا للدماء . لذلك اقام ظاهر وعلي بك الحصار عليها برا وبحرا .

طال الحصار على يافا شهرا بعد شهر ، ومع ذلك لم يكن في وسع المهاجمين اختراق السور ، على ضآلته، لان فرسان المماليك وعسكر ظاهر لم يكونوا يحذقون اساليب الحصار او هذا الضرب من القتال ، الذي يصلح للمشاة لا للفرسان ، بقدر ما كانوا يتقنون فنون الغزو وحرب السيف . وكان المماليك يزعمون انه لا يليق بهم النزول عن خيولهم والقتال على الارجل ، لذلك تنحى المماليك جانبا تاركين هذا النوع من القتال للمغاربة جنود ظاهر المشاة الذين تحملوا العبء الاكبر من هذه الحرب . واخيرا عمد المماليك الى تضييق الخناق على المحاصرين حتى اذا ما ضاق الحال عليهم وعضهم الجوع بنابه القوا السلاح واستسلموا لهم .

وهكذا وبعد حصار مرهق دام سبعة اشهر استسلمت يافا للمهاجمين في ١٦ شباط سنة ١٧٧٣ وتولاها بالاضافة الى غزة واللد والرملة علي بك بالنيابة عن ظاهر (١٥) .

١٤) النمر ص ١٤٦ ـ عين الست هي العين المجاورة لسراي نابلس القديمة الكائنة في جدار المقبرة المدفون فيها صالح باشا جد مصطفى طوقان .

١٥) بريك ص ٩٨ ، فولني ج١ ص ١٢٦ وج٢ ص ١٠٢ ، عبد الكريم رافق ص ٤٠٩ .

٧ـ ظاهر العمر يستولي على نابلس :

بعد ان استولى ظاهر على يافا في شباط سنة ١٧٧٣ زحف بعسكره الى نابلس لمحاربة مشايخها الذين كانوا السبب في كل ما اصابه من متاعب في يافا والساحل الفلسطيني . اقتحم ظاهر جبل نابلس من ناحيتين : اللجون من الشمال وباقة الغربية من الغرب . وفي مشارف نابلس اشتبك ظاهر مع البكوات والاغوات في معركة ضارية فكسرهم وشتت شملهم ثم دخل المدينة وبرفقته يوسف الجزار مبعوث مشايخ نابلس للسلام . وبعد ان سقى ظاهر حصانه من عين الست كما اقسم وتعهد عقد اتفاقا مع المشايخ ، وكان من اهم بنوده التزام مشايخ المدينة بنبذ طاعة عثمان باشا وزير دمشق ومصطفى طوقان ، ثم ارتفع عن بلادهم . وبهذا الاتفاق اصبحت سوريا الجنوبية كلها خارجة على الدولة العثمانية ولكن الى وقت قصير .

لاذ مصطفى طوقان بالفرار ومضى في ربيع سنة ١٧٧٣ هو واخوه احمد بك واتباعهما بطريق البحر الى لبنان ونزلوا ضيوفا على الامير يوسف الشهابي وقد جمع بينه وبينهم الولاء للدولة العثمانية والعداء لظاهر العمر . الا انه في حزيران سنة ١٧٧٣ وبعد عقد الصلح بين ظاهر العمر والامير يوسف على جسر نهر الاولي بجوار صيدا ، كما سيرد ذكره في الفصل القادم ، لم يستطع مصطفى بك البقاء في لبنان ، فرحل الى دمشق ومنها الى الاستانة مزودا بالتواصي من عثمان المصري الى الباب العالي ، ثم توجه بعد مدة قصيرة الى مصر ، وفي حوالي تموز سنة ١٧٧٤ وبطلب من محمد بك ابي الذهب اقام الباب العالي مصطفى بك واليا على مصر (١٦) . كان الغرض من هذا التعيين الاستعانة به وبأنصاره في نابلس ويافا ليكونوا مساعدين لمحمد بك في مشروعه الذي كان يسعى اليه منذ امد طويل ، وهو غزو سوريا والاستيلاء بوجه خاص على يافا وبلادها التي كان يزعم بأنها تابعة له وخاضعة لسلطانه .

والان اي في اذار سنة ١٧٧٣ ، وبعد ان مهد ظاهر طريق عكا ـ القاهرة بالامان عقب حرب باهظة التكاليف في يافا وجبل نابلس ، كان يقتضي عليه خلال هذا الشهر ان يعيد تجهيز عسكره من جديد ليرافق علي بك في عودته الى القاهرة كما سيأتي بيانه في الفصل لقادم .

١٦) هيد ص ٦٢ ، النمر ص ١٤٩ .

الفصل الخامس عشر

مقتل علي بك وحوادث عام ١٧٧٣

١ – علي بك يتاهب للعودة الى مصر :

وقعت في سنة ١٧٧٣ حوادث شديدة الخطورة ابرزها :

١ – مقتل علي بك وصليبي بن ظاهر في مصر .

٢ – عقد الصلح بين الشهابيين المتنازعين فيما بينهم من جهة ، وبينهم وبين ظاهر العمر من جهة اخرى .

٣ – عصيان الجزار في بيروت وحصار المدينة برا وبحرا على ايدي قوات الشهابيين وظاهر العمر والمسكوب .

كان علي بك منذ قدومه الى عكا على اتصال دائم باعوانه في مصر يكتب اليهم ويذكرهم بما له عندهم من أياد بيضاء ومعلنا لهم عن عزمه على سرعة العودة الى القاهرة بجيش كبير من عسكر ظاهر العمر .

على ان اعوان علي بك في مصر كانوا في غيبته قد تخلوا عنه وانضموا الى محمد بك ، فكانوا كلما وردتهم رسالة من سيدهم اظهروا محمد بك عليها الى ان امرهم يوما بأن يكتبوا الى سيدهم فيجيبوه الى ما طلب ويعرفوه انهم على استعداد لنصرته والقتال الى جانبه اذا ما عزم على القدوم الى القاهرة . فوجه الانصار الى علي بك كتبا على هذا المنوال وحثوه على سرعة الاقبال مؤكدين له انه متى دخل الديار المصرية ووصل باعلامه الى الصالحية سينفضون عن محمد بك ويكونون له من الاتباع والانصار .

وفي رواية لفولني ان محمد بك حصل على هذه الرسائل من اتباع علي بك بالقوة ليخدع خصمه بها ويوقعه في الفخ الذي اعده له .

كان علي بك قد كتب الى الكسي اورلوب يطلب منه مدافع ومهندسين مع فرقة من الالبان تتألف من ثلاثة الاف مقاتل (ستمائة بحسب فولني) لتكون عونا له في العودة الى مصر ، وكتب ايضا الى الملكة كاترينا في نفس الموضوع وعرض عليها

عقد معاهدة تجارية مع مصر ، وكان المفاوض المصري مع الروس هنا الارمني يعقوب وذو الفقار . استجاب اورلوب للطلب وارسل الى علي بك كتابات الصداقة صحبة ضابطين روسيين كما ارسل له ثلاثة مدافع وبعض السفن ، استخدم علي بك هذه الاسلحة ضد يافا المتمردة خلال حصارها الطويل الذي انتهى باستسلامها لظاهر في شباط سنة ١٧٧٣ على نحو ما تقدم شرحه .

كان ينبغي على علي بك ان لا يبدأ مسيره الى مصر الا بعد قدوم فرقة الخيالة التي وعد الكونت اوروب بارسالها اليه لتكون مساعدا له في العودة الى مصر . ونظرا لعدم قدوم هذه الفرقة في الوقت المحدد لها فقد اسقطها علي بك من حسابه واصر على السفر الى مصر بدونها معتمدا على اخلاص اتباعه له كما تجلى ذلك في رسائلهم له التي ظلت تنهال عليه حتى اذار سنة ١٧٧٣ اي قبيل سفره بايام قليلة . ومما شوقه الى السفر ايضا نبؤات وكيله رزق القبطي الخبير بضرب الزير والرمل الذي أكد لسيده ان النجوم كلها تنبىء بنجاح سفرته وانتصاره الحاسم على محمد بك بمجرد عودته .

والجدير بالذكر ان الفرقة الروسية وصلت فعلا الى عكا في نيسان سنة ١٧٧٣ ولم يمض على رحيل علي بك سوى ايام قليلة .

اما ظاهر فكان من رأيه ان لا يرحل علي بك الى مصر في هذا الوقت ودعاه الى التريث حتى تتوفر لهما الظروف المؤاتية التالية :

١ – ربما تصل الى عكا الفرقة الروسية التي وعد اورلوب بتقديمها للمصريين بواسطة ذو الفقار كاشف .

٢ – ربما يتم لظاهر حشد العساكر الكافية من جبل الاكراد .

٣ – ربما ينتهي موسم الحصاد ويفرغ الحصادون من عملهم فيكون من الميسور جمع الغلال الازم للحرب وتجنيد عدد اكبر من سكان البلاد .

واضاف ظاهر يقول لحليفه اذا كان السناجق حقا يؤيدونك كما يقولون في رسائلهم كان الخير والا فسندخل مصر اقوياء ولا نكون في حاجة اليهم(١) .

على انه رغم هذه الحجج القوية فان علي بك رفض الاخذ بهذا الرأي وكان

١) فولني ج١ ص ١٢٦ وج٢ ص ١٠٢ ، شكري ص ٢٨ ، حيدر ص ٩٠ و١٠٨ ، عبود ص ٢٤ .

يرى ان الوقت قد حان لسفره وينبغي ان يدخل مصر في هذا الوقت بالذات ، اي قبل ان يحين موعد رجوع الحجاج من الحجاز لان السناجق ، حسب قوله ، الذين ذهبوا مع الجردة الى الحجاز هم اعداؤه والذين بقوا في مصر هم اتباعه وبمؤازرتهم سيدخل مصر بدون حرب • ولكن الايام اثبتت فساد حجج علي بك وصواب رأي ظاهر ويقول المؤرخ (هو عبود الصباغ) في هذا الصدد «اذا وقع القضاء عمي البصر» •

طلب علي بك من ظاهر ان يمده بالمال والرجال ، استجاب ظاهر للطلب فسار بتجهيز فرقة من عسكره لترافق المماليك الى مصر على رأسها ولده صليبي ونسيبه كريم الايوب ، كما قدم له مبلغا من المال ، وفي مقابل هذا المال كتب علي بك لظاهر سندا بالمبلغ ورهن عنده سيفه المعروف بسيف يوسف وخنجره الثمين الذي تكلف صنعه ، على ما رواه فولني ، مائتي الف ليرة فرنسية (مقابل تسعة الاف ليرة للخنجر الاعتيادي) كتب السند قاضي يافا ومؤداه انه عند دخول علي بك مصر يرجع المال الى ظاهر ، ويفك الرهن •

طلب علي بك ان يستوفي المال عليقا للخيل واطعمة وكسوة للعسكر ولكن ابراهيم الصباغ ابى تقديم المال الا بالنقد ليد وكيله رزق القبطي ليشتري هو بنفسه حاجة الحملة من غذاء وعتاد حتى لا يقال ان الصباغ اشترى ما ثمنه بمئة مثلا وحاسبه باكثر من ذلك (٢) •

٢ ـ حملة مصرية سورية الى مصر ومقتل علي بك وصليبي بن ظاهر :

في اواخر اذار سنة ١٧٧٣ نهض علي بك من عكا قاصدا مصر بمماليكه وعسكر ظاهر العمر البالغ عدده الف وخمسمائة فارس يقوده صليبي بن ظاهر وكريم الايوب الزيداني(٣) • قسم علي بك رجال الحملة الى كتيبتين الاولى تضم فرسان ظاهر العمر والاخرى تتألف من مماليكه وسناجقه وهو على رأسها في المقدمة •

تسامع في القاهرة خبر قدوم علي بك بجند من اهل الشام واولاد ظاهر العمر وهم في طريقهم الى الصالحية •

وفي نيسان سنة ١٧٧٣ ارتحل ابو الذهب باثني عشر الف مقاتل من مماليكه

٢) عبود ص ٢٤ ، ميخائيل ص ١٢٥ ـ سيف يوسف هو سيف صلاح الدين او احد احفاده على ما قيل .

٣) يقدر فولني عدد فرسان ظاهر بـ ١٥٠٠ ، ومخائيل بـ ٣٠٠٠ ، وحيدر بألف فارس .

الى الصالحية للقائهم هناك • كان يقود هذه الكتائب كبار المماليك منهم مراد بك الشاب عشيق زوجة علي بك ، على ما ذكر ، الذي حصل على وعد من محمد بك بتزويجه بها اذا ما اتى له برأس علي بك •

وفي الاول من ايار سنة ١٧٧٣ قسم ابو الذهب جيشه في الصالحية الى ثلاث فرق وتهيأ للهجوم ، وما كاد يلمح غبار الخيل المتصاعد من بعيد حتى امر فرسانه بالهجوم ، فتدفقت عساكره بأمواجها الزاخرة وحملوا على علي بك حملة واحدة في حين نصب ابو الذهب صيوانه في المؤخرة ينتظر ورود رأس علي بك ملطخا بالدم ومعفرا بالتراب (٤) •

كان علي بك في مقدمة كتيبته متلثما بشال كشمير فتلقاه مراد بك ، وقيل غيره بضربة سيف قوية على جبينه ، فصاح علي بك من شدة الالم « قتلتني يا ولدي » ، وكان يظن ان مراد بك قادم اليه لاستقباله لا لنزاله فسقط علي بك عن جواده جريحا في وجهه ثم حمل الى صيوان محمد بك الذي تلقاه بالاكرام ضاما اياه الى صدره مغرقا وجهه ويديه بالقبل باكيا ومعتذرا عما اصابه من جراح ، ثم حمله من تحت ابطه الى صيوان فخم اعد لاستقباله وتكريمه • يقول فولني في هذا الصدد : لقد رحب محمد بك بسيده اجمل ترحيب داعيا نفسه امامه انه عبده الذي لعق غبار نعليه الف مرة على الطريقة المعروفة عند اولئك القوم وهي النفاق الذي جبلوا عليه

نقل علي بك الى القاهرة وانزل في داره بالازبكية بدرب الحق ، واجرى ابو الذهب عليه كذبا وخداعا امهر الاطباء ولكنه ما لبث ان توفي ، وكان ذلك في ٨ ايار سنة ١٧٧٣ ، وقيل انه سم في جراحاته ، ومن الصعب ترجيح احدى الروايتين على الاخرى(٥) •

٤) الصالحية هي مدينة تاريخية في مديرية الشرقية على الطريق البري الى القاهرة.

٥) الجبرتي ص ٣٧٩ ، شكري ص ٣٠ ، حدر ص ٧٦•

ودار قتال غير متكافىء بين صليبي الظاهر وفرسانه من جهة وبين الفرقة المصرية التي تصدت لهم ، فقاتلوا قتالا شديدا حتى ابيدوا على آخرهم لانه لم يكن في مقدورهم الصمود امام هذا التفوق العددي للمماليك . كما قتل ايضا علي بك الطنطاوي وكثيرون غيره من اعوان علي بك .

وشاء القدر ان ينتصر كريم الايوب على الكتيبة المصرية التي تصدت له ولكنه عندما علم بمصرع صليبي وجرح علي بك جمع عسكره ورجع الى غزة حيث التقى بظاهر فيها (٦) .

وفي رواية للامير حيدر انه لم ينج من فرسان ظاهر الا فارس واحد هو كريم الايوب .

وبذلك تكون المدة التي قضاها علي بك في بلاد الشام سنة كاملة من ايار سنة ١٧٧٢ حتى نيسان سنة ١٧٧٣ .

وينشد الشاعر حزنا على صليبي الظاهر حاكم طبريا :

طبرية من بعد ابو ناصر ما عاد بيك   كثر روش الوشاوش والمعاد بيك
وروحي عاد يا نفسي ما عاد بيك   وروحي ليوم الحاشر واللقا (٧)

كان ظاهر وقتئذ في غزة وقد قدم اليها بجيش كبير من عساكر المتاولة واسماعيل الشهابي حاكم حاصبيا ، ساروا الى غزة كقوة احتياطية لعلي بك ولكن النبأ المفجع الذي حمله اليهم كريم الايوب ثناهم عن عزمهم .

احتمل ظاهر هذه المصيبة بشجاعة وصبر يدلان على قوة في شخصيته ثم نهض من غزة بعد ان اجرى فيها تحصينات جديدة ومضى الى يافا فحصنها هي الاخرى واقام كريم الايوب حاكما عليها وجعل يوسف بن ابراهيم الصباغ مديرا لماليته .

كان مقتل علي بك نكسة كبرى اصيب بها ظاهر ونقطة تحول في تاريخ الحرب العربية التركية ، فبموته فقد ظاهر اقوى حلفائه ، وانقلبت مصر برئاسة محمد بك ابي الذهب عدوا عليه بعدان كانت له نصيرا وظهيرا . ولكن بصيصا من امل اضاء جوانب نفسه المظلمة وهو التحالف الذي اجراه مؤخرا مع الشهابيين من اجل استخلاص بيروت من قبضة احمد الجزار العاصي فيها ، كما سيجيء .

٦) عبود ص ٢٥ .
٧) محمد العبد ومحمد العيسى ـ ابو ناصر كنية صليبي نسبة الى ولده البكر ناصر.

لذلك كان على ظاهر الآن اي في حزيران سنة ١٧٧٣ ان يتوجه الى صيدا ليراقب سير الحصار على بيروت .

٢ ـ احمد الجزار يعلن العصيان على الشهابيين في بيروت :

اصله من بلاد البشناق (البوسنه) في البلقان ، هرب الى الاستانة وهو في السادسة عشرة من عمره ثم بيع لاحد تجار الرقيق ورحل الى مصر واستقر فيها . برهن الجزار في مطلع حياته على شجاعة وحسن خدمة وبرع في فنون الغدر والبطش وسفك الدماء ، فلقب بالجزار وخدم عند كبار المماليك في مصر منهم صالح بك وعلي بك الكبير .

نال الجزار حظوة عند علي بك ولكن حدث ما عكر صفو العلاقة الحسنة بينهما . قيل طلب علي بك من الجزار ان يغتال صالح بك من كبار المماليك واحد منافسيه فأبى الجزار القيام بهذه المهمة ، ولما علم الجزار ان محمد بك ابي الذهب قد نفذ هذه المهمة وبلغه صدور كلام غير ودي بحقه عن علي بك ، خاف الجزار على نفسه من القتل وفر الى الاستانة ومنها الى الاناضول فحلب فبيروت باحثا عن عمل يعتاش منه .

ومن بيروت مضى الجزار في ايار سنة ١٧٧١ الى دير القمر(٨) بصحبة مملوكه سليم وعبده المكنى « ابو الموت » فتلقاه سعد الخوري مدبر يوسف الشهابي بحفاوة ثم ارسله الامير يوسف بعد ايام قليلة الى بيروت بوظيفة في كمركها فأقام الجزار فيها اسابيع قليلة الى ان غادرها الى دمشق ومكث فيها .

عمل الجزار في دمشق في سلك الجندية لدى عثمان باشا المصري واشترك كما مر بنا ، في حرب صيدا في حزيران سنة ١٧٧٢ وحصل على لقب اغا ثم ميرمران اي قائدا لخمسين جنديا ، وبقي على هذه الحال حتى ارسل الى بيروت في خريف هذه السنة بطلب من الامير يوسف وظهر منه العصيان على نحو ما تقدم ذكره في الفصل السابق .

عندما تحقق الامير يوسف خيانة الجزار جمع عسكره وسار اليه في اواخر سنة ١٧٧٢ لقتاله وتأديبه . نزل الامير يوسف في بعبدا في ضواحي بيروت وجعل

٨) حيدر ص ٩٥ ـ يقول هذا المؤرخ: جاء الجزار الى دير القمر في افتتاح سنة ١١٨٥ هـ. (بدؤها ١٦ نيسان سنة ١٧٧١) .

يراسل الجزار ويذكره بما له عليه من فضل سابق عندما اتاه لاجئا الى دير القمر ، اغتبط الجزار بهذه المراسلة وطلب الاجتماع بالامير يوسف والتحدث اليه مشافهة فأجابه الامير الى مـا طلب واجتمعا في المصطبية في ظـاهر بـيروت ، فـأظهر الجزار للامير التواضع والتلطف واقنعه انه لا يروم الخروج على طاعته ملتمسا منه ان يمهله اربعين يوما فيخرج من المدينة ويسلمها له .

كان بعض اليزبكية (الحزب المعارض للحزب الجنبلاطي) وعلى رأسهم الشيخ عبد السلام العماد لا يريدون نجاحا للامير فأغروه على اعطاء الجزار تلك المهلة فأمهله واخذ عليه العهود والمواثيق بانصرافه عن بيروت في تمام مدة الاربعين يوما ، ولكن الجزار رفض ان يغادر بيروت بعد انصرام هذه المدة وعزم على العصيان .

كان الجزار في غضون ذلك اي في غضون المهلة التي اعطيت له لمغادرة المدينة، قد اجرى تحصينات اساسية في المدينة واكثر من المؤن والاسلحة والعتاد فيها واعد نفسه لحصار طويل الامد ثم جعل يطلق رجاله المغاربة الى خارج المدينة فيعتـدون على السابلة ويقتلون من يجدون من اهل جبل الشوف ، ثم اشهر عـداءه للامير يوسف واعلن ولاءه للسلطان .

استنجد الامير يوسف بعثمان باشا الوكيل على اخراج الجزار من بيروت فأبى مكتفيا بتوجيه اللوم الى الجزار والتنصل من عصيانه . عندئذ ادرك الامير يوسف الغرض من اقحام الجزار على بيروت ، فعزم على مقاتلته واخراجه من المدينة بالحرب.

٤ ـ التحالف بين ظاهر العمر والشهابيين :

عرف الامير يوسف انه ليس في مقدوره قهر الجزار ، في حين كانت الـدولة تسنده وتشدازره، ما لم يسوء الخلاف القائم بين الشهابيين عامة وبينه وبين عمه الامير منصور خاصة ، حمله على ذلك ما رأى من اهداف الدولة واطماعها التي كانت تهدد بيروت والشهابيين معا بأفدح الاخطار .

كانت بيروت مشتى الجبل وميناءه الوحيدة ومصدر رزق له ولا سيما بعد ان وقعت صيدا في يد ظاهر العمر عدو الامير يوسف ، لذلك عزم الشهابيون ، بعد مـا رأوا من عصيان الجزار ما رأوا ، على نبذ خلافاتهم والقتال يدا واحدة من اجل بـيروت .

ونتيجة لمساعي بعض عقلاء الجبل انعقد الصلح بين الامير يوسف وعمه الامير منصور ، وكذلك بينه وبين ظاهر العمر في ٩ حزيران سنة ١٧٧٣ بضغط من اكثرية الشهابيين . وما ان اعلن هذا الصلح حتى عم الجبل فرح عظيم (٩) .

طلب الامير يوسف مواجهة ظـاهر ، فتواجهـا عـلى جـسر نهر الاولي شمال صيدا، وتحالفا وتكاتفا على العمل يدا واحدة على محاربة الجزار وطرده من بـيروت بالحرب .

اغتبط ظاهر بهذه المحالفة مع الشهابيين وسره ان يتعاون مع جيران اقوياء بعد النكسات المتتابعة التي اصابته بمقتل علي بك وخسارة جزء كبير من جيشه .

٥ ـ حصار بيروت على ايدي القوات العربية والروسية برا وبحرا :

في اواسط ايار سنة ١٧٧٣ زحف يوسف الشهابي بفرسانه ومشاته الى بيروت وضرب عليها الحصار .

في غضون ذلك قدم من مصر مركب فرنسي يحمل بضاعة لتجارة بيروت بمبلغ (٤٠٠) كيس فاستولى الجزار على هذه البضاعة ورشى بها بعض الامراء والمشايخ من اتباع الامير يوسف بغية استمالتهم اليه ، منهم حسين تلحوق وعبد السلام العماد زعيم اليزبكية . وهكذا اكتسب الجزار ود بعض مشايخ الجبل واخذ عليهم عهـدا بعدم محاربته حربا جدية .

وكاجراء انتقامي معاكس لحصار بيروت احرق الجزار بنايات الشهابيين فـي المدينة ودمر بنايات اخرى للمسيحيين وحول الكنائس الى اصطبلات لخيله وقطـع اشجار المدينة وقتل بعض الاهلـين .

كانت السفن الروسية بقيادة الامير كوجوخوف لا تزال في تلك النـواحي فكتب الاميران يوسف ومنصور الى ظاهر العمر يلتمسان منه ان يطلـق السـفن الروسية لاعانتهما على ازالة الجزار من بيروت وتسليمها للامير يوسف فاستجـاب ظاهر لهما ، وكتب الى امير السفن الذي كان وقتئذ في ميناء قبرص بأن يرسل سفنه اليه في الحال . فأقلع امير السفن الى بيروت بطلب من ظاهر وشرع في حصار المدينة من البحر بعد ان جعل له الاميران يوسف ومنصور مبلغ ثلاثمائة الف قرش (٦٠٠

٩) عبود ص ٢٥ ، فولني ج٢ ص ١٠٢ ، عبد الكريم رافق ص ٣٨٦ .

كيس) على فتح المدينة ، كما ارهنا عنده الامير موسى ابن الامير منصور تأكيدا لهذا الاتفاق (١٠) .

واخذت السفن الروسية تتزايد حتى بلغ عددها في حزيران سنة ١٧٧٣ اربعين سفينة شراعية ارساها اميرها الكونت جواني قرب الجزيرة مقابل برج ابو هدير .

وفي الوقت نفسه ارسل ظاهر فرقة من عسكره لتشارك في حصار بيروت، وكذلك فعل الكونت جواني الذي انزل عسكره الى البر لتشترك في القتال من اجل بيروت ، وهكذا احتدم سعير الحرب على اسوار المدينة برا وبحرا .

في٢٠ تموز(١١)بلغت الحرب على اسوار بيروت اشدها واطلقت مدافع المسكوب على المدينة في هذا النهار قنابل لا يحصى عددها حتى سمع دويها الى قبة السيار في ظاهر دمشق ، ومع ذلك لم يهدم شيء ذو اهمية داخل المدينة انما اتلف جانب من السور وظل الجزار صامدا في دفاعه .

٦ـ معركة زحلة :

لم يكن عصيان الجزار في بيروت بناء على مبادرة خاصة منه بل كان ذلك بايعاز من الدولة العثمانية ووزيرها في دمشق عثمان باشا المصري . فلما اشتد الحصار على بيروت ، جهز عثمان باشا حملة كبيرة يقودها ثلاثة بشوات لنجدة الجزار وانقاذه من محنته ، ولكن كان ينبغي على الوزير ان يجد عذرا او يختلق سببا يبرر له الزحف الى بيروت والتدخل في هذه الحرب ، واخيرا وبدون مشقة عثر عثمان باشا على ضالته ، فلما اكمل تجهيز جيشه البالغ عدده خمسة آلاف فارس ، سار على رأسه مخترقا به سهل البقاع بحجة تأديب الامير يوسف الشهابي لانه رفض معاقبة اخيه المدعو سيد احمد الذي ، على ما زعم الوزير ، كان قد هاجم في السنة السابقة قافلة لتجار دمشق في البقاع ونهبها .

وفي مدينة زحلة توقف الاتراك عن المسير ونزلوا في جوارها لبضعة ايام طلبا للراحة . ان ضخامة الجيش الزاحف الى بيروت وسرعة حركته القيا الفزع في كل مكان . يقول فولني : ما ان بلغ الامير يوسف ذلك الرجل المتردد الضعيف النفس خبر البشوات القادمين لتأديبه حتى اسقط في يده وندم على تحالفه مع ظاهر العمر،

١٠) الشدياق ص ٣٩٤ .
١١) كرامة ص ٤١ .

غير انه كان ملزما بمقتضى شروط هذه المحالفة على التصدي للاتراك ومحاربتهم ووقف زحفهم ، فتوجه بعساكره اللبنانية الى سهل البقاع وهاجمهم بجوار زحلة ، ولم تضطرم نار الحرب الا قليلا حتى انكسر الامير يوسف كسرة هائلة لوجود خيانة (من جانب المشايخ الذين رشاهم الجزار) في صفوف عسكره ، ثم ولى الادبار في فزع شديد وهو يستغيث بظاهر العمر ذلك الرجل الشجاع الذي كان ، على حد قول المؤرخ ، حريصا على سلامة حلفائه اكثر من حرصه على سلامة نفسه. واستجابة لهذا الطلب ارسل ظاهر الى الامير يوسف بسرعة تفوق حد التصور نجدة من كتيبتين ، الاولى تتألف من خمسمائة فارس بقيادة ولده علي ، والاخرى من المتاولة ويقودها ناصيف النصار ، ونزلتا في قرية القرعون احدى كبريات قرى سهل البقاع ، فلما علم عثمان باشا بقدومهم داخله خوف عظيم واضطربت احوال بطانته . كان عساكر الاتراك وقتئذ يستعدون للنهوض ، فما كاد ينتشر بينهم خبر وجود علي الظاهر في سهل البقاع وانه يستعد لمهاجمتهم،وهذا اشد ما كانوا يخشونه حتى دب الرعب في قلوبهم ، فانحلت قواهم وتقلقلت صفوفهم ثم ولوا مدبرين والى دمشق راجعين تاركين خلفهم خيامهم وذخائرهم ومدافعهم اذ لم يكن يخيفهم شيء اكثر من اسم علي الظاهر المرعب الذي كان مجرد ذكر اسمه كافيا لتقرير مصير هذه الحملة الفاشلة من العساكر المرتزقة ، ويصف كرامه المعاصر حالة الاتراك المنهزمين بقوله : « وظل الذعر يرافقهم لحين دخولهم دمشق وفي مقدمتهم عثمان باشا المصري وكيل السلطان في بلاد الشام » (١٢) .

استولى علي الظاهر على جميع عتاد الجيش المنهزم ولكن ظاهرا رفع يد ولده علي عنها وسلمها للامير يوسف كهبة له . أستلم الامير يوسف هذه الغنائم ووضعها في قب الياس .

اغار علي بعد ذلك على قرى البقاع ونهب في اطرافها نكاية بوزير دمشق ، ثم قفل راجعا الى دياره عن طريق اقليم البلان الواقع في سفح جبل الشيخ . ويمدح الشاعر عليا في هذه الحرب وان لم تقع معركة ، فينشد :

علي حاز العلوم وبحر عمّ
وسيفه على رقاب الترك عمّ

١٢) حيدر ص ١٠٣ ، فولني ج٢ ص ١٠٤ ، كرامة ص ٤٢ .

حكمه في بلاد الشام عمّ
علي طاعت له ترك وعرب .

وينشد ايضا :

علي بعشرين ينطح ماتينا
ودرعه ما يشيله ماتينا
حلب والشام منه ميتينا
وسعسع من علي سكوت ابواب(١٣)

٧ ـ سقوط بيروت واستسلام الجزار لظاهر العمر :

دخل شهر ايلول والحصار على بيروت يشتد يوماً بعد يوم . ولما بلغ الجزار خبر هزيمة الاتراك في البقاع نزل به الخوف وعول على التسليم كان اهل بيروت خلال الحصار قد ضاقت بهم الحال فصادفوا جوعاً شديدا حتى اكلوا لحوم الخيل والحمير والكلاب .

بعث الجزار الى امير السفن الروسية يعرض عليه التسليم ويطلب منه ان يكون التسليم على يده الى ظاهر العمر لا الى الشهابيين خوفا من ان يقتله الامير يوسف اذا ما وقع في يديه ، وكتب الجزار كتابا مماثلا الى ظاهر العمر مستسلما راجيا ان لا يقع ضرر على اهل بيروت بعد رحيله .

كان ظاهر وقتئذ في عكا فلما بلغه التماس الجزار قام من ساعته وتوجه الى صيدا ، وارسل رجلا من خواصه يسمى يعقوب الصيقلي على رأس كتيبة من الجند ليستلم المدينة ويحمي الجزار من خصومه الكثيرين الذين كانوا يطلبون تسليمه لهم لقتله .

وبمساعدة حسين تلحوق واتباعه اخرج الجزار وحاشيته من بيروت بالامان وسيقوا مخفورين الى صيدا ، وبتاريخ ٢٢ ايلول سنة ١٧٧٣ استلم الامير يوسف بيروت على يد يعقوب الصيقلي قائد جند ظاهر(*) .

اشتهر الجزار في هذه الحرب لما اظهر من بسالة وصمود خلال الحصار مما جعل حكام الاقاليم يتنافسون على اكتساب وده بغية حمله على التطوع في خدمتهم

١٣) قاسم العيساوي ، عمر المصطفى ، سليمان ابو جوهر ـ سعسع من قرى جنوب غرب دمشق .

* كرامه ص ٤٤ ، حيدر (تاريخ احمد الجزار) ص ٥٣ ، ٧٦ .

ولهذا السبب احسن ظاهر الى الجزار واكرمه ، ثم ارسله الى عكا قاصدا بذلك ان يجعله من بطانته موقنا انه (اي الجزار) سيخلص له بعد ان حماه من الشهابيين وانقذه من موت محقق عقب سقوط بيروت .

تمهد الامر للامير يوسف في بيروت ودفع لامير السفن المدعو كونتو جواني مالا افتك به ابن عمه موسى ابن الامير منصور المرهون ، ثم اقلع امير السفن الى قبرص .

ان استخلاص بيروت من يد الجزار قد جمع بين قلوب الشهابيين ووحد صفوفهم فثبتت المودة بين الامير منصور وبين ابن اخيه الامير يوسف وزوجه ابنته . وظل الشهابيون على وفاق مع ظاهر العمر ، الا انه ظلت في نفس الامير يوسف غصة بسبب استيلاء ظاهر على صيدا التي كانت في نظره تشكل جزءا لا يتجزأ من لبنان .

لم ينس الامير يوسف خيانة بعض المشايخ له خلال حصار بيروت فقبض على عبد السلام العماد وحسين تلحوق ومن والاهما ممن ظهر ميلهم الى الجزار ، فعاقبهم وصادر اموالهم(١٤) .

وفي تشرين الاول من هذه السنة قدم الامير يوسف الشهابي طلبا الى الامبراطورة كاترينا الثانية بان تجعله تابعا لروسيا وان تضع لبنان تحت الحماية الروسية ، ولكن الطلب رفض بعد توقيع معاهدة توتجوك كاينرجي بين روسيا وتركيا في تموز سنة ١٧٧٤ وانسحاب الاسطول الروسي من مياه البحر الابيض المتوسط(١٥) .

وفي هذه الاثناء عقد الكونت الكسي اورلوب اتفاقا مع ظاهر العمر بشأن الملاحة في البحر الابيض ، فسلمه سنجقا (اي علم) ذات لونين ابيض واحمر ليضعه على سفنه المبحرة في عرض البحر تمييزا لها عن سفن الاتراك ، حتى اذا ما صادف المسكوب سفينة عربية عرفوها واقتربوا منها بدون خوف ، كما اقترح المسكوب على ظاهر ايضا ان تحمل كل سفينة من سفنه وثيقة موقعة باسمه وممهورة بختمه تأكيدا لجنسيتها وهويتها وذلك دفعا لكل التباس يقع في عرض البحر لان المسكوب

١٤) كرامه ص ٤٤ ، حيدر ص ٩٨ ، ميخائيل ص ١٢١ .

١٥) لوتسكي ص ٣٩ .

كانوا في حالة حرب مع الاتراك والمعارك بينهم ما زالت مستمرة برا وبحرا(١٦) .

٨ ــ احمد الجزار في عكا وهربه الى دمشق :

بعد وصول احمد الجزار الى عكا بمدة قصيرة كتب اليه عثمان باشا المصري كتابة سرية يخبره فيها ان الدولة العثمانية قد انعمت عليه ب طوخين (اي لقب باشا) لقاء البطولة التي ابداها خلال حصار بيروت كما دعاه الى الانخراط في زمرة رجالها .

وحالما استلم الجزار هذه الكتابة السرية اطلع ظاهرا على مضمونها ذاكرا له انه يفضل العمل في خدمته على العمل في خدمة عثمان باشا والدولة . ونظرا لما جبل ظاهر عليه من بساطة وطيب قلب فقد انخدع بكلام الجزار فازداد محبة له وتمسكا به وارسله في خريف هذه السنة الى يافا ليتوجه بصحبة كريم الايوب الى ضواحي القدس لجباية المال الميري هناك .

كانت القدس وقتئذ كما كانت دائما موالية للاتراك ، وكان واليها في هذا الوقت ابراهيم باشا النمر ، وكان يرجع فيما يختص بشؤون ولايته الى دمشق مباشرة . لذلك ما كاد الجزار يصل الى مشارف القدس حتى عزم على تنفيذ الخطة التي وطن نفسه عليها وهي التمرد على ظاهر وخيانته .

وعلى حين غفلة من عسكر كريم الايوب جمع الجزار اتباعه ومضى ليلا الى بوابة القدس معربا لابراهيم باشا عن ندمه لتقربه من ظاهر ومتلمسا منه قبوله في خدمته . ابى ابراهيم باشا ان يستقبل الجزار ظانا ان قدومه الى القدس كان خدعة منه ومن ظاهر ، واشار عليه ، اذا كان يعني حقيقة ما يقول ، ان يمضي الى دمشق ويقدم خضوعه الى عثمان باشا الوكيل .

توجه الجزار بعد يومين الى دمشق ، وكان قبل رحيله قد نهب بعض الاموال التي تخص الشيخ ظاهراً مثل خيول وبغال ومعدات ، اخذ الجزار هذه الاموال وسلمها لعثمان باشا المصري ليثبت له حسن طاعته وسلامة طويته ، استلم عثمان

١٦) عبود ص ٣٧ .

باشا هذه الاموال ثم أعادها الى ظاهر في محاولة للتقرب منه ومصالحته(١٧) كما سيجيء .

استقبل عثمان باشا احمد الجزار بحفاوة ثم ارسله بعد ذلك بمدة قصيرة اي في الاسابيع الاخيرة من عهد السلطان مصطفى الثالث (توفي في ٢٤ كانون الاول سنة ١٧٧٣) الى الاستانة ومعه جملة تواصي من عثمان باشا الى أولي الامر فيها .

رحب حكام الاستانة باحمد الجزار فاكرموه واحتضنوه عاقدين عليه امالا كبارا في مساعدتهم على تنفيذ مخططهم الرهيب بقتل ظاهر هو وكل ذريته وتمهيد البلاد السورية لطاعة السلطان . هذا هو احمد الجزار وعلى هذه الطريق سار طوال عهده المشؤوم .

كان الرأي السائد بين المؤرخين ان ظاهرا قد اخطأ في الركون الى الجزار والوثوق به ، ويذهب البعض الى ابعد من ذلك ويقول ان الابقاء على حياة الجزار عقب حصار بيروت كان احد الاخطاء الكبيرة التي ارتكبها ظاهر في حياته وانه كان ينبغي عليه ان يترك الجزار للشهابيين ليصفوا حسابهم معه بعد ما ظهر من خيانته لهم وخروجه عليهم في بيروت ، ولو فعل لكان ظاهر خلص البلاد السورية من شروره وآثامه .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر ملوما علي الظاهر خاصة والزيادنة عامة لابقائهم على حياة الجزار عندما كان بوسعهم قتله والتخلص منه بسهولة دون ان يخشوا احدا ، يقول :

علي لو تذبح الجزار ماتت
مثل الكش بالشطرنج ماتت
منكم يا بني زيدان ماتت
من استنبول ما جانا حدا (١٨)

وروي لي ان السبب الذي من اجله ارسل ظاهر احمد الجزار الى يافا للعمل مع

١٧) عبود ص ٣٨ ــ يقول حيدر (تاريخ احمد الجزار ص ٣٧) : عندما عصى الجزار على ظاهر ارسل ظاهر احد اولاده مع عسكر ليحاربه ولكن الجزار تغلب على ابن ظاهر وقبض عليه ثم اعتقه قائلا له « ان عسكر اباك قدر علي واعتقني وها انا قدرت عليك واعتقتك فاذهب واخبر اباك بهذا » .
١٨) جريس عزام ــ ماتت في الشطر الاول بمعنى « ماتت دولة الجزار » .

كريم الايوب في جباية المال الميري ، هو عدم ائتلافه مع اولاد ظاهر العمر • قيل ان علي بن ظاهر كان يستخدم الجزار لاتفه الاشياء ويناديه تحقيرا يا جزار •••• يا جزار ••• غضب الجزار يوما على علي وقال له مهددا «دنا (اي انا) جزار لحى لا جزار دم» ، اعتبر علي هذا الجواب اهانة له فاستل سيفه وهم بقتل الجزار لولا ظاهر العمر والموجودون في الديوان ، الذين حالوا بين الاثنين وانقذوا الجزار من القتل(١٩) •

وعلى اثر هذا الحادث ارسل ظاهر احمد الجزار، الى يافا حماية لدمه على نحو ما تقدم ذكره •

١٩) جريس عزام •

الفصل السادس عشر

العفو عن ظاهر العمر وحوادث عام ١٧٧٤

١ – حالة البلاد سنة ١٧٧٤ :

في هذه السنة اسند السلطان عبد الحميد الاول الى ظاهر العمر ايالة صيدا واقر حقه على البلاد الاخرى التي في يده وهي عكا وحيفا ويافا والرملة ونابلس واربد وصفد وما اليها(١) • كما اصدر السلطان عفوه عن ظاهر العمر وغفر له ذنوبه السابقة ، ومع ذلك كانت السنة ١٧٧٤ من اخطر السنوات في حياة البلاد السورية ففيها نشأت الاسباب التي افضت الى مقتل ظاهر العمر سنة ١٧٧٥ وقيام العهد المشؤوم المعروف بعهد الجزار •

في سنة ١٧٧٤ بلغ ظاهر اوج مجده واستمتع باعظم نفوذ وصل اليه حاكم عربي في العهد العثماني بسط يده على بلاد تمتد من غزة جنوبا حتى بيروت شمالا الى اربد وجبل عجلون شرقا • كان ما في يد ظاهر من الموانىء غزة ويافا وحيفا وعكا وصيدا في حين كانت صور في ايدي حلفائه المتاولة ، وبيروت للشهابيين ولم يبق في يد الدولة العثمانية سوى طرابلس في شمال لبنان •

اقام ظاهر على هذه الاقاليم جملة من اولاده وقادة عسكره ،ولّى على صيدا احمد اغا الدنكزلي،وعلى يافا كريم الايوب الزيداني وعلى ديرحنا وصفد ولده عليا، كما ولّى على تبنه بعجلون ولده احمد وعلى شفاعمرو ولده عثمان وعلى صفوريه وحطين ولده سعيد •

يتضح مما ذكر ان دولة ظاهر العمر شملت في العهد الاخير من حياته كل فلسطين (باستثناء القدس) واجزاء كبيرة من لبنان وسوريا وحوران • يقول المؤرخون ان ظاهرا لم يحاول الاستيلاء على القدس التي لم تكن تهمه من ناحية استراتيجية حتى لا يزيد هوة الخلاف عمقا بينه وبين الدولة •

استمر ظاهر يدير هذه الاقاليم بطريق الالتزام بمال مقطوع ولكنه منذ سنة

١) المعلوف ص ٢٧٤ •

١٧٦٩ اي منذ اليوم الذي تحالف فيه مع علي بك امتنع عن دفع المال الميري للدولـــة وحـــاربهـــا ٠

في هذا الوقت تجاوز ابنـاء ظاهر الكبار سن الخمسين وقد بلغوا هذا العمر وهم يمنون انفسهم عبثا بموت ابيهم ليستأثروا بـالحكم بعده ٠ بلغ النزاع على السلطة بين ابناء ظاهر اشده في السنتين الاخيرتين وكان النزاع اكثر ما يدور بين عثمان حاكم شفاعمرو من جهة وبين علي حاكم صفد من الجهة الاخرى ٠ وفي بعض المراجع ان ظاهرا كان يرشح عليا للحكم بعده وان لم يكن بكر اولاده(٢) ٠

بقي ظاهر على قيد الحياة يقبض على السلطة بيد من حديد رغم سنيه الخمس والثمانين مخيبا امال ابنائه واعدائه على السواء ٠ يقول فولني كـان ظاهر في هذا العمر نشيطا الى ابعد حدود النشاط يركب اشد الخيول جموحا وكانت لـه همة الكهول وعزيمة الفتيان* قيل كان ظاهر وهو في هذا العمر يركب جواده لمدة اربع وعشرين ساعة متوالية دون ان ينزل عنه ليستريح ٠

في سنة ١٧٧٤ لم يكن ظاهر يخشى احدا من مشايخ البلاد ، كانت سيطرته على بلاده كاملة كما كانت سطوة ابنائه على مقاطعاتهم لا يدانيها حد ٠ طهّر ظاهر البلاد من اعدائه كما قضى على جميع الاحزاب الموالية للدولة العثمانية في يافا ونابلس وشتت شملها ٠ لم يكن ظاهر يحسب لاحد حسابـا في هذا الوقت سوى وزير دمشق في الشمال ومحمد بك أبي الذهب في الجنوب ٠ كذلك لم يكن ظاهر يطمئن الى يوسف الشهابي،وان كان على صلات حسنة به، نظرا لما عرف عنه من تردد.

ان العلاقات بين ظاهر والدولة العثمانية ساءت كثيرا في العهد الاخير ولم يكن في وسع الدولة قهره او تأديبه لانهماكها في حرب مع الروس اشغلت معظم جيوشها في الجهات الاخرى ، وما كانت هزيمتهـا في صيدا وزحلة في السنتين الاخيرتين الا دليـلا عـلى تضعضع قواهـا وتردي هيبتهـا ٠

ولهذا السبب لجأت الدلة الى المراوغة في سياستها مع ظـاهر واوعزت الى عثمان باشا المصري بالتقرب منه لعقد صلح معـه ٠

٢) ميخائيل ص ١٥٩
* فولني ج٢ ص ٨٠ ٠

٢ ـ توجيه ايالة صيدا الى ظاهر العمر :

مرّ بنـا انه في خريف سنة ١٧٧٣ هرب احمـد الجزار الـى دمشق ببعض الخيول والاعتدة التابعة لظاهر الا ان عثمان باشا المصري اعاد هذه الامتعة الى ظاهر في محاولة لاسترضائه مع كتاب يقول فيه : «لماذا انت عامل كل هذا وانت تعلم ان سيف السلطان طويل ٠ اني اعرف ان الذي الجأك الى الخروج على الدولة هو عثمان باشا الصادق مملوك بيت العظم اعداؤك سابقا ، وقد عزل وانا الان مقيم في دمشق مكانه ووكيل عام لمولانا السلطان في كل بلاد عربستان ، لذلك فاني على استعداد لان ألبي طلباتك بشرط ان تدفع الاموال الاميرية المكسورة كـاملا مـن يـوم خروجـك عـلى الـدولة » ٠

كتب ظاهر الى عثمان باشا يجيبه على كتابه ويطالب فيه باسناد ايالـة صيدا اليه بصورة رسمية ويقول في جملة ما يقول :«صحيح ان الذي الجأني الى الخروج عن طاعة مولانا السلطان هو عثمان باشا غير أنني كنت دائما اريد ان اكون في طاعة الدولة ، واما بخصوص الاموال الاميرية فاني على استعداد لدفعها الى اخرهـا ، والان كل طلبي وغاية قصدي ان انال العفو والرضا من مولانا السلطان»(٣) ٠

سُر الوزير من جواب الشيخ لانه لم يكن يتوقع ان يعلن ظاهر ولاءه للدولة بهذه السهولة ويبدي استعداده لدفع الاموال المكسورة بعد حروب مضنية انقضت خزينته ، فكتب عثمان باشا في كـانون الاول سنة ١٧٧٣ الى السلطـان مصطفى الثالث يعلمه بما تمّ له مع ظاهر ويلتمس منه الموافقة على توجيه ايالة صيدا اليه ؛ وارسل الوزير الى السلطان جواب ظاهر بالذات ليتحقق من صدق كلامه ، ولكن قبل وصول الططر (اي حامل البريد السلطاني) الى الاستانة مات السلطان مصطفى في ٢٤/ كانون الاول سنة ١٧٧٣ وخلفه ولده عبد الحميد الاول ٠

استجاب السلطان عبد الحميد الاول لطلب عثمان باشا وارسل اليه في شباط سنة ١٧٧٤ «خط شريف» ٠ بتوجيه ايالة صيدا الى ظاهر ٠

واستنادا الى ذلك كتب عثمان باشا الى الامير يوسف الشهابي كتابا تـاريخ ٢٧ ذي الحجة سنة ١١٨٧ هـ (٤) (حوالي ١١ اذار سنة ١٧٧٤) يخبره فيه باسناد ايالة

٣) عبود ص ٢٩ ٠
٤) صورة عن الكتاب في باب اللاحق ٠

صيدا الى ظاهر على ان يدفع (اي ظاهر) للدولة الف كيس بقايا اموال عن صيدا و٤٥٠ كيس عن المال السلطاني كل سنة ، وامر عثمان باشا الامير يوسف ان يدفع من الآن فصاعدا ما هو مترتب على جبل لبنان من مال لظاهر حاكم صيدا ، لا ظاهرا ، كان على ما ذكر الوزير ، في مقام والد الامير يوسف . فقبل الامير يوسف بهذه التعليمات كارها ومغلوبا على امره لكونه اصبح تابعا لظاهر ، وهو يريد ان تكون صيدا تابعة له لكونها تؤلف جزءا من لبنان (٥) .

استقبل ظاهر اسناد ايالة صيدا اليه بالسرور المقرون بالتحفظ .

بعد ورود كتاب عثمان باشا الى الامير يوسف عُزل عثمان باشا المصري عن الولاية في تموز سنة ١٧٧٤ ، كما انعزل قبل ذلك بمدة قصيرة مصطفى باشا الباكجي وزير دمشق وتولى هذه الايالة في صيف سنة ١٧٧٤ محمد باشا العظم ثانية .

٣ – فرمان العفو عن ظاهر العمر :

أثار تعيين ابن العظم على ايالة دمشق مخاوف ظاهر من جديد بسبب ما كان بينه وبين آل العظم من عداوة قديمة منذ عهد سليمان باشا العظم ، لذلك جعل ظاهر يستعد للحرب ، كما جعل في الوقت نفسه يسعى للصلح مع الدولة نظرا لما اصيب به اخيرا من نكسات .

من هذه النكسات وفاة حليفه الامير منصور الشهابي في بيروت(٦) وكذلك انقطاع المساعدة الروسية عنه بسبب عقد الصلح بين روسيا والدولة العثمانية بمعاهدة تشوك كاينرجي بتاريخ ٢١ تموز سنة ١٧٧٤ وانسحاب الاسطول الروسي من مياه البحر الابيض . هذه العوامل مجتمعة ، يضاف اليها تقدم ظاهر في العمر

٥) حيدر ص ١١٤ .

٦) توفي الامير منصور عن ستين عاما ودفن في جامع الامير منذر التنوخي ، دامت ولايته ثماني عشرة سنة . يصفه ابن اخيه الامير حيدر بقوله : « كان مهابا حليما حسن الطلعة جميل الهيبة أشقر اللون وجهه مشرب بحمرة لين العريكة لا يخلو من جبانة قليلة » .

وقد رثاه احمد البربير بهذا الشعر :

سقا هذا الضريح سحاب فضل ... وعمم بالرضا من في ثراه
اميرا كان في الدنيا شهابا ... ومنصورا على قوم عصاه
فان يك من عيوني قد توارى ... فحسبي ان قلبي قد حواه
شهاب الرحمة المولى عليه ... هوى للترب بدر من رباه

وتمرد اولاده عليه وموت حليفه علي بك ، كل هذه قوّت فيه الرغبة في عقد الصلح مع الدولة .

يقول المؤرخون ان ما توقعه ظاهر من عداوة من جانب محمد العظم لم يتحقق اي ان محمد باشا لم يسارع الى محاربة ظاهر كما حسب الكثيرون بل سلك مسلكا وديا تجاهه مواصلا مساعي سلفه عثمان باشا المصري في تضييق شقة الخلاف بينه وبين ظاهر وتقريب وجهات النظر بين العرب والعثمانيين ، واستجاب ظاهر لهذه المبادرة الودية .

في تموز او آب سنة ١٧٧٤ كتب محمد العظم الى ظاهر معربا عن رغبته في التوسط من اجل الصلح بينه وبين الدولة . وفي اواخر تشرين الاول من السنة نفسها كتب الصدر الاعظم (اي رئيس الوزراء) الى ظاهر كتابا بطريق مباشر يخبره فيه ان السلطان يوده ويريد له الخير ، اغتبط ظاهر واعتبر قيام الصدر الاعظم بمكاتبته رأسا ولاول مرة بدون وساطة احد من البشوات بادرة طيبة من جانب الدولة .

ولما كان كتاب الصدر الاعظم لا يحمل تأكيدات قاطعة بشأن حقوق ظاهر في البلاد من جانب السلطان فقد كتب ظاهر في تشرين الثاني سنة ١٧٧٤ الى الاستانة مطالبا بمنحه الحق الوراثي على البلاد التي يتولاها من صيدا شمالا حتى غزة جنوبا مقابل مبلغ معين مقطوع على نحو ما اقترحه عليه عثمان المصري سابقا(٦) .

استمرت المفاوضات تجري بالسر بين ظاهر والدولة العثمانية حتى نهاية سنة ١٧٧٤ وكان كل ما حصل عليه ظاهر هو فرمان سلطاني لا يغني ولا يسمن حرر في ذي القعدة سنة ١١٨٨ هـ (٧) (كانون الثاني سنة ١٧٧٥) فيه يمنح السلطان العفو لظاهر شريطة ان يسلك سلوك الطاعة ويقوم بواجباته الكاملة نحو الدولة . حمل الفرمان قبجي سلطاني خاص يسمى احمد هاشم اغا سلمه لظاهر باحتفال مهيب في عكا في شباط سنة ١٧٧٥ (٨) .

والحق يقال لم يستقبل حكام الاستانة ولاء ظاهر بالارتياح ، وما كان خضوعه لهم في نظرهم الا ستارا يخفي وراءه اطماعه . يقول جودت في هذا الصدد : ان خضوع ظاهر كان خضوعا اضطراريا لتخوفه من محمد بك ابي الذهب وانه (اي

٦) هيد ص ٦٧ .

٧) صورة عن الفرمان في باب الملاحق .

٨) عبود ص ٢٩ ، حيدر ص ١٠٧ .

ظاهر) سيعود الى ما كان عليه من الشقاوة متى لاحت له الفرصة (٩) .

ويتطرق فولني الى الحديث عن الفرمان السلطاني ويلقي ضوءا على شروطه فيقول ما معناه :

لقد زاد هذا الفرمان النار اشتعالا في البلاد لعدم موافقة ابناء ظاهر على نصوصه فمن شروطه أن لا يرفع ظاهر او ابناؤه سلاحا في وجه الدولة ، وان يدفع المال الميري كالسابق وجميع المال المكسور عليه ، وان تعود صيدا الى املاك الدولة العثمانية . لم يستقبل ابناء ظاهر هذه الشروط بالرضا لانها وضعت بدون علمهم ولا تعترف بحقوقهم ولا تمنحهم لقب ابيهم ، لذلك ثار الابناء على ابيهم وحاربوه، فعلي تحصن في جبال الخليل واحمد وسعيد رحلا الى نابلس وعثمان توجه الى عرب الصقر ، واستمرت الفتن بين الابناء وبين ابيهم حتى قدوم محمد بك ابي الذهب الى عكا غازيا في ربيع سنة ١٧٧٥ (١٠) .

اما اهل البلاد الذين ذاقوا من ويلات الحروب في السنوات الاخيرة ما ذاقوا فقد استقبلوا العفو السلطاني عن ظاهر بالفرح العظيم ، وكذلك ظاهر الذي مل الحروب وسئمت نفسه حياة المخاطر فقد رحب بهذا العفو املا في ان يوطد اركان ملكه ويورثه لابنائه من بعده قبل ان يقضي الله فيه امره . والسؤال هو هل كانت الدولة فعلا صادقة في عفوها هذا وهل كان من المعقول ان تصفح الدولة عن رجل تحالف مع الروس وحاربها زهاء نصف قرن واوصل هيبتها في الشرق العربي الى الحضيض . وهل كان ظاهر من ناحية اخرى يركن الى عفو يناله من دولة اشتهرت بنقض الوعود وخيانة العهود في زمن قصت اجنحته ونضبت موارده واستنزفت امواله وفقد اخلص حلفائه ؟

ان الاسابيع القليلة القادمة قد اثبتت ان الدولة لم تكن صادقة في مصالحة ظاهر وان هذا العفو لم يكن سوى قصاصة ورق ووسيلة لكسب الوقت لانه في الوقت الذي كانت تجري فيه الاحتفالات والزينات في عكا بمناسبة هذا الفرمان السلطاني كان عشرات الالاف من عساكر محمد بك ابي الذهب تتحرك بايعاز من الباب العالي الى بر الشام لقتل ظاهر العمر هو وكل ذريته .

٩) جودت ج٣ ص ٥٣ .
١٠) فولني ج١ ص ١٠٥ .

الفصل السابع عشر

حملة محمد بك ابي الذهب على سوريا عام ١٧٧٥

١ – اسباب الحملة :

اراد الصدر الاعظم ان يستغل محمد بك ابا الذهب لاغراضه الخاصة ويستخدمه في اخضاع الاقاليم السورية الثائرة ، فأوعز اليه بالزحف الى عكا لمحاربة الشيخ ظاهر العمر . كان هذا الطلب هو عين ما يتمناه ابو الذهب ويسعى اليه منذ زمن بعيد .

في اوائل آذار سنة ١٧٧٥ زحف ابو الذهب وبرفقته مراد بك الى عكا على رأس حملة قوامها ستون الف رجل بينهم عشرون الف مقاتل . كان الغرض من هذه الحملة تأديب ظاهر العمر الحاكم العربي الحر واعادة البلاد السورية المتمردة الى طاعة السلطان ، وفي هذا الخصوص كتب الاب جبرائيل دباس في رسالة صادرة عن عكا بتاريخ ٦ نيسان (شرقي) سنة ١٧٧٥(١) يقول : «....فهمنا من الرئيس العام ان مرادكم تحضروا عندما يسمح الوقت بذلك فنعلمكم بل نشور عليكم بان تبقوا في محلكم لان بلادنا مخربطة من كون ابو الذهب حاكم مصر راكب على غزة والرملة ويافا بحجة انها ملكاته ، والشيخ ظاهر مالكها منذ سنين بالسيف والان محاصر يافا وموجود فيها الشيخ كريم الايوب ويوسف ابن ابراهيم الصباغ واناس كثيرون من بلادنا ، وان شاء الله يكونوا منتصرين ولا نعلم ماذا يكون» .

«ثم ما خفاكم الغيظ الذي حصل للسلطان العثماني على ظاهر لكونه جلب المسكوب لهذه البلاد واتفق معهم على محاربة العسملي وعلى ذبحه عثمان باشا الشام وملكه صيدا . وبنعمة خصوصية ورحمة من الله لاجل حسنة هذه البلاد بعث السلطان قبجي الى الشيخ ظاهر ومعه فرمان العفو والغفران على ما صدر منه ومن

١) الموافق ١٧ نيسان غربي – التاريخ الذي كان معمولا به في القرن الثامن عشر حسب التقويم الشرقي لذلك يجب اضافة ١١ يوما اليه لتحويله للتاريخ الغربي الغريغوري وهو الفرق بين التقويمين الشرقي والغربي في القرن الثامن عشر .

اتباعه المتاولة والدروز بحيث يحط ميرة خمس سنين التي اكلهـا سابقا وكل سنة يحط المـيرة المعتـادة في المستقبل » (٢) .

هناك اربعة اسباب حملت محمد بك أبا الذهب على غزوسوريا المتمردة وهي:

١ ــ اكتساب رضا الدولة العثمـانية لتسنده في حكم مصر ضـد خصومه الكثيريـن هنـاك .

٢ ــ الانتقام من ظاهر العمر لكونه نصر علي بك بالمال والرجال .

٣ ــ حب النهب وطمـع محمد بك في اموال ظـاهر وابراهيم الصبـاغ ، واسترجاع سيف يوسف وخنجر علي بك المرهونين في عكـا .

٤ ــ حب التوسع ورغبة محمد بك في ضم غزة وبلاد فلسطين الى ممتلكاته

والجدير بالذكر ان ابا الذهب كان قد ارسل في ٢٧/ اب سنة ١٧٧٣ رسولا الى عكا ابلغ ظاهر العمر بوجوب اعادة الممتلكات التي تركهـا علي بك عنده وباخلاء نابلس والرملة وغزة ويافا التي ادعى ابو الذهب ان السلطان قد اعطـاه اياها* .

ويكشف لنا عبود الصباغ النقاب عن اساليب الدولة الماكرةفي تحريض الاخ على اخيه والجار على جاره فيقول انه لما كان الوزير الاعظم يود محمد بك ابـا الذهب مودة كبيرة اراد ان يستخدمه لقتال ظاهر وازالته من عكـــا ، فكتب الى محمد بك يخوفه من ظاهر ويقول له : ان الدولة انعمت على ظـاهر مؤخرا بالعفو تمهيدا لاصدار الامر اليه بالتوجه الى مصر لمحاربتك وجلب رأسك ، واما اذا سرت انت لقتاله قبل ان يغزو هو بلادك فان الدولة ستنصرك ، وان لم تفعـل فسيخرج امر الدولة الى ظاهر بقتالك وجلب رأسك .

واستجابة لطلب الصدر الاعظم اكمل محمد بـك استعداداته الهـائلة فسلم قيادة الحملة لرجل بريطاني يسمى روبنسون وعزز قواته بمهندسين وبواردية مهرة كما ارسل معداته وذخائره بالمراكب بحرا الى يافا بينمـا سار هو في مقدمة الحملة عبر شبه جزيرة سيناء تحف به عظمة شبيهة بعظمة الملوك .

كان محمد بك قبل ان يبدأ مسيرته الى عكا كتب الى علي بن ظـاهر ينبئه

٢) ميخائيل ص ١٦٨ ــ هذه الرسالة وغيرها مما سيرد في الفصول القادمة كتبهـا اصحابها الكهنة الى الاب اثناسيوس دباس العكاوي في روما سنة ١٧٧٥ ، وهي وثائق تاريخية هامة صادرة عن اناس لا غرض لهم ولا مارب

* عبـد الكريم رافق ص ٤١٠ .

بانه قادم الى عكا وانه سيقيمه شيخا على البلاد مكان ابيه . ولما كان علي على خلاف مع ابيه منذ ثلاث سنوات فقد اغتبط بذلك وجعل يتصل بمشايخ البلاد خفية ليثنيهم عن طاعة ابيه . ويقال ان الاتصال الودي بين علي بن ظاهر ومحمد بك كان جاريـا منذ سنتين اي منذ ان خرج علي بك منفيا الى عكا في ايار سنة ١٧٧٢ (٣) .

ولما تسامع خبر قدوم محمد بك الى بلاد الشام بجند كثيف من اهل مصر أرسل ظاهر الى كريّم الايوب نائبه في يافا بنجدة من اعيان شجعانه كان يقال لهم فداوية، فاكتمل لدى كريم حامية قوامها ٥٠٠ الى ٦٠٠ رجل معظمهم من المغاربة يضاف اليهم عدد مساو من سكان المدينة ، وكانوا مجهزين ببعض المدافع النحاسية ذات القواعد الخشبية (٤) .

في غضون ذلك ارسل ظاهر الى يافا نجدة جديدة يقودها ولده سعيد ، فلمـا سار سعيد يوما بعث اليه اخوه علي يطلب منه عدم التوجه الى يافـا ويدعـوه الى القدوم اليه ، فامتثل سعيد لامر اخيه ومضى بعسكره اليه (٥) كـان كريم الايوب وتئذ في غزة يتابع اخبار الحملة المصرية الزاحفة شمالا .

٢ ــ امتناع يافا على المصريين وحصارها ٤٩ يومـا :

لم يستطع كريم الايوب التصدي للحملة المصرية لضخامتها فانسحب من غزة الى يافا الحصينة ، وهكذا استولى محمد بك على غزة والرملة سلما لعدم حصانتها، وفي الاول من نيسان وصل الى يافا ذات الاسوار وضرب عليها الحصار . اختـار محمد بك لمدافعه الثمانية مكانا مرتفعا بين بساتين البرتقال وعلى مسافة مائتي خطوة من المدينة ثم شرع يقذفها بالمكاحل والقنابر .

امتشق حماة المدينة سيوفهم وحملوا بواريدهم ووقفوا على الاسوار يسبون المماليك واميرهم سبا قبيحا ويطلقون عليهم نيرانهم حتى قتلوا كثيرين منهم .

وقابل المماليك من الخارج نيران المدافعين بهجمات يائسة على الاسوار لنقبها واختراقها واستطاعوا بعد لأي ان يفتحوا ثغرة في ناحية من السور ومن هذه الثغرة استطاع بعض المماليك وفي مقدمتهم مراد بك الفتى ان يدخلوا المـدينة راجلين

٣) عبود ص ٣٠ .
٤) فولني ج١ ص ١٣٧ .
٥) عبود ص ٣١ .

والسيوف المعقوفة في أيديهم موقنين انهم قد افلحوا في احتلال المدينة ، ولكنهم ما كادوا يصلون الى الخلاء الممتد بين الاسوار وبين بيوت المدينة حتى فاجأهم المدافعون بسيل من رصاصهم واجبروهم على التقهقر ثم هاجموهم بالسيوف واخرجوهم من المدينة . وهكذا اشتد الحصار على مدينة يافا العربية الفلسطينية يوما بعد يوم .

كان ظاهر وقتئذ قد خرج من عكا وتوجه الى الروحة في مرج ابن عامر يستنجد بابنائه ومشايخ البلاد حاثا اياهم على نصرة المدينة المحاصرة غير ان ولده عليا كان يدور على المشايخ فيثبط عزائمهم ويثنيهم عن قتال المصريين قائلا لهم انه حليف لمحمد بك وانه سيصبح شيخا على البلاد بمساعدته ، فانحاز المشايخ الى علي وتخلوا عن ظاهر ، وعاد ظاهر الى عكا والالم يحز في نفسه حزا (٦) .

في خلال هذه الحوادث طلب محمد بك مواجهة علي بن ظاهر فأبى ، وارسل عوضا عنه ولده الحسين البالغ السادسة عشرة من العمر مع ثمانية رؤوس خيل هدية لمحمد بك . واجريت المفاوضات بين الفريقين ولكنها اخفقت لان من شروط محمد بك ، على ما ذكر فولني ، كان المطالبة برأس ظاهر العمر .

يتحدث الخوري افتيموس زكار عن هذه الاحداث الهامة فيقول(٧) :

« ... ومن اخبارنا حضر ابو الذهب بعسكر سلطاني ما ينيف على ستين الفا التي منها عشرون الفا حربية والباقي اتباع ومنهم خمسة سناجق ومعه جبخانه حرب سلطانية واخذ غزة والرملة وكان اخذهما سابقا ظاهر مع علي بك والآن له مقدار اربعين يوما محاصر يافا التي داخلها كريم الايوب ويوسف ابن ابراهيم ضابط ادارتها وعندهم ناس من اراخنة نابلس . وابو الذهب صار لتاريخه هاجم على البلد اربع او خمس مرات وما استفاد شيئا بل راح منه جملة ناس وكان قبلا ضرب السور بالمدافع وهدم منه جانبا وما استفاد شيئا لكون البلد لها خندق عدا السور وما عمال يأتي بحركة وكلة احد مدافعه ارسلوها من يافا الى عكا حجر وزنوها ستة وثلاثين رطلا شامي .

٦) عبود ص ٣١ ، فولني ج١ ص ١٣٨ ، ج٢ ص ١٠٧ ، ميخائيل ص ١٣١ .
٧) رسالة صادرة عن دير المخلص بلبنان تاريخ ٦ ايار شرقي سنة ١٧٧٥ (١٧ ايار غربي) ملحق ميخائيل ص ١٦٩ .

« وقبل تاريخه ارسل علي الظاهر عشرة احصنة خيل تقدمة لابي الذهب معها مكاتبة لطيفة فقبلها واعطى بخاشيش لاخذيها له وارسل طلب عليا اليه لكي يواجهه فما رضي علي وانما ارسل ولده الحسين الاكبر وصحبته خمسة احصنة وثلاثة رؤوس خيل اصائل من ظاهر فقبلهم وخلع على حسين وارسل الى ابيه خلعة مكلفة وأعطى بخاشيش لرفاقه وطلب بعض شروط سرية ما احد عرفها سوى ظاهر وابراهيم وعلي ، والبائن ما ارتضوا بها ورجع حسين على هذه الصفة ولا نعلم ماذا يجد ظاهر واتباعه وصلوا الى اواخر مرج ابن عامر ورجعوا والآن ما زال ابو الذهب على يافا وظاهر واتباعه محتارين كيف يعملوا والدروز (اي الشهابيين بلبنان) ما اسعفوه وبعدنا على هذه الحال التي نرجو الرب ان يصلحها بدعاكم ... » (٨) .

٣ ـ سقوط يافا في ايدي المصريين :

بعد ستة اسابيع من حصار المدينة استولى اليأس على حماتها لعدم وصول النجدة اليهم من عكا وفي اليوم الثامن والاربعين فتح باب المفاوضات بينهم وبين المصريين ، وفي خلالها استطاع مغاربة محمد بك ابي الذهب الاتصال بمغاربة كريم الايوب داخل الاسوار ورشوهم بأربعة عشر الف ريال مقابل تسليم المدينة لهم ، ووعدهم ابو الذهب بالامان ان هم فعلوا . وعرف كريم الايوب بهذه المؤامرة في اللحظة الاخيرة فحاول احباطها فلم يفلح (٩) .

وبتاريخ ١٩ ايار سنة ١٧٧٥ (١٠) وهو اليوم التاسع والاربعون من الحصار فتحت ابواب يافا فجأة والمفاوضات ما زالت جارية ، ودخل المدينة افواج من فرسان المماليك واحتلوها . في اليوم الاول اعطى ابو الذهب الامان للاهلين فاطمأنوا ولكنه في اليوم التالي دعاهم اليه فجمعهم في ساحة ودور السيف في رقابهم : رجال ونساء واطفال من جميع الاعمار والمذاهب والطبقات مزقت اجسادهم بالسيوف والحراب

٨) ويواصل زكار حديثه عن الاسعار في ذلك الزمن فيقول : « ومن جهة الاسعار بهذه البلاد كل شيء غالي ... وسعر الحنطة مدين بقرش والشعير الكيل بقرش والحمص والفول والعدس والكرسنه وباقي الحبوب مدين بقرش والسمن بالمرافع وصل الرطل الى اربعة والان في موسمه بكلف قرشين ونصف وازود ... والزيت الرطل بقرش ونصف ، واللحم وصل للقرش ونصف وقيس على ذلك باقي الاشياء ما فيها رخيص » .
٩) عبود ص ٣١ .
١٠) هيد ص ٦٨ .

بما في ذلك المغاربة الذين سلموه المدينة . يقول المرادي المعاصر : « فأمر ابو الذهب بالقبض على من خرج سالما وربطهم بحبل على بعضهم بعضا ثم جلس على كرسي وامر بضرب اعناقهم فضربت اعناقهم عن آخرهم وهو جالس ينظر اليهم » . وذلك ليوقع الرعب في قلوب حكام البلاد ويحملهم على التسليم له دون تردد . يقول الجبرتي في هذا الصدد : « وقبضوا (اي المماليك) على الرجال وربطوهم بالجبال والجنازير وسبوا النساء والصبيان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ثم جمعوا الاسرى خارج البلد ودوروا فيهم السيف عن آخرهم ... وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع ووجوهها بارزة تنسف عليها الاتربة والرياح » . وبلغ عدد القتلى على هذه الصورة سبعة آلاف ، واما عدد الرؤوس التي اقيم منها ابراج وصوامع في الشمس المحرقة بلغ ، على ما رواه فولني ، الف ومائتي رأس خرجت ارواحها الى الفضاء تشكو الى الخالق وحشية هذا السفاح الطاغية .

وأما كريم الايوب حاكم المدينة فقد جرح جرحا بليغا فاستبقاه ابو الذهب سالما ورتب له طبيبا خاصا لمعالجته اعجابا بما رأى فيه من شجاعة في القتال ، واما اسرته فقد نقلت الى مصر في مركب .

قبض ابو الذهب ايضا على يوسف ابن ابراهيم الصباغ واراد ان يقتله لولا كاتبه المعلم ابراهيم الجوهري الذي اقنع ابا الذهب بلزوم الابقاء على حياته املا في ان يفتديه والده ابراهيم بمبلغ كبير من المال . ولذلك اكتفى ابو الذهب بسجنه وكلف مراد بك بالمحافظة عليه . كان لابراهيم الجوهري هذا على ما قيل ، فضل في وقف مجزرة يافا وانقاذ حياة الكثيرين من اهلها . قيل انه كان يشتري من ابي الذهب دم الاسير بثمن معلوم : كانت فدية المرأة تساوي نصف فدية الرجل وفدية الطفل تساوي نصف فدية المرأة ، اما المدينة نفسها فقد نهبت على بكرة ابيها (١١) .

٤ ــ محمد بك ابو الذهب يستولي على عكا :

في هذا الوقت كان ظاهر العمر يتابع اخبار هذه المجزرة في يافا فاستغاث بأولاده وحلفائه المتاولة ولا من مغيث ، ثم استنجد بيوسف الشهابي فلم يجرؤ الامير على التحرك . ان انباء مجازر يافا نشرت الفزع في كل مكان فأخلى سكان

١١) عبود ص ٣٢ ، ميخائيل ص ١٣٤ ، فولني ج١ ص ١٤٠ ، المرادي ج١ ص ٥٧ ، الجبرتي (حوادث سنة ١١٨٩ هـ .) ، كرامة ص ٤٦ .

عكا وصيدا وبيروت مدنهم واعتصموا بالجبال خوفا من ان يصيبهم ما اصاب اهل يافا من قتل وتذبيح . وبقي ظاهر في عكا .

في غضون ذلك بعث علي الظاهر الى ابيه يهدده بلزوم الخروج من عكا بكرامته وشرفه والا فسيكون هو (أي علي) وابو الذهب سوية عليه ولذلك اكره ظاهر على مغادرة المدينة ورحل الى صيدا . بعد خروج ظاهر من عكا دخلها ولده علي استنادا الى وعد ابي الذهب له بتنصيبه شيخا على عكا عوضا عن ابيه وارسل في الوقت نفسه الى ابي الذهب يخبره بأنه قد اخرج اباه من المدينة واستقام له الامر فيها . فلما بلغ ابو الذهب ذلك ارسل الى علي يتهدده ويأمره بالخروج من عكا هو ايضا ذاكرا له انه لا يقدر ان يتركها له ومنكرا عليه كل حق في توليها . ادرك علي انه خدع وغادر المدينة على وجه السرعة (١٢) .

كان لعلي بن ظاهر جواسيس يتتبعون آثار المصريين الزاحفين الى عكا ، وكانوا يخبرون سيدهم بحركاتهم . دخل مخبر على علي وهو في عكا ليقول له ان المصريين المتوجهين شمالا قد وصلوا الى جنين ونزلوا في ارضها ، فأنشد مخاطبا سيده :

علي يا راكب التخت العلية

وسيفك هدهد جبال العلية

ما اريت الغز والدولة العلية ؟

بأرض جنين دقون الاطناب (١٣)

وبعد خروج علي الظاهر من عكا بثلاثة ايام وصل اليها ابو الذهب واستولى عليها وكان ذلك في ٣٠ او ٣١ ايار سنة ١٧٧٥ .

نزل المصريون في ظاهر المدينة على بقعة تمتد من قرية السميرية حتى نهر النعامين . والجدير بالذكر ان ابا الذهب لم يدخل عكا خلال اقامته في ظاهرها سوى مرة واحدة وذلك للتفرج على ابنيتها الخالية الخاوية وتفقد اسوارها الشهيرة ، وخرج منها في يومه .

١٢) عبود ص ٣٢ .

١٣) محمد الخطيب ــ الغز معناها فرسان المماليك والدولة العلية اي عساكر الدولة.

كان ابو الذهب وهو في عكا قد ارسل مركبا الى صيدا لاحتلالها • غادر ظاهر المدينة ومضى بصحبة ابراهيم الصباغ الى هونين بجبل عامل عند صديقه الشيخ قبلان كما غادر صيدا ايضا حاكمها احمد اغا الدنكزلي ، وسقطت المدينة في ايدي المصريين • ويقال كان الدنكزلي قبل ان يغادر صيدا قد اجرى اتصالا وديا بقائد هذا المركب واتفق معه على خطة لقتل ظاهر كما سيجيء •

بعث ابو الذهب الى علي الظاهر يدعوه ثانية الى مقابلته وكان قصده ان يقتله كما قتل اغاوات المغاربة الذين سلموه مدينة يافا ، فاعتذر علي عن الحضور • فأرسل ابو الذهب فرقة من عسكره الى دير حنا فاستولت عليها واخرى الى صفد فنهبتها وهدمت جانبا من قلعتها • وانتشر المماليك في الجليل ينهبون ويرتكبون الاثام ، ولاذ علي بالفرار •

لم يصب الفرنسيون المقيمون في عكا بأي اذى خلال نهبها ولكنهم فوجئوا اخيرا بطلب من ابي الذهب يدعوهم فيه الى تسليم اموال ابراهيم الصباغ المودعة عندهم وهددهم بالقتل والمصادرة ان لم يفعلوا • ولكن حدث في اللحظة الاخيرة ما انقذهم من هذا الخطر الجديد •

زينت القاهرة ثلاثة ايام بلياليها عقب احتلال عكـا كما غمرت الاستانة موجة من الفرح وجعلت تستعد لارسال وزير من قبلها الى عكـا ليتولاهـا • وكان ابو الذهب قد ارسل الى الاستانة مبعوثا من قبله يدعى اسماعيل بك الغزاوي ليطـالب له بأمارة الشام بالاضافة الى امـارة مصر فأجيب ملتمسه وأنعم عليه برتبة الوزارة مع لقب باشا ، فأرسلت اليه الخلع والتقـاليد بهذا المنصب بصحبة كتخداه محمد الجركسي• وشاء القدر انلايتمتع ابو الذهب بهذهالخلع التافهة والالقاب الفارغة•

وقدم الى عكا جماعة من الوشاة وذكروا لابي الذهب ان نصارى الجليل قد تجاوزوا حدود اهـل الذمة فصاروا يعملون كل سنة حجا على جبـل الكرمـل ، كالمسلمين ، في كنيسة لهم ذات قبة عظيمة على اسم النبي ايليـا (اي مار اليـاس) وطلبوا منه ازالتها • استجاب ابو الذهب لطلبهم وامر بهدمهـا ، فهدمت في يوم ٦ حزيران رغم توسلات شيخ مزار الخضر المجاور للكنيسة الذي حذر ابا الذهب من

عاقبة محو اثار السلف، ذاكراله انفيوجود هذه الكنيسة منفعة لفقراء المزار(١٤)•

٥ ـ موت محمد بك ابي الذهب على ابواب عكا

قدم مشايخ البلاد الى عكا ومعهم الهدايا مهنئين محمد بك على قدومـه وفي مقدمتهم ناصيف النصار ومشايخ المتاولة • رحب ابو الذهب بهم ولكنه استبقاهم عنده لغرض في نفسه ، ولعله كان يريد قتلهم كما ذكر ذلك اكثر من مؤرخ • وقدم اليه ايضا احمد الدنكزلي وبصحبته رؤساء المغاربة فاستقبلهم ابو الذهب بحفـاوة لكنه استبقاهم عنده ايضا وألحقهم بمشايخ المتاولة •

وأما يوسف الشهابي فلم يجرؤ على الذهاب اليه بنفسه لانم كان قد سار الى قتاله في دمشق سنة ١٧٧١ بل وجه اليه رسولا مع اربعة من الخيل الجياد مسوّمة بالحلى تهنئة له بالحضور • ولما وصل الرسول الى صيدا ورده خبر ، لـم يكـن متوقعا ، يعلن موت محمد بك ابي الذهب في عكا فجأة • فعاد الرسول الى بيروت، وطرب الامير يوسف غاية الطرب •

أحدثت وفاة ابي الذهب الفجائية هزة عنيفة في جميع الانحـاء • يقـول المؤرخون : في ٦ او ٧ حزيران اشتكى محمد بك من وجع في رأسه احسّ بـه بغتة ثم ُحمّ ولبث محموما ثلاثة ايام (وفي بعض الروايات سـبعة ايـام) حتى لفـظ انفاسه الاخيرة وهو في مقتبل العمر غير مأسوف عليه وكان ذلك في يوم السبت ١٠ حزيران (١٥) ، ولم يمض عـلى قـدومه احد عشر يومـا •

وما كاد خبر وفاته ينتشر في البلاد حتى هرب من الاسـر احمـد الـدنكزلي ومشايخ المتاولة وكذلك يوسف الصباغ الذي اسر في يافا • وعاد ابناء ظـاهر الى قلاعهم بشيء من الذل •

حمل المماليك جثة فقيدهم بعد ان جوفوها ورحلوا بكامل معداتهم الى مصر، وفي طريقهم جنوبا عرجوا على الرملة وقتلوا كريّم الايوب الجريح •

ُدفن محمد بك في الجامع الذي أنشأه تجاه الازهر في القاهرة وسميت عائلته بالمحمدية نسبة الى عميدها محمد بك ابي الذهب •

١٤) عبود ص ٣٢ ، ميخائيل ص ١٣٥ ، حيدر ص ١٠٨ ، جودت ص ٥٤ •
١٥) ميخائيل ص ١٣٧ ـ يعطي ميخائيل التاريخ الصحيح لوفاة محمد بك وهو ١٣٠يار شرقي الموافق ١٠ حزيران غربي ، كذلك هيد ص ٦٩ يعطي التاريخ الصحيح،عن كتاب قنصل فرنسا في صيدا تاريخ ٧٥/٦/٢٥ •

يرجع فولني سبب موته الى عوامل الطبيعة كالحر الشديد والمستنقعات القذرة المحيطة بعكا والى التعب المفرط الذي ألم به في يافا خلال حصارها ، وفي عكا • أما المرادي فيقول انه مات مسموما بسم ارسله اليه ظاهر العمر وجعل لمن دسه له خمسة آلاف دينار •

أثار موت محمد بك عاصفة من الفرح في كل مكان ، يقول بريك : « ولم يزل (اي محمد بك) ملتهبا بتلك الحمى الشديدة • وبعد جمعة زمان هلكت نفسه الشقية وصار فرح عظيم بهلاكه » • ويقول فولني في هذا المعنى : ان محمد بك الذي خلف علي بك في نيسان سنة ١٧٧٢ لم يكن سوى لص شرس متوحش كشف عن خسة متناهية في الخيانة والاجرام •

قيل في وفاة محمد بك هذا الشعر :

يا معشر الاسلام طيبوا انفسا جاء في التاريخ مات ابو الذهب

وأرخ موته احمد البربير البيروتي بقوله :

لما دنا كل المنى والهم عن قلبي ذهب
والسعد اقبل ظاهرا أرخت مات ابو الذهب

وقال شاعر المتاولة مؤرخا موته ومهنئا الشيخ ظاهرا بسلامة العودة الى عكا:

من كان امره للاله كلاه من كل عطب
فرجعت منصورا به من غير رمح ولا عضب
بالفرد ربك انني أرخت مات ابو الذهب (١٦)

والتاريخ هو ١١٨٨ هـ فاذا اضفنا اليه « واحد » وهو الفرد الوارد في البيت الاخير تكون وفاته سنة ١١٨٩ هـ الموافق سنة ١٧٧٥ •

١٦) حيدر ص ١٠٨ ، فولني ج١ ص ١٣٤ ، ١٤٢ ، بريك ص ١٠٤ ، كرامة ص ٤٧ ، ميخائيل ص ١٣٧ ، المرادي ج١ ص ٥٧ ، الجبرتي (حوادث سنة ١١٨٩ هـ) رسالة بابيلا (الملحق) عضب معناها السيف القاطع .

هكذا كانت نهاية محمد بك ابي الذهب الذي قدم الى عكا ليجلب رأس ظاهر العمر ويعيد البلاد السورية المتمردة الى طاعة السلطان (١٧) •

كان ظاهر وقتئذ في هونين يعاني آلام الشيخوخة والمرض وجروحا عميقة احدثتها خيانة الابناء والحلفاء •

استقبل اولو الامر في الاستانة خبر موت محمد بك بالاسف الشديد ولذلك اصدر السلطان عبد الحميد الاول اوامره بتحويل الجيوش العثمانية التي كانت تقاتل المسكوب في اوروبا الى بر الشام لقتل ظاهر العمر هو ورهطه الزيادنة وازالتهم من الديار الفلسطينية ، كما امر بتجهيز حملة بحرية بقيادة حسن باشا الجزائرلي امير البحر التركي لمهاجمة عكا من البحر ، كما سيرد تفصيله في الفصل القادم •

٦ – رسالة تاريخ ٢٢ حزيران سنة ١٧٧٥ (١٨) :

يتحدث عن هذه الحملة الاب جبرائيل دباس فيقول :

« اني كتبت لكم ان السلطان بعث قبجي الى الشيخ ظاهر وارسل له معه فرمان العفو والغفران على كل شيء صدر منه سابقا برفقته (اي بسبب رفقته) للمسكوب ومجيئهم الى هذه البلاد واخذه بلاد السلطان مثل صيدا وغزة والرملة ويافا » •

« ثم بعث محمد ابو الذهب حاكم مصر يطلب من ظاهر ملكاته وهي غزة والرملة فأنكرها عليه الشيخ فالتزم ابو الذهب يخرج من مصر بجبخانه وعسكر عظيم على بلادنا ولما وصل الى غزة والرملة سلموا حالا وتقدم الى يافا فحصرها خمسين يوما وملكها بقوة الجبخانه وخيانة المغاربة الذين كانوا عند الشيخ كريم الايوب في يافا فلما ملكها اعطى اول يوم الامان وثاني يوم مسك كل المسلمين والنصارى من المفتي والقاضي ونازل وجميعهم قتلهم ومنهم اولاد فينان وكريم الايوب وحبس عنده كاتبه يوسف

١٧) حكم مصر بعد موت محمد بك فئة من المماليك المتنازعين اظهرهم : اسماعيل بك الذي عرف حزبه بالعلوية نسبة الى استاذه علي بك ، وقد تقدم الكلام عنه في الفصل (١٠) ، ومراد بك وابراهيم بك اللذان عرف حزبهما بالمحمدية نسبة الى استاذهما محمد بك ابي الذهب .

١٨) الموافق ٣ تموز غربي ، الرسالة صادرة عن عكا ، ملحق ميخائيل ص ١٧٠ •

الصباغ ابن ابراهيم . فمن بعد ذلك لما اراد ان يتوجه لنواحي عكا لما نظرنا القساوة التي اظهرها مع اهل يافا قمنا على الشيخ ظاهر كلنا مسلمين ونصارى ويهود لكي يسمح لنا بالخروج من البلد فقاومنا بالاول ولكن لما استحققها (اي وجدها حقا) من كون لا يوجد عنده ذخيرة بالبلد حتى تحاصر وعيبته ابنه علي ، فأمر الناس كلها تخرج من عكا فخرجت وهو معهم مسلمين ونصارى ويهود واناس ذهبوا الى الجبل والى سحماتا وطرشيحا واناس الى بيروت واناس الى دير المخلص واخوتكم طلعوا كلهم ماشين الى سحماتا من قلة الدواب وتركت الناس حوائجها ما عدا الرزق كان موضوعا في خان الافرنج خوفا على حياتها وعرضها » .

« ولكن الله تعالى اراد لاجل حسنة المساكين .. وقصاصا لقساوة هذا العدو للكنيسة رفع الغضب عنا بسماحة بأن يموت موتة شريرة وهو على ابواب عكا ... اخيرا ارسل له الله حمى شديدة اخذته في مدة سبعة ايام الى القبر الجهنمي فحالا عسكره ارتفع عن عكا وتوجه الى مصر وقتلوا وهم رايحين الشيخ كريم الايوب في الرملة لانه كان مجروح ... ومن بعد قيام العسكر من عكا رجع الشيخ ظاهر اليها وبدأت الناس ترجع الى بيوتها لكي تعمرها لانها خربانة ومنهوبة حتى ان الكنائس انتهبت وما بقي فيها شيء والآن ما راقت عكا كما يجب ... » .

الفصل الثامن عشر

مقتل ظاهر العمر

وسقوط عكا في ايدي العثمانيين

١ – الحرب الاهلية في عكا :

بعد انسحاب المصريين من عكا ورحيلهم الى مصر عقب ١٠ حزيران سنة ١٧٧٥ دخل عكا احمد اغا الدنكزلي وعسكره البالغ عدده نحو الالف غير انهم كانوا منقسمين على انفسهم ومتنابذين : فريق منهم كان مواليا لظاهر العمر وعلى رأسه الدنكزلي نفسه والفريق الآخر كان مواليا لعلي بن ظاهر وعلى رأسه رجل يسمى عبدالله دراع الواوي وكان هذا الاخير يسعى لاستخلاص المدينة من ايدي الدنكزلي وتسليمها لعلي بن ظاهر الذي كان يكره الدنكزلي كراهية زائدة منذزمن بعيد . فاعتصم كل من الفريقين بناحية داخل الاسوار وجعل يطلق نيرانه على الآخر . ارسل عبد الله اغا رسولا الى رئيسه علي بن ظاهر يخبره فيه بمية محمد بك ابي الذهب ورحيل المصريين عن عكا ، ويرجوه في الوقت نفسه ان يسرع بالقدوم اليه لتولي المدينة . كما ارسل الدنكزلي ايضا الى ظاهر المقيم في هونين يخبره بالقتال الدائر في عكا ويستدعي حضوره على وجه السرعة قبل ان يصل ولده علي الى المدينة فيتولاها .

وفي يوم ٢١ حزيران سنة ١٧٧٥ (١) نزل ظاهر الى عكا وكان مريضا ، فدخل المدينة من باب السراي الشمالي المسمى « بوابة السباع » لان القتال كان وقتئذ ناشبا في اكثر من ناحية بين الفريقين المتحاربين . وعندما بلغ عبد الله الواوي قدوم ظاهر الى عكا داخله خوف شديد ثم لم يلبث ان ذهب اليه بالامان واستسلم له ، ورغم ذلك فقد قبض الدنكزلي على عبد الله اغا وزج به في السجن واجرى عليه

١) عبود ص ٣٤ – يقول عبود : كانت المدة من حين دخول ظاهرلعكا لحين موته سبعين يوما .

العذاب لانه كان عدوه .

وفي خلال هذه الحوادث وصل الى عكا علي بن ظاهر واشتبك مع عسكر والده بالقتال .

يقول المؤرخ في هذا الصدد ان تعصب الدنكزلي لظاهر ودعوته اياه للقدوم الى عكا لم يكن محبة منه لسيده ولا حسن خدمة بل حيلة قصد بها استدراجه الى عكا بغية قتله وتسليم المدينة للاتراك لانه عندما وصل الى صيدا المركب السلطاني الذي كان محمد بك ابو الذهب ، وهو في عكا ، قد ارسله لاحتلالها قبل مدة قصيرة كما تقدم ذكره في الفصل السابق ، اجرى الدنكزلي وهو في صيدا اتصالا وديا بقائد هذا المركب واتفق معه على خطة لقتل ظاهر ثم مضى الدنكزلي الى عكا وهو على هذه النية . ولما مات ابو الذهب فجأة في عكا بعث الدنكزلي الى قائد المركب يعلمه انه ما زال عند كلامه وأنه على استعداد لتسليم عكا ورأس ظاهر لحسن باشا امير البحر المزمع ارساله الى عكا لهذه الغاية ، وطلب الدنكزلي من قائد هذا المركب ان يتصل بحسن باشا ويخبره بذلك ليكون عالما بما يجري داخل عكا .

لذلك كان وقوف الدنكزلي ، على ما ذكر المؤرخ ، الى جانب ظاهر في نزاعه مع ولده علي من اجل السلطة مكيدة للتخلص من ظاهر وقتله ، والمحافظة على حياته هو لانه لو استطاع علي بن ظاهر القدوم الى المدينة قبل ان يصل اليها ابوه وقبض على الدنكزلي لقتله شر قتلة لانهما كانا دوما عدوين (٢) .

٢ — الاتراك يهاجمون عكا برا وبحرا :

تحت ستار المطالبة بمال مكسور عن سبع سنين نقضت الدولة فرمان العفو عن ظاهر واعلنت عن عزمها على مهاجمته لا لسبب ، كما زعمت ، الا لجباية اموالها المكسورة .

فوضت الدولة امر قتال ظاهر بحرا الى الغازي حسن باشا الجزائرلي وهو المسمى بالتركية بالقبودان باشي ، ومن البر عهدت الدولة في قتاله الى ثلاثة وزراء ورجل رابع برتبة «بك» وهم محمد باشا العظم والي دمشق وابراهيم باشا النمر والي القدس ومحمد باشا والي ادنه الذي توجهت اليه ايالة صيدا بطريق الالحاق ، والرجل الرابع هو احمد بك الجزار الذي عين محافظا للسواحل الشامية بناء على

٢) عبود ص ٣٥ .

ان يصير وزيرا لعكا عوضا عن ظاهر (٣) .

كانت اوامر الدولة تنص على ان يتسلم محمد باشا العظم قيادة الحملتين البرية والبحرية وان يعمل حسن باشا من تحت يده حتى يتم للاتراك الاستيلاء على عكا وقتل ظاهر العمر هو وكل اولاده وذراريهم .

كان ظاهر يعرف ما يدبر له في الخفاء من عيونه في الاستانة فجعل يعد العدة لملاقاة الجيوش القادمة ويستعد لجميع الاحتمالات . كان اول ما فعله بعد دخوله عكا قادما من هونين ان وجه عنايته الى اقرار النازحين في بيوتهم واخماد نار الفتنة المشتعلة بين عساكره ثم قام بانشاء الحصون والقلاع وعززها بالمقاتلين الجدد المجهزين بالبواريد والطبنجات ، ولم يثنه عن ذلك كبر سن او نزاع بين اولاده وقادة عسكره ، ومما يجدر ذكره ان وصول حسن باشا بالمراكب السلطانية الى السواحل الشامية قد وضع حدا للقتال الدائر في عكا بين ظاهر وولده علي .

في اوائل آب سنة ١٧٧٥ ابحر حسن باشا بالاسطول السلطاني الذي كان يتكون من احدى عشرة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة ، الى السواحل الشامية في طريقه الى عكا للمطالبة بالاموال الاميرية المكسورة ، وكان بيده فرمان بقطع رأس ظاهر العمر وارساله الى استنبول . مر حسن باشا بصيدا اولا فقصفها بالمدافع ثم اقلع بالسفن جنوبا الى حيفا ، وبتاريخ ٧ او ٨ آب سنة ١٧٧٥ استولى عليها سلما بسبب خيانة حماتها المغاربة التابعين لاحمد اغا الدنكزلي ، وارسى سفنه في خليجها . ومع علم ظاهر بالمهمة التي جاء حسن باشا من اجلها الى البلاد فقد خرج بمراكبه لاستقباله والترحيب به .

هذا من ناحية المراكب السلطانية القادمة الى عكا بطريق البحر ، واما الجيوش الاخرى القادمة الى عكا بطريق البر بقيادة محمد باشا العظم فلم تصل الى عكا بعد .

مكث حسن باشا في حيفا حوالي اسبوعين اجريت خلالهما مفاوضات الصلح بينه وبين ظاهر ، وساهم في المفاوضة ربان فرنسي قدم الى عكا خصيصا لاخراج الفرنسيين من منطقة الخطر ، ولما اخفقت المفاوضات اقلع حسن باشا بسفنه الى مياه عكا وشرع يقصف المدينة بمدافعه واستمر القصف مدة ثلاثة ايام بصورة متواصلة ، وفي ٢٩ آب قتل ظاهر العمر في بر عكا بعد خروجه الاضطراري من المدينة

٣) جودت ص ٥٥ .

عن طريق بوابة السراي الشمالية ، بوقت قصير ، وسقطت عكا في ايدي العثمانيين كما سيجي شرحه بالتفصيل .

ونظرا لاهمية الاحداث التي سبقت وقوع الكارثة واختلاف المؤرخين في تقرير مسؤوليتها والآثار البعيدة المدى التي خلفتها في حياة البلاد السورية فاني اجمل فيما يلي خمس روايات لاربعة مؤرخين وكاهن وهم : جودت التركي وفولني الفرنسي وميخائيل الصباغ وعبود الصباغ ورسالة للكاهن جبرائيل دباس ، كل هؤلاء تحدثوا عن حسن باشا وعن مطاليبه والمفاوضات التي دارت بشأنها بينه وبين ظاهر وبعضهم بالاضافة الى ذلك يتحدث عن امرأة كرجية تسمى عيشه ، وهي حظيرة ظاهر المحبية اليه بين نسائه كان لها شأن في اللحظات الاخيرة لحياة ظاهر وفي الظروف الغامضة التي احاطت بمقتله . وابدأ برواية جودت باشا .

٣ ـ رواية جودت :

... فوصل قبودان باشا (اي حسن باشا) قبل الجميع بالاسطول السلطاني الى حيفا وحرر الى ظاهر العمر كتابة يقول له فيها بأنه اذا دفع ما عليه من البقايا بحسب ما تعهد به سابقا تبقى ايالة صيدا بعهدته على ما كانت عليه . فجمع ظاهر العمر اولاده وارباب دولته وتفاوضوا في المسألة فكان رأي البعض انه يجب التخلص باعطاء المال وبعضهم رجح الامتناع عن دفع المال والاقدام على القتال . فقال لهم احمد اغا الدنكزلي متسلم صيدا نحن ليس لنا سلامة الا بالطاعة للاوامر السلطانية ولذلك يلزمنا ان نرضي قبودان باشا بشيء من المال . اعجب ظاهر بهذا الرأي وقال موجها كلامه الى وزيره ابراهيم الصباغ : اعدد لنا مبلغا نرضي به الدولة وتتخلص من هذه الورطة فأجاب الصباغ لا يوجد عندنا مال يقوم بوفاء الاموال الاميرية وبالفرض انه وجد واعطيناه فلا تقنع الدولة بما تأخذه منا ولا تتركنا .

وهنا قال احمد الدنكزلي للصباغ : دبر لي الآن كم مائة كيس فأرضي بها حسن باشا وارجعه الى حيث جاء فأجابه الصباغ لا يوجد عند الشيخ ظاهر مال غير الرصاص والبارود والعساكر . فخرج الدنكزلي من المجلس غاضبا ومضى الى المغاربة حماة الابراج وقال لهم ان في نية ظاهر العمر واولاده ان يحاربوا عساكر الدولة

* هيد ص ٧٠ ، رسالة الدباس ـ انظر باب ٦ ، عبود ـ انظر باب ٨ .

ونحن قوم مسلمون تجب علينا طاعة السلطان . ثم تقرر فيما بينهم بأن لا يطلقوا رصاصة واحدة على العساكر السلطانية .

وكان قبودان باشا ينتظر جواب المكاتيب التي ارسلها الى ظاهر ، فلم تطل المدة الا وعرف بأن الشيخ ظاهرا قد جزم على الثبات . قيل انه وقف على ذلك بواسطة مخابرة خفية جرت بينه وبين الدنكزلي . وحاصل ما توقع ان حسن باشا احال ضبط نواحي صيدا الى محمد باشا والي اذنه ثم جاء هو بالاسطول الى مقابل عكا .

وقبل ان تبدو حركة من البشوات ارسل حسن باشا الى ظاهر العمر امرا سلطانيا يدعوه فيه الى الطاعة (سيرد نص هذا الامر في رواية قادمة) ولما رفض ظاهر الاستجابة لهذا الامر امر حسن باشا باطلاق المدافع على قلعة عكا فأمر كذلك ظاهر العمر مغاربته ان يطلقوا النار على المراكب فامتنعوا ، عندها ادرك ظاهر العمر وخامة العاقبة ونوى على الهرب من عكا . وفيما كان خارجا من باب البلدة رماه احد المغاربة ، وقيل احمد اغا الدنكزلي ، برصاصة من خلفه فقتله هناك ، وكانت اولاده مهتمين بجمع العساكر والذخائر ، فلما بلغهم هذا الخبر تفرقوا ايدي سبأ وتشتتوا في الجهات (٤) .

٤ ـ رواية فولني :

كان ابراهيم الصباغ يرى ان يقاوم القوة بالقوة وحجته في ذلك ان حسن باشا لم يكن لديه سوى ثلاث قطع بحرية كبيرة وهي لا تمكنه من شن هجوم على البر كما انها لا تستطيع الصمود طويلا امام مدافع القلعة . وكان في المدينة ، حسب رأي الصباغ ، قوة كافية من الجند تستطيع منع الاتراك من النزول الى البر ، وان نجحوا في ذلك فانهم لن يحرزوا اي مكسب وسيكفون عن القتال في المرحلة الاولى منه .

عارض أحمد الدنكزلي رأي الصباغ وطالب بالصلح مع الاتراك لان المقاومة في نظره كانت لا تجدي نفعا ولن تؤدي الا الى اطالة امد الحرب وهو تهور من شأنه تعريض حياة الجنود الشجعان للخطر في سبيل مكسب من السهل الحصول عليه بطرق اقل كلفة وذلك عن طريق دفع المال مثلا . واكد الدنكزلي للحاضرين انه يستطيع ارضاء حسن باشا بالفي كيس .

٤) جودت ص ٥٦ .

وهنا وقف الصباغ معترضا وصاح ليس في الخزنة قرش واحد ، ثم تكلم ظاهر مؤيدا وزيره ابراهيم ، فصاح الدنكزلي حقا لقد تكلم الشيخ الصدق ولكن هل يصدق احد ان خدم ظاهر لا يستطيعون جمع الالفي كيس التي يطالب بها حسن باشا . فأجاب الصباغ قائلا انه فيما يتعلق بشخصه ليس هناك من هو اشد فقرا منه . فأجاب الدنكزلي في غضب بل قل ليس هناك من هو احط منك واخس ، من يجهل انك في الاربع عشرة سنة الاخيرة كنت ولا تزال تكتنز الاموال الوفيرة وتحتكر كل سلعة للتجارة ثم تأتي الآن فتمتنع عن الوفاء بالتزاماتك ، من يجهل انك خلال حرب محمد بك ابي الذهب نهبت كل بلاد غزة وحملت حبوبها وتركت يافا الذبيحة بلا ضرورات الحياة .

ثار الضجيج بين الحاضرين فأمر ظاهر بالسكوت ثم رفع صوته مدافعا عن وزيره ابراهيم ومنددا بالدنكزلي متهما اياه بالحسد والخيانة والغدر . غادر الدنكزلي قاعة المجلس غاضبا فجمع اتباعه المغاربة الذين كانوا عمدة قوة دفاع ظاهر وامرهم بالعصيان والامتناع عن ضرب الاتراك بالنار . لكن الشيخ ظاهر رغم ذلك جزم على الثبات واصر على القتال حتى النفس الاخير .

في اليوم التالي اقترب حسن باشا من قلعة عكا وجعل يصب نيران مدافعه عليها فنزل ظاهر بنفسه الى المعركة وامر الطبجية بالاجابة على اطلاق النار فالذين كانوا بقربه اطاعوه لهيبته وأما الآخرون فقد امتنعوا رغم اوامره المتكررة اليهم .

وهنا شعر ظاهر بالخيانة تتسلل الى صفوف عسكره المغاربة فاعتلى صهوة جواده وغادر المدينة من البوابة الشمالية محاولا الوصول الى بر عكا ، وبينما كان يسير بمحاذاة جدار احد البساتين اطلق مغربي النار عليه من طبنجة فأصابت الرصاصة ظهره من اسفل وسقط عن جواده . وظل ظاهر على هذه الحال حتى احاطت به جماعة من المغاربة فاحتزوا رأسه وحملوه الى حسن باشا .

حفظ رأس ظاهر بالادوية استعدادا لحمله الى استنبول هدية للسلطان ليستمتع به ويمتع برؤيته كل راغب ، ومنذ ذلك الحين سقطت بلاد الجليل في ايدي الاتراك وهي تحتفظ اليوم بذكرى من حكم ظاهر العمر لا تنفع احدا .

ويضيف فولني قوله ان المغربي مطلق النار على ظاهر هو من مستخدميه مضى على عمله عنده عشر سنين (٥) .

٥ – عرض وتحليل :

تمثل رواية جودت باشا وجهة نظر الحكومة التركية بشأن هذه الحرب وتمثل رواية فولني وجهة نظر قطاع كبير من الرأي العام العربي في ذلك الزمن . ومهما يكن من امر فان كلتا الروايتين تتفقان على التنديد بموقف الصباغ الصلب في المفاوضة وتحملانه مسؤولية وقوع هذه الحرب كما تصفان الدنكزلي بأنه ذلك الرجل المخلص لظاهر العمر والداعي الى الصلح مع الدولة وحقن الدماء عن طريق دفع المال المكسور لحسن باشا . ولكن سير الحوادث يدل على ان الدنكزلي كان ابعد ما يكون عن ذلك بدليل الدور « التخريبي » الذي لعبه منذ بداءة المفاوضات حتى نهاية المعركة .

كان حسن باشا واحمد الدنكزلي كلاهما من المغرب العربي وهو امر ربما اعد له من قبل ساعد على التقارب بين الرجلين والاتفاق بحكم الروابط الوطنية التي تربطهما ببعض ، على تدبير خطة للتخلص من ظاهر . وتكاد تجمع كل المراجع التاريخية على الاتصالات المباشرة وغير المباشرة التي قام بها هذان الرجلان في مياه صيدا ، قبل موت محمد بك ابي الذهب ، وفي مياه حيفا خلال المفاوضات مع ظاهر كما سيجيء ذكره .

واقول ان قدوم حسن باشا بالاسطول السلطاني الى عكا لم يكن لمجرد المطالبة بالضرائب واستيفاء ما يتيسر له منها كما هي العادة في مثل هذه الزيارات وانما كان غرضه بالصورة الاستفزازية التي جاء بها هو ان يقضي على ظاهر العمر كقوة مناوئة للدولة العثمانية في الشرق العربي ويعيد البلاد السورية الثائرة الى طاعة السلطان .

وواضح ان ازدياد نفوذ ظاهر في السنوات الاخيرة واستيلاءه على مساحات شاسعة من البلاد السورية ولا سيما ما كان من تحالفه مع علي بك والروس وانزاله

---

٥) فولني ج٢ ص ١٠٨ – ١١٥ و٣٢١ – يقول كرامة المعاصر في هذا المعنى : وقصد ظاهر الفرار من عكا فلحقه احد المغاربة بدسيسة الدنكزلي الخائن واطلق عليه عيارا ناريا ارداه قتيلا فقطع راسه وسلمه الى رئيس العمارة ص ٤٧ .

الهزائم المتتابعة بالعثمانيين ، كل ذلك من شأنه ان يسيط اللثام عن الاهداف الحقيقية التي جاء حسن باشا من اجلها الى عكا • وعليه اقول ان قضية الضرائب لـم تـكن نقطة جوهرية في الخلاف بين ظاهر وحسن باشا وان الحرب بسببها لم تكن لتقع لولا وجود عوامل اخرى اشد خطورة واعمق جذورا استدعت تجريد هذه الحملات البحرية والبرية التي كانت اكثر بكثير مما تستلزمه ضرورات جباية الاموال •

عرف ظاهر مقاصد الدولة العثمانية وخفايا سياستها الماكرة المتلونة فادرك من خبرته الطويلة بها ان مجيء حسن باشا الى البلاد لم يكن لمجرد المطالبة بالضرائب كما كان يدعي بل لاسقاط ظاهر وازالته من عكا ولذا فان الموقف الذي اتخذه ظاهر حيال مطاليب امير البحر كان موقفا صحيحا والحرب بينهما كان لا مناص منها دفع الاموال المكسورة او لم يدفعها • لذلك ان ما قيل عن امتناع ظاهر عن دفع هذا المال او عن الاختلاف في الرأي بين الصباغ والدنكزلي بشأنها كان في اعتقادي خلافا مفتعلا لتبرير هذه الحرب والقاء تبعتها على ظاهر ومستشاريه وتحويل الانظار عن الغرض الحقيقي الذي جاء حسن باشا من اجله •

ومهما قيل عن موقف الدنكزلي المعتدل خلال المفاوضات والدور المهادن الذي لعبه قبل المعركة فانه لما شك فيه ان الهدف الذي كان الدنكزلي يرمي اليه من وراء اصراره على تجنب الحرب واستعداده لارضاء حسن باشا بمبلغ من المال ، هـو ان تتاح له فرصة الاتصال الشخصي بحسن باشا للاتفاق معه على خطة لقتـل ظـاهر وتسليم عكا للاتراك تنفيذا للخطة التي اتفق عليها بينه وبين ربان المـركب السلطاني الـذي احتل صيدا قبل موت محمد بك ابي الذهب(٦) كما سبق وورد ذكره •

٦) والغريب في الامر ان اكثر المؤرخين مثل بريك ومشاقة وجودت يحملـون ابراهيم الصباغ تبعة اشعال نار هذه الحرب ونتائجها المؤلمة ويقولون ان الصباغ هو الذي غرر بظاهر وحمله على الامتناع عن دفع المال الميري وذلك لبخله وامساكه. واقول انه مهما قيل عن بخل ابراهيم الصباغ فلا يصح ان يتخـذ ذلك سببا لفشـل المفاوضات واشعال نار الحرب لان المال موضوع البحث لم يكن مال الصباغ بـل مال البلاد التي يقف على راسها ظاهر . ويجب ان لا ننسى ان الذين كتبوا التاريخ في العهد العثماني كتبوه تحت تأثيرات شتى كتيار الشائعات المغلوطة والخوف من العثمانيين حتى ادى بهم ذلك الى التزوير وتزييف الكثير من الحقائق التاريخية الهـامة .

وانتقل الآن الى ايراد وجهة نظر اخرى للكاهن جبرائيل دباس في رسالة لـه تاريخ ٥ تشرين الاول سنة ١٧٧٥ مؤيدة بما رواه في هذا الصدد ميخائيل وعبـود الصباغ اللذان اخذا مادتهما التاريخية عن رجال كانوا من اقرب المقربين من ظاهر ، هذان المؤرخان وان اختلفا في التفاصيل غير انهما يتفقان بشأن الدور الذي لعبه احمد الدنكزلي في المعركة الاخيرة ويبرئان الصباغ مما نسب اليه من تعنت وعناد فـي المفاوضة ، كما ان المؤرخ الاول وهو ميخائيل الصباغ يشير الى سـلوك عثمان بن ظاهر الشائن نحو ابيه واتصالاته المريبة بحسن باشا خلال المفاوضات املا في ان يقيمه حاكما على عكا خلفا لابيه الطاعن في السن •

٦ ــ رسالة تاريخ ٥ تشرين الاول سنة ١٧٧٥ (٧) :

« اخبرتكم قبلا عن حضور ابي الذهب لبلادنا واخذه يافا ••• ثم من بعد مدة شهر ارسلت مكاتيب غيرها • وخبرتكم عن حضور المراكب العسملي لبيروت واخذت حيفا بسبب خيانة المغاربة التي سلمت البرج والقلعة ••• » •

« ثم الآن اخبركم ان بعد اخذ حيفا من المراكب المذكورين بعث القبطان باشا (اي حسن باشا) وراء احمد اغا الدنكزلي الذي كان يومها بعكا وتواجه معـه في حيفا ولكن ما انعرف على اي شيء كانت مواجهتهم ثم ارسل يطلب من ظاهر تسليم البلاد فأجابه ظاهر يعطيه فرمان في تسليم البلد حتى يسلمها فالقبطان باشا رد له جواب ان ما معه فرمان فأجاب ظاهر ولا انا اسلم البلد • واعتمد ظاهر على تحصينها وسمح للناس بعد تعب كلي وبلص كلي ان تخرج وارسل طلب ناسا واتى من البر فـلاحين نحو الف بارودة وحصن عكا قوى مليح وكان سابقا الشيخ دشر المغاربة التي كانت في عكا من بعد خيانتهم في يافا وحيفا فصعب جدا على الدنكزلي منه ترك المغاربـة اتباعه فقصد يخون ظاهر بعد هذا المقدار من الخدمة بامانة عند المذكور وايضا نكاية بابراهيم الصبـاغ » •

« ثم تقدمت المراكب نحو عكا وربطوا قرب البلد وبـدأ مـن ذلك الـوقت الدنكزلي يفسد الطبجية التي كانت قبلا عند ابي الذهب وهم ثمانية والفلاحين الذين كانوا في البلد والفداوية التي عند ظاهر حتى انهم قاموا على ظاهر بتسليم البلد قائلين

٧) الموافق ١٦ تشرين الاول غربي سنة ١٧٧٥ ، صادرة عن دير المخلص بلبنـان ــ ميخائيل ص ١٧٢ .

انهم لا يحاربوا السلطان ، فلما رأى الشيخ البلد كلها عائبة التزم يخرج منها واذ خرج من البوابة قوصوه المغاربة الذين كان دشرهم وكانوا مختفين في البساتين ورابطينها مع الدنكزلي واخذوا راسه وسلموه ليد القبطان . واولاد ظاهر كانوا مجردين ومتوجهين حتى يلاقوا باشا الشام محمد باشا ابن العظم القادم على عكا حتى يضربوه ، فلما سمعوا بموت والدهم التزموا يرجعوا الى قلعهم وفي هذه الحال استولى المراكب على البلد وفي دخلة العساكر قتلوا البعض من النصارى فقراء اختيارية مقدار خمسة او ستة . وقتلوا البعض من المسلمين وفضحوا البعض من حريمهم كانوا مجتمعين في خان الافرنج الجديد والقديم ثم بعد ذلك فتشوا على ابراهيم الصباغ والمذكور كان قد هرب قبل خروج الشيخ ظاهر بيومين لعند الشيخ قبلان شيخ المتاولي ....» (٨)

٧ – رواية ميخائيل الصباغ :

« وفي اول آب من السنة المذكورة (١٧٧٥) اطل على عكا مركبان ثم اخذت المراكب تكثر وربطت في جون حيفا فارسل ظاهر حالا اولاده ووزيره ابراهيم ومواليه ومشايخ المتاولة قبلان وناصيف وخلافهم وتشاور معهم بهذا الامر واخر ما اتفقوا عليه بهذا الشأن ان يعمل جهده بالاسترضاء للدولة ولحسن باشا فاذا راى ان هذا غير ممكن فعند ذلك يستسلمون لقضاء الله ويدافعون عن نفوسهم يدا واحدة فاما ان ينتصروا والنصر بيد الله يؤتيه لمن يشاء او ان يموتوا جميعا . وتفرقوا على هذا» .

«ثم احضر ظاهر الدنكزلي اغا المغاربة واوصاه ان يعبىء مدافعه ويأمر الطبجية ان يلازموا الابراج وفي اليوم الثالث صار امام عكا اكثر من خمسة عشرة قطعة كبار فنزل ظاهر واخذ يطوف على الابراج وبينما هو في برج الذبان ظهرية ذلك النهار انطلق من المراكب نحو خمسين مدفعا على الابراج فأمر حينئذ ظاهر بضرب المدافع على المراكب . وكان عثمان ابنه منع الدنكزلي ان يطلق المدافع على مراكب السلطان وان فعل يحل به وبمغاربته سيف الانتقام فلما امر ظاهر بضرب المدافع فما قدروا من هيبته ان يخالفوه فصاروا يضربون المدافع في الهواء وعلى البحر لا على المراكب» .

٨) للرسالة بقية ترد في الفصل القادم .

«على ان ابراهيم كتب لحسن باشا كتابا يتذلل له ويتلطف به وانه يقوم له بجميع ما يمكنه لوفاء مال الدولة وما يجب له فحضر له جواب شفاهي يتضمن الغضب وعدم الرضا ويلوم ظاهرا على مقابلة مراكب السلطان بضرب المدافع عليها فاعاد ابراهيم الخطاب بكتاب اخر يعتذر له به ويستسمح منه ويتذلل لديه وانهم يلقون اليه زمامهم عند الدولة ويكون هو المطلق فيما يرسمه عليهم بحيث لا يقوم من عكا الا وهو راض منهم لنفسه من وفاء الواجب له واستيفاء مال الدولة . وارسلوا الكتاب مع الشيخ عبدالحليم الشويكي وقاضي عكا محمدافندي فحضر لهم الجواب بالايجاب غير انه قال لهم فيه ان امر السلطان يحتم علي ان اطأ عكا وادخلها فان خفتم شر العسكر السلطاني الذي معي فليخرج ظاهر وخاصته من عكا الى حيث يريد وادخل انا بالعسكر الى عكا واقيم فيها الى ان اقبض مال السنتين واكون بهذا قد اتممت الاوامر السلطانية فارجع بطريقي واكون محاميا عن ظاهر ومن يلوذ به عند الدولة واسترضيها عليه» . وفيما يلي نص جواب حسن باشا الى ظاهر العمر(٩).

«من بعد السلام طلبت اعلمك عن سبب حضوري والان اعرفك كل شيء ايضاحا وهو حضوري باوامر من الدولة العلية صانها رب البرية لكي استلم منك ميرى البلاد سبعة سنين المكسورة عندك . وبعده اخذ رأسك واستلم البلاد . هذا هو سبب حضوري . ولكن لكوني اعرف جيدا زود حلم ورأفة الدولة العليا وشفقتها على رعاياها سيما على من يكون مطيع الى اوامرها فلذلك ان شئت تدفع لي مال الميري المكسور عندك وتسلمني مدينة عكا . وانت تخرج الى مواضعك القديمة . وانا من رجوعي الى الاستانة العليا اعرض عن طاعتك وقبولك للاوامر السلطانية ويخرج لك فرمان بالعفو تماما عن كلما سلف منك وترجع الى مدينتك كما كنت ، وبهذه الطريقة تكون صنت مالك وعرضك ورجالك وحفظ مقامك . ماذا والا انا حاضر للمحاربة» .

ويتابع ميخائيل الصباغ كلامه فيقول : «فحينما وصل هذا الجواب حفظ عندنا وهو بالتركي وهو بعلامة حسن باشا وختمه وقد قلبته بيدي مرارا فاستشار ظاهر ذويه واذ وجدوا في كلامه شيئا من الصواب على ما تبادر لهم من ظاهره

٩) ميخائيل ص ١٦٧ الملحق – ضبطه ونشره قسطنطين الباشا .

اتفقوا على ان يرحل ظاهر من عكا غداة غد مع عياله الى قلعة هونين عند قبلان شيخ المتاولة كما فعل ذلك قبلا حينما حضر محمد بك مع غز مصر» .

«وكانت مكاتيب عثمان وهو في شفاعمرو متصلة لحسن باشا واخوته بان لا يسمع احد لقول ابيه وكذلك الى الدنكزلي بأن لا يضرب على مراكب السلطان وان يفتح بوابات عكا صباح اليوم التالي للعسكر السلطاني وبلغ ظاهر ان الدنكزلي فتح البوابات وقال لاهل عكا نحن لا نحارب السلطان فمن شاء ان يخرج فليخرج فأسرع الناس بالخروج خوفا على دمهم تاركين اموالهم وارزاقهم وكذلك تجهز ظاهر وخرج بعياله صباحا قاصدا هونين فاتفق ان احد خدمه عرف بذلك فحضر واخبر عثمان فخاف هذا ان تكون هذه المرة نظير السابقة ويرجع ابوه الى عكا سالما . فأرسل الى الدنكزلي يقول له هوذا ابي خارج بعياله هاربا من عكا فان شئت ان تكون او، محبوب عند حسن باشا فاقض امر الله به لانه خارج وحده بعياله فأتى الدنكزلي مع بعض المغاربة وحطوا في مكان قريب في محل يقال له ابو عتبة فلما صار ظاهر بحرمه بعيدا عن عكا نحو ربع ساعة ونظر في حرمه فما وجد حظيته(١٠) فسأل عنها فقالوا له ما رأيناها خرجت معنا فقال انه من العار في وقت مثل هذا ان يترك الانسان عرضه، ثم عاد بجواده ، فوجدها قادمة .

« واذ بلغ اليها اراد ان يردفها وراءه على فرسه واخذ بيدها لذلك ، وكان لشيخوخته قد ضعف فوقع من فرسه عليها الى الارض وكان الدنكزلي ينظره من بعيد مع احد المغاربة الذين معه فأسرع اليه واطلق عليه طبنجة اصابته ، فأخذ ظاهر يختبط في دمه ويقول « اللهم اشهدك عليها شهادة لعرضي » . واستل حينئذ الدنكزلي سيفه وقطع رأسه ومضى به الى حسن باشا وكان المذكور قد نزل بعسكره من المراكب ودخل عكا » (١١) ، وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٢٩ آب سنة ١٧٧٥(١٢).

١٠) تسمى عيشه وهي كرجية الاصل من بلاد القفقاس ـ جاء في رواية عبود الصباغ التي سترد بعد قليل ان ظاهرا لم يغادر عكا عن طيبة خاطر بل اكره على ذلك بالقوة.

١١) ميخائيل ص ١٤٦ .

١٢) هيد ص ٧١ عن كتاب قنصل فرنسا في صيدا تاريخ ٣٠ آب سنة ١٧٧٥ . يؤرخ ميخائيل وفاة ظاهر بـ ١٦ آب شرقي سنة ١٧٧٥ الموافق ٢٧ آب غربي ، اي بفرق يومين فقط عن التاريخ الصحيح .

٨ ـ رواية عبود الصباغ :

هذا المؤرخ لا يشير الى ضرب ظاهر بالنار ولا الى الدور المشين الذي لعبه عثمان الظاهر في الايام الاخيرة . انه يتحدث عن توصل ظاهر وحسن باشا الى اتفاق بشأن الاموال المكسورة ، ثم يتحدث عن الدنكزلي والدور الذي لعبه في ابطال هذا الاتفاق ، وعن الاسباب التي من اجلها لجأ حسن باشا بعدئذ الى القتال . ويتحدث المؤرخ ايضا عن امرأة تسمى عيشة وهي كرجية الاصل كانت سرية ظاهر المحببة اليه بين نسائه واصغرهن سنا وقد رفضت الخروج مع ظاهر من عكا اثناء القتال ، وآثرت البقاء لسبب ما في المدينة . يقول عبود ما مجمله :

عندما قدم حسن باشا الى البلاد استقبله ظاهر بمراكبه في مياه حيفا وارسل اليه رسولا من خواصه يسمى حسين افندي الواني ليستفسر منه عن سبب مجيئه على هذه الصورة . عاد الرسول الى عكا ليقول ان حسن باشا جاء للمطالبة بالاموال المكسورة . قال ظاهر للرسول عد الى حسن باشا وقل له اننا مستعدون ان ندفع مال الدولة الى آخر نصف القرش مع هدية بمقدار الف كيس بالاضافة الى مائة كيس هدية خصوصية لحسن باشا ، وقل له ليحقن دماء العباد من غير قيل ولا قال .

توجه حسين الواني ثانية الى المراكب وقابل امير البحر في هذا الخصوص ثم عاد الى عكا يحمل معه موافقة الوزير على العرض الذي قدمه ظاهر . اغتبط ظاهر اغتباطا عظيما وامر باعداد ما يلزم امير البحر وعسكره من اغذية ومؤن مثل غنم وبقر ومعزى لارسالها الى المراكب على وجه السرعة .

في غضون ذلك طلب الدنكزلي من ظاهر ان يسمح له بمرافقة المواشي الى المراكب كبادرة طيبة من جانبهم تكريما لحسن باشا وزيادة في الاعتبار . وكان غرض الدنكزلي ، على ما ذكر هذا المؤرخ ، من الذهاب بنفسه الى المراكب هو الاتصال شخصيا بحسن باشا والتكلم اليه وجها لوجه اذ لم يكن في وسعه مواجهته والتحدث اليه الا بهذه الطريقة ، واستجاب ظاهر الى طلبه واعترض ابراهيم الصباغ على ذهاب الدنكزلي الى المراكب بشدة وقال لظاهر : ان الدنكزلي رجل خائن وكل ما تم على يد حسين الواني سيفسده الدنكزلي في ذهابه . فقال ظاهر : انك تقول ذلك بسبب بغضك للدنكزلي اما انا فلا اشك مطلقا في اخلاصه لي لاني ربيته نظير ولدي . فقال

ابراهيم : وهب انه ولدك فانظر كيف ان اولادك خذلوك وخانوك . فأجاب ظاهر : قد يخونني كل اولادي ولكن الدنكزلي لن يخونني .

وهكذا ركب الدنكزلي سفينة ومضى بالماشية الى مياه حيفا . سأله حسن باشا اانت هو احمد اغا الدنكزلي ؟ اجاب نعم . قال الوزير : ارسلت الي مع ربان السفينة الفلاني تقول انك عند حضوري ستسلمني عكا ؟ قال الدنكزلي : نعم وما زلت عند قولي . قال حسن باشا : ان ظاهرا مستعد لدفع جميع الاموال المكسورة وقد عرض علينا هدايا وتقدمات . اجاب الدنكزلي : الامر لسعادتكم ، واما اذا رغبتم في القتال فلن يطلق احد من رجالي مدفعا ، وسأسلمكم المدينة فتستولون على اموالها بما فيه اموال ابراهيم الصباغ الوفيرة ، واهم من هذا كله سأسلمكم رأس ظاهر واضعه بين ايديكم .

عندئذ مال حسن باشا الى كلام الدنكزلي وعدل عن القول الذي اعطاه الى حسين الواني ، وافهمه بجلاء انه سيهاجم عكا في صبيحة الغد .

ولما عاد الدنكزلي الى عكا نفى ان يكون حسن باشا قد ارتضى بما عرض عليه حسين الواني من مال واكد لظاهر انه (اي حسن باشا) سيهاجم عكا في صبيحة الغد، وطلب منه ان يكون مستعدا .

وهذا ما وقع بالفعل ، ففي صباح اليوم التالي اقترب الاتراك بسفنهم من عكا ثم شرعوا يصبون نيران مدافعهم عليها فأجابت طبجية ظاهر على النار بالمثل . وهنا امر الدنكزلي رجاله بالتوقف عن اطلاق النار ، وهددهم بالقتل ان لم يفعلوا .

وفي اليوم التالي اطلقت نيران كثيرة على المدينة ، واستمر اطلاق النار النهار بكامله دون ان تلقى اية اجابة من جانب طبجية ظاهر خوفا من الدنكزلي .

وفي اليوم الثالث استمر اطلاق النار على المدينة بصورة اشد عنفا من اليومين السابقين . وفي هذه الاثناء جاء الدنكزلي الى ظاهر وطلب منه بلهجة الامر ان يغادر المدينة على وجه السرعة قائلا له : « اخرج من عكا احسن تموت » . ولم يكن في مقدور الدنكزلي قتل ظاهر وقتئذ لان الخيالة كانت تحيط به . واخيرا لم يجد ظاهر بدا من الرضوخ للتهديد فخرج من عكا بخيله وبقي الدنكزلي ومغاربته فيها .

ولما اصبح ظاهر هو وخيالته خارج السور تفقد ظاهر حاشيته فوجد ان عيشه سريته لم تخرج مع من خرج وانها بقيت داخل المدينة فصار يناديها وهو واقف في

البوابة الشمالية . كانت عيشه سرية كرجية غريبة عن البلاد ، وقد ابت الخروج من عكا وارادت ان تكون عند الدنكزلي .

« فوقف ضاهر في الباب من خارج يطلب عيشه ولم امكن ان عيشه تطلع الى عنده فلما ان الخيالة نظروا ان ضاهر لم يزل واقف في باب الصرايا من خارج البلد لاجل عيشه وهي لم امكن ان تطلع الى عنده والرصاص نازل عليهم من البلد التزموا ان يتركوا ضاهر ويتوجهوا والمعلم ابراهيم الصباغ توجه معهم فبقي ضاهر لوحده» .

« فاذ نظر ضاهر انه بقي لوحده ولم عنده احدا وعيشه لم امكن ان تطلع لعنده والرصاص نازل عليه من البلد التزم ان يتوجه واذ صار بعيدا عن البلد نحو ربع ساعة وقع عن الفرس الذي كان راكبها غميان على الارض وفرسه لحقت بالخيل فاذ وصلت الفرس الى عند خيالة ضاهر عرفوا ان ضاهر مات » .

« اما ضاهر بقي غميان على الارض نظير الميت الى ان حضرت المغاربة ونظروه حالا قطعوا رأسه واخذوه لعند الدنكزلي فالمذكور اخذ رأس ضاهر وقدمه الى حسن باشا وجسم ضاهر قبروه على شاطىء البحر محل مات فيه يقال لذاك المحل « ابو عتبي » مقام للاسلام قديما ... وعاش ضاهر من العمر خمسة وثمانين سنة منها في عكا اثنتين وثلاثين سنة والبقية كان في طبريا » انتهت رواية عبود (١٣) .

وينشد الشاعر حزنا على ظاهر :

حدر دمعي على خدي ثلاثة
على اللي فارقوا نهار الثلاثا
صفد يا فاينة وين الثلاثة
علي وعثمان وسعيد السخا (١٤)

وأرخ وفاة ظاهر احد شعراء الديار المصرية :

سنة اتى تاريخها فيها هلاك الضاهر(١٥)

والتاريخ هو سنة ١١٨٩ هـ = ١٧٧٥ .

---

١٣) عبود ص ٣٦ .
١٤) فضل الفاهوم ـ عبارة «نهار الثلاثاء» اشارة الى اليوم الذي قتل فيه ظاهر وهو ٢٩ اب .
١٥) حيدر ص ١١٣ .

٩ — مقتل ظاهر العمر واثره في حياة البلاد السورية :

عندما قتل ظاهر كان اولاده يزحفون بعساكرهم شمالا لملاقاة الجيوش التركية القادمة من دمشق بقيادة محمد باشا العظم . فلما بلغهم النبأ المفجع انفرط عقدهم وعادوا الى قلاعهم بالذل . ودخل محمد العظم مدينة عكا في اليوم التالي لمقتل ظاهر . اما خيالة ظاهر فقد تشتت شملهم . منهم من لجأ الى عثمان ، ومنهم من لجأ الى علي وآخرون توجهوا الى حيث كان احمد لان الثلاثة المذكورين كانوا اكبر اولاد ظاهر واكثرهم شهرة عند الناس (١٦) .

ويلخص فولني الاسباب التي اضعفت قوى ظاهر وادت الى زوال الدولة المستقلة التي اسسها بما يلي :

١ — افتقار حكومته الى النظام الداخلي الجيد وما يسميه المؤرخ « عدالة المبدأ » اذ بدونه يكون كل تقدم بطيئا وغير منتظم .

٢ — تنازله لاولاده منذ زمن بعيد عن قسم كبير من بلاده كان سببا في نشر الفوضى الامر الذي انضب خزنته وبدد عسكره واضر بزراعة البلاد .

٣ — طمع ابراهيم الصباغ وشكاوى ابنائه وخاصته من الثقة العمياء التي اولاها والدهم لوزيره هذا الذي احتكر ، حسب قولهم ، ثقة الشيخ كما احتكر تجارة البلاد وجنى الارباح الطائلة منها .

٤ — تعب ابنائه من انتظار ما يصيبهم من ارث والدهم الطاعن في السن .

٥ — اتهام ظاهر لابنائه بأنهم متمردون وناكرون للجميل وعدم استرضائه لهم .

٦ — ضعفه الناشيء عن تقدمه في السن قد ابعد عنه ابناءه وحلفاءه .

يصف فولني نهاية ظاهر العمر ويعطينا صورة عن اخلاقه فيقول . هكذا كانت النهاية المحزنة لهذا الرجل الشهم الذي يستحق من وجوه عديدة مصيرا افضل من هذا المصير . تعاقبت على سوريا احقاب طوال دون ان تشهد بين حكامها رجلا ذا سجايا خلقية عظيمة كهذا الرجل : فمن الناحية العسكرية لم يجاره انسان في الشجاعة والنشاط ورحابة الصدر والدهاء ، ومن الناحية السياسية ان صراحته التي

١٦) عبود ص ٤٠ .

تميزت بالنبل لم تفسدها حتى اطماعه . من صفاته انه لم يكن يميل الى التحايل والالتواء في ما ينتهج من امور بل كان يجاهر بما يضمر ولو قاسى من ذلك العنت كذلك كان يؤثر بشجاعة مواجهة الاخطار في ميادين القتال على حياكة الدسائس في الغرف المقفلة . ان الشهرة التي اكتسبها هذا الرجل والعدالة الاجتماعية التي تميز بها حكمه نشرتا في البلاد امنا وطمأنينة لم يكونا معروفين في الامبراطورية العثمانية (١٧) .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذه المرحلة من الكتاب ان ظاهر العمر كان في مقدوره ان يظل محافظا على ولائه للدولة العثمانية مطيعا لاوامرها منفذا لرغباتها في بلاد العرب على اكمل وجه فيطول امد حكمه ويورثه لاولاده من بعده ، ولكنه لم يفعل مؤثرا سلوك طريق الكفاح الوعر المؤدي الى حرية البلاد واستقلالها على طريق الخنوع والتبعية لسلاطين آل عثمان . ولئن فشل في نضاله فما ذلك الا للخيانة ، خيانة اتباعه الجبناء واقرب الناس اليه الذين ابت عليهم نفوسهم الضعيفة ان يظلوا صامدين في كفاحهم والذين كانوا يرون ان السير في ركاب السلطان والتمرغ على اعتاب الولاة العثمانيين في دمشق وصيدا والقاهرة ابقى لمناصبهم واضمن لسلطانهم ... حتى ولو ادى ذلك الى فقدان استقلالهم وافقار بلادهم وشعوبهم .

ان مقتل ظاهر العمر كان نكسة كبرى لحركة التحرر العربي في القرن الثامن عشر تعرضت خلالها بلاد ظاهر وحلفائه كالمتاولة مثلا ، لحملات انتقامية شرسة من البطش والقتل والتعذيب على ايدي العثمانيين مباشرة وبواسطة عميلهم وربيبهم احمد الجزار . كانت كارثة عام ١٧٧٥ من افظع الكوارث التي نزلت بالبلاد السورية في العهد العثماني من حيث شمولها وعمق آثارها والظلم الذي لحق بالشعب العربي من جرائها .

ان مقتل ظاهر العمر كان الذروة في الصراع الدائر بين قوى التحرر في العالم العربي اذ ذاك وبين الاستعمار العثماني والرجعية الاقطاعية العربية الضالعة معه والسائرة في فلكه . ان الحروب المتتابعة التي نشبت بين ظاهر والدولة العثمانية طوال الاربعين سنة الماضية والمجازر التي اوقعها الاتراك في الشعب العربي عقب مقتل ظاهر وكذلك حملات التقتيل والتنكيل وسفك الدماء التي شنها الجزار على العرب

١٧) فولني ج٢ ص ١١٠ — ١١٥ .

طوال عهده المشؤوم ... كل هذه لم تكن سوى مظاهر للصراع الذي كان يجري في ذلك الحين بين قوى التحرر داخل المجتمع العربي من جهة وبين الاستعمار التركي واعوانه العرب الاقطاعيين من الجهة الاخرى . ان مظالم الجزار التي اصبحت على كل لسان لم تكن سوى رد فعل وعملية تطهير الغرض منها كبح جماح الحركة التحررية في الوسط العربي وتصفية الفئات الموالية لظاهر العمر في سوريا . هذه حقيقة ثابتة لم يقدرها المؤرخون حق قدرها حتى ولم يفطنوا الى اسبابها ودوافعها.

ان تاريخ البلاد العربية يجب ان يكتب اليوم ويدرس على ضوء الانتفاضات الثورية التي حدثت في الماضي وعلى ضوء الصراع بين الحرية والعبودية ، بين الاستقلال والتبعية ، بين الاحرار وبين الخونة المرتزقة من حكام العرب . ويجب ان لا ننسى ان مشايخ الاقطاع كانوا على العموم الدعامة الرئيسية التي ارتكز عليها الوجود العثماني في سوريا خلال حكمه الطويل لها .

اما بخصوص قبر ظاهر فان المراجع التاريخية تختلف في مكان وجوده . يقول عبود الصباغ دفن ظاهر في المحل الذي مات فيه اي في مقام « ابو عتبي »(١٨) وهو الارجح ، والمقام قائم حتى هذا اليوم وهو يقع لا على شاطىء البحر كما ذكر عبود في روايته التي تقدم ذكرها ، بل الى الشرق من عكا وبالقرب من بستان البهجة . ويشير ميخائيل الصباغ الى مقام « ابو عتبي » او « ابو عتبة » في معرض كلامه عن المغاربة الذين ربطوا الطريق على ظاهر واطلقوا النار عليه .

وفي رواية اخرى ان الشيخ ظاهرا دفن في قبر بسيط بناه الجزار تخليدا لذكراه بالقرب من ساحل البحر وعلى بعد قليل من الاطراف الشمالية لسور عكا (١٩). وفي احدى الروايات ان ظاهرا قتل ودفن في موقع الرقايق (٢٠) ، ويرى بعضهم انه دفن في مقبرة النبي صالح القريبة من سور المدينة (٢١) .

١٨) عبود ص ٣٨ .
١٩) براون ص ٣٦٧ ، هيد ص ٧٢ — ربما يشير بروان هنا الى المقام المدعو عز الدين الواقع على شاطىء البحر في شمال المدينة .
٢٠) المعلوف ص ٥٤٩ .
٢١) هيد ص ٧٢ نقلا عن نعمان قساطلي .

الفصل التاسع عشر

نهاية عهد

١ — رحيل حسن باشا الى الاستانة :

في اليوم الذي قتل فيه ظاهر العمر نزل حسن باشا من المراكب ، وعند دخوله مدينة عكا اباح لعسكره نهبها ساعتين . وفي اليوم التالي اي في ٣٠ آب سنة ١٧٧٥ وصل الى عكا محمد باشا العظم على رأس القوات البرية ، وعند وصوله كان حسن باشا قد اتم الاستيلاء على المدينة ويعمل في حصر اموال ظاهر وتعقب اعوانه واتباعه .

كانت الدولة قد اسندت قيادة الحملتين البرية والبحرية الى محمد باشا العظم على ان يكون وصول الحملتين الى عكا في آن واحد ، وبالنظر لتخلف محمد باشا عن الوصول الى عكا في الوقت المقرر له وتأخره ما يزيد على خمسة عشر يوما ، وانفراد حسن باشا في احتلال المدينة وقتل ظاهر فقد ارتفعت منزلة هذا الاخير لدى الدولة وانخفضت منزلة محمد باشا وانتسب له تقصير متعمد يقرب من الخيانة واصبح تابعا لامير البحر .

اصدر حسن باشا امرا بالقبض على ابراهيم الصباغ . كان ابراهيم قد لجأ الى قلعة جدين في اواسط الجليل ، اراد صاحب القلعة المدعو احمد الحسين ان يسلمه الى حسن باشا لولا الشيخ قبلان الذي اسرع الى جدين فأنقذ صديقه ابراهيم من الاسر وجاء به الى هونين .

وبمساعي الشيخ قبلان منح محمد العظم الامان لابراهيم الصباغ فنزل الى عكا ، ولكن حسن باشا القى القبض عليه وزج به في سجن عكا رغم ارادة محمد العظم واجرى عليه اقسى انواع التعذيب ليحمله على الاقرار باموال واموال ظاهر فاقر بها وكانت عبارة عن عدة صناديق تحتوي على مقادير كبيرة من الفضة والذهب بعضها كان مخبأ في دير الفرنسسكان بعكا وبعضها لدى تجار الافرنج وبعضها في امكنة اخرى في صيدا ولبنان . قيل كان الواحد من هذه الصناديق يحتاج حمله

الى ثمانية رجال . وكانت فرنسا قد ارسلت الى عكا سفينة لحماية رعاياها ، وكان قائد هذه السفينة عند حضوره قد نبه على التجار الفرنسيين بان كل من يوجد عنده وديعة لابراهيم الصباغ او من يلوذ به عليه ان يسلمها لامير البحر قبودان باشا فاعطوها وكانت ٦٣ الف كيس ذهب . ولم يصب الفرنسيون باي اذى خلال فترة الاحتلال .

بلغ ما ضبط من اموال ظاهر والصباغ (٨٢) الف كيس دراهم نقدية عدا التحف والحلي والجواهر هذا عدا ما اختلسه حسن باشا لنفسه . ويقدر فولني الاموال المصادرة بما يعادل ٨٢٥ الف ليرة انكليزية بسعر ذلك الوقت ، وصودرت جميع اموال ظاهر بما في ذلك الخيول والاسلحة والابنية والبساتين وغير ذلك.(١)

واكرم حسن باشا احمداغا الدنكزلي واقامه نائبا عنه على عكا لانه كان السبب في استيلاء الاتراك على عكا بسهولة ، ثم ارسله بعد مدة قصيرة الى غزة ليكون حاكما عليها ولكنه قتل وهو في طريقه اليها ، وقيل انه مات بالسم(٢) .

وحضرت الوفود من مختلف الجهات تهنئي حسن باشا على قدومه وانتصاره على ظاهر وبضمنهم يوسف الشهابي الذي وجه اليه الرسل والهدايا مع اربعة من الخيل الجياد المسومة بالحلى الفاخرة .

وكان بعض ابناء ظاهر وبضمنهم علي الظاهر قد فروا الى جبل عامل واطراف جبل لبنان ، بعضهم اعتصم بالاديرة وبعضهم احتمى بالشيخ علي جنبلاط . ولما بلغ حسن باشا ذلك كتب الى الامير يوسف يتهدده ويطالبه بالقبض على ابناء ظاهر وارسالهم اليه ، فداخل الامير يوسف خوف شديد وكتب الى حسن باشا ينكر وجود ابناء ظاهر في بلاده .

في اواخر ايلول سنة ١٧٧٥ عاد حسن باشا الى الاستانة ، وكانت أهم الغنائم التي يحملها رأس ظاهر المحفوظ بالادوية وابراهيم الصباغ المكبل بالحديد وما نهبه من الاموال الخاصة والعامة . وأبحر برفقته محمد باشا العظم ومحمد باشا والي ادنه على ان يعود الى عكا في السنة القادمة بعد ان يستشير حكام الاستانة

١) عبود ص ٣٩ ، جودت ص ٥٨ ، بريك ص ١٠٤ ، فولني ص ١١٣ .

٢) فولني ص ١١٥ ـ تتضارب الروايات حول نهاية الدنكزلي ففي رواية لجودت وميخائيل الصباغ ان حسن باشا هو الذي قتل الدنكزلي عقابا لما فعله بظاهر ، هذه رواية غير صحيحة ويحتمل ان حسن باشا قتل المغربي الذي اطلق النار فعلا على ظاهر .

في ما ينبغي عمله بشأن ابناء ظاهر العمر الذين تركوا وشأنهم في قلاعهم . اما احمد بك الجزار الذي تعين محافظا للسواحل الشامية فلم يرافق حسن باشا في رحلته بل استقر في البلاد وفقا للسياسة العثمانية الجديدة التي تقرر اتباعها في البلاد السورية وهي تطهير البلاد من ذرية ظاهر العمر وانصارهم وتحصين عكا من جديد لحمايتها من ابناء ظاهر العمر اذا ما حاولوا ان يستعيدوها بالحرب .

وفي تشرين الاول وبعد رحيل حسن باشا الى الاستانة دخل عكا احمد الجزار الذي أنعم عليه مؤخرا برتبة باشا ذات التوخين وباشر عمله على نطاق صغير ، فجعل يقوم باقرار النازحين في بيوتهم الذين ذاقوا الامرين من عساكر الاتراك . والحق يقال اظهر الجزار في مستهل عهده في الحكم بعض الاعمال الانسانية ادخلت الطمأنينة الى القلوب . ومن هنا يبدأ في عكا والجليل العهد الاسود المعروف بعهد الجزار الذي استمر حتى سنة ١٨٠٤ . واما كيف توصل الجزار الى الفوز بمنصب الولاية على صيدا وعكا فمجمل ذلك في ما كتب الامير حيدر في هذا الصدد فيقول :

أكانت مقاليد ايالة صيدا قد أسندت في بادىء الامر الى محمد باشا والي ادنه ، كما مر ذكره ، وقدم هذا الوزير مع حسن باشا الى عكا بهذه الصفة ، ولاسباب نجهلها عزلت الدولة محمد باشا عن ايالة صيدا وفوضت امورها الى احمد بك الجزار ومنحته لقب باشا . ان حسن باشا وان داخله الاستياء من هذا التعيين الذي جرى من وراء ظهره الا انه لزم السكوت واضمر الشر للجزار ، وقامت بين الرجلين خصومة بسبب ذلك . ولما كانت عكا وبلادها تابعة في الاصل لصيدا اصبح للجزار كامل السلطة عليها .

٢ ـ تتمة رسالة ٥ تشرين الاول سنة ١٧٧٥ :

يصف جبرائيل دباس الحالة في عكا خلال فترة الاحتلال والخوف الذي لازم الاهلين من احتمال عودة الاتراك الى سوريا في السنة القادمة ، كما انه يصف بصورة صادقة مفجعة موجة النهب التي تعرضت لها مدينة عكا ثانية بعد نهبة محمد بك ابي الذهب ، وكيف جرفت كل ما استطاع الاتراك ، قبل رحيلهم ، ان يضعوا ايديهم عليه من سلع وامتعة واموال حتى النحاس والفرش المقطعة واجران الكبة وغير ذلك . يقول

« ... ثم ان ابراهيم نزل الى عكا بحماية الشيخ قبلان المذكور معه بيوردى (اي صك امان) من باشا الشام الذي كانحضرالى عكا حتى ينظم الامور فلما سمع قبطان باشا بحضوره ارسل حالا اتى به لعنده وعزره وضربه كم عصاية لكي يقر على ماله ومال ظاهر فالتزم المذكور ان يقرعن كلٌ شيء ويسلمهم الذي كان مودعا في عكا عندالافرنج والذي كانمودعا عند الافرنج في صيدا وحضر هو برأسه بغلياطه (اي مركبه) الى صيدا حتى سلموها له وفكشوا يديه بعذابهم له واخذوه معهم الى استنبول وما نعلم كيف يصير فيه الله يحسن خلاصه » .

« ولكن قبلما تتوجه المراكب من عكا فتحوا حواصل خان الافرنج والازهر التي كان فيها مودعا رزق الى اولاد العرب اعني اهل البلد فأخذوا كل شيء فيها وما خلوا سوى النحاس والفرش المقطعة ... وباقي الرزق مثل حرير وقماش وجوخ ودراهم وثياب مليحة وصيغه كله نهبوه وبعده نهبوا الدور وما خلوا فيها شيئا وهذه غير نهبةابو الذهب التي صارتقبلا حتى جرم المسامير وجزن الكبة. اخذوه معهم . الغاية خلوا اولاد عكا شحاذين ينوحوا على تعاستهم الى الابد . وكل هـذا مـن سماح الله لكثرة الظلـم» .

«ومن يم الكنيسة اعلم ابوتكم والدموع نازلةبانهم هدوا الهياكل والواجهة واخذوا البلاط معهم وقلعوا الابواب وكل الخشب التي فيها حتى جرم المسامير اخذوها وما ابقوا الا الحيطان ... كذلك فعلوا في ارض الكنيسة هدموا سقوفتها واخذوا خشبها . ومن يم النصارى كلهم هربوا اناس لجبل لبنان واناس لجبل بلاد صفد واخوتكم بعيالهم جميعا طلعوا الى سحماتا ....»

«ومن جهة حالنا الحاضرة اخبركم انه بعد ما توجهت المراكب من عكا مع باشا الشام وباشا صيدا(٣) اذ دخل الى عكا باشا بتوخين اسمه احمدالجزار ونبه امان واطمئنان على الرعية انها تنزل وتعمر بيوتها وتفتح حواصلها والا تنهب الباقي في حواصل الخان فالتزم اكثرهم ان ينزلوا حتى ينظروا ان كان يمكن يحصلوا شيئا من ارزاقهم ونزل ايضا اخوتكم بغير عيالهموالاعمال التي عمال يعملها مع النصارى الباشا المذكور علاماتها مليحةوسلوكه قوي الان مليح معهمغيرانهمانعلم اخرذلك».

«...ومن يمي انا الان مقيـم في دير المخلص ... ثـم ان الناس خائفين

٣) بحسب هذه الرسالة ابحر حسن باشا الى الاستانة قبل ١٦/١٠/٧٥ غربي .

وحاسبين الف حساب للصيفية الداخلة من حضور المراكب ثانيمرة الى البلاد ولان اولاد ظاهر الى الان قوايا ومحصنين حالهم وما قاسوا شيئا من الضيق ابدا ولا ضمنوا من الباشا البلاد والامير يوسف ضمن بلاد الدروز وكذلك مشايخ المتاولة ما عدا مشايخ بلاد صفد فلاجل ذلك اهل البلاد خائفين» .

«ومن يم المراكب التي توجهت من بلادنا فانها سارت الى استنبول بطلبمن الدولة وما نعلم السبب واولاد ظاهر مفتونين في بعضهم والغاية حال بلادنا تفتت القلب وهذا كان بسماح الله وكثرة الظلم الذي صار في هذه البلاد والصالحين راحوا بجراير الطالحين . وفهمكم كفاية » .

٢ ـ حسن باشا يعود الى عكا في حزيران عام ١٧٧٦ :

بعد مقتل ظاهر العمر ورحيل حسن باشا الى الاستانة واجه احمد الجزار حربا جديدة من جانب علي الظاهر ، واشتبك الاثنان في معارك متقطعة في ضواحي عكا انتهت بانسحاب علي الظاهر الى حصن دير حنا المنيع .

وفي اذار سنة ١٧٧٦ وبينما كان الجزار في صيدا يمارس مهامه كوال للولاية من قبل السلطان ، بلغه قيام علي الظاهر بالاعتداء على شرذمة من عسكره وقتله بعض افرادها(٤) . جمع الجزار عسكره البالغ خمسة الاف بين فارس وراجل وزحف في أواسط ايار سنة ١٧٧٦ الى قرية دير حنا وضرب عليها الحصار(٥) . وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل القادم .

في خلال ذلك كانت الفتنة مشتعلة بين ابناء ظاهر . كان كلمنهم يريد التقدم لنفسه والافضلية على اخيه وكان الخلاف على اشد ما يكون بين علي من جهةوبين عثمان صاحب قلعة شفاعمرو منجهة اخرىوذلك بسبب التنافس القائم بينهماعلى الولاية . كان من رأى عثمان الاستسلام للدولةوكان اخوته على رايه بخلاف علي الذي كان يرى مواصلة القتال حتى الرمق الاخير .

في اواسط حزيران سنة ١٧٧٦(٦) وصلحسن باشاالى عكاقادمامن الاستانة باسطول يتألف من عشر قطع كبار مع توابعها ووصل في الوقت نفسه الى بيروت

٤) كرامه ص ٤٨ .
٥و٦) رسالة زكار تاريخ ١٩ آب سنة ١٧٧٦ (تاب الملاحق) .

مركبان لمطالبة يوسف الشهابي بالاموال المكسورة عن الجبل ومال ابراهيم الصباغ الذي اشيع ان قسما منه مودع في كسراوان فوقع الخوف في قلوب اهل بيروت ونزحوا عنها الى الجبال، ثم ابحر المركبان الى عكا وقد انيط بهما اسر ابناء ظاهر ونقلهم الى الاستانة •

ومن عكا ارسل حسن باشا عسكره الى دير حنا تعزيزا لقوى الجزار التي كانت تحاصر عليا فيها • واحتدم على اسوار القرية قتال شديد انتهى باستسلام القرية في تموز، وفر علي منها الى صفد •

لم يأل عثمان الظاهر جهدا في التقرب من حسن باشا املا في ان يقيمه شيخا على البلاد مكان والده ولهذا السبب بعث عثمان الى اخوته يحثهم على القدوم اليه ليمضوا سوية الى حسن باشا ليختار منهم واحدا في مكان ابيهم وكان قصده بذلك ان يوقع باخوته ويتخلص من منافسيه فيخلو له الجو وينفرد بحكم البلاد • انخدع الاخوة بهذه الدعوة وقدموا اليه عدا عليا الذي لم تنطل عليه هذه الحيلة مع كونه المقصود من هذه الدعوة قبل الجميع •

في تموز وبعد سقوط دير حنا بأيام اصدر حسن باشا بيورلديات (اي صكوك امان) فيها يمنح ابناء ظاهر الامان ويدعوهم الى مواجهته فمضى الى عكا منهم عثمان وسعيد واحمد وصالح وسعد الدين مستسلمين رغم نصيحة ناصيف النصار اليهم بعدم الاستسلام • وبعد ان تمتع الاخوة بالحرية مدة نقض عثمان باشا عهده لهم بالامان فقبض عليهم وزج بهم في سجن عكا • ولما كان سعيد الظاهر قد تكلم كلاما يسيء الى الدولة ورجالاتها عندما ورد اليه « صك الامان » المذكور فقد امر حسن باشا بقتله فقتل • ولعل السبب الحقيقي لقتله هو ترويع الغير (٧) •

لا نعرف كيف عامل حسن باشا ابناء ظاهر • قيل انه وسّع عليهم ما عدا عثمان الذي دعاه اليه وقال له : بلغني انك فقيه علّامة فأعجبني هذا منك ولكنني اكره العقوق والخيانة في المؤمن • وضيّق الباشا على عثمان واطال مدة سجنه الى ان قدم له عثمان قصيدة يستعطفه فيها ويذكر له ان خروجه على والده لم يكن عقوقا منه انما حبا وطاعة للسلطان • يقول عثمان :

٧) ميخائيل ص ٥٩ ، جودت ص ٥٨ ، حيدر (تاريخ احمد الجزار ص ٧٠) ، رسالة زكار •

يا وزير الحق يا سيف الهدى ... انت قسط لم يرجحه محال
من يكن والي عصاة خارج ... وابي ضلّ فهل اقفو الضلال ؟
فرض الله علينا طاعة ... لوليّ امرنا في كل حال
ان رأيت ابني شق العصا ... حلّ حقا ان اذيقنّه النكال
لا تشمت بي عداتي بعدما ... نلت حملا ضاق عنه الاحتمال
بهوى السلطان ارديت ابي ... جالبا فيه على اهلي الوبال (٨)

وتغني هذه الابيات عن كل تعليق • واخيرا عفى حسن باشا عن عثمان ومنحه الحرية •

٢ ــ نفي ابناء ظاهر العمر الى الاستانة :

في ايلول سنة ١٧٧٦ سافر حسن باشا الى الاستانة تاركا امر تمهيد البلاد الى احمد الجزار والي صيدا ومحمد العظم وزير دمشق • وابحر برفقته من الاسرى بعض ابناء ظاهر الذين استسلموا له في عكا وفاضل حسين بن علي الظاهر الذي اخذ اسيرا في طبريا ، وعبد العزيز بن عثمان ويوسف دبور كتخدا علي الظاهر الذي قبض عليه في دير حنا عقب استسلامها في صيف هذه السنة وبعض اتباعهم •

وفي بعض الروايات ان حسن باشا عندما وجد ان اطوار عثمان بن ظاهر مغايرة لاطوار ابيه ابقاه حاكما على عكا باسم شيخ البلد ثم عزل عن الولاية بعد سنة واحدة ونفي الى الاستانة (٩) •

ولما نزل عثمان الى المراكب رأى بعض اعدائه من الجبلية (ناحية جدين) ينظرون اليه بعين الشماتة ، فقال هذين البيتين :

ألا يا شامتون بنا افيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا
فما عاداتنا جبن ولكن ... منايانا ودولة اخرينا (١٠)

وبعد رحيل عثمان الظاهر الى الاستانة مارس احمد الجزار من قاعدته في

٨) ميخائيل ص ١٦٠ ــ عثر المؤرخ على القصيدة ضمن مجموعة شعرية بخط ميخائيل البحري في دير مار يوسف بلبنان •
٩) جودت ص ٥٩ •
١٠) منصور ص ٥٤ ، وديع عزام ــ سميت منطقة جدين «بالجبلية» لحروبها الشديدة ضد الجزار وامتناعها عليه سنين عديدة •

صيدا سلطات شيخ البلد في عكا واستقل له الامر فيها بصفته ، خلاف عثمان الظاهر ، الرجل القوي الذي يستطيع محو اسم ظاهر العمر هو وكل ذريته .

وباستسلام ابناء ظاهر للدولة في صيف سنة ١٧٧٦ سقطت بلاد صفد والجليل في ايدي الاتراك ما عدا منطقة وعرية عاصية في جبال صفد كان قد لجأ اليها علي الظاهر مع جماعة من اتباعه ، وواصل الحرب التي بدأها ابوه . ولكنه كان يحارب في اوضاع صعبة وظروف قاسية ، كما سيجيء .

وفي الاستانة اطلق سراح ابناء ظاهر واحفاده بعد مدة وجيزة وعُهد اليهم بالوظائف العالية . اقام عثمان في الاستانة نحو ست سنين في خدمة الباب العالي ثم سُمح له بجلب اولاده وعياله من صيدا فقدموا اليه صحبة مباشر مخصوص ، وكانوا اكثر من ثلاثين نفرا . وفي سنة ١٧٨١ ارتقى عثمان الظاهر الى رتبة ميرمران وتوجهت عليه ولاية سنجق «خير اوندكار» علي ان يدفع من ايراده ثلاثة آلاف قرش سنويا لاخيه الشيخ احمد ويعيش هو واخوته بالباقي . واستمر عثمان في هذا المنصب حتى آخر ايام حياته .

نجح من ابناء احمد الظاهر في تركيا يوسف خالص افندي وكان من مشاهير شعراء زمانه ، وحظي ولدا علي الظاهر وهما فاضل حسين بك وحسن بك بأسمى المناصب وكلاهما تربيا في السراي السلطانية ، وتوفي حسن بك في نفس السراي ، واحرز فاضل حسين بك الذي ولد سنة ١٧٥٩ ، نجاحا منقطع النظير في تركيا فكان شاعرا مجيدا من شعراء السلطان سليم الثالث وخليفته السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) وله ديوان شعر مشهور وعدة مؤلفات بالتركية مشهورة منها « كتاب النساء » وكتاب « رجال حسان » وقد ترجم هذان الكتابان الى اللغة الانكليزية ولغات اخرى وهما يصفان حياة التهتك والخلاعة في قصور الاستانة ، استخدم فاضل بك في مصالح الدولة العالية وعهد اليه بالولاية على رودس ثم فقد بصره وتوفي سنة ١٨١١ ويعرف بين الادباء الاتراك باسم اندروني فاضل بك ، وفي الموسوعة الاسلامية نبذة عن حياته تحت اسم فاضل حسين بك .

اما ابراهيم الصباغ فقد اخلي سبيله بفضل مساعي دوائر الفاتيكان ولنجاحه في تطبيب ابن احد الوزراء، غير انه لم يستمتع بهذا العفو طويلا اذ سرعان ما وافته المنية في الاستانة سنة ١٧٧٦ بعد خروجه من السجن بوقت قصير، قيل انه قتل غدرا بتحريض

من حسن باشا الجزائرلي لئلا يفشي بالجرائم الشنيعة والفضائح التي ارتكبها هذا الاخير في عكا عقب مقتل ظاهر العمر .

لم يُعرف من ابناء ظاهر الذين بقوا في سوريا سوى عباس وهو اصغر اخوته اقام عباس في الناصرة وسلالته تعيش فيها الى هذا اليوم . وولد لعباس ولدان هما اسعد وحسين (١١) والجدير بالذكر انه عندما جاء نابليون بونابرت الى سوريا سنة ١٧٩٩ قدم اليه عباس الظاهر وشرح له حاله ، فرحب به نابليون واعطاه السلاح والكسوة وعشرة اكياس دراهم ورشحه لولاية عكا كما كان ابوه من قبله . وفي رواية لنفس المؤرخ ان الفرنسيين عندما نزلوا في ضواحي عكا اعطوا صالح الظاهر (الذي كان قد نفي مع بعض اخوته سابقا الى الاستانة) الحكم على بلاد صفد وانه (اي صالح الظاهر) واخاه عباس توليا قيادة فرقة من الفرنسيين تتألف من ثلاثمائة مقاتل واشتبكا مع الفين من عسكر احمد الجزار قرب جبل طابور وكسراهم وذلك في ١٦ نيسان سنة ١٧٩٩(١٢) . نستدل بهذه الرواية على ان صالح الظاهر الذي كان قد نفي مع بعض اخوته الى الاستانة قد غادر تركيا وعاد الى وطنه .

توفي عباس الظاهر في الناصرة سنة ١٨١١ ودفن فيها ، ونقش تاريخ وفاته شعرا على بلاطة فوق القبر وهذا نصه :

---

(١١) فضل كنج الاسعد ـ اسعد عباس الظاهر هو جد آل عباس في الناصرة واولاده ثمانية وهم : عباس وعلي وصالح والكنج واحمد وظاهر وعمر وابنة تسمى غنطوسة تزوجها عبد السلام عون الله . وكان آخر من توفي من ابناء اسعد هو الكنج عن عمر يناهز التسعين عاما سنة ١٩٣١. واما حسين بن عباس الظاهر فقد ولد له ولدان هما مصطفى ونسله في قرية البعينة وعبدالله ونسله في كفرمندا في قضاء الناصرة . كان حسين العباس قائمقاما في الناصرة سنة ١٨٥٠، وكان اسعد العباس حيا يرزق ايضا . حدثني فضل الكنج ان الاتصال كان قائما بين ابناء عباس في الناصرة وبين ابناء عمومتهم في الاستانة ، واضاف قائلا ان اسعد وحسينا ولدا عباس الظاهر كانا قد ورثا عن ابيهما عباس بقايا سراي ظاهر العمر في الناصرة والبستان المعروف بأم قبي (المقبي) الواقع غربي الناصرة ولكن الدولة العثمانية صادرت هذه الاملاك ورفعت يد اسعد واخيه حسين عنها . سافر اسعد العباس الى الاستانة ونزل ضيفا على ابن عمه يوسف خالص من ابناء عمه احمد الظاهر للمطالبة بهذه الاملاك ، ولكن الدولة اصرت على المصادرة ومنحت اسعد واخاه حسينا فرمان بمبلغ ثلاثة آلاف قرش راتبا سنويا مدى الحياة مع قطعة من ارض السراي لسكناهم ، وهي قطعة الارض المقام عليها حاليا دور عمر اسعد العباس وبعض اخوته الملاصقة لجامع الناصرة (انظر فصل الابنية) .

(١٢) حيدر ج٢ ص ٢٦٥ ، ميخائيل ص ١٦٣ ، لوتسكي ص ٣٨ .

هـذا قبر عباس ابن ظـاهر سياج الخيل واللي يركبوها
وان غارت بهم خيل الاعادي بني زيـدان ارخ يغدروهـا (١٣)

والتاريخ في «يغدروها» هو ١٢٢٦ هـ = ١٨١١ م .

وفي زمن مجهول انتزعت البلاطة من فوق القبر وفقدت ، على ان مكانهـا لا يزال ظـاهرا للعيان .

٥ ـ احمد الجزار يمهد البلاد لطاعة السلطان :

نقل احمد الجزار عقب سنة ١٧٧٦ مركز حكومته من صيدا الى عكا لحصانتها وموقعها المتوسط في البلاد ، ليسهل عليه مهاجمة ابناء ظاهر وانصارهم الذين لم يستسلموا للدولة ، وسكن في القلعة التي كانت مقرا لظاهر العمر بعد ان اجرى فيها تحسينات عديدة ، على انه لم يتخل تماما عن مدينة صيدا فكان يقضي فيهـا بعض الوقت من كل سنة .

قام الجزار بتتبع آثار رجال العهد السابق وآلهم وانصارهم من زيادنة ومتاولة وغيرهم من مشايخ الجليل وجبل عامل ، فهاجمهم احيانا بقوة وبأس واحيانا بخداع وحيلة وغدر ، واعلن ان كل من يؤي زيدانيا يكون عقابه الموت .

لهذا السبب ان ابناء ظاهر الذين بقوا في سوريا واتباعهم تواروا عن عين الجزار واختفوا في البلاد متنكرين خوفا من بطشه وغدره . وانه لمن العجب ان يتغاضى ، وهو الجزار الذي عهد اليه بتطهير البلاد السورية من ذرية ظاهر العمر ، عن وجود عباس الظاهر في الناصرة طوال مدة ولايته . قيل لم يعبأ الجزار بعباس ولم يكترث لوجوده في الناصرة لانه كان صغير السن . قيل ايضا ان عباس كان مختبئا كل هذه السنين الطوال في بستان ام قبي (المقبي) في منطقة وعرية عاصية غربي الناصرة .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان الدور الذي لعبه الجزار في هذه الفترة هو تعقب آثار الزيادنة وانصارهم بعد مقتل ظاهر العمر وقتلهم . ولم تكن لـه يـد مطلقا في قهرهم او انصرام دولتهم كما يزعم البعض .

ومن الامثلة على بطش الجزار وغدره انه تتبع البشانقة انصار الزيادنة لقتلهم (والبشانقة هم من بلاد البشناق كالجزار) واخيرا تصالح الجزار معهـم او تكلف

١٣) مبدا نصار .

مصالحتهم فكف اذاه عنهم وارسل اليهم الامان . ولكنه سرعان ما قلب لهم ظهر المجن وغدر بهم فلما استمكن من مشايخهم يوما قبض عليهم وضرب رؤوسهم بالسيف في كرم زيتون تابع لدير حنا ، واطلق على هذا الكـرم « وعرة بشـناق » نسبة الى هذه المجزرة (١٤) .

وكان من انصار الزيادنة قرية مجد الكروم قرب عكا وخاصة حمولة المريدات فيها . جاء الجزار يوما الى هذه القرية بعد ان استسلمت له عقب مقتل ظاهر العمر في زيارة اعتيادية ودية ، وفي خلال حفلات التكريم التي اقيمت ترحيبا به في القرية قبض الجزار على اربعة عشر رجلا من مشايخ المريدات وامر بذبحهم ، فدقت اعناقهم بالبلطة على مرأى من اهل القرية والقرى المجـاورة (١٥) .

في سنة ١٧٨١ هاجم الجزار بعساكره الاتراك والاكراد جبل عامـل فالتقاه الشيخ ناصيف النصار بعسكره قرب قرية يارون جنوب بلاد بشاره ونشبت بينهم معركة حامية الوطيس فأصيب ناصيف برصاصة في رأسه وقتل ، كما قتل في المعركة اخوه الشيخ ابو حمد الفارس المشهور ، وانكسر المتاولة بعد ان كبدوا المغيرين نحوا من الف قتيل ، فاستولى الجزار على جميع بلاد بشارة وتسلم هونين وتبنين ، ثم زحف عسكره شمالا فاستولوا على قلعتي جباع وشقيف ارنون، اخذ الجزار هذه القلعة الاخيرة بالامان ثم قتل كل من كان فيها من العسكر ، ومن بينهم الشيخ حيدر الفـارس زعيم بني منكر ، وكان ذلك في خريف سنة ١٧٨١ .

وتتبع الجزار فلول بني علي الصغير (اسرة ناصيف النصار) وبني منـكر حلفاء ظاهر العمر في السابق فأدركهم ونكبهم واستولى على جميع بلاد المتاولة من مقاطعة جباع شرقي صيدا حتى قريـة البصة شمال عكـا .

رحل مشايخ المتاولة عقب استيلاء الجزار على بلادهم الى جبل عكار وبـلاد بعلبك ومكثوا في الغربة حتى سنة ١٨٠٥ الى ان سمح لهم سليمان باشا الذي خلف الجزار في الولاية على عكا ، بالعودة الى جبلهم ، فعادوا وفي مقدمتهم فارس بـن ناصيف النصار واخوته بكفالة بشير الشهابي امير لبنـان ، واستقروا في اقليم الشومر الذي خصص بهم ، وقد توزعت قراه عليهم لاعاشتهم ـ مـا عـدا قرى صرفند وميس ونصار ـ شريطة ان لا يتعرضوا للاقاليم الاخرى من جبل عـامل ،

١٤) صالح الاحمد .
١٥) محمد الخطيب .

ستبقى هذه النسخة في مكتبتي الصغيرة كذكرى من احد شاهد عيان حدث ضاهر ال
احد احفاده المعجب بكم

البارودي

عنواني — ... الندوة

فخري البارودي

وكانت قرية الزرارية من نصيب فارس بن ناصيف النصار ، واخذ سليمان باشا على المتاولة عهدا بمساندته على خصومه والمحاربة الى جانبه اذا اقتضى الامر ذلك(١٦) .

روى عن الجزار انه حين كان يخرج من قصره في عكا لامر ما يسير معه جمع غفير من رجاله في موكب عظيم يتقدمهم جنود الانكشارية وهم مدججون بالسلاح ومن ورائهم التفكجية (اي حملة البنادق) على الاقدام وفي يد كل منهم سوط من جلود الثيران ويليهم الجلاد رافعا بيده البلطة (ليشاهدها كل الجمهور المحتشد) التي كان يفصل بها الاعناق ومن خلفه الجزار على ظهر جواده ، وكان يسير خلف الجزار الخصيان والمماليك والشبقجية (اي حملة الغليون) والخدم والحشم كلهم خاشعون خوفا وفرقا . كان الجزار يفعل كل ذلك ترويعا للناس ولاثبات هيبته في صدورهم .

كان القتل عند الجزار تسلية يلهو بها وكانت طريقة الاعدام في عهده متنوعة واشهرها على الخازوق . كان زبانية الجزار يجلسون المحكوم عليه التعس على الخازوق جلوسا اعتياديا او يلقونه على بطنه او جنبه فتدخل حربة الخازوق جسمه من جانب وتخرج من الجانب الآخر ، وهكذا حتى يلفظ انفاسه الاخيرة. تحت هذا الحكم الظالم المرعب كان يعيش اجدادنا في هذا العهد ، والامثلة على بطش الجزار بالرعية كثيرة يكاد لا يخلو منها كتاب تاريخ (١٧) .

يصف المؤرخون احمد الجزار بقولهم : كان الجزار سكيرا نهما ظلوما عاتيا عاقب على الهفوات بالقتل والحبس وصلم الآذان وجدع الانوف وسمل العيون وجذم الايدي وانشاء المباني بالتسخير وغير ذلك .

لم تجد الدولة العثمانية اصلح من هذا « الجزار » لتنفيذ مخططها الجديد في البلاد السورية . كان القتل وقطع الرقاب والولوغ في دماء العباد هو الوسيلة التي توسل بها هذا الجزار لاستئصال جذور الحركات التحررية من ارض العرب واعادة البلاد السورية الى طاعة السلطان .

١٦) ابراهيم العورة ص ٣٤ .
١٧) ابراهيم العورة واسعد منصور مثلا .

انعم السلطان على احمد الجزار وكافأه على خدماته له وذلك بأن جعله وزيرا ثم وسع رقعة ولايته حتى امتدت من بيروت شمالا حتى عريش مصر جنوبا .

من نسل الشيخ ظاهر العمر المعروفين آل عباس في الناصرة وقضائها ، وآل البارودي في دمشق (١٨) ، وآل صنديد من اهل صفد سابقا ، وبعض اسر الزيادنة في قرية كفرمندا وبعض اسر قرية الدامون سابقا وهي ، على ما قيل ، من نسل سعيد الظاهر ، ومنها اسرة الشيخ عمر المصطفى وابناء عمومته .

---

١٨) وصل الى المؤلف سنة ١٩٤٠ كتابان من المرحوم فخري البارودي . يقول في الكتاب الاول :

الندوة

رقم التلفون ٣٩٠

عمان في ١٠/٧/٨٦

١٩

عزيزي توفيق بك معمر المحترم

اخذت كتابكم وشكرت لكم اهتمامكم واني آسف ان جميع مالدي من اوراق ووثائق عن ضاهر العمر هي في مكتب الكتب العربي القومي الذي اغلقه الافرنسيون ولا ادري ماذا حل بهذه الاوراق بعد مغادرتي دمشق وبعد عودتي اليها سأبحث عن هذه الاوراق وارسل لكم صورة عنها ان شاء الله

اني انتظر محاضرتكم التي وعدتموني بارسالها والى الكر [illegible] واتمنى لكم النجاح وارجو الله ان يوفقكم لاخراج تاريخ هذا الرجل بصورة كاملة تخلد لكم ذكراً حسناً في عالم التاريخ والله تعالى يحفظكم عزيزي

محمد فخري البارودي

الفصل العشرون

مقتل علي الظاهر

١ ــ علي الظاهر يتحصن في دير حنا :

مر بنا ان الاشتباكات بين علي الظاهر واحمد الجزار تجددت عقب مقتل ظاهر العمر وانه على اثر مهاجمة علي الظاهر لشرذمة من عسكر الجزار في آذار سنة ١٧٧٦ جهز الجزار حملة من خمسة آلاف مقاتل وساقها في اواسط ايار الى قاعدة دير حنا معقل علي الظاهر وضرب عليها الحصار • بقي الحال على ذلك حتى قدوم حسن باشا بالمراكب السلطانية الى عكا في حزيران ، فأرسل جنده ومدافعه الى دير حنا للمشاركة في حصارها على نحو ما تقدم ذكره في الفصل السابق •

استعر قتال عنيف على اسوار القرية وابراجها العشرين • كان علي اذا ما عليه الحال يخرج من القلعة على ظهر جواده بشرذمة من جنده فيهاجم جنود الدولة ثم يعود الى القرية ظافرا بالغنائم والاسلاب(١) •

حدثني محمد قاسم الخطيب عن هذه المعركة قال :

« نزل الجزار بقواته في موقع « زيتون عرابة » ثم اخذ يشن هجماته يوما بعد يوم على البرج الغربي • وذات يوم وبعدقتال عنيف استمر الليل بطوله استولى الجزار على هذا البرج وثبت قواته ومدافعه فيه • ولما رأى يوسف دبور وكيل علي الظاهر في القرية ذلك امر طيجيا من عسكره باطلاق مدفعه على مواقع الاتراك في البرج الغربي ففعل واصابت « القلة » صيوان الجزار واتلفت قسما من شجرة التين الملاصقة للصيوان ، فتضعضع الجزار وانسحب الى موقع « بلان عرابه » حيث جعل ينظم قواته من جديد وهو يديم النظر الى القلعة بمنظار كبير • ثم جدد الجزار هجماته على القلعة من الشمال وركز نشاطه على البرج المسمى « برج حوا » ، ثبت هذا البرج في القتال حتى نفذت الذخيرة من رجاله واستغاث هؤلاء بحماة القلعة ولكن بدون جدوى الى ان تسلق احد الاتراك جدار البرج وقذف بجرة ملح على

١) ميخائيل ص ١٦٠ .

لطيجي كان في داخله ، فأصابت الجرة رأسه ، وافقده القدرة على القتال ، وهكذا استولى الاتراك على هذا البرج واسروا رجلين ظلا يقاتلان الى آخر رمق، فاستاقهما الجزار الى بيادر القرية وقتلهما •

اشتد الحصار على القرية وكاد علي يقع في الاسر اكثر من مرة ، فأبراجه العشرون كانت تتهاوى الواحد بعد الآخر ورجاله يتخلون عنه جماعات جماعات بينما كان ساعد الاتراك يشتد يوما بعد يوم بمن كان ينضم اليهم من العساكر المرتزقة الذين لم ينقطع سيلهم الى ساحة المعركة طوال مدة الحصار • واخيرا وبعد حصار دام قرابة شهرين لم يجد علي مناصا من اخلاء القرية فأخلاها مع صفوة من فرسانه ومضى الى صفد حيث الجبال المنيعة والمسالك الوعرة • وفي اواسط تموز سنة ١٧٧٦ استسلمت دير حنا للمهاجمين بعد ان أعطي الامان لاهليها ، ورغم ذلك فقد هدم الاتراك قلعتها وابراجها ولغموا جامع سعد العمر بالبارود وأسروا يوسف دبور كتخدا علي الظاهر فيها ، كمابطشوا بسكان القرية واجلوهم عن بلدهم لانهم كانوا فداوية للزيادنة ، ولم يسمح الجزار لهم بالعودة الى قريتهم الا بعد اربع عشرة سنة من التشرد ، وقد عادوا شريطة انلا يرمموا القلعة او يستخدموها •(٢)

وبسقوط دير حنا في ايدي الاتراك انهار اخر معقل للزيادنة في الجليل •

٢ ــ علي الظاهر في صفد :

زحف حسن باشا بعد ذلك بعسكره الى صفد وحاصر عليا فيها مدة قصيرة واستولى عليها • كان يساعده في عملياته العسكرية هذه جنود من المتاولة وبعض ابناء ظاهر الذين استسلموا له مؤخرا • كان ابناء ظاهر ومنهم عثمان يساعدون حسن باشا في تعقب اثار اخيهم علي ويحاولون مسكه مسك اليد أملا في ان تصفح الدولة عنهم وتمنحهم العفو ، ولكن علياستطاع حتى الاذان ينجو من الاسر(٣)،

وارسل الجزار الى مشايخ الاقاليم يحذرهم من ايواء علي الظاهر الخارج

٢ ــ رسالة زكار (الملحق) ، محمد قاسم الخطيب ــ ويقول ايضا : اعجب الجزار بجامع دير حنا وقد بنى مسجد عكا المعروف باسمه (بني سنة ١٧٨١) على غراره وعند بنائه نهب الجزار الكثير من زخارف جامع دير حنا وبلاطه المصنوع من المرمر ونقل كل ذلك الى عكا ،وزين به مسجده ، الا ان اهل دير حنا كانوا قد اتلفوا بعض زخارف جامعهم حتى لا تقع في ايدي الجزار •

٣) رسالة زكار •

على طاعة السلطان ونبه عليهم ان القرية التي تقبله او تفتح له ابوابها لا يكون قصاصها الا الحريق .

ولما ضاقت الحال على علي ورأى ان اعوانه وحلفاءه قد تراخت عزائمهم عنه وخذلوه حمل امتعته على جماله وركب باهل بيته وبعض اتباعه واخذ يتنقل من مكان الى اخر في الجليل وأطرف جبل لبنان حتى اعيا تنقله حسن باشا وقطع الامل من القبض عليه . وما زال علي في تجواله حتى نزل يوما في ارض الخيط غربي جسر بنات يعقوب قرب بحيرة الحولة . فكتب الجزار الى حسن باشا يقول له ان السبب في افلات علي من قبضة العساكر السلطانية يعود الى تراخي محمد العظم وتغاضيه عنه وانه (اي علي الظاهر) يسرح ويمرح في اراضي ولايته .

وبسبب هذه الوشاية اصبح محمد العظم في نظر الدولة متهما وشريكا في الجريمة فبعثت اليه بأن يرسل اليها رأس علي الظاهر او يقتل هو به . وادرك الوزير مغبة هذه الوشايات فعقد العزم على القيام بعمل جريء يبرئه مما نسب اليه من تهم (٤) .

وفي اواسط ايلول سنة ١٧٧٦ ابحر حسن باشا عائدا الى الاستانة في حين بقي الجزار في البلاد للمساعدة على مطاردة علي الظاهر وقتله واعادة الجليل الى طاعة السلطان .

٣ – مقتل علي الظاهر :

بعد رحيل حسن باشا الى الاستانة بمدة دعا محمد العظم اليه احد الاكراد العاملين عنده ويسمى ابراهيم اغا القيسرلي واتفق معه على تدبير مكيدة لقتل علي الظاهر او اسره ووعده ان هو قتل عليا او اتى به اسيرا الى دمشق اجزل له العطاء.

كان القيسرلي جنديا محترفا وواحدا من اربعة كانوا قوادا لفرقة اللوند العثمانية المشهورة البالغ عددها ستة عشر الفا من الجنود (٥) فلما حلت هذه الفرقة توجه القيسرلي على رأس ثلاثمائة فارس من جماعته الى دمشق وترتب عند محمد العظم ، كما توجه ثلاثة قواد اخرون من هذه الفرقة مع اتباعهم الى

٤) جودت ص ٦٢ .

٥) حيدر ص ١١٨ – اما القواد الثلاثة الآخرون فهم : عبدالله البيوق، وعلي البزق، وابراهيم اوزون ، وكان هؤلاء يستخدمون في قمع الثورات العربية .

صيدا وخدموا عند الجزار . كان رجال فرقة اللوند محاربين اشداء لا يرهبون الموت بسبب ما لاقوا في حياتهم من الاهوال .

اتفق محمد العظم والقيسرلي على خطة لقتل علي الظاهر وهي ان يظهر محمد باشا الغضب على القيسرلي على عين الملأ فيشتمه ويطرده من خدمته ، ثم يمضي القيسرلي مع اتباعه الى علي الظاهر ويلتمس منه قبوله في خدمته . ولما كان علي في حاجة الى رجال يعينونه في محنته فانه ولا شك سيرحب بهم ويدخلهم في امرته ويوليهم ثقته ، خصوصا بعد ان يبلغه نبأ هذه الخصومة الشديدة بينهم وبين محمد العظم . ولما يتم لهم ذلك يهون عليهم قتله او أسره .

وهكذا توجه القيسرلي الى نواحي جسر بنات يعقوب وبعث الى علي معربا له عن استعداده للعمل في خدمته والقتال معه ضد الجزار . استجاب علي للطلب وارسل اليه خمسين كيسا من الدراهم نفقة لحضوره .

وفي رواية لجودت انه مما رغب عليا في قبول هذه الجماعة في خدمته وساعد على انطلاء هذه الحيلة عليه وجود عداوة مشهورة بين القيسرلي وبين عبدالله البيوق احد قواد فرقة اللوند الكبار الذي كان يعمل وقتئذ عند الجزار .

ووصل القيسرلي ورفاقه الى ارض الخيط ودخلوا على علي ، فاستقبلهم بحفاوة وعين لهم خرجا ، وبعد ان عملوا عنده مدة قصيرة استفردوا به وقتلوه ثم احتزوا رأسه واخذوه الى دمشق ، وكان ذلك بعد خمسة اشهر من سفر حسن باشا الى الاستانة (٦) اي في كانون الثاني او شباط سنة ١٧٧٧ .

ولما وقع بصر محمد العظم على رأس علي الظاهر قال للقيسرلي يؤسفني ان يقتل علي كنت اريده حيا لنستخدمه في شؤوننا ومن مثله يستطيع ان يطوع البلاد ويسوس العباد . واما احمد الجزار فقد صعب عليه اخذ رأس علي الى دمشق لانه كان يريد ان يبطش هو به ليفتخر بقتله (٧) .

أرسل رأس علي الظاهر مع ثلاثة رؤوس من اتباعه الى الاستانة ، وانكر جماعة احمد الجزار الرأس المحمول وقالوا انه ليس رأس الشيخ علي الظاهر فاحضرت الحكومة ولديه الحسن والحسين وكانا في الاستانة وقالت لهما هل

٦) ميخائيل ص ١٦٢ – هكذا ارخ ميخائيل الصباغ مقتل علي الظاهر واما بريك ص ١٠٤ وكرامه ص ٥٢ فيسجلان تاريخ مقتله ضمن حوادث سنة ١٧٧٦ .

٧) كرامة ص ٥٢ .

تعرفان هذه الرؤوس المقطوعة ؟ فلما رأياها بكيا ، قيل لهما ما يبكيكما فاجابا هذا رأس والدنا علي الظاهر ، وقد عرف الرأس من كبر عارضيه لان عليا كان يدعى «ابو سبعة شنبات» (٨) •

دفن علي الظاهر في قرية علما الخيط القريبةمن مكان مقتله وقبره فيها . وكان لعلي اربعة شعراء ، يمدحونه في حياته ، منهمشناعة امريح ، فلما قتل صاروا يرثونه في مماته فيزورون قبره من وقت الى اخر يبكونه ويندبونه ، ولما بلغ الجزار خبرهم اخذ يتعقبهم لقتلهم(٩) ، ومن شعرهم في رثاء علي :

سرينا سروة الميزان لقينا الخيل في الميدان
علي الضاهر يا خو عثمان رد الخيل اطوار اطوار
على اللي صار على اللي صار ريته هالخبر ما صار .

* * *

سرينا سروة العيوق لقينا الخيل في الخانوق
علي الضاهر يا خو مرزوق بسيفك تذبح الجزار
علي اللي صار على اللي صار ريته هالخبر ما صار

* * *

سرينا سروة النجمة لقينا الخيل ملتجمه
علي الضاهر يا خو نجمه رد الخيل اطوار اطوار
على اللي صار على اللي صار ريته هالخبر ما صار (١٠)

وتردد هذه الابيات بصور مختلفة ، وكانت اكثر ما تقال في مآتم الزيادنة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وبمقتل علي بن ظاهر العمر في مطلع سنة ١٧٧٧ انقضى عهد الزيادنة في بلاد صفد والجليل الذي دام ، على ما رواه الرواة ، ثمانين سنة • من سنة ١٦٩٨ حتى سنة ١٧٧٧ • وهكذا ازاح محمد باشا العظم عن كاهله التهمة التي كان الجزار قد وجهها اليه ، واثبت بقتله علي الظاهر ولاءه للدولة العثمانية ، فارتفعت منزلته لديها وظل في خدمتها حتى وفاته سنة ١٧٨٣ •

٨) كرد علي ص ٣١١ .
٩) محمد الخطيب .
١٠) حبيب ابو النصر — العيوق اسم نجم والميزان مجموعة نجوم .

وتتبع الجزار فلول الزيادنة وهاجمهم بالقوة احيانا وبالخديعة والغدر احيانا اخرى فأبادهم واستولى على ممتلكاتهم واستصفى اموالهم ، فتمهدت البلاد السورية لطاعة السلطان واستتب الامر لاحمد الجزار في صيدا وعكا وبلادهما •

يصف فولني علي الظاهر بقوله : « ان سوريا حتى هذا اليوم (اي سنة ١٧٨٥) تشيد ببسالة علي بن ظاهر العمر وفروسيته ، واما مالطخ اسمه وهذا المجد الذي اكتسبه فهو ثوراته العديدة على ابيه(١١) •

ويصفه الامير حيدر فيقول : وكان ولده (اي ولد ظاهر العمر) جبارا عنيدا يحب الفتن والحروب كثير الطعن والضرب لا يقدر العواقب ولا يخشى النوائب •• هذا الفارس الشهم كان ، على ما يقال ، من اشجع الابطال التي لا تبالي بكثرة الرجال (١٢) •

ويضيف الامير حيدر قوله : « ولم يكن في ذلك الزمان افرس من علي الظاهر ولا اشجع منه ولا اكرم منه ولا افصح منه ولا اكبر نفسا منه حتى انه لم يكن يزوج بناته لئلا يقال ان بنت علي الظاهر لها بعل يأمرها وينهاها • قيل انه كان يدخن بالنارجيله مرة فوقعت جمرة منها على يده فنادى غلامه كي يرفعها • ولم يرمها علي من يده حتى رفعها الغلام بملقط الحديد كأنها كانت على مجمرة • وقيل ايضا ان عبدا صادمه في موقعه فاستكبر علي قتاله ثم لم يزل العبد يصدمه حتى ضجر علي منه فضربه بالسيف فوقع السيف في وسط العبد وهو راكض بجواده وسار الجواد خطوات والعبد جالس في سرجه ثم سقط نصفه الاعلى الى الارض وبقي نصفه الآخر في السرج • وقد رأينا في هذه الايام (ايام الامير حيدر) بنت الشيخ علي الظاهر واخته تسألان صدقات من الناس ، والعوذ بالله من تقلبات الزمان » (١٣) •

١١) فولني ج١ ص ١٤١ .
١٢) حيدر ص ١١١ وتاريخ احمد الجزار ص ٣٧٧ .
١٣) حيدر (نزهة الزمان ص ٨٣٢) .

* * *

الفصل الحادي والعشرون

بلاد ظاهر العمر والاقاليم التي حكمها ابناؤه

١ ـ التقسيمات الادارية في القرن الثامن عشر

كانت المقاطعات التي تولاها ظاهر العمر في مستهل حكمه هي الاقاليم المعروفة ببلاد صفد والجليل وهي الواقعة بين مرج ابن عامر جنوبا وجبل عامل ووادي التيم (ناحية حاصبيا) شمالا . كان حدها الشمالي يبدأ من قرية البصة المتاخمة للبحر غربا ثم يسير في خط مستقيم شرقا مارا بطربيخا ومارون فالحولة . واما حدها الجنوبي فكان يبدأ من اللجون غربا ثم يسير في خط دائري مارا باراضي المرج الجنوبية حتى بيسان وغور الاردن شرقا ، ثم يتجه شمالا الى طبريا فالحولة .

هذه هي الاقاليم التي حكمها ظاهر في الثلاثينات والاربعينات من القرن الثامن عشر ثم اضاف اليها عقب سنة ١٧٥٠ وعلى مراحل متعددة بلادا اخرى حتى اصبحت الاقاليم التابعة لظاهر تمتد من غزة جنوبا حتى مداخل بيروت شمالا ومن البحر غربا حتى جبل عجلون شرقا . واصبحت عكا بفضل جهود ظاهر العمر عاصمة الجليل بدلا من صفد واعظم المواتىء على الساحل السوري .

والجدير بالذكر ان قيام ظاهر العمر قد احدث تغييرات هامة اخرى في تقسيمات البلاد الادارية ومراكز اقطاعاتها . فالمقاطعات ذات الشهرة في الجليل قبيل عهد ظاهر حتى وفي مستهله كانت بلادا غير البلاد التي صارت اليه سنة ١٧٥٠ وما بعدها . ان المقاطعات ذات الشهرة في القرن السابع عشر كانت سبعا او ثمان كما ذكر بعض المؤرخين وهي : صفورية ولوبية والشيخ داود وطرشيحا وصفد والدامون وعتليت وعرابة البطوف . فالدامون مثلا كانت هي مركز الناحية ولم تكن شفاعمرو القريبة منها ، وكذلك كانت صفورية هي مركز الناحية لا الناصرة المجاورة لها ، وكانت عتليت هي مركز الناحية الساحلية لا حيفا . غير ان هذا التقسيم الاداري القديم لم يستمر العمل به في زمن ظاهر العمر بل قامت بدلا منه اقطاعات جديدة ومدن جديدة اخذت مكان المراكز القديمة . وتوضيحا لذلك فان حيفا مثلا اخذت مكان عتليت ، وعكا مكان الشيخ داود ، وشفاعمرو مكان الدامون ، وطبريا مكان لوبيه ، والناصرة مكان صفوريه ، ودير حنا مكان عرابة

البطوف كمركز لقرى الشاغور الجنوبي . وظلت صفد وطرشيحا تحتلان مكانتهما كمقاطعتين من مقاطعات الجليل الكبار .

على ان ظاهر العمر عندما كبر ابناؤه ظل محافظا من ناحية جغرافية على التقسيم الاداري القديم ، فولده صليبي ولاّه ابوه طبريا بدلا من لوبية ، وعثمان تولى شفاعمرو بدلا من الدامون التي كانت المركز الاداري لقرى خليج حيفا ، واحمد بعد موت عمه سعد تولى دير حنا بدلا من عرابة ، وعلي تولى صفد،وسعيد اقامه ابوه على صفورية ونواحيها ، ولكن سرعان ما اخذت الناصرة مكان صفورية وتولاها بعض ابناء ظاهر منهم عثمان . ومنذ ذلك الحين قامت هذه المدن الجديدة مقام المدن القديمة واخذت مكانها الهام في حياة الجليل ولا تزال محتفظة بمكانتها حتى هذا اليوم (١) .

هذه ظاهرة جديدة في حياة الجليل الادارية والاجتماعية املاها سير الزمن وعوامل التطور التاريخي ، ويجب الاشارة اليها كأثر باق من آثار الشيخ ظاهر العمر وعهده .

٢ ـ صليبي الظاهر في طبريا :

تولى صليبي طبريا وناحيتها منذ سنة ١٧٤٤ حتى وفاته بمصر سنة ١٧٧٣ .. كانت كنيته « ابو ناصر » نسبة الى ولده البكر ناصر . ينسب اليه بناء السراي التي لا تزال قائمة في طبريا حتى هذا اليوم والمعروفة بالصقرية . ويروى في بنائها الرواية التالية :

ركب ستمائة فارس من عرب الصقر الى حوران ليأخذوا حصتهم من «الخاوه» المسماة ألفية حوران . عند مرورهم بطبريا دخل المدينة عبد من خدم الامير جبر الملاك(٢) لشأن من الشؤون . استقبل صليبي الظاهر عبد الامير جبر اجمل استقبال وسأله عن سيده . فقال العبد انه بخير واضاف انهم سائرون شرقا الى حوران ليأخذوا حصتهم من « الخاوة » المقررة لهم من قديم الزمان وانهم سيقضون ليلتهم القادمة في قرية فيق في اطراف الجولان الجنوبية . وبان الغيظ على وجه صليبي من قول العبد « انهم سائرون الى حوران ليأخذوا ما خصص لهم من هذه

١) المعلوف ص ١٣٠ ، هيد ص ٧٥ ، منصور ص ٤١ .
٢) الملاك هو البيت صاحب الامارة في العقر .

الخاوة المقررة لهم من قديم الزمان » غير انه كظم غيظه ورافق العبد الى السوق فاشترى له بعض الهدايا كما كساه هو وفرسه كسوة كلها حمراء اللون اكراماً لخاطر الامير جبر . وعاد العبد الى عربه .

ولما انتشر بين العرب خبر هذه الكسوة الحمراء المهداة الى عبد الاميرداخلهم الخوف . فقال رجل من الصقر يسمى « ابن زيدان » لرفاقه حذار من الزيادنة يا عرب ، الكسوة الحمراء انذار لنا بالرحيل ، فالرحيل يا عرب » .

ويقال اخذ العرب حذرهم تلك الليلة ، فعند وصولهم الى قرية فيق انقسموا الى فريقين الاول كمن جنوب القرية في موقع « تم مسعود » وعدده مائتا فارس ، وهؤلاء لم يصابوا بأذى ، والآخر وعدده اربعمائة فارس نزل في فيق نفسها وتحصن فيها .

تقول الرواية في تلك الليلة باغت صليبي الظاهر العرب النازلين في القريةوذبح اكثرهم وغنم ثلاثمائة فرس من خيولهم باعها في سوق طبريا وانشأ من ثمنها السراي المعروفة اليوم « بالصقرية » (٣) .

كانت الحروب بين الزيادنة وعرب الصقر لا تنقطع في غور الاردن وطبريا . يُروى انه عندما كان الصقر يهاجمون صليبي في طبريا كان هذا الاخير يدخل المدينة ويحتمي بأسوارها خوفا من الصقر ، فيقف صقري من العرب على « الثقفان » المواجه مدينة طبريا من الخارج ويتحدى صليبي بقوله : « اخرج يا جبان ! ابن ظاهر العمر لا يختبىء وراء الاسوار » وظل الصقري يفعل ذلك كل صباح حتى استكرى صليبي رجلا لقتله مقابل كيس من الدراهم ، فقُتل الصقري بالبارود .

٣ ـ احمد الظاهر في تبنه بعجلون :

تولى احمد اظاهر دير حنا اولا ومنها انتقل ، كما مرّ بنا ، في اواخر سنة ١٧٧١ الى قرية تبنه في قضاء عجلون .

اقام احمد الظاهر على تلك الديار ثلاثة شيوخ من اهلها الاول جعله على جبل عجلون والثاني على الكوره والثالث على فريح ، ولكنهم عجزوا عن اقرار الامن في تلك الربوع وتهدئةخواطر سكانهافعزلهم وولى مكانهم الشيخ يوسف الشريدي

٣) حنا خميس عن شيخ صقري من قرية السمكية قرب طبريا .

وكان حكمه حازما ، بخلاف المشايخ الثلاثة ، نال اعجاب احمد الظاهر فقيل في ذلك شعر يندد بمشايخ جبل عجلون ويتهمهم بالضعف والخفة ، قال الشاعر :

عزك يا صفد واحمد بتبنه
وعن ضروب الجهل يا بوي تبنا
انا احسابك ذهب وتراك تبنه
خفيف وطيرك نسم الهوا (٤)

يقول محمد قاسم الخطيب اشتهر احمد الظاهر بالعفة : وتروى عنه القصة التالية :

ذات يوم لكز رجل من فداوية احمد امرأة في احد ازقة تبنه . فصاحت في وجه الرجل : اتريدون ان تحكمونا بالعفة ام بالحرام ؟ ، وعرضت قضيتها على احمد الظاهر . دعا احمد الرجل اليه ووبخه على فعلته القبيحة ، فزعم الرجل انه فعل ما فعل بدون قصد لان الطريق ضيقة . وبعد ان استوضح احمد عن رحابة الطريق وتبين له كذب الرجل عراه من ثيابه وأركبه فرسا وقيد رجليه على بطنها بالحديد وقال له «سر على بركة الله هذا جزاء من يتعرض لاعراض الناس» .

وحكم احمد الظاهر جبل عجلون بالعدل وطاعته تلك الديار من فلاحين وعربان وكانوا يقولون ان حكمه حق ، هذا من جهة ومن جهة اخرى يواصل الرواى حديثه فيقول انه لما تسامع في جبل عجلون خبر مقتل ظاهر العمر وسقوط عكا في ايدي الاتراك ثار العجلونييون على احمد الظاهر وطاردوه حتى قرية لوبية غربي طبريا .

قيل في احمد الظاهر هذا الشعر الجميل :

عزك يا صفد واحمد بتبنه
ويامر على بروج الدير تبنى
على ايدك يا شيخ اليوم تبنا
ويرعى الذيب والنجعه سوى (٥)

بقي احمد الظاهر حاكما في تبنه حتى مقتل ابيه في آب سنة ١٧٧٥ .

٤) حسن الفارس ، محمد الخطيب .
٥) عمر المصطفى .

٤ ـ عثمان الظاهر في شفاعمرو

تولى عثمان بلادا كثيرة منها كفر كنا ومنها شفاعمرو ثم الناصرة ثم اعيد الـى شفـاعمرو •

اغتاظ ظاهر يوما من عثمان لانه طلب من قرية سحماتا امرأة نصرانية لتكون مرضعا لولده • ولما صارت في بيته اخذ يراودها على نفسها • هربت المرأة الى فوجها واخبرته بما وقع لها مع عثمان • ولما كانت هذه الحادثة غريبة اخذ الناس يتناقلونها حتى شاعت في البلاد واتصل خبرها بظـاهر •

دعا ظاهر اليه ولده عثمان ووبخه وقال له «كيف تفعل هـذا وانا افتخر بصياتني نساء البلاد من القبيح ؟ ، اتريد ان تخفض شرفي ؟ لاوالله فاكون بريئا من عمر ان عدت الى مثلها •••• أأقيمك راعيا فتكون ذئبا ؟ (٦)

استقر عثمان في شفاعمرو بعد قدومه من لبنان سنة ١٧٦٧ وشرع في بنـاء قلعتها المعروفة بسراي شفاعمرو واستمر العمل بها عـدة سنوات متقطعة • كـان عثمان يريد ان يصعد بالبناء الى علو شاهق ليرى منه قلعـة اخيه علي في صفـد • فأكمل بناء طابقين وشرع في بناء الثالث ولكن حدث ما منعه من اتمام البناء ، ولعل ذلك يرجع الى فراغ يده من المال واختلال الامن في الجليـل •

وهنا موضع لحكاية مشهورة تتصل بالسراي : وهي ان رجلين من قرية تبنه بعجلون تخاصما بشأن مقتاة بطيخ ولما اتصل خبر ذلك باحمد الظاهر حـاكم تبنه دعا اليه الرجلين وبعد ان نظر في نزاعهما قيدّ المذنب منهما «بلبش بطيخ» واعطاه كتابا وامره بتسليم نفسه مع الكتاب الى اخيه عثمان في شفاعمرو الواقعـة عـلى مسيرة يومين من تبنه •

ولما وصل الرجل الى قلعة شفاعمرو ورآه البناؤون الذين كـانوا يعملـون وقتئذ في بناء السراي سألوه عن السبب في قدومه على تلك الصـورة الغريبـة ، فأخبرهم : فقالوا له في عجب ولماذا لم تسع الى الهرب ؟ قال واين الفرار من حكـم الجبار » ، وفي رواية اخرى انه قال : « واين الهرب من حكم ابن عمر » • سـمعت هذا الكلام امرأة قيل انها بنت عثمان الظاهر فأصابها الذهول وصاحت بالبنائـين « كفوا عن البناء •• لقد انتهى حكمك يا ظاهر •• وكأنهـا ارادت ان تقـول اذا وصلت سطوة حـاكم الى هذا الحد فما بعد ذلك الا نهايته •

٦) ميخائيل ص ٦٨ .

قيل ان عثمان الظاهر استخدم اهل القرى المجاورة بالسخرة في عمليـة بنـاء السراي • وفي رواية اخرى على لسان امرأة شفاعمرية انها عملت في بناء السـراي وهي بنت صغيرة وتقاضت فلسا عن كل يوم عمل من يد عثمان الظاهر ، ويقـول الرواة ان المكان الذي اعد لجبل الطين وتهيئة مواد البناء سمي « بالورشـة » ولا يزال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم • استخدم عثمان الطابق السفلي من السراي اسطبلات لخيوله والعلوي لسكنـاه •

اعتقل عثمان يوما في السراي وتضايق من مرارة الاعتقال ، فأنشد يقول :

يـا دار العز نـاغيني تناغيك
بطل هرْجَك يا ديواني وانا بيك
فراريـج يطردوني وانـا ديك
بعيني والرخم طـارد عقاب •

قـال عثمان يفتخر ببني قومه الزيادنة :

هَـلي ما لبسّوا الخادم سملهم
وعلى قلوب العدى ناطف سم لهم
المخاليق ارض واهلي سما لهـم
كواكب ماضية بجنـح الـدجى •

وقيـل في وفـاة عثمان هـذا الشعر :

يا شومر شد عالحَمْرة لعثمـان
امـير ومن بني زيدان عثمـان
يا دلّك يا صفد من بعد عثمان
غدا يا حسيرتي تحت الترابا (٧)

٧) سليم عليان ، حنا الشيتي ـ هلي اي اهلي ، سمل اي الثوب العتيق ، الحمرة هي الفرس ، شومر هو سائس خيل عندالزيادنة ـ يتخذ البعض من حادثة«البش البطيخ» دليلا على الظلم الذي كان،حسب رأيهم،يسود نظام حكم ظاهرالعمر.ان هذه الحادثة الفريدة في نوعها ان صح ،وقوعها تعطينا صورة عن اليد الحديديـة التي كان ظاهر العمر يحكم بها رعاياه ، او ليس لذلك ما يبرره في زمن كان قوامه السلب والنهب وقطع الطرق وقتل الابرياء وفرض الخاوة على القرى وعمـل السخرة والاستغلال وغير ذلك ؟

٥) سعيد الظاهر في صفوريه : –

اسمه سْعيد (بتسكين السين) • تولى سعيد قرية صفورية وناحيتها ثم اضيف الى ولايته قريتا طرعان وحطين • وهنا موضع لحكاية مشهورة :

بينما كان سعيد الظاهر ذات يوم في قلعة صفورية المشرفة على القرية سرلطا ثم رأى بدويا من الصقر ينهب فرسا من بيادر القريـة وفر بهـا • اعتلى سعيد صهوة جواده ولحق بالصقري حتى ادركه في آخر زيتون القرية والاهلون على سطوح البيوت يراقبون ما سيكون • وما هي الا لحظات حتى شوهد سيف سعيد يلمع في ضوء الشمس ويهوى على رأس البدوي فيطيحه عن جسده ، ثم يعود سعيد بالفرس المنهوبة الى القرية وسيفه يقطر دما وهو يردد هذه العبارة في تساؤل ، « ينهب من تحت شاربي ؟ » (٨) •

رُوي عن سعيد الظاهر انه ضاف يوما شيخا من المشايخ ولـم يكن هـذا الشيخ وقتئذ في البيت • فلما حضر صاحب المنزل ودخل على ضيوفه لم يعرف مَن من الضيوف هو سعيد الظاهر ، فقال هـذا البيت :

دلوني عن سْعيد الشيخ ما اندل
لعين الشاطقي عالراس منـدل

فقاطعه سعيد على الفور مكملا البيت :

انا اني وقع الطراد وصار منـدل
سعيد مصدّر العايل غصابـا (٩)

قُتل سعيد الظاهر بأمر من حسن باشا عندما نزل مستسلما اليه في عكا فـي سنة ١٧٧٦ ، كمـا تقـدم ذكره •

٦) علي الظاهر في صفد :

تولى علي صفد سنين عديدة • كان مقر عمله في السراي وكانت نساؤه يقمن في القلعـــة •

كانت البلاد التابعة لعلي تمتد من جدين غربا حتى بحيرة الحولة شرقا وديرحنا

٨) محمد الموعد .
٩) عمر المصطفى – مندل الاولى غطاء للراس والثانية هي الحرب ، مصدر العايل غصابا اي قاهر المتكبر ذي البأس .

جنوبا وضمنها البلاد المعروفة اليوم « بقرى الجيره » والسبب في تسمية هـذه القرى بقرى الجيره هو انه عندما ولى ظاهر ولده عليا على صفد قال له : « كل ناحية القرى الواقعة حول مدينة صفد هي بجيرتك (اي بحمايتك وكتب له حجة بذلك) » (١٠) •

ان تولي علي الظاهر لصفد جعله في احتكاك دائم بعرب الفضل واميرهم فاضل المريد النازلين على حدوده الشرقية في اراضي الجولان • كان عرب الفضل اعـداء الزيادنة واما عرب اللهيب النازلين قرب الحولة فكانوا فداوية للزيادنة •

وقعت بين علي وعرب الفضل حروب كثيرة اشبه ما تكون بالمجازر الرهيبة لم اجد لها ذكرا في كتب التاريخ • في احدى هذه المعارك استولى علي الظـاهر عـلى منازلهم في الجولان ، فجمع خيامهم وجعل منها مخال لخيله • وكـانت ترافق هذه الحروب مساجلات شعرية تكشف النقاب عن تلك الاحداث والحروب •

رُوي لي ان عرب الفضل نهبوا يوما قافلة جمال كانت تحمل الزاد والثيـاب والامتعة لعلي قادمة من دمشق الى دير حنا التابعة لعلي ، وانتقاما منهم هاجـم علي منازلهم في هضاب الجولان على غرة فأجلاهم عن ديارهم وغنم جمالهم وابقارهـم وساقها الى دير حنا • فأنشد شاعر الزيادنة يتغنى بهذه المعركـة •

حنا مـا نبطل قـول حنـا
لعـين مخضب الكفـين حنّه
دعيناهـا تعن في دير حنـا
عوض ملفوفنـا واي الشرايـا

فانشد شاعر من الفضل متحديا :

من تل الفرس شفنا ديرحنـا
لعـين مخضب الكفـين حنـه
لا بد ما نوخذك يا دير حنـا
ونوخذ ثارنا برووس الحرابـا

وينشد شاعر الزيادنة في هـذا المعنى :

حنّـا ما نبطّـل قول حنّـا
لعـين مخضب الكفـين حنّـه

١٠) كمـال السـعيد .

بويضاك يا فاضل هلّسي تعنّ
من الرقاد ما تشرب مياه

فأجاب شاعر من الفضل يقول :

عليك الراي من فاضل يا ديره
وبيدي لاسحب الهندي واديره
وادعي البويضة ترعى في كل ديره
غصب عن شارب من هت وحكى (١١)

وينشد شاعر الزيادنة مهددا امير عرب الفضل :

يا فاضل فوت بيتك واضمحلّ
وصيتك ما علا فوق المحلّه
علي الهزبر يا فاضل هون حلّ
غدا يوريك طعنه والحراب (١٢)

هذا قليل من كثير مما قيل في الحروب التي وقعت بين الزيادنة وعرب الفضل اصحاب الجولان التي لم اعثر على ذكر لها في كتب التاريخ .

٧) حروب داخلية وفتن بين الابناء :

تميزت السنوات الاخيرة لحكم الزيادنة في الجليل ١٧٦٥ — ١٧٧٥ بحروب داخلية متتابعة بين ظاهر وابنائه من جهة وبين الابناء انفسهم من جهة اخرى . من هذه الحروب والفتن العائلية ما وقع بين ظاهر وولده علي .

بعد ان غادر احمد الظاهر دير حنا ورحل الى قرية تبنه بعجلون في اواخرسنة ١٧٧١ ارسل علي يطالب اباه بدير حنا التي كانت تابعة لاخيه احمد ، ولم يستجب ظاهر لطلب علي ، فعاد علي يطالب اباه بقرية دير القاسي (الواقعة على الحدود اللبنانية اليوم) وكذلك لم يسمح له ابوه بها . غضب علي وجرد خيله وتوجه الى دير القاسي ليأخذها عنوة ، فلما بلغ ظاهرا ذلك جمع مغاربته وجرّ المدافع امامهم

١١) محمد الخطيب ، سلمان الفارس — حنا اي نحن . تل الفرس هو موقع منازل عرب الفضل في الجولان . دعيناها تعن بديرحنا ، اشارة الى الجمال المنهوبة الرابضة في حوش دير حنا . البويضة هي الناقة . الرقاد هي عين ماء في الجولان يستقي منها عرب الفضل . الهندي هو السيف .
١٢) نايف الخليل — الهزبر من القاب علي ، المحله اسم مكان .

وسار لقتال ولده علي في صفد ، فأسقط في يد علي عندما بلغه اعتزام ابيه مقاتلته بتلك القوة الهائلة ، وطلب مصالحته .

ألبس علي ولديه الحسن والحسين ملابس بيضاء ووضع في رقبة كل منهما محرمة بيضاء وارسلهما الى جدهما ظاهر ليلتمسا منه العفو لابيهما . فلما اقبلا الى جدهما ترجلا سريعا اجلالا له فمنعهما ظاهر ثم عانقهما قائلا لقد غلبني ابوكما بكما . ثم دعا عليا اليه وولاه دير القاسي .

ولم يكتف علي بذلك بل اخذ يطالب اباه بدير حنا ثانية ولما رفض طلبه جمع عسكره وساقهم الى دير حنا ، فغضب ظاهر ثم نهض من عكا في نحو مائة وخمسين فارسا وتوجه الى دير حنا ليؤدب ولده عليا . ونظرا لقلة هذا العدد من العسكر امر المنادي ان ينادي « من يحب الشيخ ظاهر فليخرج معه » فلحق بظاهر عدد آخر من العسكر وكانوا من اهل عكا الذين لم يمارسوا القتال قط وانما خرجوا مع ظاهر لمحبتهم له . ولما سار عسكر ظاهر قليلا اصطدما بفرسان علي الظاهر ، فأوقع هؤلاء بهم بعض الخسائر وسلبوهم ثيابهم ونقودهم واقتادوهم اسرى الى علي . ولما عرفهم علي رد اليهم اموالهم واطلق سبيلهم وصاح في رجاله قائلا : يا انزال اما قدرتم الا على اولاد عكا الذين هم اعز اولادنا وليس لهم ذنب عندنا » ... فان كان ظاهر قد بخل على ولده بمطلوبه فما ذنب هؤلاء المساكين ، فوالله ثم الله كل من آذى واحدا من اهل عكا واخذ منه شيئا لا يسد به الا رأسه .

واخيرا اشتبك علي مع عسكر والده بالقتال وضيق الخناق عليهم ، فعاد ظاهر الى عكا واعد حملة كبيرة من مغاربته وفرسانه المجربين وساقهم الى دير حنا . فلما رأى علي هذه القوة الهائلة القادمة لمحاربته غادر دير حنا هاربا الى مكان مجهول تاركا القرية بدون اية حماية . فاستولى ظاهر على القرية بدون قتال ، واحسن الى نساء ولده وابنائه الصغار وقبلهم قائلا لهم : « لقد عرف ابوكم انه لا يقدر علي الا بكم » ثم اصطلح مع ولده علي وكتب له حجة بدير حنا وايد حقه على صفد التي كانت في يده من قبل .

عندما بلغ سعيد الظاهر ان اخاه عليا حصل على مطلوبه ارسل هو الآخر الى ابيه يطالب بقريتي حطين وطرعان بالاضافة الى صفورية التي كانت في يده من قبل بحجة ان البلاد التابعة له لم تكن تكفي لسد نفقاته والقيام بالتزاماته ، فرفض ابوه

طلبه . مضى سعيد الى اخيه علي ورجاه ان يتشفع له عند ابيه ليعطيه القريتين المذكورتين . كتب علي الى ظاهر بهذا الشأن فأجابه والده بأن جميع البلاد قد توزعت على اولاده ولم يبق منها ما يستطيع من دخلها ان يواجه الاخطار القادمة وامامه حروب كثيرة ينبغي ان يكون مستعدا لها . واضاف ظاهر يقول لولده علي اذا كنت انت محبا لشقيقك وتحن عليه فاسمح له بشيء مما في يدك . فلما وصل ذلك الى علي ، اغتاظ كثيرا وقال لسعيد اخيه « لا تنعم يا اخي فوالله ثم الله لا بد لي ان آخذ لك القريتين بهذا » ... واشار الى سيفه .

ولما وصل هذا التهديد الى ظاهر اتصل بولده عثمان وامره ان يأتيه بعسكره فلما حضر زحف ظاهر وعثمان لمحاربة علي وسعيد ولم تستعر نار الحرب الا قليلا حتى انكسر سعيد وعلي امام ظاهر وعثمان . وفي خلال هذه الحرب طارد عثمان اخويه عليا وسعيد ، وصحب عثمان في هذه المطاردة ولده الكنج الذي كان وقتئذ في السادسة عشرة من عمره ولما تراجع عثمان عن اخويه ابى الكنج ان يعود ادراجه واندفع يطارد عمه سعيد والسيف في يده وهو يقول له « يا ابو البدويات يا ابو القاينات ، لعينك يا عمي» الى ان كاد يمس عمه بالسيف . فقال له سعيد ارجع يا ابن اخي ، فأبى الكنج الرجوع فأطلق سعيد عليه طبنجة تهديدا له فأصابت من الكنج مقتلا ، فسقط عن جواده ، وتوقفت الحرب .

حزن ظاهر على حفيده حزنا عظيما واقام له العزاء اربعين يوما مثلما فعل يوم قتل عرب الصقر الجهجاه اخي الكنج في عام سابق كما ورد تفصيل ذلك في الفصل السابع من الكتاب .

واخيرا رضي ظاهر على ولده سعيد وكتب له حجة بولاية حطين وطرعان الواقعتين بين الناصرة وطبريا (١٣) .

يقول الرواة المعاصرين قتل الكنج في موقع سباتا من اراضي دير حنا وبالقرب من تينة ، اي شجرة تين ، لا تزال تعرف حتى هذا اليوم «بتينة الكنج» نسبة الى مقتل الكنج في جوارها . ويضيف الرواة قولهم انه عندما دفن الكنج اختلف اللوابنة (اهل لوبية) والحطاطنة (اهل حطين) على دفنه وقامت مشادة بين القريتين

١٣) ميخائيل ص ٨٧ – ٩٣ .

بسبب ذلك ، واخيرا نجح اللوابنة في دفنه فحملوه على حصان ازرق وواروه التراب(١٤) .

كان وقوع هذه الحوادث عقب عودة الكنج مع ابيه عثمان من مصر في نيسان سنة ١٧٧٢ .

وفي حادثة اخرى نجد ان ظاهرا وقف فيها ، لا الى جانب ولده عثمان ، بل الى جانب ولديه علي وسعيد في نزاعهما مع اخيهما عثمان . يقول الرواة : غضب ظاهر يوما على عثمان وكان وقتئذ في عكا ، فأمر ظاهر بالقبض عليه ، هرب عثمان من وجه ابيه فوجد بوابة المدينة مغلقة ويقوم على حراستها ثلة من العسكر على رأسهم صالح بن ظاهر ، فطلب عثمان من اخيه صالح ان يفتح له البوابة وقال هذا الشعر :

يـا صالح قوم افتح لي لتهكَّباب
لعـين حنحنة رجوله بها الركاب
ولابليهم بقـوم عـاد وصحـاب
ونكـد كـل من عيشه هنـا

وفتح الباب وخرج عثمان من المدينة بأمان .

واشتد الخلاف بين ظاهر وولده عثمان ، وهنا تطوع علي وسعيد لمساعدة ابيهما على اخيهما عثمان فلما بلغ عثمان ذلك بعث الى ابيه يتحداه بهذا الشعر :

يا عبدي شد على الحَمرة وشدها
وكرّب عـالحزام وعـاد شـدها
عـن علي وسعيد مـا تردّ
على ابو صليبي مردود النقى(١٥)

ووقعت الحرب اخيرا بينهم وكان النصر فيها لعلي وسعيد على عثمان .

قيل في هذه المنازعات العائلية مئات من الاشعار والعتابا منها هذا البيت :

غـا صبي مكلف الحمرة من الدم
وراوي رشة البولاد من الـدم

١٤) محمد الخطيب .

١٥) محمد الموعد ـ رجوله اي رجلاه ، وهي اشارة الى ظاهر الذي يطارده ، مردود النقا معناها قبول التحدي للقتال .

من حارب هله هذاك يندم
عندما يذوق لوعات العذاب (١٦)

هذه امثلة على الفتن والمنازعات العائلية التي استهدف لها ظاهر في السنوات الاخيرة من حكمه وكانت من الاسباب الرئيسية التي قوضت اركان حكم الزيادنة في الجليل .

٨) بعض ما قيل في علي الظاهر من الشعر

قيل في علي مئات من العتابا والقصائد الطويلة منها قصيدة لشناعة امريح تربو على خمسين بيتا ، ومطلعها :

امدح ثنا ليثا ضنا ظاهر عمر | مطلق الكفين تاج ام العلى
من بجوده دائر الزيزا عمر | ناقله تذكار ليم العلى

ثم يقول :

فاق بدوان الفيافي والحضر | واشتهر كالليث لما حولا
ناب على كل الموالي والصقر | لا تقولن فلان مثله لا ولا
فاض دم القوم من سيفه نهر | كل من دالاه عقله زلزلا
اردف الخطى ابو حسين ونهر | يرهق الدشمان صوته زلزلا
كم اسد من سطوته نام بوكر | في لحود الرمس فوقه تلّلا
شوف طلعة شيخنا طلعة بدر | في شهر نيسان ناهض بالطلا
كم جحافل داسهم وكم نفر | كالاسد بعقابهم يجندلا
مثل نجل الشيخ ظاهر من ذكر | بالسخا لو كان حاتم منهلا (١٧)

ومن قصيدة طويلة لنفس الشاعر قيلت في مقتل علي اقتطف منها هذه الابيات:

دمع البيابي جرى من مقلتي وعيون | لفراق ناس لهم بحشاي ملهابي
ابكي على من ليالي سعدهم قضون | وترادفتهم ليالي النحس والنكاب
يا هزبر كان على كل البلاد حصون | هل من ثناهم ناح الند والطياب

١٦) سعيد العثمان – ريشة البولاد اي السيف . هله اي اهله . الكلف هو الحمرة الضاربة الى السواد ، مكلف الحمرة من الدم هو الذي تشتد حمرة فرسه حتى تضرب الى السواد من شدة القتال وكثرة الدماء .
١٧) ناصر العازر – القصيدة في حوزة المؤلف .

اضحى قتيل بمذلة لا قتيل بكون | بالبوق غبر الوجوه ارموه وانصاب
يا داروين اصحابك مدون | لاي صوب يا دار ناخ الظعن والركاب
ونادي من عظم ما بي يا عيال ابكون | على هزبر الخيلين وقع وانصاب
راحوا بحكم القضا من واحد باقي | وادور شحاذ واحمل خرج وجراب (١٨)

ويرثي الشيخ شناعة عليا في قصيدة اخرى طويلة ، مطلعها :

يطري على البال افارق خلتي واهلاي | واسلك دروبا بعيدة مشيها وهلاي

وقيل في وفاة علي هذان البيتان من العتابا :

طلعت عراس تل لي بو علامات
نشدت الطير ما اعطاني علامات
ونادى فيك يا خونجه علي مات
مبرم شاربه ريح النداب .

* * *

طلعنا طلعة النجمة مع الضو
لقينا الخيل ملتجمه مع الضو
علي الضاهر يا خو نجه مع الضو
بسيفك تذبح جيوش العدى (١٩)

* * *

وقيل في علي هذه العتابا الحماسية الجميلة :

علي يابوالشوارب وين حدك
بحر ما يلحق السباح حدك
علي فت ابوك وفت جدك
ترجح بالزير والزغبي دياب .

* * *

علي يا راعي العبيّة والذخيرة
زواده عالعدو مثل ذخيرة

١٨) عمر المصطفى ونايف الخليل – قتيل بمزلة لا قتيل بكون اي قتيل بخدعةلابحرب. بالبوق اي بالغدر .
١٩) خليل الخالد .

صدق من قال ابن ضاهر ذخيرة
كنز ومفتوح فيها اربع ابواب .

* * *

علي يا بو الحسين الرب حيّاك
وسيفك على رقاب الترك حياك
سعد كل من نزل في وسط حيك
وتعس من قابلك يوم الحراب .

* * *

ظل في خاطري منزلي بدتون
عبية كليب الهزبر بدتون
سبع باشات ما قدروا يدنون
عندما حنحن الهزبر ركابا .

* * *

علي يا هزبر الديره واسدها
من استنبول بالديباج وسدها
علي طوّع ثورتها واسدها
حتى ذيبها بطل عوابا

* * *

علي يا خلف شط فرات ملّا
القروم ومن الوزر كم كاد ملّا
وكم حاكم وكم باشا ومُلّا
لبو التسرين شدوا له ركابا

* * *

علي لعتلى من فوق مشهور
مجرّب في الوقايع قرم مشهور

على الصنديد بين الخلق مشهور
حصن الخايف والي ليه التجايا

* * *

عيون لبو حسين يا بوي حداي
وسيفك على رقاب العدى حداي
كفو يا بو الحسين بالكرم زاد حداي
كريم الزاد وبالبيني عطا .

* * *

علي وشان يوم الكون والرد
قروما يقهروا الدشمان بالرد
علي يوم سوق الحرب ورد
كرها والخلايق شاهدا بيا

* * *

علي ما ربتك ديره علي وشال
شبه ليثا لتحدر وشال
استنبول رجت والعجم شال
ومنك يا علي صارت زلزلة .

* * *

(٢) عمر المصطفى ، سليمان ابو جوهر ، موسى عبد الهادي ، محمد التمر ، محمد الخطيب ـ الزير والزغبي دياب من فرسان العرب القدماء . دتون هي قرية قرب عكا ، عبية كليب اي فرس كليب والعبية هو نوع رسن من ارسنة الخيل الاصائل واصبح يطلق على صنف من هذه الخيول حنحن اي حرك وقد قيل هذا الشعر في معركة صيدا . القرم هو السيد البطل ، عبارة خلف شط فرات ملا اي وصل نفوذه الى نهر الفرات ، ملا (بالضم) لقب لاغوات الاكراد ، ابو التسرين كنية على نسبة الى ولديه الحسن والحسين . مشهور هو الحصان ، الصنديد من القاب علي . الكون هي الحرب ، الدشمان هو العدو .

الفصل الثاني والعشرون

الابنية التي اقامها الزيادنة في الجليل

انشأ الزيادنة خلال مدة حكمهم لبلاد صفد والجليل كثيرا من الابنية بعضها بلي واندثر والاخر ما زال قائما • كانت هذه الابنية في الغالب من النوع البسيط الخالي من الفخفخة والزخارف والرحابة التي عرفت بها ابنية القرن الثامن عشر كقصور اسعد باشا العظم في دمشق مثـلا •

كانت ابنية الزيادنة تتألف من ثلاثة انواع : الاول انشاأت اقيمت لمقتضيات الدفاع كالاسوار والحصون والقلاع ، والثاني مساجد وأماكن للعبادة ، والثالث مساكن ومخازن وسرايات وهي كثرة تكاد لا تخلو منها قرية مـن قرى الجليل الكبار مثل شفاعمرو وصفورية وكفر كنا وعرابة البطوف • عرفت هـذه الابنية بالرحابة بالنسبة الى غيرها من الابنية العادية في الجليل ، منها ما انشأ كمستودعات لخزن الحبوب ومنها ما انشأ لزرب الحيوانات ومنها ما انشأ لمقاصد الادارة والامن كسرايات وسجون وغير ذلـك •

روي لي ان قرية رميش اللبنانية كانت مركزا لخزن الحبوب والاموال الاخرى التي كان ظاهر يستوفيها من قرى الشمال على حساب المال الميري ، كمـا كـانت محطا للحيوانات التي يستلمها من المزارعين على حساب الضرائب • وكان لظاهر في هذه القرية ابنية شيدّها خصيصا لهذه الاغراض (١) على ان الاغلبية الساحقة من هذه الابنية قد تلاشى مع الايام خلال القرن التاسع عشر وما بعده بفعل الترك وقلة العناية ، ولا يوجد منها قائما في الزمن الحاضر سوى النزر اليسير •

ان الرحالة الاجانب وعلماء الاثار الذين اشتغلوا بمسح هذا الاقليم في القرن الماضي كنعمان قساطلي مثلا (٢) تحدثوا عن وجود بقايا حصون وقلاع وابراج في

١) كمال السعيد .

٢) نعمان قساطلي كان مساحا عمل بمسح الاراضي الفلسطينية لحساب الانكليز في سني الـ ١٨٧٠ ، وقد بحث في هذه الامور في مقال له تحت عنـوان « ملخص تاريخ الزيادنة» نشر في مجلة الجنان سنة ١٨٧٧ في بيروت .

امكنة مختلفة من ساحل عكا ومرج ابن عامر وبلاد صفد والاردن يرجعونها الى عهد الزيادنة • ولما كان المنقبّون يبدون تشككهم في صحة كل ما نسب الى الزيادنة من هذه الانشاءات فاني اقتصر في البحث هنا على ذكر المعروف والمشهور من هذه الابنية •

١ ـ جامع الدامـون :

من ابنية الزيادنة المعروفة جامع قرية الدامون في ساحل عكا • بناه علي بـن صالح الزيداني عم ظاهر سنة ١١٣٥هـ • (١٧٢٢ ـ ٢٣) وهو اقـدم مسجد بنـاه الزيادنة في الجليل ، وقد نقش فوق مدخله شعر ورد نصه في الفصل الاول من الكتاب • توفي علي بن صالح في الدامون وقبره فيها • هذا الجامع هدم عقـب حرب فلسطين عام ١٩٤٨ بقليل • وفي القرية ايضا قبر يعرف بقبر ايوب كما توجد فيهـا حمولة تسمى حمولة «كرّيم»،وهي من الزيادنة،ولعلها من نسـل كـريم الايوب الزيـداني نسيب ظـاهر وابـن عمـه •

٢ ـ جامع دير حنا :

هو من اشهر ابنية الزيادنة في الجليل بنـاه سعد العمـر سنـة ١١٤٤هـ • (١٧٣١ ـ ٣٢) • يقول الرواة كان الجامع ديرا من بقايا الصليبيين رممه سعد العمر وجعله مسجدا للقرية • ومما يؤيد كلامهم هذا ان قبته الاصلية بقيت على حالهـا لم يصبها اي تغيير وهي تشبه الى حد بعيد قبب الاجراس في الكنائس •

ومما يتحدث به اهل دير حنا والقرى المجاورة انه عندمـا باشر سعد العمـر ترميم القرية واعدادها لسكنـاه اراد ان يسمي القرية «دير سعود» نسبة اليـه ، فاعترض على هذه التسمية رجل من اهل القرية كـان له اعتبار ديني بين سكانهـا يسمى الحاج دبوس ، فقال لسعد «من الافضل ان تسمي القرية دير قرود لا ديـر سعود» وكان سعد العمر يجلّ هذا الرجل ويحترمه ، فضحك في وجهه وعدل عن تلك التسمية • ولما توفي الحاج دبوس بنى لـه سعد قبرا كرامة له في النـاحية الشمـالية مـن القريـة •

وأورخ بناء الجامع بشعر نقش على بلاطة فوق بابه وهذا نصّه :

الحمد لله وحده فيما امر   على الهاشمي خير البشر

يا من له فيمن رأى واعتبر   باني هذا الدير سعد العمر

بيوته مع حكره وقفا على مسجده في كل عام صدر
غرش على كل بيت كبير ونصف على كل بيت صغر
الى خادم المسجد الحرام فمن يتقي الله فليخش الضرر
بانيه يا مولاي يرجوك رحمة وجنة الفردوس تكون له المقر
قد كان للرابوع فيه تاريخه رام فيه كل مجد واقتدر (٣)

والتاريخ في الشطر الاخير هو سنة ١١٤٤ هـ.

كانت دير حنا محاطة بسور بناه سعد العمر على بقايا تحصينات صليبية ، ولا تزال اقسام كبيرة من السور ظاهرة للعيان ، وعزز سعدالسور بسلسلة من الابراج تتألف من عشرين برجا هدم اكثرها في حروب عام ١٧٧٦ ولم يبق منها اليوم سوى بقايا اربعة ، اثنان في غرب القرية واثنان في شرقها .

وكذلك بنى سعد في القرية منزلا لسكناه مؤلفا من طابقين : الاول استعمل لخزن الحبوب والثاني لسكناه ويصعد اليه بدرج من الحجر الصلب ولا يزال المنزل قائما ومسكونا . وهناك بيوت اخرى كثيرة بناها الزيادنة ملاصقة لجامع القرية من الجنوب وتسير في اتجاه شرقي .

٣ ـ سراي ظاهر العمر في الناصرة :

بنى ظاهر في الناصرة سراي مؤلفة من عدة بيوت على قطعة الارض القائم عليها حاليا # بناية البلدية وملك عمر أسعد العباس من الزيادنة .

ولما لم يكن لمسلمي الناصرة جامع يقيمون فيه فروض العبادة فقد اذن ظاهر للمسلمين بالصلاة في احد بيوت السراي والتأذين على سطحه ، واستمر الحال على ذلك الى ان بنى علي الباشا الخزندار احد مماليك الجزار الكبار وكتخدا سليمان باشا الكرجي (تولى عكا سنة ١٨٠٤ ـ ١٨١٩) سنة ١٨١٢ جامع الناصرة المعروف بالابيض والمئذنة بجوار سراي ظاهر من الجنوب واوقف له كرم زيتون وولى عليه الشيخ عبدالله الفاهوم قاضي الناصرة آنذاك .

وعلي باشا هذا هو الذي بنى جامع كفرتا وجامع شفاعمرو ورتب لهما اوقافا كافية . توفي علي باشا سنة ١٨١٥ ودفن في مقبرة النبي صالح في عكا وكان مثل

٣) صالح الاحمد ـ الرابوع في البيت الاخير اشارة الى السنة الهجرية ١١٤٤ . ويضيف صالح الاحمد قوله انه عندما باشر سعد كتابة هذا الشعر كانت يد خفية تمحو كلمة الجامع ،وتخط كلمة الدير الواردة في البيت الثاني، وبقيت كلمة الدير هي الغالبة.

سنة ١٩٧٩

سليمان باشا حليما عادلا ومحبوبا من الرعية ، وقد لعب دورا هاما في حياة الجليل في ذلك الزمن .

ومن الجدير بالذكر ان ابن علي باشا المسمى عبدالله باشا (تولى عكا سنة ١٨١٩ ـ ١٨٣١) هو الذي انشأ خان الناصرة المعروف اليوم بخان الباشا واوقفه على الجامع على يد قاضي الناصرة وقتئذ الشيخ امين عبدالله الفاهوم واخيه الشيخ داود . ومما يذكر ايضا ان حملة ابراهيم باشا المصري على سوريا وقعت في نهاية ولاية عبدالله باشا على عكا .

وعلى اثر بناء جامع الناصرة سنة ١٨١٢ اهملت سراي ظاهر العمر ، وظلت مهملة حتى خصصت تركيا الاقسام الغربية والشرقية منها لسكن اسعد بن عباس الظاهر واخيه حسين ، ثم استقل بها عمر اسعد العباس وبعض اخوته وانشأوا عليها الابنية الحالية المحيطة بجامع الناصرة . واما القسم الشمالي من السراي فقد اعد لعمل متسلم الناصرة ، وفي سنة ١٨٥٧ كان خرابا(٤) ثم انشأت تركيا عليه (ولعل ذلك في الستينات من القرن الماضي) سجنا ودارا للحكومة هي اليوم مقر بلدية الناصرة .

٤ ـ جامع عبلين :

بناه يوسف العمر اخو ظاهر سنة ١٧٦٧ واورخ بناؤه بشعر امحت آثاره منذ زمن بعيد . وهو :

لله بيت جامع نشرت به موقي الشعاير
انشاه يوسف مخلصا والله اعلم بالسراير
من آل زيدان الاولى شحنت بصنعهم الدفاتر
ارخ على التقوى تأسس والكمال جمال ظاهر

والتاريخ هكذا : « على التقوى تأسس » (اي شرع في بنائه) سنة ١١٧٨ هـ. الموافق سنة ١٧٦٤ ـ ٦٥ « والكمال جمال ظاهر » (اي اكمل بناؤه) سنة ١١٨٠هـ. الموافق سنة ١٧٦٦ ـ ٦٧

انشأ يوسف بعض التحصينات في القرية واحاطها بسور وتوفي فيها ودفن في

٤) يعقوب فرح ص ٨ ، منصور ص ٥٩ ، ١٨٦ ، ابراهيم العورة ص ١٦٥ .

الجامع ويعرف قبره اليوم بقبر يوسف .

٥ ـ الابنيـة في طبريـا:

سكن ظاهر في طبريا ما يزيد على عشرين سنة فرمم اسوارها القديمة وانشأ فيها خلال سني ١٧٣٦ ـ ٤٣ تحصينات جديدة منها برج او قلعة في شمال غرب المدينة وقد اقامه لمقاصد الدفاع ولا تزال آثاره باقية الى هذا اليوم .

في سنة ١١٥٦ هـ (١٧٤٣) بنى يوسف العمر مسجدا وهو المسجد المعروف اليوم بجامع الزيداني وقد نقش التاريخ الهجري فوق مدخله بالحجر وتحته كلمة « داود » ولعل داود هذا هو ناقشه .

وبنى صليبي بن ظاهر في طبريا السراي المعروفة اليوم بالصقرية ، بناها من اسلاب الصقر ، كما تقدم شرحه .

٦ ـ حيفـا الجديـدة :

كانت حيفا سابقا هي ما يسمى اليوم بحيفا القديمة . في سنة ١٧٦١ هدم ظاهر المدينة القديمة وبنى الى الجنوب الشرقي منها على سفح الهضبة المعروفة حاليا بالبرج مدينة جديدة امتدت من ساحة الخمرة غربا حتى البوابة الشرقية شرقا قرب تمثال فيصل حاليا ، ونقـل سكان حيفا القديمـة اليها .

والجدير بالذكر ان المدينة الحالية لا تزال تعرف حتى هذا اليـوم « بحيفا الجديدة » . احاط ظاهر المدينة بسور وعززه باربعة ابراج اضخمها برج «ابوسلام» وقد اقيم على كتف المدينة الجديدة من الخلف على هضبة تشـرف على الخليج ، ويعرف هذا المكان اليوم بالبرج نسبة الى هذه الانشاءات (٥) .

وانشأ ظاهر في حيفا سراي لعمله على ضلع السور المطـل على البحر ، وظلـت هذه السراي قائمة ومستعملـة كمركـز شرطة وسجن حتى هدمها في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وفي تموز

٥) ميخائيل ص ٤٥ ـ ويضيف هذا المؤرخ قوله : « وكانت حيفا القديمة من ولايتهم (اي الزيادنة) في آخر حدودهم فقام ظاهر واتى اليها وخربها وبنى قريبا منها بربع ساعة على آخر حدوده بلدا دعاها حينئذ «العمارة الجديدة» حتى غلب عليها بعد ذلك اسم « حيفا الجديدة » . ثم اقام فيها برجا وكان يقول انه فعل ذلك خوفا من القرصان الكفار كما ادعى هذا عندما اخذ عكا ... » ويقول المعلوف في هذا المعنى ص ٣٠٠ : « اما المدينة الحديثة (اي حيفا) فبناها ظـاهر العمر الزيداني سنة ١٧٦١ في وسط الجون على بعد نصف ساعة من المدينة القديمة شيدها من انقاض تلك وشيد حولها الابراج المنيعة » (انظر فصل ٥ ، باب ٧) .

سنة ١٧٧٥ بنى ظاهر على شاطىء البحر في حيفا الجديدة هذه جامع النصر المعروف بمسجد الجرينه ولا يزال المسجد قائما الى هذا اليوم على شارع الملوك . وبمناسبة بناء هذا الجامع اقام ظاهر حفلة كبرى على ظهر احدى السفن المرابطة في ثغر حيفـا قرب مكان المسجد واطلق على هذا المسجد اسم « مسجد النصر » وعين له خطيبا (اماما) ، وقيل ان عائلة الخطيب الحيفاوية المعروفة التي كانت تتولى امر هـذا المسجد يرجع اصلها الى ذلك الخطيب(٦) .

٧ ـ الابنيـة في عكـا :

بنى ظاهر اسوار عكا على انقاض التحصينات الصليبية وجعل فيها بوابتين : الاولى في الزاوية الشمالية الشرقية من السور والى الشرق من القلعة وتعرف ببوابة السباع او بوبة السراي لانها قريبة من قصره ومكان عمله في القلعة،والثانية جعلها في القطاع الجنوبي الشرقي من السور وعلى بعد نحو مائة متر داخل البوابة الحالية المنسوبة الى لجزار ، ومكانهـا معروف .

واما الاسوار الغربية المطلة على البحر فينسب بناؤها الى ظاهر العمـر او الى الصليبين ، وحصن ظاهر هذه الاسوار بالابراج العالية اشهرها « برج كريّم » في اقصى الشمال الغربي ، وبرج الحديد في وسطها ، وبرج السنجق في جنوبها وزودها بالمدافع . ومن برج السنجق هذا يتجه السور البحري شرقا فيمر بالميناء الحالي ثم يسير في اتجاه شمال شرقي الى البرج المسمى برج السلطان حيث يتصل عند خـان الشوارده بالسور البري داخـل البوابـة الحاليـة .

والجدير بالذكر ان تحسينات وترميمات كثيرة اجريت في الاسوار البحريـة عقب عهد ال[illegible]راهره ، ولهذا السبب بقيت اكثر هذه الاسوار قائمة وبصورة تثـير الاعجـاب .

واما الاجزاء الشرقية والجنوبية من السور البري فقد زالت تماما وذلك بفعل الترك وقلة الحاجة اليها خصوصا بعد ان بنى الجزار سلسلة اخرى من الاسوارخارج السور القديم عقب رحيل نابليون عن عكا سنة ١٧٩٩ ولم يبق قائما مـن السـور

٦) امين قاسم محمد امام مسجد الجرينه في حيفا .

القديم الذي بناه ظاهر سوى ناحية من القطاع الشمالي تمتد غربا حتى بناية السجن الحاضرة .

وبنى ظاهر قلعة عكا المشهورة في منتصف القطاع الشمالي من السور القديم (مكان السجن المركزي الحالي) وعمر في وسطها برج الخزنة وهو اعلى ابراج المدينة واوجها ، واصبح هذا البرج مقرا لمن جاء بعده من الحكام الذين اجروا فيه تحسينات وتحصينات كثيرة حتى ان سليمان باشا الوالي كان يجلس فيه هو وسائر بطانته ويختزن فيه امواله .

وبنى ظاهر في عكا جامع الجريته المعروف بجامع الرمل وخان الشونه ، كما انشأ السوق المعروف بسوق ظاهر العمر ، وموقعه بين بوابة السباع وباب السراي التي كان يسكن فيها ، وكان يوجد في هذا السوق نحو مائة وعشر دكاكين على الجانبين . والسوق مسقوف جمالون بخشب ، والدكاكين مسقوفة بخشب ايضا وفي آخر السوق من ناحية بوابة السباع سبيل ماء وفي آخره من ناحية السراي دكان صغيرة . كان يسكن بدكاكين هذا السوق العقادون (اي باعة الحرير) والخياطون وفي آخره السماجون (اي باعة السجاد) وفي اطرافه باعة مواسير الدخان والخردق والرصاص والبارود . والجدير بالذكر انه في عهد سليمان باشا اصاب هذا السوق حريق فهدم ثم اعيد بناؤه بالحجر من جديد وسمي بالسوق الابيض .

واجرى ظاهر ترميمات اساسية تناولت معظم انحاء المدينة واهمها الترميمات التي اجريت في خان الافرنج وغيره .

ومما يذكر في هذه المناسبة انه حين قدم نابليون بونابرت الى عكا سنة ١٧٩٩ اوقع الحصار على الاسوار القديمة التي بناها ظاهر العمر ، اما الاسوار المنسوبة الى الجزار التي ما زال بعضها قائما فقد بنيت بعد رحيل الفرنسيين عن عكا وبعد ان شعر الجزار من تجربته هذه مع نابليون بالحاجة الى وسائل دفاع اكثر متانة وضخامة مما كان في عهد ظاهر العمر ، وكان ما بناه الجزار عقب رحيل نابليون سلسلة من الاسوار وحفر امامها خندقا عميقا (٧) .

اكمل ظاهر بناء السور سنة ١٧٥١ كما يدل على ذلك الشعر الذي نظمه بهذه المناسبة الخوري نقولا الصائغ وهذا نصه :

٧) مخولي ص ٤٤ – ٩٠ ، ابراهيم العورة ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ابو عز الدين ص ٧١ .

سور منيع عاصم عكا فما ... تختال اذ قد عيلته الــدائر
ظاهر العمر الذي اشتهرت له ... بين البرية انعم ومآثر
من محاسنه فيرنو ناظر ... في حسن مبناه ويخسا ناظر
ثبت بناء الشيخ ظاهر عنوة ... انشاه تاريخ بناء ظاهر

والتاريخ هو ١١٦٤ هـ = ١٧٥١ .

وهنالك شعر آخر حفر فوق البوابة القديمة لشاعر مجهول ، وهذا نصه :

بأمر الله هذا السور قاما ... بعكا من فتى بالخير قاما
ابي الفرسان ظاهر المفدى ... اعز الله دولته دواما
فباطن بابه الرحمات فيه ... وظاهره العذاب لمن تعامى
وذا بالله صار حمى فأرخ ... بناك الله فخرا لا يساما

والتاريخ هنا سنة ١١٦٣ هـ = ١٧٥٠ .

والجدير بالذكر ان هذا الشعر الاخير كان قد عثر عليه في مكتب الحاكم التركي في عكا وذلك بعد ان احتل الحلفاء المدينة سنة ١٩١٨ ، ثم نقل هذا الاثر التاريخي الى المتحف الفلسطيني في القدس وهو الآن محفوظ هناك(٨) ، واغلب الظن انه لا يزال في مكانه حتى كتابة هذا الكتاب .

وقد مر بنا ان ظاهر العمر هو باني مدينة عكا ومجدد عمرانها وقد جعل منها اعظم الثغور على الساحل السوري ، وبعد ان كانت مأوى للقرصان وبضع مئات من صيادي السمك الفقراء اصبحت في عهده تضم اربعين الفا من السكان .

٨ ـ سراي شفاعمرو :

بنى عثمان الظاهر قلعة شفاعمرو المعروفة بالسراي سنة ١٧٦٨ وقد نقش هذا التاريخ شعرا فوق العتبة العليا للبايكة الوسطى من الطابق السفلي وهذه صورته:

قف على دار بها الحسنى تجلت بالزيادة
دارة البدر بها الليث استوى والعود عادة
شادها عثمان ذو الاحسان من اعطي السيادة
فانظر التاريخ سهلا هذه دار السعادة

٨) حيدر ص ٤٢ ، ميخائيل ٤٤ ، مخولي ص ٦٨ .

والتاريخ هو ١١٨٢ هـ = ١٧٦٨ — ٦٩.

ويعتقد ان الشعر من نظم عثمان نفسه . اعد الطابق السفلي من البناية ليكون اسطبلات للخيل والعلوي سراي ومسكنا لعثمان ، والبناية لا تزال قائمة في الناحية الجنوبية من القرية وهي اضخم اثر للزيادنة في الجليل ، غير ان الجهة التي نقش عليها هذا الشعر قد هدمت سنة ١٩١٠ وفقد هذا الاثر التاريخي(٩).

ومن ابنية الزيادنة المعروفة في الجليل السراي التي بناها علي الظاهر في مدينة صفد وتعرف اليوم « بالسراي القديمة » وقام علي ايضا بأعمال ترميم في قلعة صفد المشهورة واتخذها مكانا لسكناه وينسب الى علي ايضا بناء البركة المعروفة « بركة علي الظاهر » قرب الطابغة وعلى ضفاف بحيرة طبريا الشمالية ، وكان يستحم فيها ولا تزال آثارها باقية حتى هذا اليوم .

وينسب الى احمد الظاهر بناء قلعة تبنه في جبل عجلون والقلعة لا تزال قائمة. ويشير الباحثون والمنقبون الى قلاع وابراج اخرى كثيرة مبعثرة في نواحي مختلفة من البلاد السورية يرجع تاريخها الى عهد الضواهرة(١٠) .

---

٩) منصور ص ٥٣ .
١٠) هيد ص ٦٩ .

الفصل الثالث والعشرون

ظاهر العمر والمعاهد الدينية في الناصرة

١ – كنيسة البشارة للروم الارثوذكس :

كان الرهبان الفرنسيسكان عند قدومهم الى الناصرة في مطلع القرن السابع عشر يقيمون العبادة في خرائب الكنيسة الواقعة على عين الناصرة (مكان كنيسة الروم الارثوذكس اليوم) ولما شرع الروم الارثوذكس في استيطان الناصرة بعد ذلك قادمين من الشرق والشمال ، رحب بهم رهبان الفرنسيسكان واحتضنوهم واشركوهم في « المعبد الذي في المغارة في ديرهم الحالي وفي خرائب الكنيسة الواقعة على العين » لانهم كانوا في اشد الحاجة الى تكثير العنصر المسيحي في الناصرة(١) .

وفي مطلع القرن الثامن عشر كانت الناصرة مدينة صغيرة ثم اخذ سكانها منذ سنة ١٧٢٠ يتكاثرون شيئا فشيئا بفضل مبادىء « التسامح الديني » التي سار عليها ظاهر العمر واستتباب الامن في الجليل .

والجدير بالذكر ان الروم الارثوذكس الذين يكونون اليوم الاكثرية بين مختلف الطوائف المسيحية في المدينة ، كانوا في القرن الثامن عشر اقلية ضئيلة خاضعة لمشيخة دير الافرنج كل مدة ظاهر العمر وبضع سنين من عهد الجزار ، وترجع في شؤونها المحلية الى شيخ الطائفة اللاتينية في الناصرة المدعو يوسف الجريس شم يامين ترجمان الدير الذي تمتع بشيخة مسيحي الناصرة اربع وعشرين سنة في عهد الضواهرة . ومن بعده وفي اوائل عهد الجزار استقلت الطائفة الارثوذكسية بالمشيخة وتشيخ عليها رجال من ابنائها اولهم على ما ذُكر ، خليف ثم امطانس ابو علي ثم جريس اللحام الملقب بـ « خربّان » ، وجرجي الصيقلي ، وميخائيل قعوار سنة ١٨١٠ ، والياس قعوار سنة ١٨٢٣ ، وخليل الصيقلي سنة ١٨٣١ ، وسمعان الصيقلي سنة ١٨٤٦ ، واخيرا طنوس قعوار في اواسط القرن التاسع عشر وهو اول رئيس يتولى زمام بلدية الناصرة سنة ١٨٧٥ – ١٨٨٦ . وكان شيخ اسلام الناصرة

١) المعلوف ص ١٣٠ ، منصور ٤٦ ، ١٥٩ .

صورة عن حجة تسليم كنيسة البشارة للروم الارثوذكس في الناصرة الموقعة من ظاهر العمر

في اواخر عهد الظواهرة يسمى الشيخ سرحان واستمر في المشيخة خمس سنين اخرى في عهد الجزار(٢) .

ولما تكاثر الروم الارثوذكس في الناصرة وازداد عددهم مع الزمن اصبحوا يرون انفسهم اهلا لكنيسة ينفردون بها دون ان يكون لاحد حق في ان يشاركهم حقوقهم فيها . واخيرا وبعد فتن شديدة ثارت بينهم وبين الفرنسيسكان استقل الفرنسيسكان باثار كنيستهم وديرهم الحاليين ، واستقل الاورثوذكس بالكنيسة الواقعة شمال عين الناصرة والمغارة التابعة لها ، وهذه المغارة التي تضم بين جدرانها « بئر العذراء » هي من اصدق واوثق الآثار المسيحية في البلاد المقدسة .

غير ان هذا الامر لم ينه النزاع القائم بين الارثوذكس والفرنسيسكان على كنيسة العين وبقي في نفوس رهبان الافرنج نزوع شديد الى استعادة واستملاك خرائب هذه الكنيسة القديمة او اخراجها من ايدي الاورثوذكس على الاقل ، وقد نجحوا في ذلك اكثر من مرة بعد اصطدامات دامية وقعت بينهم وبين الروم الاورثوذكس . وظل الحال على ذلك الى ان سوي الخلاف بين الطائفتين نهائيا على يد ظاهر العمر في تشرين الثاني سنة ١٧٤١ وذلك بأنه رفع يد الفرنسيسكان عن كنيسة العين الخربة والمغارة التابعة لها وسلمها الى ابناء الطائفة الاورثوذكسية في الناصرة ولا تزال هذه الامكنة المقدسة في ايديهم حتى هذا اليوم ، وكان ذلك على الوجه التالي :

في اواسط شهر رمضان سنة ١١٥٤ هـ (تشرين الثاني سنة ١٧٤١) قدم الى الناصرة صفرونيوس مطران الروم الارثوذكس في عكا يرافقه قنصل الانكليز المدعو جان بادينو والراهب حنانيا ترجمان دير الروم في القدس من جانب الطائفة الارثوذكسية وعرضوا على الشيخ شكواهم ضد رهبان الافرنج بسبب استيلائهم مؤخرا على معبد الروم القريب من عين الناصرة ، وطلبوا من الشيخ ظاهر ان يرفع يدالفرنسيسكان عن هذا المعبد ويعيده اليهم . وعندما اقتنع ظاهر بحججهم اخرج معبد العين من يد الفرنسيسكان وسلمه بمفتاحه الى المطران صفرونيوس مع تعليمات خاصة بشأن خوري الطائفة وحرية العبادة وغير ذلك كما يتضح من مضمون

٢) منصور ص ٢٩٧ ؛ يعقوب فرح ص ٥ ــ ويقول ايضا : بلغ عدد سكان الناصرة من الارثوذكس سنة ١٨٥٧ (٢٥٠٠) نسمة .

الحجة التاريخية الموقعة من ظاهر نفسه والتي تحررت في حينه وهذا نصها :

« سبب تسطير الاحرف انه في اواسط شهر رمضان المبارك من شهور سنة ١١٥٤ حضر الينا للناصرة الراهب حنانيا ترجمان دير الروم بالقدس الشريف مع الراهب صفرونيوس مطران عكة ووكيلهم قنصل الانكليز جان بادينو من جهة كنيسة الروم التي في الناصرة لكي ترجعها اليهم ونستخلصها لهم بموجب الفرمانات الشريفة والعهود النبوية المنيفة التي بيد الروم كما جرى منذ الفتح الخاقاني اعزه الله تعالى وان تأخذها لهم من يد رهبان الافرنج الذين كانوا باطلا اختطفوها منهم لاجل اغراض وفتن صارت بينهم فلما وقفنا على حقيقة الاوامر الشريفة والمواثيق المنيفة التي بيدهم على اماكنهم استرجعنا اليهم الكنيسة التي لهم في الناصرة للروم وسلمناها بمفتاحها ليد صفرونيوس مطران عكة في ان تكون الكنيسة تحت يده في الناصرة وان يسكّن كاهن او خوري الذي يريده المطران الروم وان يكون للخوري بيتا للسكنى في الناصرة والحماية منا مثلما كانوا الخوارنة الذين من القديم ويصلي في الكنيسة التي للروم بلا مانع والذي يشاء مطران عكة الروم من القسوس هو يضعه ولا عليه من ذلك مانعا عند صلاته في الكنيسة مع كلمن حضر عنده في صلاته من النصاره الروم من اينما كانوا وعليهم منا ومن الله الامان والرأي» .

صاهر عمر العمر

هكذا ورد توقيع ظاهر ، قد يكون بالصاد وقد يكون بالضاد ، واما ما يسترعي الاهتمام ان « العمر » مكررة كما هي مكررة في الاسم الذي اطلقه الامير حيدر على عمر والد ظاهر كما ورد ذكر ذلك في الفصل الاول من الكتاب . وبهامش هذه الحجة التاريخية اضيفت الفقرة التالية لاستدراك بعض الامور :

« من غير ممانعة بوجه من الوجوه ولا تقبل على الروم ولا كنيستهم ابدا زيادة من احد ابدا نحن واولادنا بعدنا جيل بعد جيل مثلما كانوا في حماية ابائنا المرحومين وكلمن شا واراد من اهل البلد الناصرة ومن خارج ان يصلي في كنيسة الناصرة التي للروم عند خوري الناصرة لا احد يضاده ويدافعه عن ذلك بوجه من الوجوه ابدا من حكام البلد وعلى هذا جرى الامر بالتأكيد في التاريخ المحرر اعلاه يشهد الله ورسوله على صحة كلامنا هذا معهم وعهدنا الصادق الذي عهدناه اليهم

والســلام » (٣) .

شرع في بناء الكنيسة الحالية سنة ١٧٥٠ وتم بناؤها سنة ١٧٦٢ (٤) ، وقــام بانشاء الايقونسطاس رجل من مدينة مايسطو (اي ماليتوس) في اليونان يسمى اندريا وتركب مكانه في الكنيسة سنة ١٧٦٦ كما يظهر ذلك من التاريخ المنقوش في وسطه ، وهو مصنوع من الخشب المزخرف الثمين ويزيد طوله على عشرة امتار وعلوه على مترين ونصف .

اشترك في بناء الكنيسة من كهنة الناصرة الخوري خليف والخــوري جرجس النجار المعلوفي وولده الخوري يوسف ، وهذا الاخير كان من المقدمين عند ظاهر العمر . وبنى الكهنة درجا لمغارة الكنيسة وكانوا يسرجونها كل ليلة(٥) .

والجدير بالذكر انه بازدياد نفوذ الفرنسيين في البلاد المقدسة ازداد نفــوذ الكهنة الفرنسيسكان لدى ظاهر مما حمله على ان يجعل للناصرة طـابعـا مسيحيا خاصا ارضاء لاصدقائه الفرنسيين ـ حماة الفرنسيسكان ـ الذين كانت تربطه بهم روابط تجارية كبيرة . ولذلك لم يأذن ظاهر لمسلمي الناصرة ببناء مسجد لهم في المدينة ولم يرسل مفتيا اليها(٦) ومع ذلك لم يعدم مسلمو الناصرة مكانا للعبادة بل كانوا يقيمون الصلاة في احدى قاعات سراي ظاهر ويؤذنون على سطحها(٧) .

٣) من تدقيقي للحجة الاصلية وجدت انها مكتوبة بالحبر الاسود على ورق سميك والختم صغير الحجم مطبوع على الحجة من الخلف فوق التوقيع مباشرة. وكانت العادة قديما ان يكون ختم الرضا من خلف الوثيقة وختم الغضب من الامام . نلاحظ قول ظاهر في الحاشية « ولا تقبل على الروم ولا كنيستهم ابدا زيادة من احد ابدا نحن واولادنا بعدنا جيل بعد جيل ... » . يــدل هــذا الكلام على ان الشيخ ظاهرا تعهد في مقابل ما دفع له الروم الارثوذكس من مال بان لا يخرج هذه الكنيسة من ايديهم حتى ولو دفع غيرهم مالا اكثر مما دفعوه ، وفي ذلك اشارة الى رهبان الفرنسيسكان الذين كان بامكانهم دفع مبالغ اكثر مما دفعه الروم ليستولوا بواسطة المال على هذا المعبد الاثري الهام . هذا عهد قطعه ظاهر على نفسه وعلى من ياتي بعده . ونلاحظ ايضا اشتراطه في الحاشية حرية العبادة في الكنيسة لكل من اراد العبادة فيها سواء اكان من الناصرة او من خارجها .

٤) يعقوب فرح ص ٣ ، وسنة ١٧٦٣ حسب بريك ص ٧٥ .

٥) المعلوف ص ١٢٩ ، ٦٧٤ .

٦) هيد ص ٨٠ .

٧) يعقوب فرح ص ٨ .

٢ ـ كنيسة الكاثوليك

كان كاثوليك الناصرة في الاصل من ابناء الطائفة الاورثوذكسية لكنهم تخلوا عن مذهبهم الاورثوذكسي ، وذلك للاسباب التالية :

كان جبرائيل عبد المسيح الحندوسي احد كهنة الروم الاورثوذكس ، ولسبب ما انشق هذا الكاهن مع فئة من اتباعه حوالي سنة ١٧٤٠ عن طائفتهم الاورثوذكسية وتمذهبوا بالمذهب الكاثوليكي . وسند رهبان الفرنسيسكان الخوري جبرائيل الحندوسي في نزاعه مع الروم الاورثوذكس واستولوا بواسطته على معبد العــين وانتصوا عنه الروم الارثوذكس مدة من الزمن . ولم يطل الزمن حتى عاد الخوري جبرائيل الى مذهبه الاصلي وهو الاورثوذكسي وبعودته الى مذهبه عاد معبد العين الى الطائفة الاورثوذكسية واضحى الكاثوليك البالغ عددهم (٢٢٠) شخصا الذين اقاموا لهم كاهنا آخر يسمى عيسى العياش بدون معبد خاص بهم ، الى ان وضعوا ايديهم بعد مدة طويلة من الزمن باذن من الشيخ ظاهر على المكان الذي كان يعرف وقتئذ « بالقاعة » او « المجمع » ، فرمموه وحولوه الى معبد(٨) ، وكان ذلك على الوجــه التــالي :

كان الاب برتوريوس رئيس دير الفرنسيسكان يدعي ان هذا المكان المعروف « بالقاعة » هو ملكهم وانه هو الذي حصل عليه من ظاهر وبعد ان تـم له ذلك اذن للروم الكاثوليك بالعبادة فيه مؤقتا لعدم وجود مكان آخر يصلون فيه بعد طردهم من معبد العين على ايدي كهنة الروم الارثوذكس ، وانه ـ اي الاب برتوريوس ـ اذ اذن للكاثوليك بالعبادة في قاعة المجمع فانه لم يأذن لهم باحتلاله وامتلاكــه . في حين كان الروم الكاثوليك يدعون ان هــذا المكان هــو ملكهــم وانهــم هم ، لا الفرنسيسكان ، الذين حصلوا عليه باذن من ظاهر (٩) .

وهكذا نشب بــين رهبان الافرنج والروم الكاثوليك خلاف شــديد استمر ما يزيد على عشرين سنة الى ان تدخل في هذا الخلاف لصالح الروم الكــاثوليك

٨) يعقوب فرح ص ١٢ ، منصور ص ١٦٩ ـ حمولة حندوس او حنادسة (الخوري جبرائيل الحندوسي اشهرهم) هي اليوم من اكبر الاسر المسيحية في النــاصرة بعضهم اورثوذكس وبعضهم كاثوليك ، ويعود سبب ذلك الى الانقسام الــذي نتحدث عنــه .

٩) منصور ١٧٠ .

الكاهن سمعان الصباغ وقريبه ابراهيم الصباغ ، وزير ظـاهر ، الكاثوليكيين . فتقرر تعاليا سنة ١٧٦٩ بأمر من ظاهر بأن يكون موقع القاعة او المجمع معبدا خاصا بطائفة الروم الكاثوليك في الناصرة(١٠) . وفي سنة ١٧٧١ صادق مجمع انتشار الايمان المقدس في روما على ما اقره ظاهر العمر واصبح هذا المكان بعد ذلك التاريخ معبدا خاصـا بكاثوليك الناصرة (١١) ؛ وفي سنة ١٨٨٧ انشأوا بجانبه كنيستهم الحـاليـة .

٢ ـ كنيسة الموارنة :

كذلك يرجع الفضل في وجود كنيسة الموارنة في الناصرة الى ظاهر العمر كما يشهد بذلك الامر الصادر من ظاهر نفسه والمحفوظة صورة عنه في سجلات الكنيسة القديمة التي ترجع الى ذلك العهد ، ويسجل ذلك كما يلي :

عندما اتجهت النية الى توحيد طائفة الموارنة في الناصرة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر رسم البطريرك الماروني يوسف العسطاني الخوري لويس ليكون كاهنا للطائفة في الناصرة . ولما جاء الكاهن الجديد الى الناصرة شعر بحاجة شديدة الى كنيسة لابناء طائفته ، فاتصل بابراهيم الصباغ ، عن طريق البطريرك العسطاني والتمس منه ان يتصل بظاهر ويرجوه ان يمنح طائفته في الناصرة ارضا يبنون عليها كنيستهم ويقيمون فيها شعائرهم بحرية ؛ ونتيجة لهذه المساعي اصدر الشيخ ظاهر الامر التالي وتسجل في حينه في سجل الكنيسة المارونية وهذه صورته :

البـاعث لتسطيره

قد صدر ابراز امر افندينا ضاهر عمر

اننا سمحنا الى اخوانا نصارة الناصرة الموارنة انهم يجيبوا لهم خوري من طائفتهم ويستقيم عندهم في مكان مخصوص يجمعهم فيما يخصهم ويخص امور دينهم وذلك لاجل تصييد احوالهم كونه ضروري لهم وحورنا ذلك بيدهم من طرفنا

١٠) سجل كنيسة الموارنة ـ في هذا السجل فقرة تتعلق بكنيسة الكاثوليك تقول : « فاتفق ان اخوانا طايفة الكاثوليكيين بعد هذا الصدد اتخذوا لهم مكانا اي الكنيسة المدعوة مدرسة المخلص حيث كان (السيد المسيح) يعلم الجموع وذلك بامر افندينا الشيخ ظاهر سنة ١٧٦٩ .

١١) منصور ص ١٧١ .

والخوري الذي يستقيم عندهم لا يشاهد من طرفنا الا المليح . حرر ٢ جمادى سنة ١١٨٤ هـ . والتاريخ هو تشرين الاول سنة ١٧٧٠ .

الشيخ ضاهر عمر

وفي هذا السجل فقرة تشيد بالجهود الجليلة التي بذلها « ابراهيم بو حبيب الصباغ » في سبيل الحصول على هذا الامر ، فتنص هذه الفقرة في جملة ما تنص على : « ان ما صنعه ابراهيم الصباغ لا يصنعه ابناء الموارنة انفسهم » .

وبنيت كنيسة الموارنة في الحارة الغربية من المدينة وتكرست باسم مار انطونيوس سنة ١٧٧٤ بواسطة الخوري ونظوره الوكيل البطريركي(١٢) .

هذه امثلة تشهد على ما اتصف به ظاهر العمر من تسامح ديني لحرصه على اطلاق حرية العبادة لكافة مواطنيه وتوفير الكفاية الروحية لهم في زمن تنكر لهذه المبادىء السامية .

١٢) منصور ص ١٧٦ .

الفصل الرابع والعشرون

طرائف وعبر

يا زيادنة ربت الموت ما يراكم
يا سباع البر يا مبيض ثناياكم
تمرقوا عالجرد والجرد يـابس
يخضر الجرد من ريحة هواكم(١)

بمثل هذه الاغنية كان الناس يهتفون لمشايخ الزيادنة عند ذهابهم الى الحرب وعند عودتهم منها .

نظر ظاهر يوما من طاقة قصره فرأى امرأة جميلة كلما مال نظره الى ناحيتها فتحت طاقة منزلها ليراها ويعلقها ، فارسل دعـا اليه رجلها وكان مسلما وقال له من اين انت ؟ ، اجاب : من عكا ، فقال له ظاهر : من اين متزوج ؟ اجاب : من اهلـي ، فقال له ظاهر : حاشى ان يكون اهلك من عكا وانا اعرف اهل عكا كلهم بعدوا عن كل شين ، فاصدقني القول ممن اهلك ؟ اجاب الرجل : من اهلي ولكنهم ولـدوا وتربوا في الشام . فقال ظاهر : هو ذلك ، ثم قال له : وحياة رأسي يا رجل ليس لك اقامة في عكا اكثر من اربع وعشرين ساعة مهلة لتجهز فيها حالك وتخرج من بلادي الى اي بلد شئت لان امرأة واحدة فيها كفاية لان تفسد الوفا . ومضى الرجـل وجهزّ امره وخرج بأمرته من عكـا (٢) .

وقام ظاهر يوما صباحا فسمع في البلد ضجة قوية فانزعج لهأ فتسلح وركب باثنين من عبيده ونزل الى المدينة ليرى الخبر ، فوجد قوما حاملين نعش ميت وهم يركضون في الشوارع ويقولون طار يا لعظم ايات الله في اوليائه . فسأل ظاهر مـا هذا . فقالوا له ان الشيخ الفقي مات ونحن اخذون له الى القبر ، وبعد ان نسلناه وكفناهّ وصلينا عليه فهو يطير منا لانه ولي . استل ظاهر سيفه ودخل بين القـوم

١) زبيـده صيقلي معمر عن عقيلة الحاج ظاهر اسـعد العباس .
٢) ميخائيل ص ٥٦ .

وأمر حاملي النعش ان يضعوه فوضعوه ، ثم التفت الى القوم وقال لهم : يا اعداء الله اهذه خزعبلاتكم ؟ ، اروني طيران وليكم ؟ وكيف يجوز لكم ان تجعلوا من دين الله ومذهبه كذبا وزورا ، فاقسم بالله ورسوله ان علمتم مثلها لاحرقن ميتكم واقتل اتباع نعشه . ثم امر بعض رجاله ان يحملوا الميت ويمضوا به ويدفنوه . (٣)

وطاف ظاهر وحده يوما في ازقة عكا فوجد انسانا عريانا والقوم يقبلون يديه تبركا . فسأل احدهم ، فقال له : «هذا ولي» . رجع ظاهر الى قصره وارسل دعا اليه القاضي والامام وبعض اشراف عكا ، ثم احضر العريان والتفت الى القـاضي وسأله ، في اي سورة من القرآن الشريف او في اي حديث اجـازوا كشف العورة والمشي في الاسواق هكذا ؟ فقال له القاضي ه الامر بالخلاف فانهـم منعوا كشف العورة وامروا بسترها ولكن هذا الرجل وليّ مسلوب العقل . سألـه ظـاهر : ايعلم مسلوب العقل الماضي او يدري الآتي ؟ اجاب القاضي : لا .

قام ظاهر من مجلسه وهو مجرد سيفه واتى العريان ومسكه بيده وقال لـه : وحياة رأسي يا رجل اذا لم تصدقني فيما اسألك ضربت عنقك بالسيف . قـال لـي أمس مـاذا كـان ؟ .

ـ الخميـس .

ـ وغـدا مـاذا يكون ؟

ـ السـبت .

فالتفت ظاهر الى القاضي وقال له : ايعلم مسلوب العقل هذا ؟ . فقال القاضي لا . فعند ذلك أمر ظاهر فضرب العريان . وارسل فنادى في كل بلاده ان كل من يوجد في الطريق بهذه الصورة يقتل ولا شفاعة له عنده . (٤)

واخبروا عن ظاهر انه كان يركب في شوارع عكا ، فاذا وجد فقيرا يسألـه الاحسان كان يأمر وزيره باعطائه ثلاثة او اربعة اكياس . واتفـق يوما ان قـابلته سائلة فأمر لها بكيس واحد ، وكان برفقته وزيره ابراهيم الصباغ فاسرع وجهز له بالف قطعة ما بين عشرات وعشرينات وثلاثينات واتاه به ووضعه امامه . فقـال له ظاهر : ما هذا يا ابراهيم ؟ ، فقال له هذا الكيس الذي أمرت بأن أدفعه للسائلة .

٣) ميخائيل ص ٥٨ .
٤) ميخائيل ص ٥٧ .

فقال له أكل هذا كيس واحد ؟ ، فقال نعم فقال له ظاهر يكفيهـا منه ربعه أو نصفه والنصف الثاني تدفعه لها مرة ثانية ، وما عدت آمر بهذا القدر لاني اعرف العدد ولا اعـرف المبلـغ •

وبعد هذا رتب ابراهيم مبلغامن المال ليوزعه احسانا شهريا على جميع الفقراء ويمنعهم من السؤال في الشوارع ورتب لكل فقير في عكا شهرية • (نوع من انواع التأمين الوطني الذي نعرفه اليوم) واذ خرج ظاهر مرة لصلاة الجمعةولم يجد احدا من الفقراء يسأله حسنة ، سأل ابراهيم عنذلك فقال له يا مولاي الشيخ رتبنـا لهم راتبا شهريا لمنعهم من السؤال في الشوارع • فقال له ظاهر لا تفعل هذا يـا ابراهيم واسمح لهم ان يسألوا ، والله اني لا اتبرك الا في اليوم الذي اخرج فيه من قصري وارى سائلا يسألني الاحسـان • (٥)

كان ظاهر ذا فطنة وفراسة غريبتين بحيث كان لا يرى احدا الا وعرف مـا بحدثه به نفسه • اتفق يوما انه لما كسر ظاهر عثمان باشا والامير يوسف في صيداسنة ١٧٧٢ ورجع الى عكا منصورا والمدافع تطلق شنك(٦) دخل قصره واسـتلقى على فراشه جاعلا احدى رجليه على اختها وكانت الشبابيك مفتوحة والجو حارا • فلما ارتاح قليلا مال بنظره الى ناحية ، فرأى القبجي السلطاني الذي قدم لزيارته لشأن من الشؤون ينظر اليه من خلال الشبابيك ، فعرف ظاهر ما كانت تحدثه به نفسه • دعى ظاهر اليه احد رجال حاشيته الذين يحسنون التكلم باللغة التركية وقال له : اذهب وقل لحضرة الاغا : اني لست كما تحدثه نفسهقـد اخذني الكبر والعجب بسبب انتصاري على عثمان باشا والدروز حتى جلستهكذا رافعا رجلي الواحدة فوق الاخرى ، لا والله وتربة سعد بل سبب ذلك التعب من الركـوب والـم داء البواسير ، وصار لي اثنتا عشر ساعة ما تركت ظهر جوادي فرفعت رجلي الواحدة على الاخرى لكي ارتاح من الوجع قليلا • فلما مضى الرجل وكلـم الاغا بذلـك تعجب الآغا وقال اشهد ان لا اله الا الله لا شريك له، فكيف يعرف هـذا الشيـخ احـاديث النفس والضمـائر(٧) •

كان ظاهر حريصا على اقرار الامن في البلاد وتأمين سلامـة المسـافرين في

٥) ميخائيل ص ١٥٣ •
٦) شنك كلمة تركية معناها اطلاق المدافع بمناسبة الفرح •
٧) ميخائيل ص ١٥٥ •

الطرقات من ذلك انه ارسل يوما امرأة جميلة الشكل من قرية البصة الساحلية لابسة حليها لتطوف وحدها في البلاد ، وبعد ان طافت في البلاد عادت الى ظاهر واخبرتـه عمن اعترضها في الطريق وهما اثنان : الاول من المغاربة وقد سألها اذ وجـدهـا بمفردها ، الى اين قاصدة ، فأحضره ظاهر وامر به فشنق خارج عكا امام البوابـة وقال له هذا جزاء من يعترض ابناء السبيل • والثاني من عرب الصقر وقد اعترضها فـي الطريق قرب الناصرة فأحضره اليه وقال له يا ابن الفاحشة اما نهيتكم مرارا عـن اعتراض ابناء السبيل في البلاد التي في حكمي • ثم امر به فشنق • وكان هذا دأبه مع الجميع(٨) •

كان ظاهر قبلة القصاد واصحاب الظلامات : من ذلك انه بعد ان توفي الامير حيدر الحرفوش المتوالي حاكم بعلبك حكم اخوه مصطفى مكانه فاغتاظ الامـير درويش الحرفوش ابن الامير حيدر المتوفي لانه كان يرى نفسه احق بالولاية عـلى بعلبك من عمه مصطفى • فقصد درويش الى يوسف الشهابي وترامى على قـدميه مؤملا ان يفوز بالولاية على بعلبك بمبادرته فأبى الامير يوسف مساعدته قائلا له : « ان عمك مصطفى اهل للحكم اكثر منك » • توجه درويش الى عكا وترامى على ظاهر العمر ونتيجة لتدخل ظاهر في هذا الخلاف جرى تقسيم اقليم بعلبك بين الامير مصطفى وابن اخيه درويش اكراما لخاطر الشيخ ظاهر (٩) •

كان ظاهر كثير البر والعناية بأهله وذويه ويلاحظ امورهم كما كان شديـد المؤاخذة لهم على هفواتهم • لم يكن ظاهر يحب ان يتزخرف احد في لباسه امامه او يتبختر في مشيته • وكان صموتا لا يتكلم الا لحاجة وما رآه احد مازحا اوضاحكا او ماجنا وما سمع عنه كلمة فاحشة في اي امر من الامور • ولـم يكن يستفزه لا الفرح ولا الحزن ولا الخوف • وكان يقول عن نفسه : اني الوم نفسي لخفتهـا اذ استفزني الخوف حينما انتظرت قدوم الغز (اي المماليك) ولم يحضروا واستفزني الفرح حينما حضروا ، فأرسلت الى عثمان باشا اخبره بقدومهم فرحا ومهددا له••• استغفر الله منهـا كلهـا(١٠) •

كان ظاهر شديد الهيبة شريف النفس كثير الحياء ولم يكن يرفع بصـره الى

٨) ميخائيل ص ٥٥ •
٩) حيدر ص ١٠٦ •
١٠) انظر فصل ١٠ باب ٤ •

امرأة او يطيل النظر اليها ، وكان يحافظ على العرض اشد المحافظة فمن كان يسيء الى امرأة كان عقابه الموت فورا وكذلك كان يكره الخمر وشاربه ، ويقـول انـي اعجب لعاقل كيف يسمح له عقله بأن يشرب جنونـا .

كان ظاهر فارسا شجاعا لا يهاب الموت شديد البأس لين الكلام جوش الصوت فصيح النطق ويحب الشعر والشعراء وكان يقرأ الا انه لم يكن يحسن الكتابـة ، وكان مجلسه وقورا وجليلا لا يجري فيه شيء من المجون وذكر النساء .

كانت حياته البيتية مثالا في البساطة والتواضع فلباسه كان خاليا مـن كـل زخرفة وفخفخة وطعامه مثل اي مزارع حسن الحال . لقد حافظ على عادات البدو في المآكل والمشرب فلم يكن يضع في اصابعه الخواتم او يزين نفسه على عادة اهـل ذلك الزمان . كان يتناول فطوره في الخامسة صباحا ولا يأكل غير الدجاج ومرقـة الفراخ صباحا ، وكان شربه الماء الصرف الخالص الا انه كان احيانا يمزجه بقليل من السكر . وكانت هوايته تربية الخيول الاصيلة وكان لديه طائفة نادرة منها ولم يكن يبخل بأغلى الاثمان في سبيل الحصول عليها ، وبلغ ما دفعه ثمنا للفرس الواحـدة يوما ٨٢٠ ليرة انكليزيـة(١١) .

احب ظاهر النساء وقد تزوج منهن بست وكلهن له منهـن اولاد الا نفيسـة الشريفة وهي الاولى وقد ماتت من غير ولد ، وتمتع ظاهر بجاريتين الاولى جركسية وتوفيت بحياته والثانية كرجية المسماة « عيشة » وقد تقدم الكلام ا . وكـان اولاده ثمانية وهم صليبي وعثمان وسعيد وعلي واحمد وصالح وسعد الدين وعباس وهو اصغرهم . وكان علي اكثر اخوته شبها في الصورة والاخلاق بأبيه ؛ وعبـاس يشبه اباه ايضا بالصورة . قيل في ظاهر هذا الشعر :

صباح الخير يا بو وجه بانس
وحسه في ظلام الليل يـانس
ما دام ضاهر في الديوان جالس
على السلطـان مردود النقـى

* * *

(١١) ميخائيل ص ١٥٧ ، فولني ج٢ ص ١١١ .

عرب واتراك جونـا صايلينـا
من استنبول جونـا صايلينـا
ابو صليبي يا حماية الصايلينا
عندما تصيح لـيلى يـا عراب

وليس ادل على تردي هيبة الدولة العثمانية وتشوق العرب الى قتالها وازدرائهم لجنودهـا من القصة التالية :

ذات يوم كان علي الظاهر متوجها الى صفد بصحبة فريق من رجاله وعبيده . رأى احد العبيد صبية جميلة تشتار عسلا من كرم عنب بجانب الطريق فأعجب العبد بجمالها وانشد لهـا يقـول :

صـاح محمد العابد دوا لـي
وقطوفه رابيـه بظـل الـدوالي
ربتك يا نحل عسكر دولـي
تنطحـك قـدام حلواة العصابا

فأجابت الصبية تقول :

صفـد يا عالية وبراس تلـة
وعلي يا عقدة العسرة يحلهـا
ما ضني العدى توطي محله
ما دام الشيخ علي رجله بالركـاب (١٢)

ويبكي مشايخ الزيادنة ما آل اليه امرهم بعد انصرام دولتهم ، لكنـه بكـاء بدون دموع ولا خنوع ولا استسلام ، فينشد شاعرهم هذه الابيات المشهورة :

علينـا دلل الدلال يـا جـواد
وعفنـا بلادنا من الظلم يا جـواد
لا رجال تكيد الرجـال يا جواد
ولا مـال يفك مـن العـذاب

* * *

١٢) محمد عبد العزيز عمر ـ يتمنى العبد لو كان هذا النحل عسكر دولة حتى يبطش به امام هذه الصبية الجميلة ، فاجابت تقول : لا اظن ان الترك يستطيعون الوصول الى صفـد ما دام علي الضاهر على ظهر الجـواد .

علينا ما علينا ما علينا
ترك واكراد التمت علينا
كنا بسور ومسيج علينا
انهد السور وداستنا العدى (١٣)

ويشكو مشايخ الزيادنة حالهم الى الشيخ فاضل المزيد امير الجولان ويتحسرون على ايام عزهم الغابر ، فينشد شاعرهم :

بظهور الخيل يا فاضل حملنا
وعلى الدشمان يا مثقل حصلنا
خسارة ديرة كانت حمى لنا
غدت ميدان لخيول العدى (١٤)

ويرثي شناعة امريح الزيادنة في قصيدة طويلة اقتطف منها ما يلي :

لي قلب يا مير هانا والضمير هناك — خليتني يا زمان بين بينيني
جرعتني كاس حنظل بعد كاس هنا — وخليت عندي بدال الهم هميني
ويحك على الله من رب العباد جزاك — يا اللي تقول الدهر ما فيه تلويني
والله يا دارهم من بعدهم لجفاك — لو كان يا دار حيطانك معاديني
يا دهر ما لك اخذت الغانمين جزاك — انت الذي في جبال الهجر تلويني
باقت بهم ليش ما باقت بقوم اتراك — ترضي وجوها عوابس بعد سحيني
يا خالقي ردهم ليلة ودير فلاك — ويكون عنهم ليالي النحس وليني(١٥)

وينشد الشيخ شناعة ايضا :

بعد يومين يا عليا تشوفي — طبول وحولها زعق النفيري
تبري للطبول اربع عساكر — بعثمان السخا واحمد اميري

في هذا الشعر لا يبكي شناعة مشايخ الزيادنة بل يتهدد الجزار ويقول : ان اربعة جيوش من العسكر ترافقها الطبول وعلى رأسها عثمان واحمد ولدا ظاهر تزحف الى عكا للاخذ بثأر ظاهر العمر . ظل هذا الشعر ينتقل من شخص الى آخر

١٣) يوسف الطاهر وجريس عزام .
١٤) ابو حمد شمدين .
١٥) جريس عزام — باقت بهم اي نزلت بهم المصائب . معاديني اي المعادن الثمينة كالذهب وغير ذلك .

حتى اتصل خبره بالجزار ، فأرسل جنوده ليأتوا له برأس الشاعر(١٦) .

وشق على الزيادنة واتباعهم العيش الذليل الذي لاقوه في عهد الجزار فقال احدهم هذا الشعر :

بعد ما كنا الجيره مثل الخاتم بالديره
صرنا نطلب الجيره من احمد باشا الجزار (١٧)

وقيل في زوال حكم الزيادنة هذا المثل المشهور : « للضواهره ما دامت » .

بعد ان تشتت شمل الزيادنة واتباعهم عقب مقتل ظاهر العمر وذاقوا مرارة التشريد والعيش الذليل خارج بلادهم سنين عديدة ، قدم جماعة منهم الى عكا وطلبوا من احمد الجزار حاكم البلاد ان يصفح عنهم ويسمح لهم بالعودة الى ديارهم . استجاب الجزار لطلبهم بعد تردد طويل شريطة ان يلتزموا الهدوء ويحصروا سكناهم في قريتين من قرى الجليل هما كرمندا في قضاء الناصرة والدامون في قضاء عكا وذلك حتى لا تتاح لهم فرصة الاختلاط بأنصارهم في القرى الاخرى واثارة السكان على الدولة العثمانية من جديد .

لم ينل قرار الجزار رضا مشايخ الزيادنة فخرجوا من لدن الجزار ساخطين ناقمين وقال احد شعرائهم هذا الشعر :

علامك يا دهر مايل علينا
وقلوب الضد مليانه علينا
علي لو دري بالجاري علينا
تململ باللحد تحت التراب

وقال آخر :

انا لابكي بكى المحزون على بناه
بكى على بكاي جار الجار وبناه
على قصر سيسوه الخلان وبناه
حسيفه ما قعدنا بو سنة

١٦) جريس عزام .
١٧) محمد ابراهيم الجابر .

وقـال آخر :

يا ناموا نومة الورّق عـلى الماي
يا دمعي يشبه الطرفه على الماي
يا اجـير بها الوقت صار معلماي
كريم ونرتجي منـه العطـا (١٨)

واخيرا قبل مشايخ الزيادنة بما عرض عليهم مرغمين وعادوا الى القريتين اللتين خصصتا بهم • ويشعر العائدون بالذل والغربة في بلادهم بعد عودتهم ، فينشـد شاعرهم بغضب طاعنا في العهد الجديد وواصفا اياه بالعزلة والقذارة :

علام القرد يا ديره حجـل بيـك
قبل كنت ديرتنا وانحجل بيـك
صرت مثل صخرة بوعره والحجل بيك
دايم دوم في ارض الخـلا •

وينشد ايضـا :

غضب وانصب يا ديره وحل بيك
قبل كنت منوحتنـا واحـل بيك
صار اليوم يا ديره وحل بيـك
تقرفـي اللي ثيابـه مطهره (١٩)

والجدير بالذكر ان الزيادنة الذين استقروا في قرية كفرمندا لا يزال احفادهم يعيشون فيها حتى هذا اليوم • واما زيادنة الدامون فقد هجروا قريتهم الجميلة عام ١٩٤٨ بسبب الحرب وهم اليوم لاجئون في كثير من البلاد والقرية هـدمت عـلى

١٨) حبيب ابو النصر ، عن عوده ابو حاطوم ـ الضد معناها العدو • علي هـو علي الضاهر • القصر هو سراي شفاعمرو • حسيفه من حسف وهي هنا بمعنى التحسر على فقدان هذه السراي • يا ناموا نومة الورق على الماي اشارة الى ظاهر واولاده. الطرفه هو نبات • عبارة يا اجير بها الوقت صار معلماي اشارة الى الجزار الذي خدم عند الزيادنـة مـدة •

١٩) محمد الشموط ـ منوحتنا هي بمعنى مصدر رزقنا ، والمنوحه تطلق على ما يـدر اللبن والحليب •

بـكرة ابيهـا (٢٠) •

هذه الرواية توضح لنا السبب في استيطان مشايخ الزيادنة لهاتين القريتـين دون غيرهمـا من قرى الجليـل •

لقد اوردت فيما سبق بعض ما قيل في مشايخ الزيادنة من شعر بعد انصرام دولتهم ، وعلى سبيل المقارنة فاني اقتطف فيما يلي بعض ما قيل في احمـد الجزار الذي قرن اسمه بأحلك ايام تاريخ سوريا ونشر ظله الاسود على بلادها حتى مطلع القرن التاسع عشر ليتبين القارىء الفرق العظيم بين حكم ظاهر العمر وحكم احمد الجزار واثر كل من الحكمين في نفوس سكان البلاد ، قال الشاعر فرحا بهـلاك الجزار :

بشراك يـا قلبي الكليم ومنيتـي   بممـات من بمناه غـاية منيتي
فالموت مكروه ولكن قد حـلا   بممات هذا الظالم البـاغي القتي(٢١)

وقـال مصطفى الرومي :

هـلك الجـزار ولا عجب   ومضى بالخزي وبالاثـم
وبميتته البـاري عنـا   ارخ قد كف يـد الظلم

وقال السيد فخر الدين :

يا بني جلق قـد صـح الخبر   فاسمعوا واصغوا باذن واعيـة
احمد الجزار ولـى وانقبـر   بعد ما ابقى الخلايق عارية
كم قلـوب خـالقي ارخ جبر   حيث قد صـيره للهـاويـة

وقـال المعلم نقـولا الترك :

يا آل بر الشام بشراكـم فقد   مات الذي انشا المظالم وانتهك
الخائن الغدار سفاك الـدمـا   من كان في قتل النفوس قد انهمـك

٢٠) ان قسما كبيرا من زيادنة الدامون يعيش اليوم في قريتي كابول وطمرة المجاورتين للدامون المهدومة وقد ورد نسبهم في فصل سابق ، واما زيادنة كفرمندا فبعضهم ينتسب ، على ما قيل لي ، الى « هاني ابو ضاني » وهو ، على مـا اعتقد ، مـن ولد محمد العلي صاحب الدامون وابن عم ظـاهر ، وآل مصطفى الطـه وآل الحاج ناصر يتقربون الى آل صنديد من اهل صفد سابقا ولعلهم من نسل نـاصر بن صليبي الظاهر ، واما آل عباس في كفرمندا والبعينه فينتسبون الى حسـين بن عبـاس الظاهر •

٢١) القتي معناها اجير او خادم الملوك ،وهنا بمعنى اجير الاتراك •

عكا تنادي اللطف يا مولاي من | هذا الظلوم فكم دم في سفك
بل كم يتيم بالورى ويتيمة | منه وكم في الحي ارملة ترك
لا يرحم الرحمن تلك الروح | ما دار المدار وطال ما دار الفلك
لما احتسى كأس المنية واصطفى | دار اللظى ومع الرجيم قد اشترك
انشدت مسرورا و بالتاريخ جاء | هوذا الجزار احمد قد هلك

وقال المعلم الياس اده :

وافى السرور وصح ترجيح الامل | بهلاك غاشم لا يعادله مثل
احمد وليس يحمد بالورى | ملعون في ثوب المساوىء قد رفل
جزار لكن للفضايل جازر | مهدي ولكن بالرذائل قد خفل
بحياته كان الغلا ثم الوبا | والقحط والجور الذي لا يحتمل
لله درك يا منون فقد بدت | منك الحياة وطاب حكمك واعتدل
فاز الانام وارخوه بمقصد | هلك الشقي والى جهنم قد رحل (٢٢)

والتاريخ في هذه الابيات هو ١٢١٩ هـ = ١٨٠٤ .

هذا قليل من كثير مما قيل في احمد الجزار بعد موته في عكا سنة ١٨٠٤ وهو ولا شك اشبه ما يكون بحكم التاريخ عليه وعلى عهده الاسود ، وقد اثبت هذه الاقوال في هذا الموضع من الكتاب لتكون عبرة لحكام هذا الزمان . فاذا وجد امراء او وزراء او رؤساء او ملوك حقائق غير مريحة في هذه الملاحظة العابرة فليعلموا ان السبيل الوحيد لحمل الناس على ان يقولوا فيهم خيرا هو ان يكفوا عن الانجرار وراء الاجنبي وان يحكموا بالعدل والحق ويعملوا الخير لبلادهم وشعوبهم ، فبهذا الثمن يشترون العظمة والذكر الحسن والتاريخ ، كما قال احد الفلاسفة ، هو مؤدي شهادة وليس مداحا ، والا فيكون حكم التاريخ عليهم اسوأ بكثير مما حكم به على احمد الجزار ، والويل ثم الويل من هذا الحكم الصارم الابدي الذي لا يلين ولا يرحم .

انتهى

---

٢٢) هذه الابيات مقتبسة عن الامير حيدر وغيره ، وبودي ان الفت الانتباه الى انه لم يصل الينا اي شعر لشاعر يمتدح الجزار في شيء خلال حكمه الطويل في عكا .

باب الملاحق

منشور علي بك الى اهل دمشق سنة ١٧٧١

صدر هذا الفرمان الشريف الشأن من ديوان مصر القاهرة المحروسة المعالي ، دامت لها المفاخر والمعالي . من منّ به الكريم المنان على اهل هذا الزمان . واظهر العدل والامان وعم بالفضل والاحسان ، جميع اهل القرايا والبلدان ، وارغم اهل الجور والطغيان امير الامراء الكرام وعظيم الكبرا الفخام المختص بمزيد عناية الملك العلام ، امير اللواء الشريف السلطاني والعلم المنيف الخاقاني ، امير علي بك امير الحاج سابقا وقيم مقام مصر المحروسة حالا دام عزه وبقاه ، ورفع بالسعد لواه مضمونه حمد باري النعم ومحي الرقم الذي قدس وعظم قدر الحرام وبارك حوله بجزيل النعم ، وامر بالعدل في سائر الامم ، واوعد الظالم بالهلاك والنقم ، القايل تعالى في كتابه المبين ، ان الله لا يحب الظالمين ولا يصلح عمل المفسدين ولا تأيسوا من القوم الفاسقين ، من بعد الصلاة والسلام على رسوله الامين سيد الخلق اجمعين الصادق وهو اصدق من قال الضرر يزول وعلى اصحابه الذين سادوا وشادوا الدين صلوة وسلاما دايما ليوم الدين . فمن بعد مزيد السلام والتحية بأنواع الامن والبركات وجزيل النعم والخيرات في كل الاوقات والساعات ، الى حضرة العلماء العالمين والفقها المحدثين المفتيين بشريعة سيد الانام وقضاة الاسلام وارباب المناصب والحكام والخاص والعام من اهالي دمشق الشام اعزهم الله بنور العقل واحكامه واجارهم من الظلمة وظلامه بلطفه واكرامه وافاض عليهم جزيل انعامه فالذي يحيط كريم علمكم وزكي فهمكم ان الامة لا تجتمع على الضلالة وقد علمتم ما صنعه عثمان باشا في ارضكم من الظلم والجهالة وانه قد اعترض الى الحجاج والزوار وسلط عليهم الاشرار والفجار بالاذية والاضرار واظلم المسافرين والتجار ، وذل الاماكن الشريفة وابدل من الحرمين بالحفيفة وتعدى حدود الدين وفعل ما لا يليق بالمسلمين وقد قال من لا تراه العيون من يتعدى حدود الله فاوليك هم الظالمون . فلما بلغنا عنه ما بلغ وانه في اناء الارض المقدسة قد ولغ فبادرنا لسوء اعماله بالنقض كما اذلنا في عام الماضي من ظلمه البعض ، واردنا نطهر منه تلك الارض نصرة للدين وغيرة

على المسلمين ورفع ضرره عن الارض المقدسة لما جاء في الحديث الشريف ما حلّ بحرمكم حل بكم • وبلغكم ما فعله بعلماء غزه واذاقهم الذل بعد العزة ودفنهم بالارض بالحياة • وقد جاء بالحديث المقدس عن الاله من اذلّ اوليا الله اذله الله ، وقوله تعالى في كتابه الاسما انما مخشيون الله من عباده العلما (انما يخشى الله من عباده العلماء) فان كنتم بذلك غير راضين وعن دفع ضرره غير قادرين فنحن بعون الله قادرين على ذلك ، وقد افتينا مذاهب الاربع بذلك واستخرنا الله وهو نعم الوالي ، وسالناه ينصر دين محمد بعلي ، وصرفنا العساكر والاموال في رضى الملك المتعال ، ووجهنا الفوارس والابطال ليردوا الظالم ويستردوا المظالم ويميزو العاطب من العالم ، فالقصد منكم ترك الظالمين والبعد عنهم اجمعين ومن يثق بهم منكم فانه منهم يكون ، واجتهدوا فيما يرفع عنكم الشرور ويجلب لكم الفرح والسرور والغبطة والحبور ، وامير الحجاج الشامي من طرفنا يتولاه حفظا وصيانة لحجاج بيت الله ، فتعاونوا على عمل الخير وذهاب الضر والضير ، وكما قال الملك المنان تعاونوا على السير بالتقوى والتصديق ، فالكريم الفتاح من طلب العدل والصلاح ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، اهل الظلم والطغيان ، وها نحن قد اخبرناكم وعلى المعاونة بالخير قد اخترناكم ومن اقامة هذا الظالم في ارضكم قد حذرناكم والعساكر قاصدة اليه والجميع ما يلين اليه ، فلا تدعوه يقيم بأرضكم ولا بين اعيالكم ، وقد سلطنا غضب الله وسخطه عليه فاحفظوا منه ساير اموالكم واحوالكم وراى العلما والكبار اعلا ، وانتم على فعل الخير اولى وعلى القريب منكم والبعيد والطارف والتليد والاحرار والعبيد امان الله وراينا السعيد والله يفعل ما يشا ويحكم بما يريد ، والخير يكون والصعب يهون بعون الله مدبر الكون(١) •

كتاب الامير منصور الشهابي الى محمد بك ابي الذهب

الجناب العالي ذو الفخر والجمال ، دامت له رتبة المعالي بالسعادة والاجلال مشيد اركان رتبه السنية ، عسجدي الالقاب الشهية ، صدر صدارة الدولة المصرية امير لواء عالي شان اطال الله تعالى بقاه امين • غب ابهى واشرف ما سجعت به اطيار منابر الاغصان على قدود افنان الاشجار بالحان نشايد الاوزان الشجية والطف ما

١) حيدر ج١ ص ٨٣ •

نظمته افكار ضماير الانام من عقود نظام الاشعار ودرر البيان الوضية تهدى جناب من قد جلى سيوف الانتصار وبدد اعدايه بكل صقع وامصار ، اعني به من رفع اسمه باوج العلى وترافعت اعلامه على رووس الملا ، وحاز الافتخار بقايم السيف البتار ، كيف لا وهو فريد الزمان ونتيجة هذا الوقت والاوان • اما بعد في ابرك الاوقات واشرفها وايمن الساعات والطفها قد ورد علينا امثال جنابكم الشريف وفهمنا فحواه المأنوس المنيف واتضح لنا حلول ركابكم السعيد بدمشق الشام بحسن تأييد واكمل نظام والمقصود بلوغ الارب وبغية المرام ، فقد حصل عند مخلصكم بهجة لا تحدو سرورا لا يعد بتشريف ركابكم بهذه الامصار وقد اضطربت بقدومكم الاقطار واستأنست البلاد واطمأنت خواطر العباد ، ويسوغ لهم ان يترنموا مع الشاعر حيث يقول :

ثغر الزمان لقد غدى متبسما   وشذا الزمان لقد غدى متنسما
واجابت الافاق من اغساقها   بترنم والكون ابدى منعما

فيا له من فرح لا يقر قراره ولا يحصى طياره جالبا للصدور جلباب الجزل والحبور فنحمده جل شانه بما انعم واجزل واكرم فقد انتشرت سجاياكم وشاعت مكارم عطاياكم فيا خيرمبعوث واكرم باعث ولقدبلغنا ان في حلول ركابكم السعيد تبدد العدو اي تبديد ، ولم يساعه حتى انهزم ورحل ، فلا برحت اقبالكم بالسعد وبلوغ الامل ورايات اعزازكم خافقة وروس اعدايكم طارقه ، وبنوع التهجم والرجاء ان تصرفوا حسن انظاركم السنية في الملاحظة لحفظ الرعية كما هو من صفات اخلاقكم الرضية ، وما لنابذلك قصدسوى ان تغنموا دعاهم ويكون بذلك الثناء والحمد عند الله والعبيد ، وقد وجهنا ناقل صحيفة الدعا بنوع التهني للجناب لئلا يطول بنا في هذه النميقة الاسهاب ، لان محامد حمدكم بحر لا يقاس ـ ولا يحصيه يراع ولا قرطاس والمذكور يعرض لديكم لكونه معتمدنا والرجاء ان لا تخرجونا من خاطركم الشريف واطال الله بقاكم والسلام (٢) •

كتاب عثمان باشا المصري الى الامير يوسف الشهابي سنة ١٧٧٤ بالعفو عن الشيخ ظاهر العمر :

افتخار الامراء الكرام • عين الاماجد ذوي الاحترام • جناب الامير يوسف

٢) حيدر ج١ ص ٨٥ •

الشهابي دام موفقا لما فيه السداد ورضى رب العباد .
غب اهداء ما يليق من التحية والتسليم بمزيد الاعزاز والتكريم . والسؤال عن خاطركم السليم . ننهي اليكم انه قد سبق في قضاءالله وقدره بهذه السنين الماضية كثير من الخلل والتشويش في الاقطار العربية . والبقاع الشامية بسبب الظلم الحادث من بعض ولاة الامور وظهور علي بك وفساده . فلما اراد الله رفع الفتن امر به فكان . ولكن بقي اثار منه الى هذه المدة لان الحاجات مرهونة بالاوقات . فقلد جيدنا حضرة مولانا السلطان نصره العزيز الرحمن حسم هذه الطائلة وحراسة الخاص والعام . فراينا الشفقة على العباد من اسد السداد . واجتهدنا في حقن دماء المسلمين وصيانة الاعراض . واعرضنا عن تلفيق اصحاب الفتن والاغراض . وقد انتهت الامور الى استكشاف ما في الصدور . والهم الله كلا من ذوي العقول رشده وطلب نجاحه وسعده . فمن اجل من طلب النجاح . وغرد طائر سعد يحيي على الفلاح قدوة المشايخ الكرام وعين اعيان العقلاء الفخام صاحب المقام المعتبر اخونا الشيخ ظاهر العمر . وقد حرر الى نادينا الدستوري وسأل الدعاء وتمسك بحبل العهود والوفاء . واعلن الطاعة لحضرة مولانا السلطان ظل الله في ارضه . نصره العزيز الرحمن على شروط وعهود معلومة واستعطف ان ينعم عليه بايالة صيدا على وجه الملكية . ويرسل البقايا الباقية عليه في ايالة صيدا خمسماية الف غرش عاجلا ويرسل كل سنة مائتين وخمسة وعشرين الف غرش عن المال السلطاني ويؤدي خدمة حراسة ولوازم المحمل الشريف كجاري المعتاد . فلما راينا رجوعه عن العناد واقباله على السداد . انعمنا له بذلك على ما عندنا من التحقيق بكوننا مرسلين لنظام الاقطار العربية ومدرجين في دفتر اعتماد الدولة العلية . واننا اذا املنا من كرمها شيئا لا يخيب الامل ولا يضيع العمل . ولذلك قد اجبناه وانعمنا عليه بما تمناه . واشعنا في دمشق بنداء المنادي بين الخاص والعام . وعرضنا الامر الى الدولة العلية والاعتاب الملوكية بالتماس هذا الانعام . والان وردت اوامر العفو والقبول واجابة المسؤول فحررنا من نادينا الدستوري مراسيم الى كل من بيده مقاطعة من الايالة وابتدأنا بكم . لانكم ترغبون في هذه الحالة اذ ان جناب اخينا الشيخ ظاهر في مقام والدكم وعلى الخصوص انه من سبعين سنة موصوف بحماية البلاد وصيانة العباد . لانهم وديعة الله الملك الرحمن لحضرة مولانا السلطان وهم من الطرف الخاقاني وديعة ولاة

الاحكام . فبوقوفكم على كتابنا هذا تتحققون نجاح القصد ونمو السعد . وتكونون على قدم الطاعة لولاة الامور عملا بقوله تعالى اطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم . واشتغلوا بمداومة الدعاء لحضرة مولانا السلطان نصره العزيز الرحمن . واعلموا واعتقدوا بما حررناه والحذر من خلاف ما رسمناه والسلام . حرر في ٢٧ ذي الحجة سنة ١١٨٧ هـ .(٣) (١١ آذار سنة ١٧٧٤ ، او حول هذا التاريخ) .

الفرمان السلطاني بالعفو عن الشيخ ظاهر العمر وتوجيه ايالة صيدا اليه سنة ١٧٧٥

قدوة الاماجد والاعيان الشيخ ظاهر العمر زيد قدره !

نعرفك انه بعد وصول امرنا هذا فليكن معلوما انك من قديم الزمان من المتنعمين بنعم الدولة العلية . وقد حقق صدق عبوديتك برهان الخدمات الصادقة . وكنت صاحب الشهرة والشان . وبصدق النية واخلاص الطوية يشار اليك بالبنان وكنت تؤدي الاموال السلطانية قبل كل انسان وما عرجت قط عن صدق الخدامة وطرق الاستقامة الا منذ ازمنة قريبة لحدوث بعض اسباب نفسانية اظهرت التردد والوحشة خمس سنوات . ولكن في هذا الوقت وصل الى سدتنا الملكية عرضحال بواسطة الدستور المكرم والمشير المفخم الصدر الاعظم علي الهمم وزيرنا عثمان باشا ادام الله اجلاله وضاعف بالتأييد اقباله . وكان ما فهم من عرض حالك انك اذا حصلت على العفو عما جرى منك من الحركات غير المستحسنة وصرت منظورا اليه بعين الرحمة تضع قلادة الطاعة في عنق العبودية فبناء على ظهور طاعتك وثبات عبوديتك واتباعا لقوله تعالى من عفا واصلح فاجره على الله . واقتداء بقول الحديث النبوي من اقال نادما اقاله الله يوم القيامة قد عفونا عن كل ما قد سلف منك وحبذا هذا لانه من الشيم السلطانية والسجايا الملكية بشرط ان تسلك بعد الان سلوك الطاعة والعبودية . ولا تنحرف عن منهج الاستقامة المرضية . ولو باقل الامور واصغرها . ولا تصرف وجهك عن نظام حال الرعية وتحصيل الاموال السلطانية سابقا ولاحقا ومن كل الوجوه واصرف سعيك في تحصيل رضانا الكائن عنه النمو والسعادة . وعلى هذه الشروط المذكورة قد اجرينا قلم مضى ما مضى على صفائح ذنوبك الى يومنا هذا وصفحنا عن كل ما صدر من رفاقك واصحابك وتابعيك ولاحقيك وعشائرك وصاروا جميعهم مشمولين بالعفو السلطاني . فاشكروا نعمة

٣) ميخائيل الملحق ص ١٦٤ ، نشره الامير حيدر في حوادث سنة ١١٨٦ هـ.

الله ان كنتم تعبدون • وعدوا هذه الرحمة السلطانية من النعم العظيمة وقدموا شكرا الى يوم القيامة • وان دمت على طاعة الاحكام الجليلة السلطانية • قائما بالخدمة المرضية • مظهرا حسن الصداقه وخلوص الطوية • فلا تشاهد من طرفنا السلطاني غير اللطف والعناية وكن امين البال مطمئن الخاطر وامرنا هذا اربطه على عضدك الايمن • ولاظهار انعطافنا اليك ارسلنا لك هذا الخط الهمايوني صحبة افتخار الاماجد الكرام قبجي باشي احمد هاشم دام مجده • وليكن معلوما عند الجميع انسلطتنا المخلدة البنيان المشيدة الاركان قائمة على أساس الرحمة والرضوان فاذا صدر بحسب الضعف ذنب من اهل البيوت القديمة وأتبعوه بالتوبة والانابة • وتعلقوا باذيال المغفرة • فالعفو عنهم من خصائص اجدادنا الكرام • ونحن اقتداء بهم قد عفونا عن ذنوبك لكبر سنك وشيخوختك • وشفقة منا على الرعايا والبرايا • فعليك رأي الله وامانه ورأي الرسول ورأينا السعيد • فاحفظ همايوننا هذا عقد جوهر في عنقك واعتمد عليه والحذر ثم الحذر من الخلاف حرر في شهر ذي العقدة سنة ١١٨٨) (٤)(كانون الثاني سنة ١٧٧٥) •

رسالة من الاب يوسف بابيلا الى اثناسيوس دباس في رومية صادرة عن دير المخلص بتاريخ ١ تموز سنة ١٧٧٥ (٥)

••• وبهذا النهار عينه الذي وصل لنا فيه مكتوبكم ثاني يوم العنصرة المتفق في اول حزيران من هذه السنة وصل لنا من طرف عكا الاعلام بموته ابو الذهب حاكم مصر الذي بعد ان ركب على ظاهر العمر ركبة سلطانية بستين الف واستولى على يافا وغزه والرملة وحيفا وعكا والقى الرعبة في قلوب حكام هذه البلدان جميعها وكان امر في نهار الثلثا الذي قبل العنصرة بهدم كنيسة مار الياس الكرمل وان تكن بنيت بفرمان سلطاني الا انه يا للعجب كل العجب حالما تلفظ بهذا الامر راسلا جملة أناس في تتميمه وما هاب من شيبة هذا البطل فلوقته وان كان صحيح المزاج في الغاية اشتكى من وجع راسه الذي لم يفارقه حتى اخذ روحه نهار السبت المتقدم على احد العنصرة ولبث مريضا ثلاثة ايام لا غير وكان فيها يطلب من المماليك القائمين بخدمته ان يبعدوا عنه الاختيار المضايق له الا انهم كانوا يقولون له افندم امركم مطاع الا

٤) ميخائيل الملحق ص ١٦٥ ، نشره الامير حيدر في حوادث سنة ١١٨٨ هـ. ، ص١٠٧
٥) ميخائيل الملحق ص ١٧٢ ، الموافق ١٢ تموز غربي •

انه لا يوجد اختيار هنا ولهذا السبب قد تحقق عند الجمهور ان القديس مار الياس قد غار على معبده •

رسالة من الاب افتيموس زكار الى اثناسيوس دباس صادرة عن دير المخلص بتاريخ ٣٠ كانون اول سنة ١٧٧٥ (٦)

سابقا اخبرناكم عن حضور ابو الذهب واخذه يافا وعكا وعن الظلم الذي وقع على اهالي تلك البلاد وعن موت ابو الذهب وبعده رجوع ظاهر لعكا وحضور غلايين العثماني الى عكا • والان نخبركم بعد ان المراكب اخذوا كل شيء يخص ظاهر من كلي وجزئي والذي فوق الارض وتحت الارض وكما سمعنا المال الذي وجدوه فوق الارض وتحتها عدا الاثاث ما ينيف عن ٨٧ سبعة وثمانين الف كيس واناس يقولوا اكثر واناس يقولوا اقل وتوجهوا المراكب واخذوا ابراهيم الصباغ معهم الى استنبول ولا نعلم كيف ينتهي امره لان الاخبار عنه مختلفة من يقولوا حطوه بين الاسرى ومنهم من يقولوا اطلقوه ومنهم يقولوا عذبوه وقتلوه ، الرب يخلصه •

واما حرمته واولاده وعيالهم كافة مجتمعين بجاه الامير يوسف لكون لما اخذ المراكب عكا وقتل ظاهر ومسكوا ابرهيم صار على الاولاد تفتيش زائد وخبيناهم في دير السيدة ثم وجهناهم ليلا الى رشميا وقدسعينا قدامهم سعيا يطول شرحه وهذا لمجد الله بعد ان كانوا يطردوا رهباننا من عكا وما كفى هذا والخسائر والدهك الذي صار علينا كثيرة لا توصف ونفد نحو ستة عشر كيس منا على اهالي عكا لمجيهم الى الدير الذي من عدم مطرح ولو كان قبو او مكان الدواب ما خلينا مطرح حتى عزلناه ونظفناه وسكنا العيال بل روحنا كافة المبتدية واكثر الرهبان لغير دير وابقينا عندنا القليل وسكنا العيال في ممشى المبتدية والممشى التحتاني والاوض الجدد الغربيين كما يفهمكم الاب اغابيوس وفي الكنيسة ، والغاية بطل الدير والرهنبة وصار عندنا ثلاث مدن عكا وصور ويافا فانتجوا من القليل كثير ، وطلع صيت علينا ان مال الصباغ ومال عكا وعيال ابراهيم عندنا ، وقبل موت ابو الذهب جانا علم بان مراده كبسنا فرحلنا جميع ما عندنا من حوايج الكنيسة وغيرها ولما

٦) ميخائيل الملحق ص ١٧٧ •

سمعنا بموته رجعت العجقة اكثر مما كانت اذ حضر الباشا الى صيدا والمراكب الى عكا وبلغنا ان الباشا بلغهما بلغ ابو الذهب بان مال ابراهيم وعياله عندنا وبده يكبسنا فرحلنا ووزعنا ثانية فانظروا المشقات التي مهما شرحنا لكم عنها ما هي الا نقطة ٠ اولاد ابرهيم وعيالهم ووالدتهم كافة في رشميا بالدير بما انه بعيد ومستتر ولا يتظاهروا اصلا والجميع منتظرين الفرج وعكا حضر الجزار اليها باشا من قبل الدولة وطيب خاطر النصارى وارسل لهم بلوردات ليرجعوا الى مواضعهم بكل امان ولا يخشوا باسا فنزلوا ناس قدام ناس وانما الخوف بعد واقع على الجميع وماهم بـامـان ٠

والباقي عندنا في الدير دار صهركم طنوس ودار حنا عبيد واخوه يوسف ودار نعمة النحاس ووالدته فرسون اخت ابرهيم الصباغ والمسكينة بحالة يرثى لها على اخيها الله يخلصه ودار حنا زينه وحرمة المرحوم حنا القسيس ، وايضا دار مخائيل وسليمان عكـاوي ٠٠٠

رسالة من الاب افتيميوس زكار الى اثناسيوس دباس صادرة عن غريفه بتاريخ ١٩ آب سنة ١٧٧٦ (٧)

٠٠٠ وسبب قلة المكاتيب منا لابوتكم هو كثرة الحروب والفتن المتصلة في بلادنا من حين وفاة ابو الذهب وما انتهت ٠ ويوم تاريخه نحن والمطارنة والاباء والاخوه والراهبات موزعين في دير المخلص ودير السيدة ودير الراهبات اولنا في غريفه واخرنا في دير رشميا والسبب انه حضر في هذا العام في اوائل حزيران عشرة غلايين مع توابعها من غلياطات وغيرها وحضروا الى عكا ، وكان قبلها بشهر زمان احمد باشا الجزار مجيّش بمقدار خمسة الاف عسكري خيالة وزلم كانوا طالبين راس علي الظاهر في دير حنا فركبوا كلهم عليها بعد ان خربوا ساحل بلاد صفد ما عدا القرى الكبار نظير شفاعمرو وغيرها ٠ وبعد ان استقام عسكر الجزار وعسكر قبدان البحر مدة ايام على حصارها ومعهم عساكر المتاولة سلم دير حنا بالامـان وضبط العسملي المحل من غير ان يقتل احدا (لان عليا فر منها) ٠

ثم انفرد العساكر المذكورة في البلاد وتملكوا قلعة صفد وطبرية وكل بـلاد

٧) ميخائيل الملحق ص ١٧٩ ٠

صفد ساحل وجبل ، وعلي الظاهر فر هاربا بعياله وماله ووصل الى حدود جبل الريحان ولم يكن احد يقبله لا من المتاولة ولا من الدروز والعربان ٠

وفي هذه المدة والتي قبلها كان اولاد ظاهر مسلمين للدولة بخلاف اخيهم علي بل كانوا يحاربونه ويقصدون ان يمسكوه وياخذوا راسه والبائن ان الله ما له ارادة بذلك لامر يعرفه هـو ٠

وبعد اخذ دير حنا بمدة ايام وقع القبض من حسن باشا قبدان ومن احمد باشا الجزار على عثمان الظاهر واخوته احمد وسعيد وفاضل ابن علي ـ وهذا سلموه اهل طبريا ـ وصالح الظاهر وعبد العزيز ابن عثمان ويوسف دبور كيخة علي الذي سلم دير حنا والكل واضعينهم في الجنزير في حبس عكا وفيما بعد يرفعونهم الى الغلايين قاصدين اخذهم الى اسلامبول ٠

فلما نظر المتاولة هذه الافعال من الدولة قالوا في نفوسهم ليس بعد مسك اولاد ظاهر الا نحن وهكذا عدلوا عن مساعدة الدولة وساروا الى بلادهم وجيشوا بعساكرهم واستعدوا لملاطشة الدولة ان هي قارشتهم فالدولة فاتت على بلادهم الى جسر الاولي (شمال صيدا) وما كلمت احدا من المتاولة وجعلوا وطاق العسكر على الجسر والقبدان والجزار حضر الى صيدا ٠ وغلايينهم منها في صيدا ومنها على ميناء بيروت واستعدوا لركبة الجبل (لبنان) واستغاثوا (بالمتاولة) لذلك وما اجابوهم لانهم قالوا في بعضهم ان ساعدناهم على الدروز لا يبقى في السلم سوانا ، وبعد ان ينتهوا من الدروز يرجعوا علينا ٠ ولاجل ذلك ما طابقوا معهم ، وعسكر الدولة وحده لا يقدر ان يقحم بلاد الدروز لكنه مع هذا عسكر الدولة ضرب شوية على المزارع في ساحل صيدا لاجل التبن والشعير ونهبوا قمح من بعض مواضع ومرات كـانوا يوصلوا الى حدود كرخا واوقات لحدود جون والجلالية واصحاب هذه المواضع يردونهم ٠

وسعادة الامير يوسف ومشايخ البلاد ارسلوا تقادم الى حسن قبدان باشـا بعد وصوله الى صيدا مع مكاتيب وعمده من قبلهم وطلبوا منه ان يعرفهم وان كان معه مراسيم بحقهم ولاي سبب العسكر على الجسر والمراكب في بيروت ٠ فقبـل التقادم واكرم المراسيل واعتذر للامير ان العسكر على الجسر لاجل الماء والمراكب في بيروت لاجل الميرى وليس معه اوامر على الجبل والدروز الا بطلب الميرى القديمة

وقبضها وارسل اناس من قبله الى عند الامير فاطلعهم سعادته على الوصولات التي معه من الدولة وعملوا معه الحساب والباقي من المال القديم عمالين يجمعوه ويوردوه له اول بأول ... وابراهيم (الصباغ) لم يزل في المدينة المتملكة (استنبول) ولا احد يعرف كيف صار فيه هل هو بقيد الحياة او تحت السيف او بعذاب اخر الرب يفك اسره . ومتى اصطلحت الاحوال وارتفعت العساكر عن الجسر نرجع لمواضعنا في دير المخلص .

١) عثمان باشا ابو طق ١٧١٩ ــ ١٧٢١ وسنة ١٧٢٣ ــ ١٧٢٥ (للمرة الثانية)
٢) اسماعيل باشا العظم سنة ١٧٢٥ ــ ١٧٣٠
٣) عبدالله باشا الايضنلي سنة ١٧٣٠ ــ ١٧٣٣
٤) سليمان باشا العظم سنة ١٧٣٤ ــ ١٧٣٨
٥) حسين باشا البستنجي سنة ١٧٣٨
٦) عثمان باشا المحصل سنة ١٧٣٩
٧) علي باشا سنة ١٧٤٠
٨) سليمان باشا العظم (للمرة الثانية) سنة ١٧٤١ ــ ١٧٤٣
٩) اسعد باشا العظم سنة ١٧٤٣ ــ ١٧٥٧
١٠) حسين باشا ابن مكي سنة ١٧٥٧
١١) عبدالله باشا الشتجي سنة ١٧٥٨ ــ ١٧٦٠
١٢) محمد باشا الشاليك سنة ١٧٦٠
١٣) عثمان باشا الكرجي الملقب بالصادق سنة ١٧٦٠ ــ ١٧٧١
١٤) محمد باشا العظم سنة ١٧٧١ ــ ١٧٧٢
١٥) مصطفى باشا الباكجي سنة ١٧٧٢ ــ ١٧٧٣
١٦) محمد باشا العظم (للمرة الثانية) سنة ١٧٧٤ فصاعدا .

وكان عثمان باشا المصري ما بين ربيع سنة ١٧٧٢ وربيع سنة ١٧٧٤ وكيلا عاما للسلطان يعمل بالاضافة الى ولاتها الرسميين .

قائمة بالامراء الشهابيين في عهد الزيادنة

١) بشير حسين الشهابي سنة ١٦٩٧ – ١٧٠٦

٢) حيدر موسى الشهابي سنة ١٧٠٦ – ١٧٣٠ ، وتوفي سنة ١٧٣١

٣) ملحم حيدر الشهابي سنة ١٧٣٠–١٧٥٣ ، وتوفي سنة ١٧٦٠

٤) احمد ومنصور ولدا حيدر مشتركان سنة ١٧٥٤ – ١٧٦٣

٥) منصور الشهابي سنة ١٧٦٣ – ١٧٧١

٦) يوسف ملحم الشهابي سنة ١٧٧١ – ١٧٨٩، وتوفي سنة ١٧٩٠(٨)

---

٨) هذه التواريخ مأخوذة عن الامير حيدر الشهابي ، وهي في الاصل بالتاريخ الهجري المقابل للتواريخ الميلادية المذكورة اعلاه على الوجه التقريبي . لذلك يقتضي التنبيه .

المراجع التاريخية

ميخائيل نقولا الصباغ العكاوي(١)
«تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني» ، نشره وكتب حواشيه الخوري قسطنطين الباشا المخلصي ، مطبعة القديس بولس ، سنة ١٩٢٧ حريصا • بلبنان •

رسائل الكهنة القديمة
جمعها ونشرها الخوري قسطنطين الباشا المخلصي • ملحق لتاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني •

عبود الصباغ العكاوي(٢)
« الروض الزاهر في تاريخ ضاهر » مخطوط محفوظ لدى جامعة ناسيونال باريس في سجل المخطوطات العربية تحت رقم ٤٦١٠ •

الامير حيدر احمد الشهابي(٣)
« لبنان في عهد الشهابيين » الجزء الاول ، عني بضبطه ونشره الدكتور اسد رستم وفؤادافرام

---

١) هو حفيد ابراهيم الصباغ وزير ظاهر (١٧٧٥ – ١٨١٦) ، كتب ميخائيل كتابه في باريس وهو مرجع رئيسي عن ظاهر العمر وعهده ، وفي كتابه مادة قلما نجدها في مرجع آخر . غير ان الباحث يجب ان يكون حذرا عند الاقتباس عنه بسبب اخطاء كثيرة في رواياته مع ميل لاضفاء طابع قصصي عليها وتضخيمها وتسلسل غير صحيح لحوادث ذلك العهد . انظر فصل ٦ باب ٣ .

٢) هو حفيد ابراهيم الصباغ واخو ميخائيل الصباغ بحسب بروكلمن . كتب عبود كتابه باللهجة العامية ويحتوي على (٨٠) صفحة بالحجم الصغير . وتسهيلا لعملي جعلت صفحاته الثمانين في (٤٠) صفحة اي ان كل صفحتين متقابلتين جعلتهما في صفحة واحدة . اتصف عبود بالصدق «والموضوعية» والتسلسل الصحيح للحوادث التي يرويها . وقد جيء لي بميكروفلم عن هذا المخطوط بمساعدة المرحوم اورئيل هيد .

٣) الامير حيدر (١٧٦١ – ١٨٣٥) مؤرخ ثقة في العلاقات التي كانت قائمة بين ظاهر العمر والشهابيين بلبنان . ولا بد لي من ان الفت الانتباه الى ان تاريخ الامير حيدر المسمى « لبنان في عهد الشهابيين » هو المرجع الصحيح لنشأة الزيادنة في الجليل وهو مأخوذ عن نسخة اصلية خطت بيد الامير حيدر نفسه ، ولذلك ان جميع مقتبسات هذا الكتاب الواردة تحت « حيدر » قد جاءت عن هذا المرجع الهام الا اذا ذكر خلاف ذلك . واما التاريخ المعروف « بنزهة الزمان » طبعة مصر سنة ١٩٠٠ فهو محرف وناقص ومغلوط فيه خصوصاً في صفحاته العشر الاولى المتعلقة بنشأة الزيادنة في الجليل .

البستاني ، المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٣٣ .

الامير حيدر احمد الشهابي	« نزهة الزمان » مطبعة السلام بمصر سنة ١٩٠٠
الامير حيدر احمد الشهابي	« تاريخ احمد باشا الجزار » نشره الاب انطونيوس شبلي والاب اغناطيوس عبده خليفه ، بيروت .
ميخائيل بريك(٤)	«تاريخ الشام» سنة ١٧٢٠ — ١٧٨٢ نشره الخوري قسطنطين الباشا المخلصي ، حريصا سنة ١٩٣٠ .
روفائيل كرامه(٥)	مصادر تاريخية لحوادث سوريا ولبنان سنة ١٧٤٥ — ١٨٠٠ ، نشرها المطران باسيليوس قطان المطبعة اليسوعية ، بيروت سنة ١٩٢٩ .
محمد خليل المرادي(٦)	«سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر» القاهرة ١٨٨٣ .
نوفل نوفل الطرابلسي	« كشف اللثام عن محيا الحكومة والاحكام في اقليمي مصر وبر الشام» مخطوط ، الجامعة الاميركية ببيروت .
طنوس الشدياق	«اخبار الاعيان في جبل لبنان » بيروت سنة ١٨٥٩ .
عبد الرحمن الجبرتي(٧)	« عجائب الاثار في التراجم والاخبار » المطبعة الشرقية ، مصر سنة ١٣٢٤ هـ.
احمد جودت باشا	«تاريخ جودت» مجلد اول وثان مطبعة علي استنبول سنة ١٢٩٢ هـ ، والفصل الاول من

---

٤) كاهن دمشقي عاش في القرن الثامن عشر وكان معاصرا للاحداث التي يرويها .
٥) راهب سوري ولد في حمص حوالي سنة ١٧٣٠ وترهب سنة ١٧٥٠ .
٦) مؤرخ دمشقي ولد سنة ١٧١٢ وتوفي في حلب سنة ١٧٩١ .
٧) مؤرخ مصري (١٧٥٤ — ١٨٢٥) .

المجلد الثالث ترجمة عربية لعبد القادر الدنا ، مطبعة جريدة بيروت سنة ١٣٠٨ هـ.

ميخائيل مشاقه	« مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان » مصر سنة ١٩٠٨ .
عيسى اسكندر المعلوف	« دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف » ، المطبعة العثمانية بعبدا لبنان سنة ١٩٠٨ .
محمد كرد علي	« خطط الشام » ، الجزء الثاني ، دمشق سنة ١٩٢٥ .
سليمان بك ابو عز الدين	« ابراهيم باشا في سوريا » .
اسعد منصور	« تاريخ الناصرة » ، مطبعة الهلال ، مصر ١٩٢٤ .
محمد فؤاد شكري	« الحملة الفرنسية وظهور محمد علي » مطبعة المعارف ، مصر .
جميل بحري	« تاريخ حيفا » .
احمد شوقي	« ملحق رواية علي بك الكبير » .
يعقوب فرح(٨)	«اخبار البشوات في عكا» مخطوط سنة ١٨٥٧ الناصرة .
شناعة امريح(٩)	«قصيدة البحيرة» مرجع عن معركة الحولة .
وثيقة بناء كنيسة البشارة للروم الارثوذكس في الناصرة(١٠)	
سجل كنيسة الموارنة للقرن الثامن عشر	« كنيسة الموارنة في الناصرة » .
روسي كتابان من ظاهر العمر الى امير مالطة سنة ١٧٥٢	عن نسختين مصورتين في الجامعة الاميركية بيروت .
بطرس البستاني	« دائرة المعارف » .

٨و٩و١٠) انظر المقدمة .

الاب بونا ونتوره الموراني
المجلة السورية لسنة ١٩٢٩ (٤) ج٢ ، الجامعة الاميركية ، بيروت مرجع عن معركة الحولة .

امين قاسم محمد
مجلة الاخبار الاسلامية عدد نيسان سنة ١٩٥٨، القـدس .

احسان النمر
تاريخ جبل نابلس والبلقاء ، دمشق ، ١٩٣٨ .

المعلم ابراهيم العورة
« تاريخ ولاية سليمان باشا العادل » ، نشره الخوري قسطنطين باشا المخلصي ، مطبعة دير المخلص سنة ١٩٢٦ .

الدكتور عبد الكريم رافق (١١)
« دراسات في تاريخ العرب الحديث ، بـلاد الشام ومصر » ، دمشق طبعة ثانية سنة ١٩٦٨.

امين الريحـاني
« النكبات » طبعة ثانية ، بيروت سنة ١٩٤٨ .

رئيف خوري
« الفكر العربي الحديث » ، منشـورات دار المكشوف ، بيروت سنة ١٩٤٣ .

لوتسـكي
« تاريخ الاقطار العربية الحديث » ترجمة عفيفه بستاني ، دار العلوم ، موسكو .

الموسوعة الاسلامية

قاموس المنجد
طبعة (١٧) المطبعة الكاثوليكية ، سنة ١٩٦٠ . بـيروت .

دي فولني
رحلات الى سوريا ومصـر ، ١٧٨٣ ـ ١٧٨٥ الجزء الاول ترجمة ادوار بستاني .

---

١١) عميد قسم التاريخ في كلية الاداب في الجامعة السورية بدمشق .

DeVolney(١٢): Travels in Syria and Egypt, 1783 — 1785, third edition, 1805, London.

S. Lusignan : A History of the Revolution of Ali Bey against the Ottoman Porte, London, 1783.

Survey of Western Palestine, 1882, Nemnits.

W. G. Browne, Travels in Africa, Egypt and Syria, 1792 — 1798.

Uriel Heyd : Ottoman Documents in Palestine, 1552 — 1615, Oxford 1960.

James Parkes : A History of Palestine, London, 1949.

Brockelmann, C : Geschichte der Arabischen Litteratur, Leipzig,

N· Makhouly and C. N. Johns : Guide to Acre,' Seconed Edition in- Jerusalem, 1946.

Amnon Cohen; Palestine in the 18th. Century. Jerusalem 1973.

יעקב בירב : זמרת הארץ . (١٣) ירושלים 1946 .

אוראיל הייט (הייד) (١٤) , דאהר אלעמר , ירושלים 1942 .

---

١٢) رحالة فرنسي (١٧٥٧ ـ ١٨٢٠) ، زار مصر وسوريـا ومكـث فيهمـا سنتـين (١٧٨٣ ـ ١٧٨٥) ، انظر فصل (٥) بـاب ٧ .

١٣) يعقوب بيرب : مؤلف كتاب «زمرات هآرتس» (اي انشودة الارض) ، هاجر الى طبريا سنة ١٧٤٢ ، انظر فصل (٤) باب (٥) و (٤).

١٤) اورئيل هيد : مؤلف كتاب «ظاهر العمر» بالعبرية ، وهو في الاصـل رسـالة كتبها المؤلف للحصول على درجة جامعية في علم التـاريخ . المهم في الكتـاب ان المؤلف استند على رسائل القناصل الفرنسيين في سوريا الى غرفـة التجـارة الفرنسية في مرسيليا التي كانت تدير التجارة الفرنسية في ذلك الزمن .

الرواة المعـاصرون*

محمد قاسم الخطيب	دير حنا	محمد العبد طربيه	سخنين
صالح الاحمدكناعنه ، عرابة البطوف		محمد ابرهيم الجابر	سخنين
عمر المصطفى	الدامون	محمد علي العيسى	طرعان
جريس عزام	الناصرة	قاسم العيساوي	طرعان
حسن ارشيد	كفر مصر	سليمان ابو جوهر	نضور
موسى عبد الهادي	اكسال	مبدا نصار	الناصرة
حنا مرقس المعلم	عيلبون	محمد الشموط	الناصرة
حنا الشيتي	شفاعمرو	فضل كنج اسعد العباس	الناصرة
سليم عليان	شفاعمرو	ابو حمد شمدين	الناصرة
يوسف البابا	شفاعمرو	حبيب ابو النصر	يافة الناصرة
حسن الفارس	حرفيش	نايف ابرهيم الخليل	عيلبون
سلمان الفارس	حرفيش	سعيد علي العثمان	دير حنا
كمال السعيد	طرشيحا	يوسف الطاهر	طيرة حيفا
فضل الفاهوم	الناصرة	عيسى بولس	البعنه
ابو سعود العباس	الناصرة	ناصر العازر	الحصن ، الاردن
عبد الاسعد	شعب	خليل الخالد	الصفصاف
محمد الموعد	صفورية	حسن ملحم	دنا
يوسف سماره حمدان	كفر كنا	الاستاذ مراد	الدامون
درويش سماره حمدان	كفر كنا	محمد النمر حسين	دير حنا
محمد عبد العزيز عمر	كفر كنا	محمد عبد الله فقرا	البعينه
سعيد الطه	كفر كنا	درويش العبد حموده	البعينه
حنا خميس	الرينه		

* انظر المقدمـة

فهرس الاعـلام

(أ)

(ب)

(ج)

الخطا والصواب

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
١٧	٣	اليمينة	اليمنيه
١٨	١	ما يتسع	ما لا يتسع
١٨	١	ولهذه كان	ولذا كان
٣٦	٧	سن الشد	سن الرشد
٧٠	٢	محمود العلي	محمد العلي
٧١	٢	وصل	وصل الى
٩٦	٢	مكروهة	مكرهة
١٢٨	٧	مات	عزل
١٣٧	١٥	المينية	اليمنية
١٥١	١٢	يجعه	يجعله
١٦١	٢١	ستستقبلوا	استقبلوا
١٧٣	١٢	وقبل كلامي	وقبلت كلامي
١٧٥	٨	وكسروهم سرة	وكسراهم كسرة
١٧٧	٧	درج	دوح
١٧٨	الحاشية	تهيأ الحرب	تهيأ للحرب
١٨٦	الحاشية	ص ٧٣	٣٧٣
٢٠٩	٢٠	الامير الكلوجوجوف	الامير كوجوخوف
٢٤٩	١٤	ابو عنبي	ابو عتبي
٢٦٣	٣	استكفن	استمكن
٢٧٥	٢٤	النجعه	النعجه
٢٨٠	١	هلكي	هاّي
٢٨٥	٨	عاملات	علامات

٢٨٥	١٧	يا الشوارب	يا بو الشوارب
٢٨٦	١٧	مـلا	ومـلا
٢٩١	١٩	انساه	انشاه
٢٩٣	٥	ماما	اماما
٣٠٣	٩	اتصك	اتصف
٣٠٤	١٥	بامرته	بامرأته
٣٠٤	١٩	تسلناه	غسلناه
٣٠٤	الحاشية	الحاص ظاهر	الحاج ظاهر
٣٠٧	٢١	القرضه	القرح
٣٠٩	٣	الطيلينا	الصايلينا
٣١٢	١٠	واما زادنه	واما زيادنة
٣١٣	الحاشية	ان قسما كثيرا	ان قسما كبيرا

وقع سهوا خلال الطباعة ، صفحة ٢١٥ قبل صفحة ٢١٤ فالمعذرة .

فهرس

الفصل الثالث

ظاهر العمر يستولي على بلاد صفد والجليل

الفصل الرابع

ولاية سليمان باشا العظم على دمشق

الاولى من سنة ١٧٣٣ ـ ١٧٣٨

الثانية من سنة ١٧٤١ ـ ١٧٤٣

الفصل الخامس

ولاية اسعد باشا العظم على دمشق من سنة ١٧٤٣ حتى سنة ١٧٥٧

الفصل السادس

تقسيم البلاد : ادارتها واحوالها الداخلية

الفصل السابع

ظاهر العمر وعرب الصقر

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

مقتل علي بك وحوادث عام ١٧٧٣

الفصل السادس عشر

العفو عن ظاهر العمر وحوادث عام ١٧٧٤

الفصل السابع عشر

حملة محمد بك ابي الذهب على سوريا عام ١٧٧٥

الفصل الثامن عشر

مقتل ظاهر العمر وسقوط عكا في ايدي العثمانيين

الفصل التاسع عشر

نهاية عهد

الفصل العشرون

مقتل علي الظاهر

الفصل الحادي والعشرون

بلاد ظاهر العمر والاقاليم التي حكمها ابناؤه

الفصل الثاني والعشرون

الابنية التي اقامها الزيادنة في الجليل

الفصل الثالث والعشرون

ظاهر العمر والمعاهد الدينية في الناصرة

الفصل الرابع والعشرون

* * *



للمؤلف

علم وغرام قصة للتسلية

بتهون قصة قصيرة

المتسلل وقصص اخرى

مذكرات لاجيء

* * *

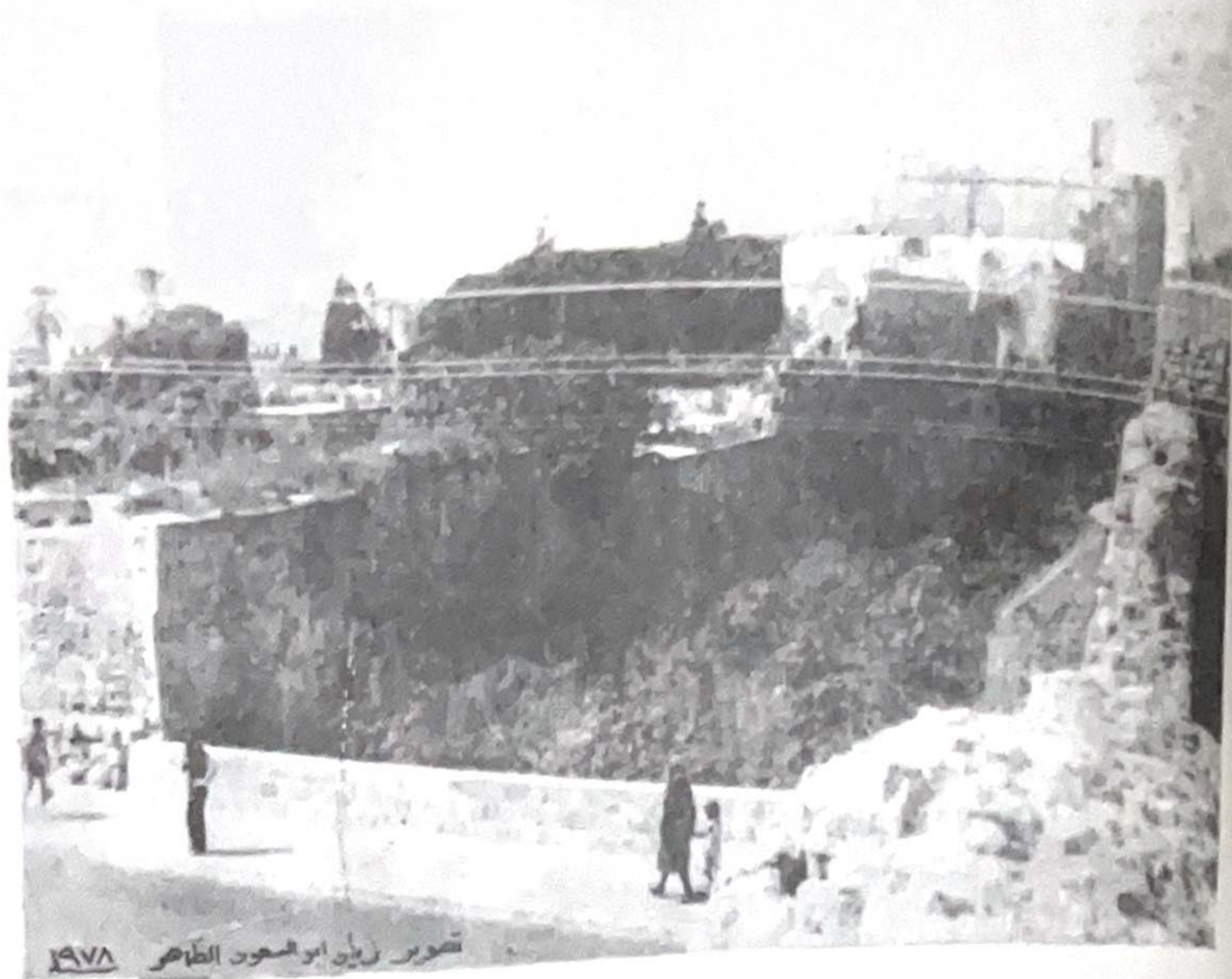




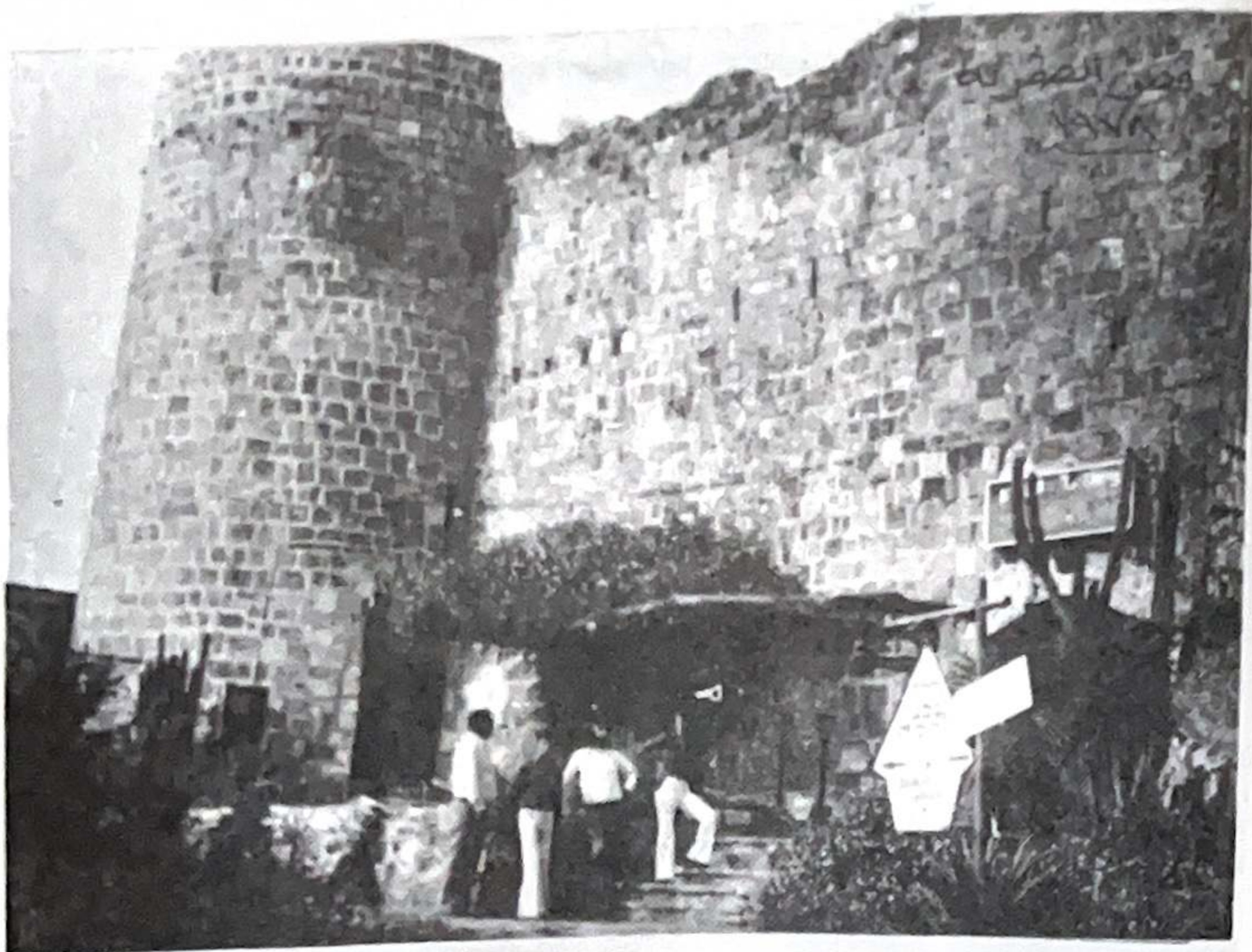
الشيخ محمد قاسم الخطيب من قرية دير حنا في الجليل
يقص على المؤلف تاريخ الزيادنة



سرايا عثمان الظاهر في شفاعمرو



ناحية من سور عكا الداخلي بناه ظاهر العمر سنة ١٧٥١.



سراي صليبي الظا... طبريا المعروفة بالصقرية

Plate I.

11

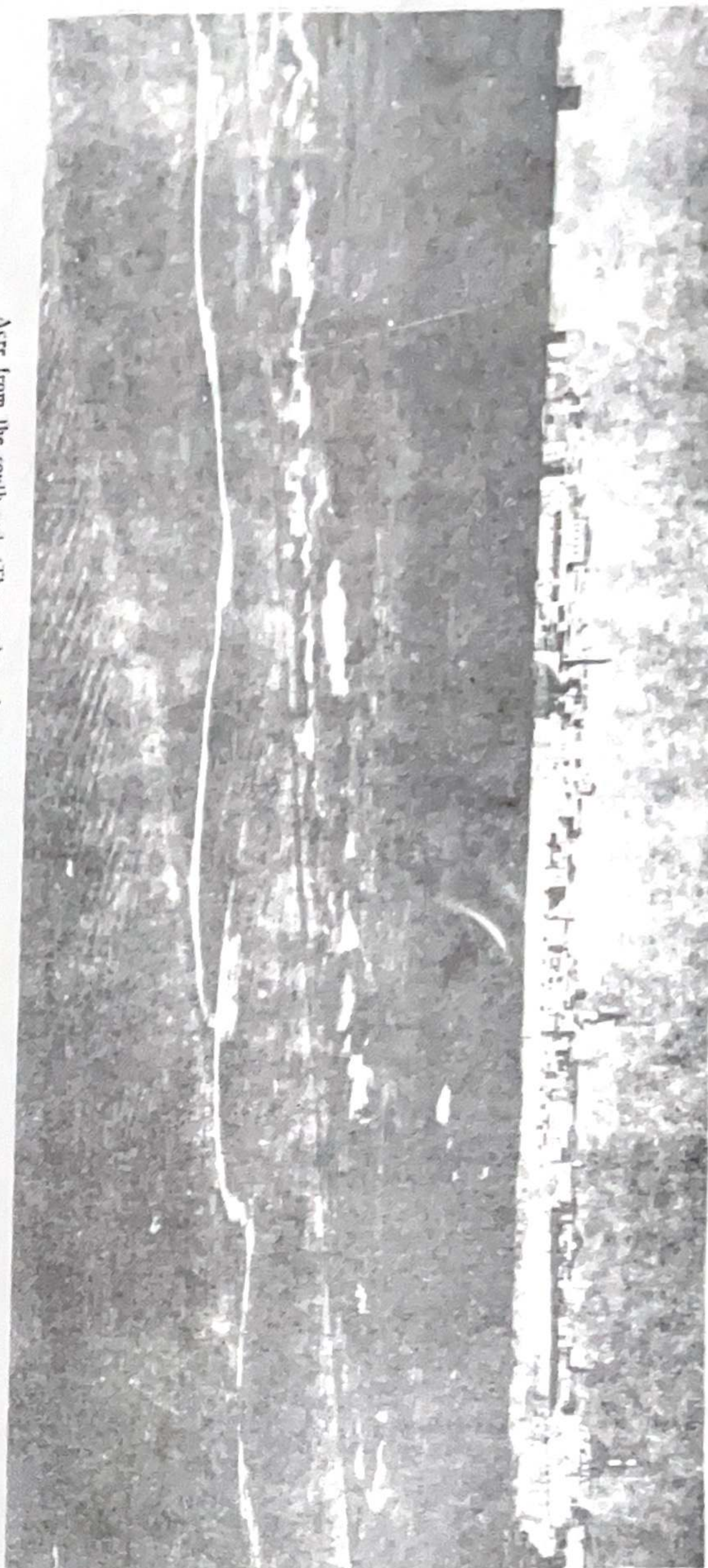
برج الذبان او المنارة
Tower of Flies

المينـاء
Old Mole

Turkish Clock Tower & Khan El 'Umdan
20

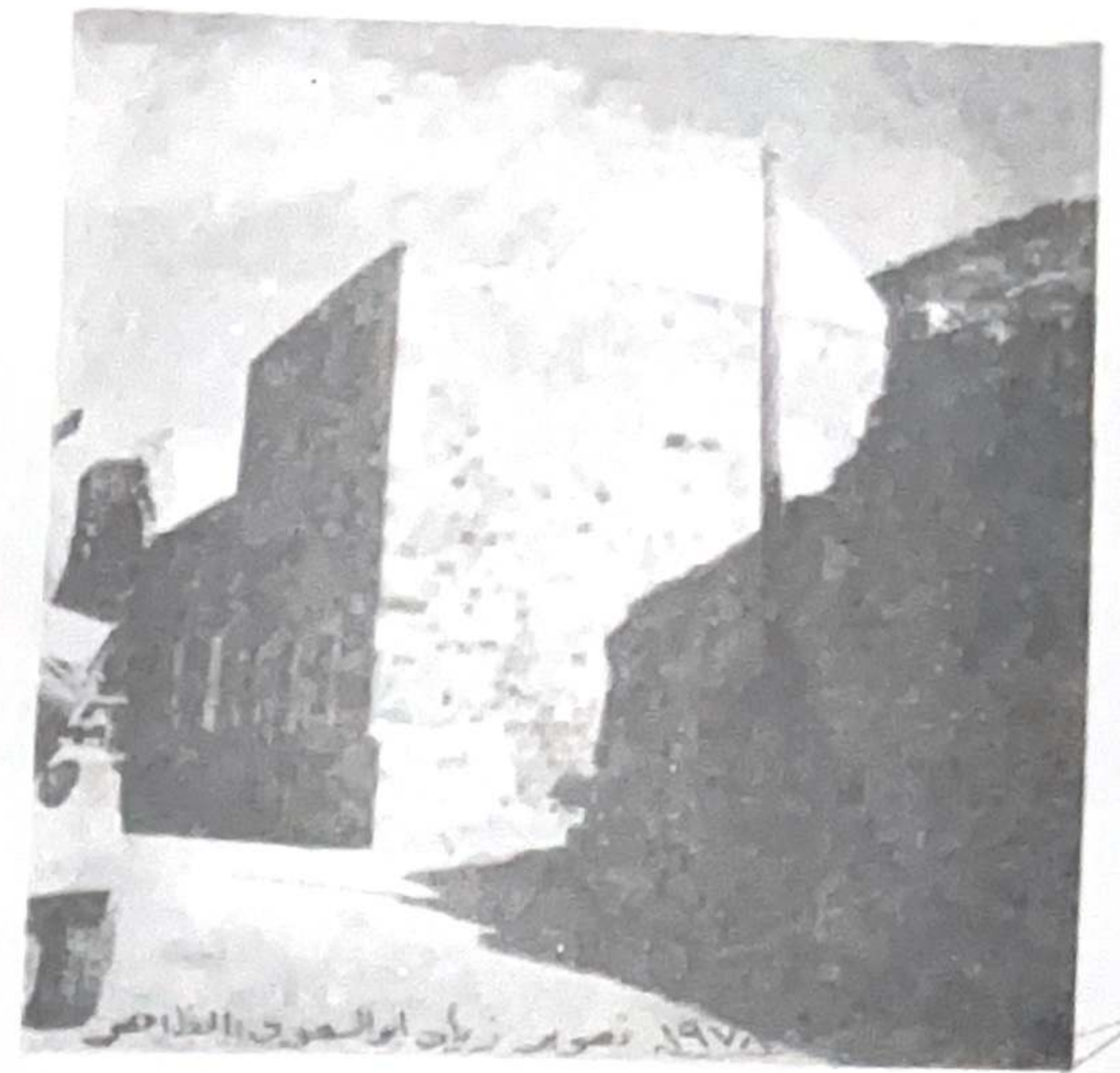
خان الإفرنج
Franciscan Convent & Khan El Franj
21

جامع الجزار
Jezzar's Mosque
Khan Esh Shawarda
22

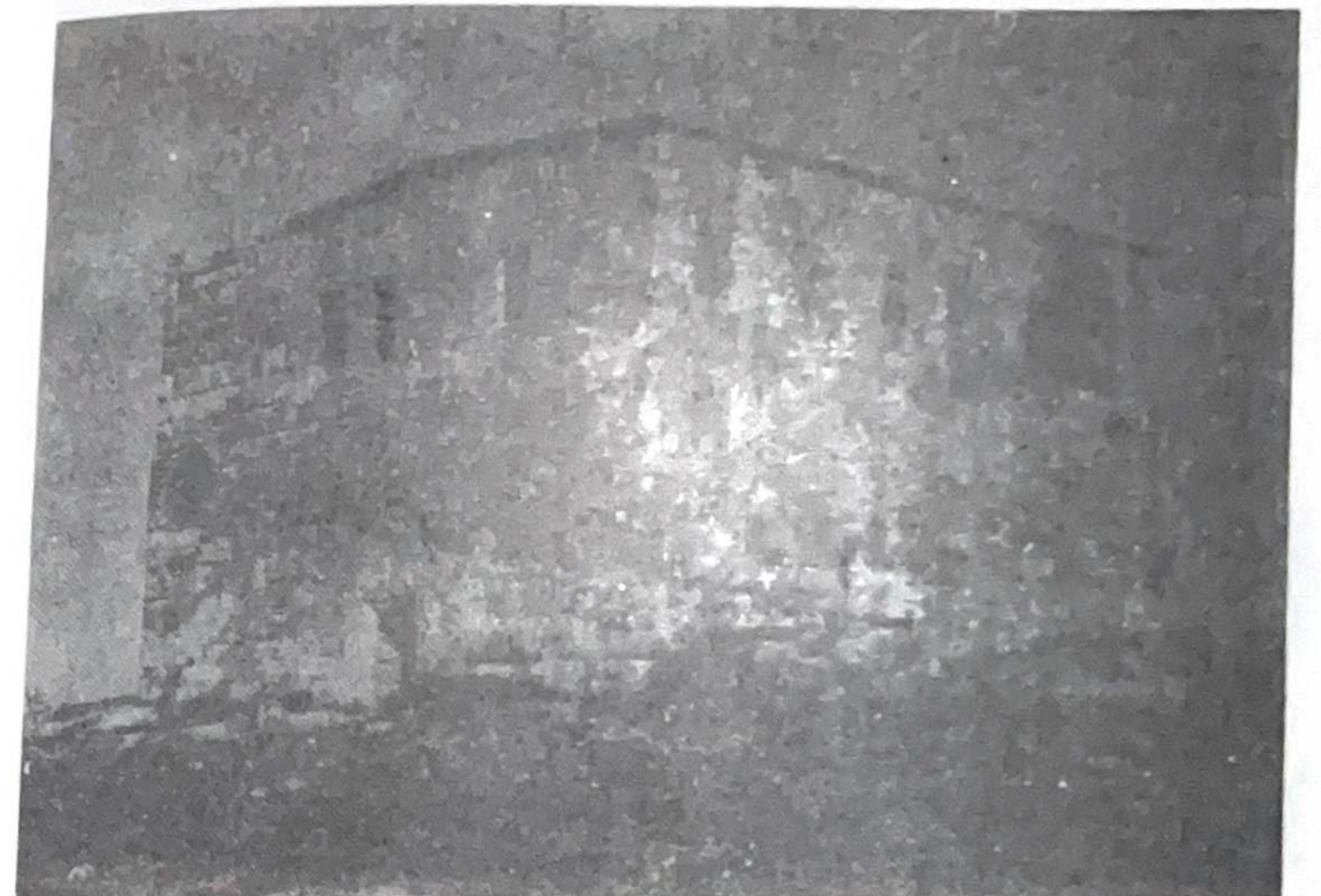


Acre from the south east. (The numbers shown above refer to the guide-plan, fig. 14 at back of book).

صورة لمدينة عكا من الجنوب الشرقي



جامع دير حنا بناه سعد العمر سنة ١٧٣٢



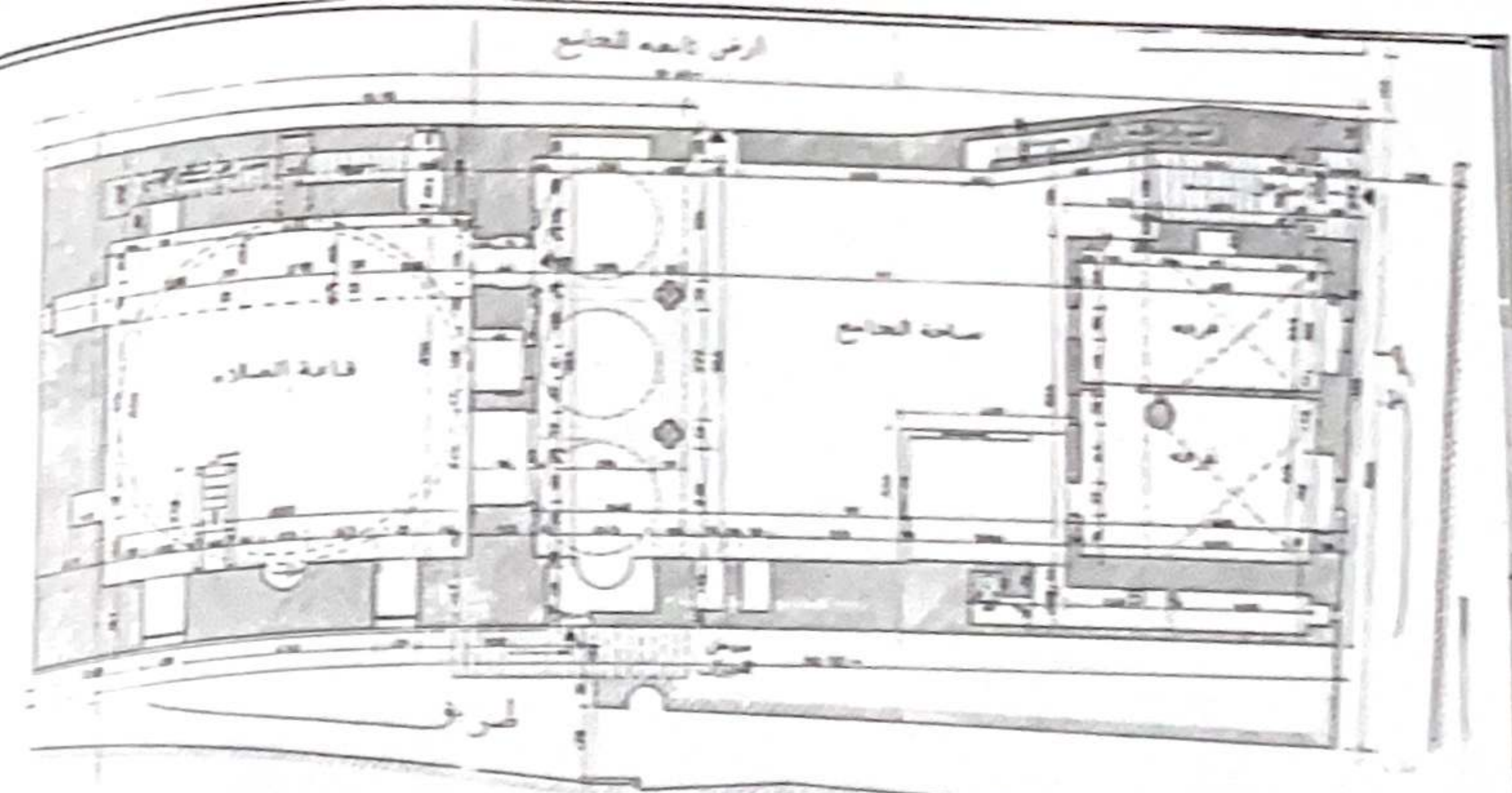
قلعة صفورية بناها احمد الظاهر على انقاض تحصينات صليبية قديمة



جامع الزيداني في طبريا بناه يوسف العمر سنة ١٧٤٣

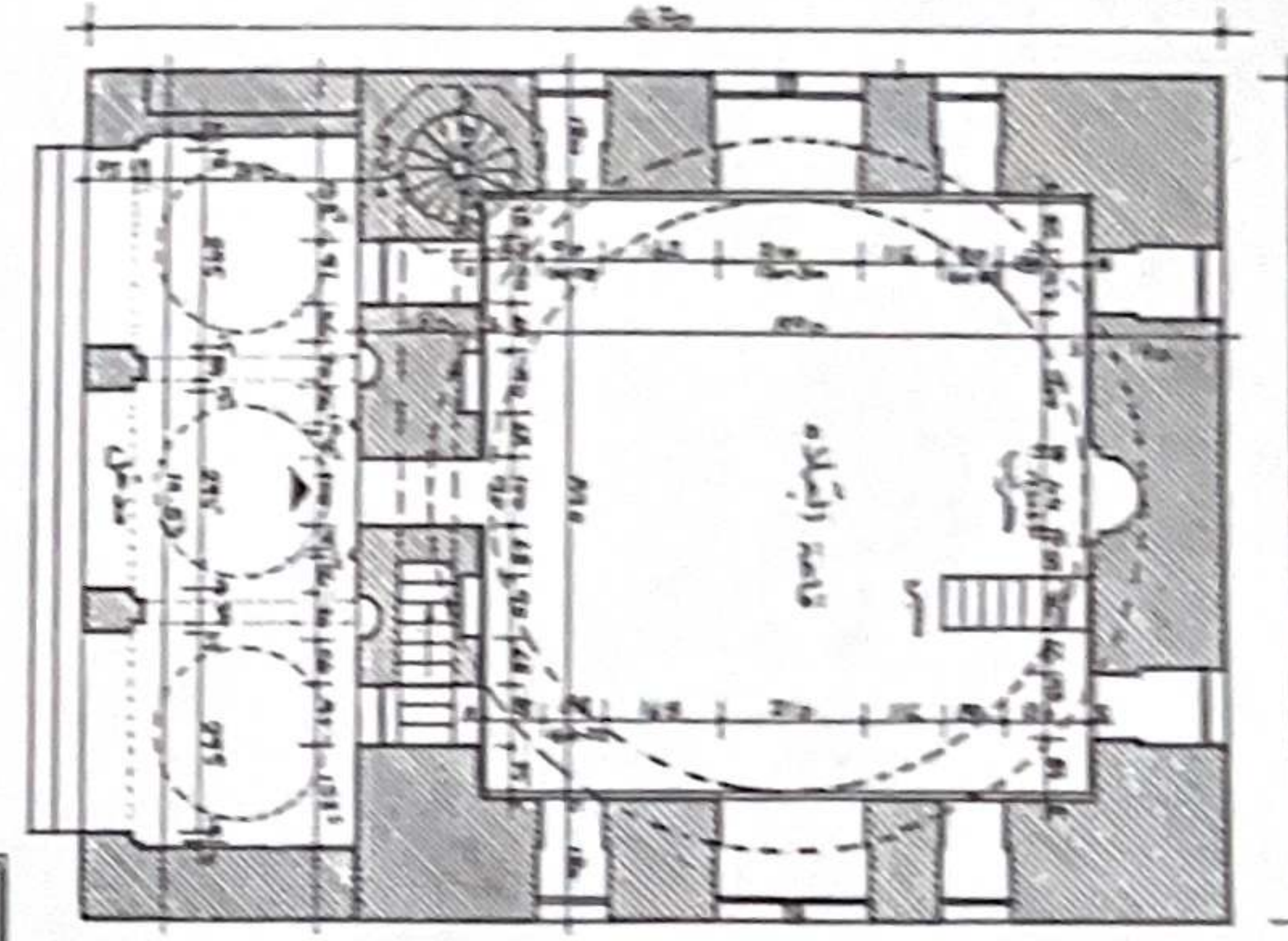


بركة علي الظاهر على شاطىء بحيرة طبريا الشمالي





جامع ظاهر العمر في عكا



جامع الزيداني في طبريا

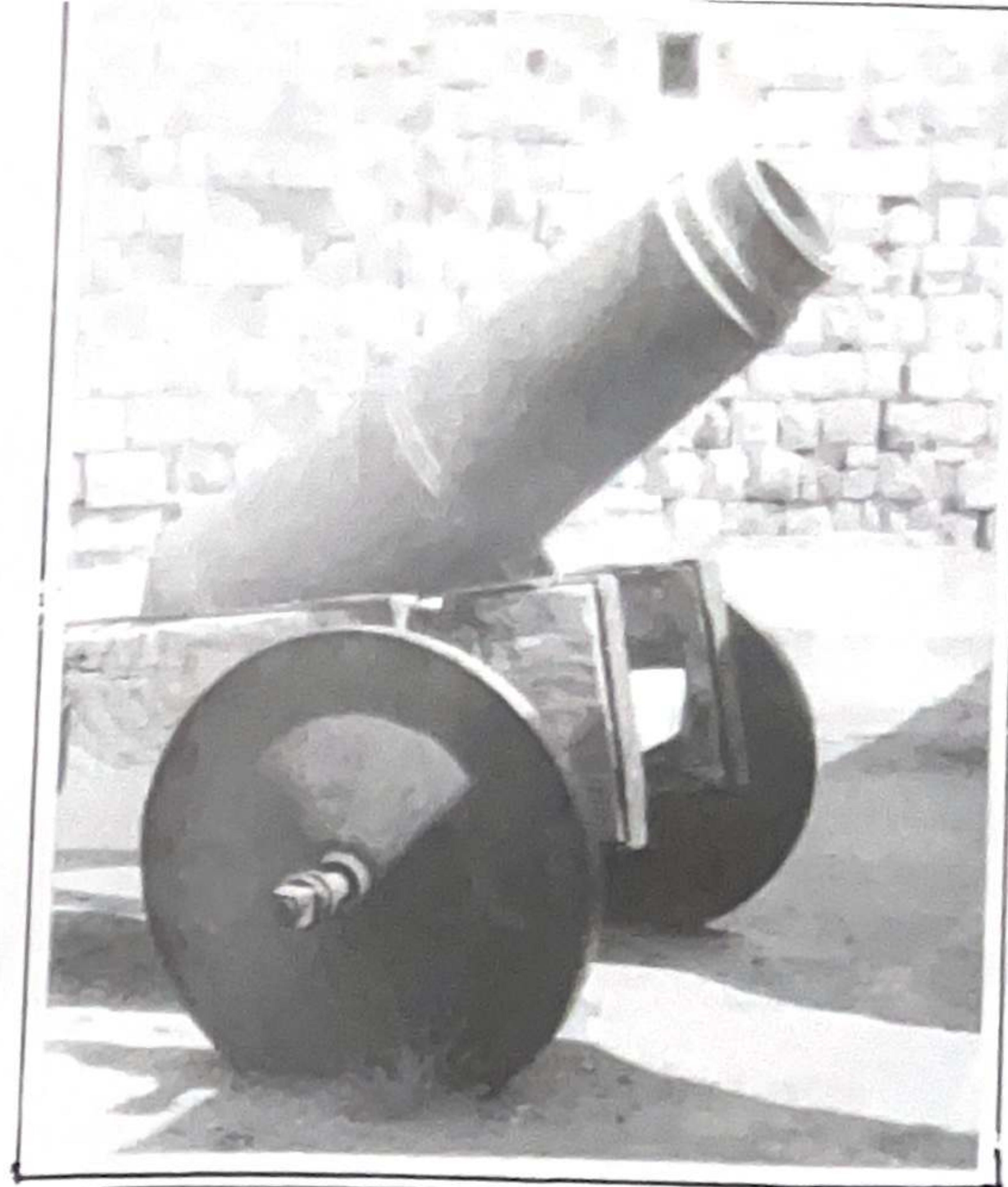
ترسيم زياد ابو السعود الظاهر
مكتب هندسه - الناصره تلفون ٠٦-٥٧٣٠٤٠



قلعة ظاهر العمر في عكا بناها سنة ٤٩-١٧٥٠م
يظهر في الصورة برج الخزينة اعلى ابراجها



سرايا ظاهر العمر في الناصرة - بلدية الناصرة (سابقاً)



مدفع في عكا من زمن ظاهر العمر



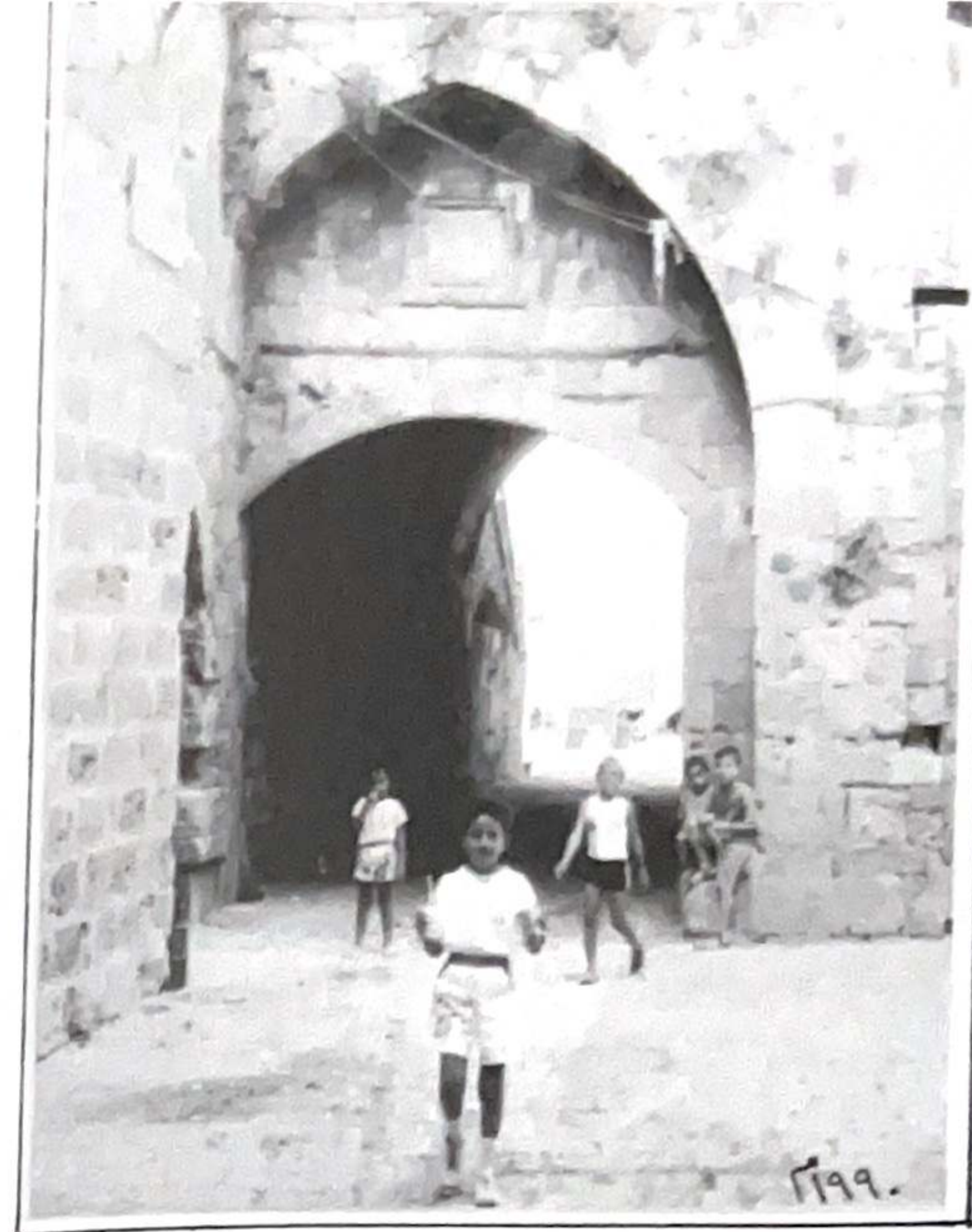
اسوار ظاهر العمر في عكا بناها سنة ٤٩-١٧٥٠م



سرايا علي الظاهر في صفد



«برج كريمّ» احد ابراج سور عكا الغربي الذي بناه ظاهر العمر سنة ١٧٥٠-٤٩



بوابة خان الشونة في عكا بناه ظاهر العمر سنة ١٧٦٤م



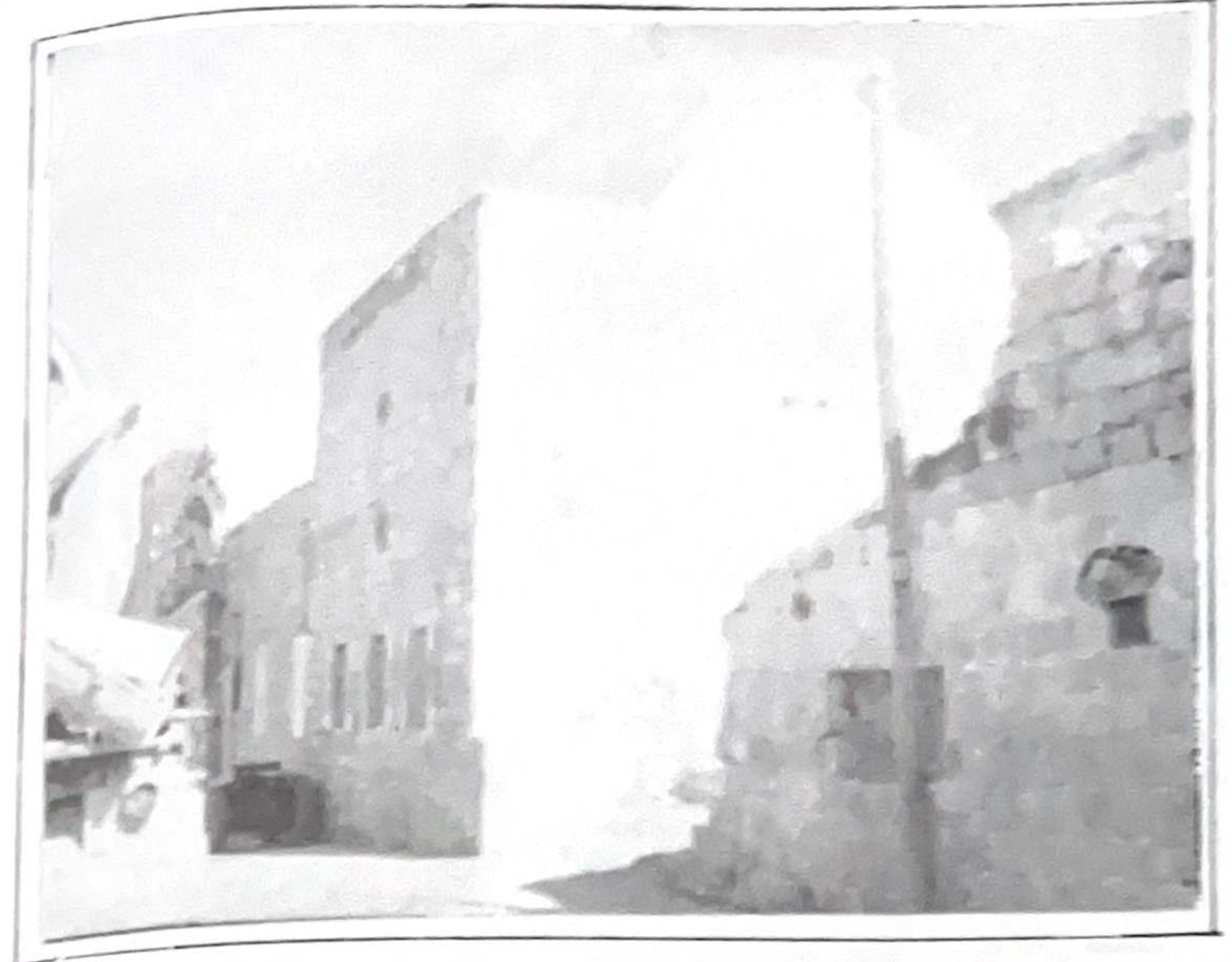
جامع ظاهر العمر «المعلق» في عكا بناه سنة ١٧٤٨م



ناحية من سور عكا الداخلي بناه ظاهر العمر سنة ٤٩ـ١٧٥٠م
ويظهر في خلف الصورة سرايا ظاهر وفي يسار الصورة موقع بوابة السرايا التي هدمت
سنة ١٩١٠ لادخال شارع لداخل المدينة



سوق ظاهر العمر التجاري في عكا يظهر في وسط الصورة مسقوف على شكل قناطر
وسمي فيما بعد بالسوق الابيض في زمن سليمان باشا



جامع دير حنا بناه سعد العمر سنة ١٧٣٢م



قلعة صفورية بناها احمد الظاهر على انقاض تحصينات صليبية



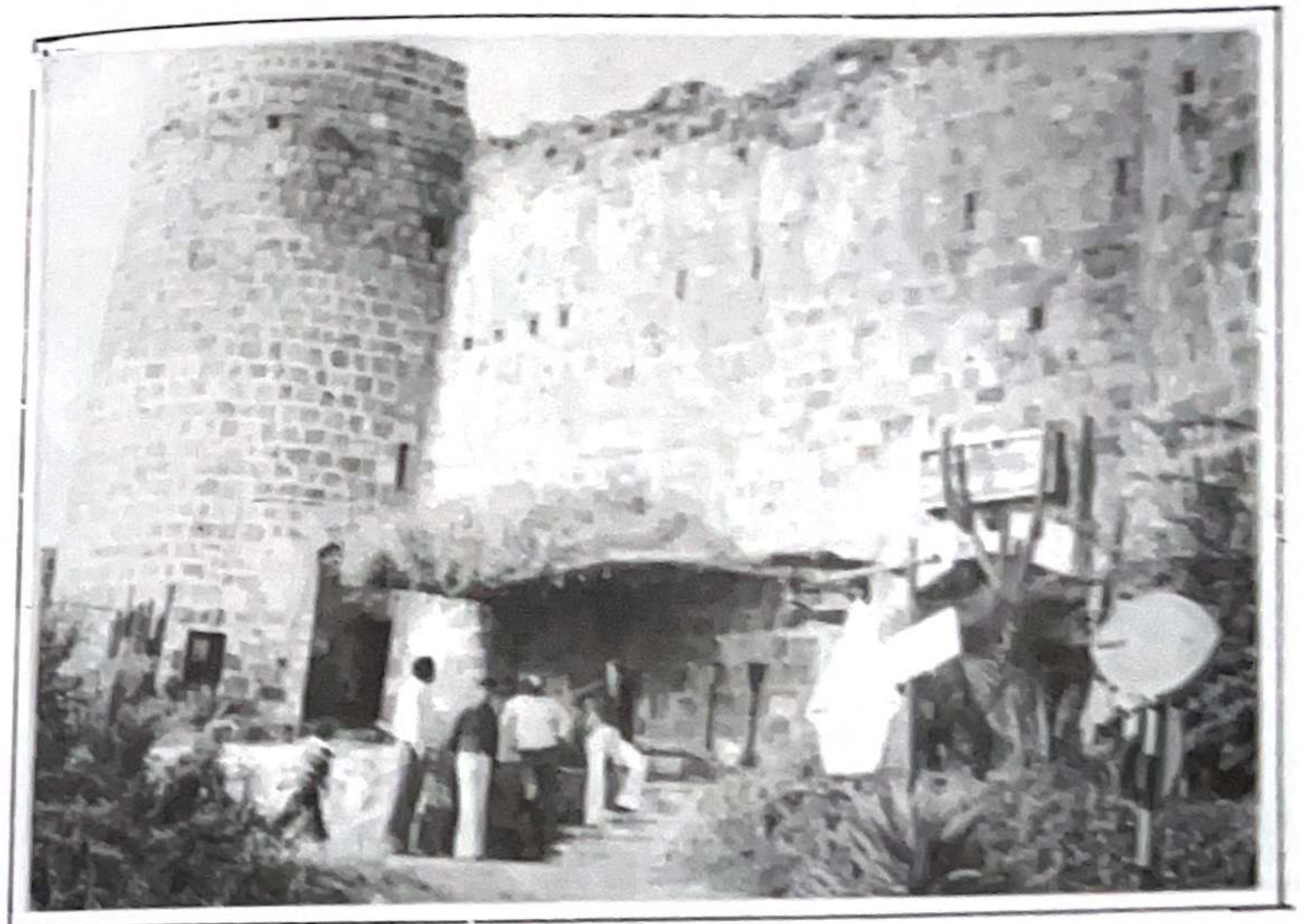
مقام ابو عتبة في قرية المنشية قرب البهجة حيث اغتيل ظاهر العمر قرب المقام
بناه علي صالح العمر عم ظاهر العمر سنة ١٧٢٧م



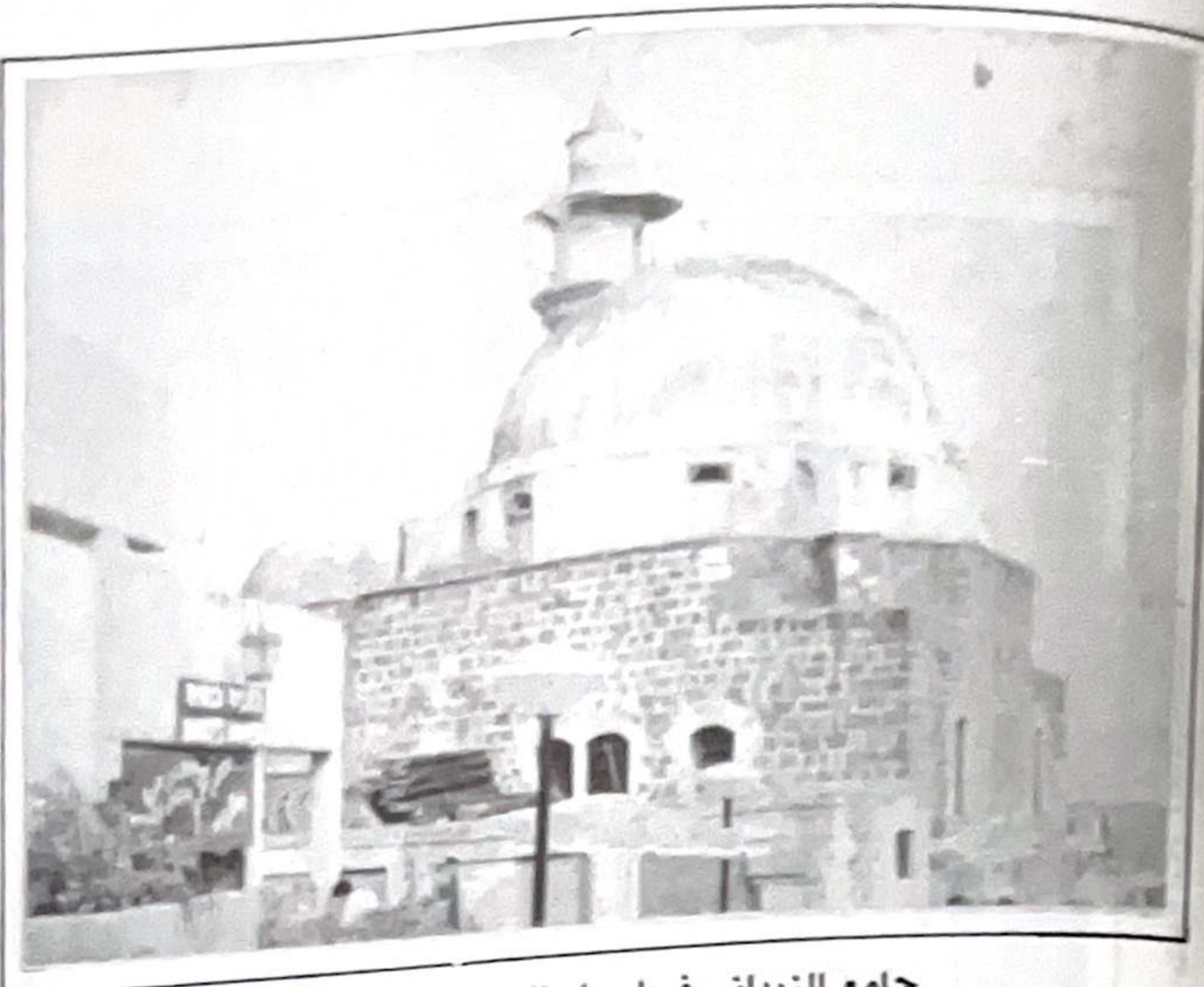
خان الشوارده في عكا بناه ظاهر العمر سنة ١٧٧٥م



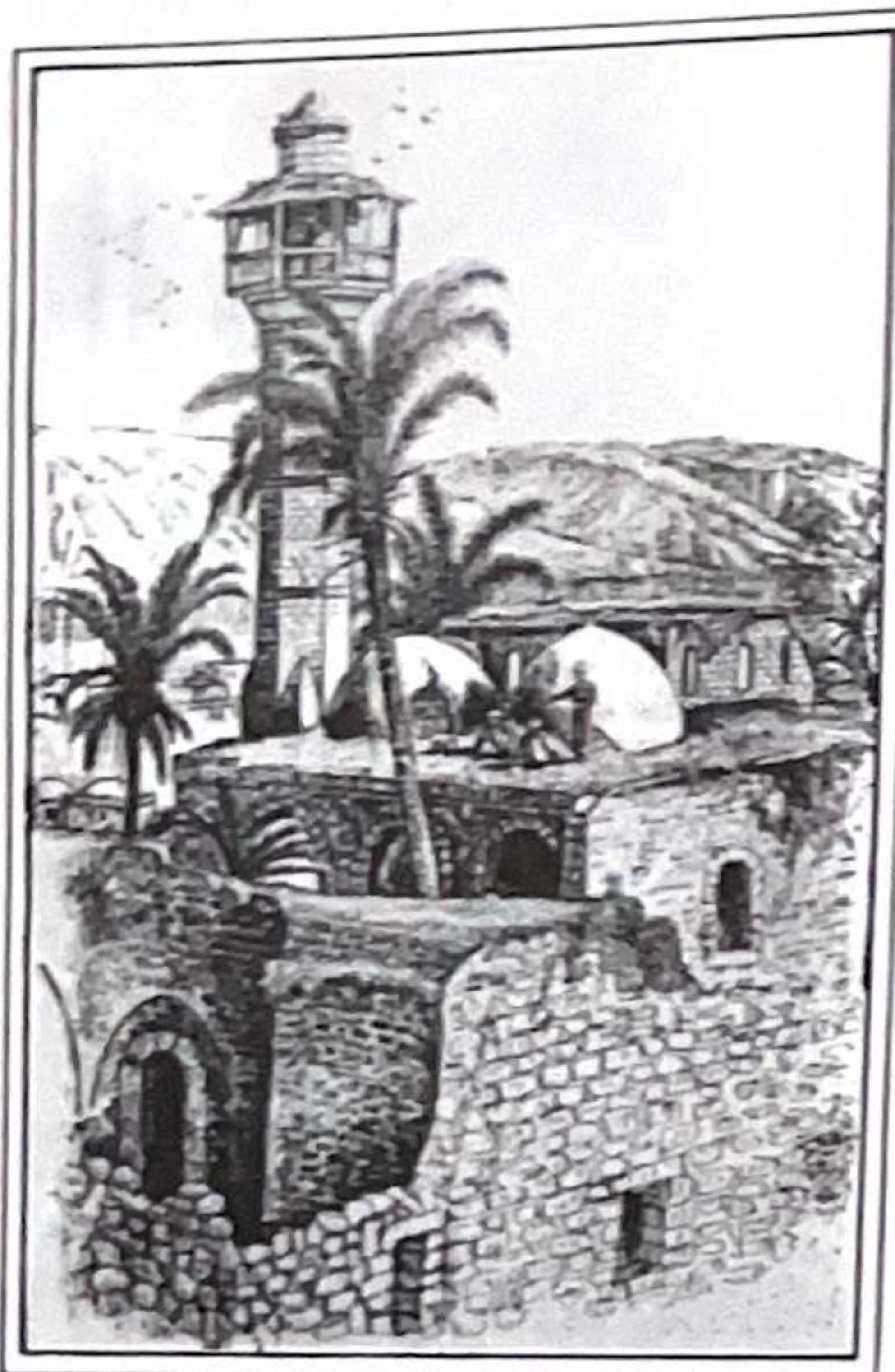
ناحية من سور عكا الداخلي بناه ظاهر العمر سنة ٤٩-١٧٥٠م
اسوار ظاهر الشمالية والشرقية التي تصدت لهجمات نابليون بونابارت على عكا سنة ١٧٩٩ وبعد رحيل نابليون عن عكا بنيت اسوار الجزار سنة ١٨٠١م



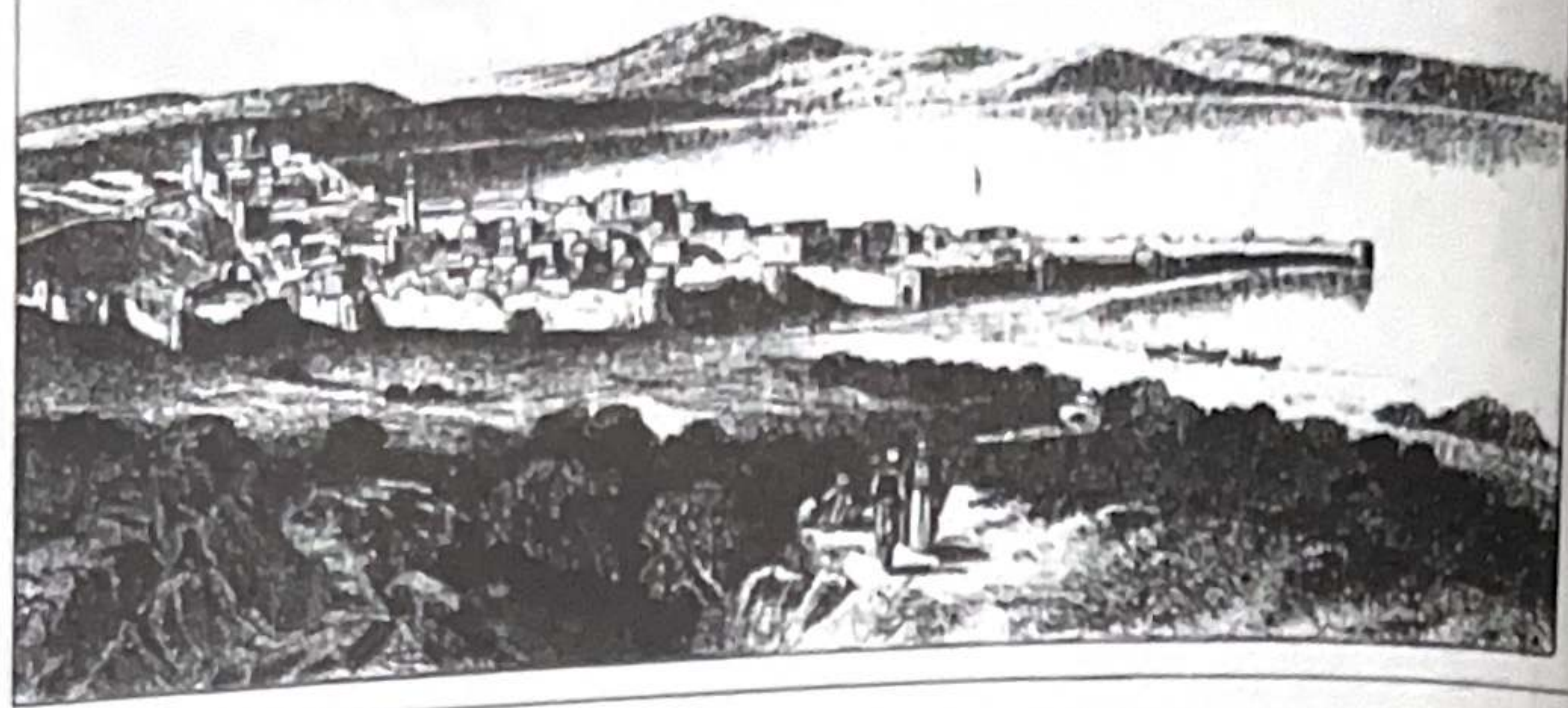
سرايا صليبي الظاهر في طبريا المعروفة بقصر الصقريه بناها سنة ١٧٤٥م



جامع الزيداني في طبريا بناه يوسف العمر سنة ١٧٤٣م

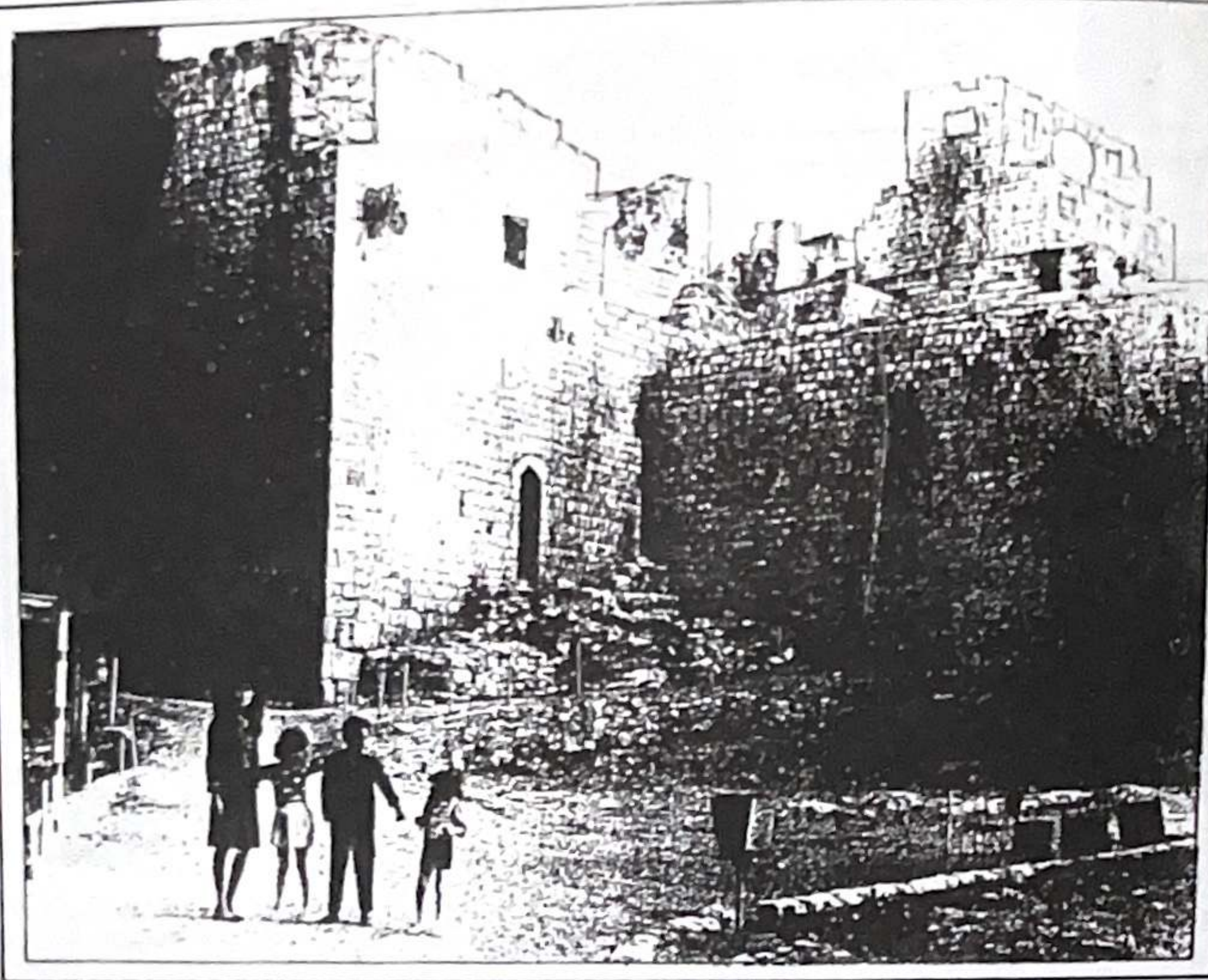


ألتصوير ألفوتوغرافي وجمع ألوحات ألتاريخيه
ورسم الخرائط
زياد أبو ألسعود ألظاهر
الناصرة ١٩٦٠

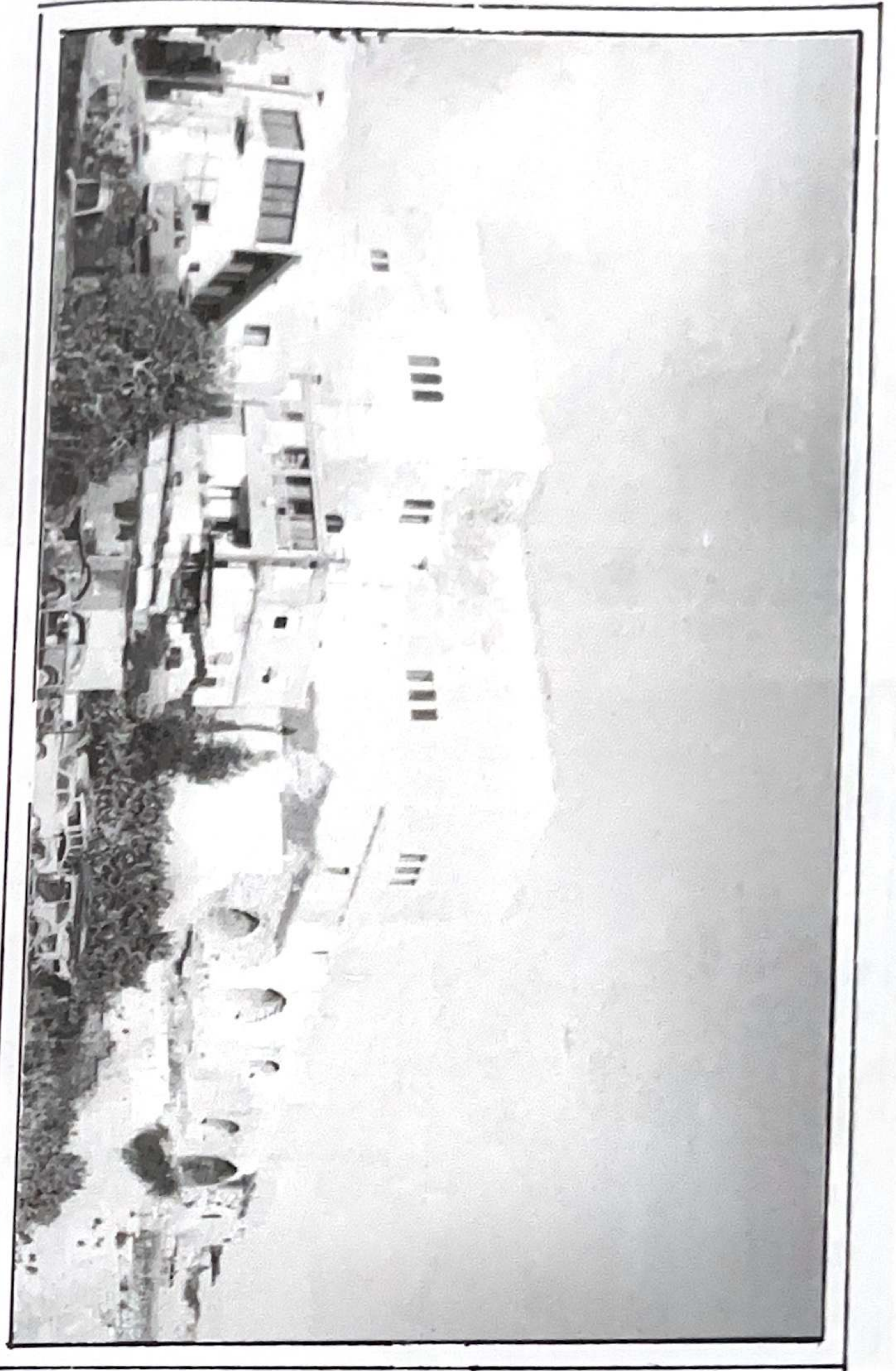


اسوار طبريا بناها ظاهر العمر سنة ١٧٣٧

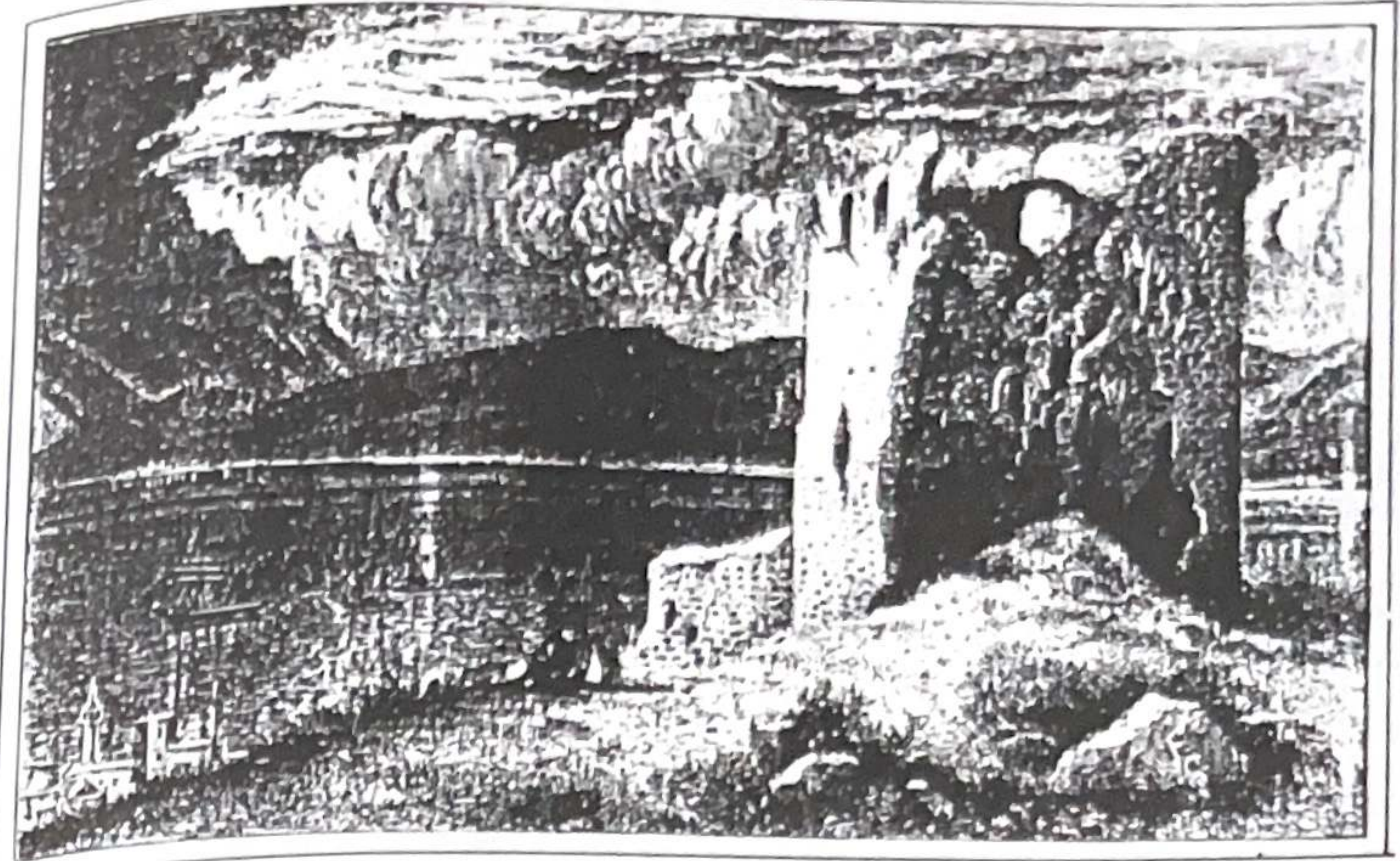
يظهر في الصوره جامع الزيداني وقصر الصغريه



قلعة جدين بناها ظاهر العمر سنة ١٧٣٨ على انقاض تحصينات صليبيه



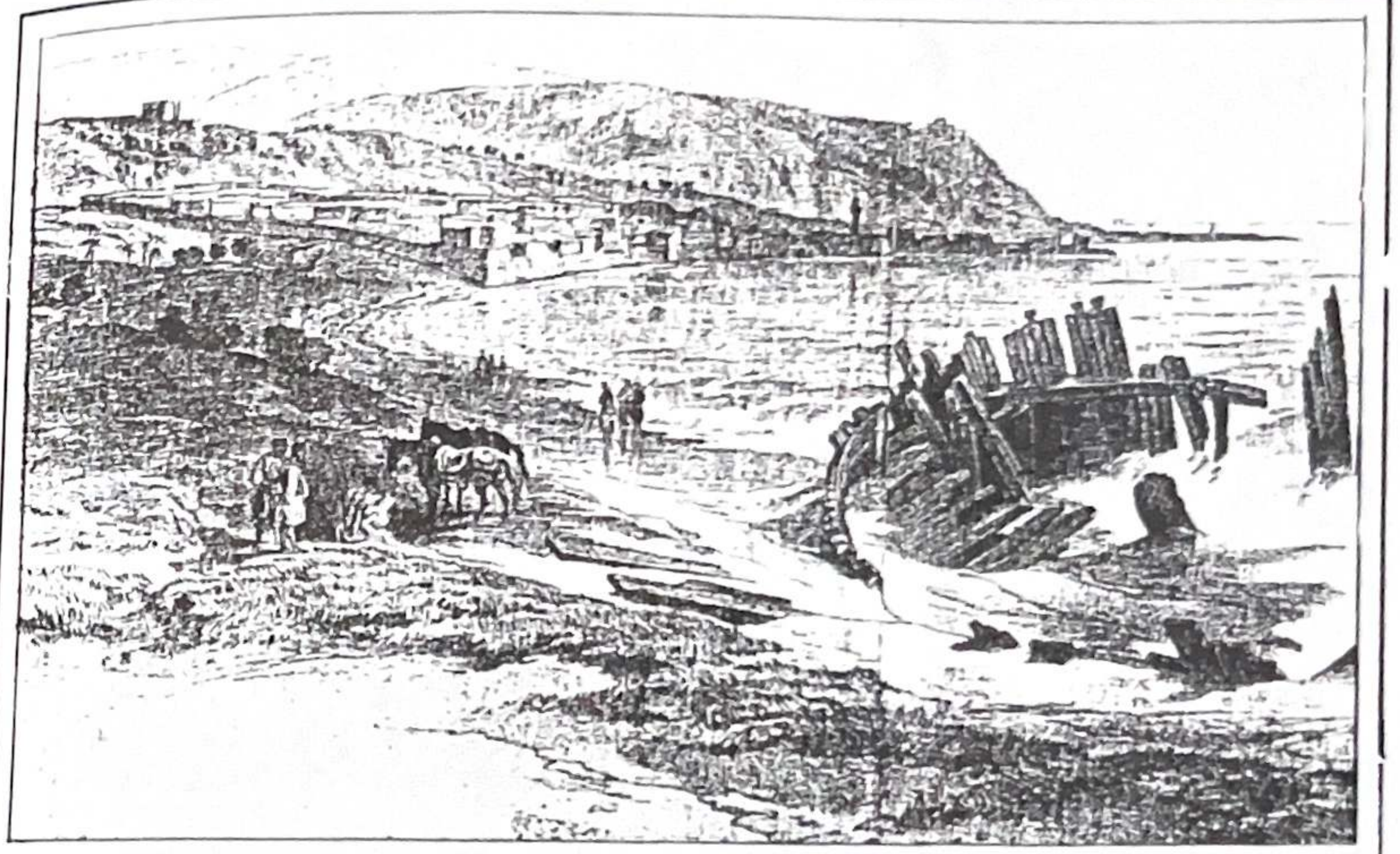
سرايا عثمان الظاهر في شفاعمرو بناها سنة ١٧٦٨م



برج ابو سلام في حيفا بناه ظاهر العمر سنة ١٧٦١

«مكان حديقة البلدية حالياً»

ويظهر في الصورة جامع النصر بناه ظاهر العمر سنة ١٧٧٥



حيفا الجديدة مع اسوارها بناها ظاهر العمر سنة ١٧٦١



مدينة طبريا – يظهر في يمين الصورة زاوية من الصقرية وجامع الزيداني
وفي يسار الصورة كنيسة مار بطرس الموجودة حالياً على البونت



بركة علي الظاهر على شاطىء بحيرة طبريا الشمالي (الطابغة)
و يظهر في الصورة امام مدخل البركة الرسام زياد الظاهر



هذا الكتاب ليس من الكتب

التي تُوضع على الرف ،

ففيه :

- مادة تاريخية جديدة .
- صفحات مجهولة من تاريخ العرب الحديث .
- تراجم لمشاهير رجال السياسة العرب في القرن الثامن عشر واتجاهاتهم السياسية .
- شرح مسهب لحملات سورية مصرية مشتركة في عهد علي بك الكبير لتحرير البلاد العربية من العثمانيين .
- شعر وأقاصيص ونوادر وعبر تميط اللثام عن أحداث القرن الثامن عشر الغامضة تزيد الكتاب لذة وطلاوة .
- بحث في الحزبيات والنعرات القبلية التي اجتاحت القرن الثامن عشر منذ مطلعه والتي كان لها أثر كبير في تكوين مجتمعنا الحاضر الذي نعيش فيه . اذا كنت أيها القارئ تريد أن تتفهم المشاكل والأزمات التي يتخبط بها العرب في زمننا الحاضر ، فعليك أن تقرأ هذا الكتاب ، انه يزيدك علماً وخبرةً .